THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



mustafa armağan مصطفى أرمغان

ويستمرّ الرقص مع الذئاب

السلطان عبد الحميد والرقص مع الذئاب

الجزء الثاني 2

ترجمة: مصطفى حمزة

السلطان عبد الحميد والرقص مع الذئاب

الجزء
2

تأليف
مصطفى أرمغان

ترجمة
مصطفى حمزة

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة







يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية ABDÜLHAMİD'İN
DANSI-2 KURTLARLA

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية
ضمن مشروع


TEDA by sponsered is Translation

Bakanligi Turizm ve Kultur .T.C
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
Sayıştay Eski) No:4 Bulvarı Cumhuriyet Mahallesi Paşa Fevzi
(Binası
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
www.tedaproject.com :Web - teda@kulturturizm.gov.tr :e-mail

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج » أضواء على
حقوق النشر « في أبو ظبي

Spotlight the by subsidy a with produced been has edition This
Dhabi Abu in programme Rights on

الطبعة الأولى: 143 4 هـ- 2013 م
0-0724-02-614-978 :ISBN

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران- بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م
THAQAFA Publishing & Distribution LLC.

أبوظبي هاتف: (+971-2) 6345404 فاكس: (+971-2) 6345407
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661
بيروت هاتف: (+961-1) 786233 فاكس: (+961-1) 786230

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

مصطفى أرمغان

مصطفى أرمغان باحث تاريخي وكاتب من أكثر الأقلام المقروءة في تركية. ولد في الجزيرة (24 شباط 1961). بعد تخرجه من كلية الآداب في جامعة إسطنبول عمل في مجال النشر. عمل مديراً للنشر في مجلة İzlenim (الانطباع) 1995-1996، ومجلة Avrasya Diyalog (الحوار الأوروبـي الآسيوي) 2000-2002. فجمع خلال عمله بين الكتابة والنشر. أشرف على إعداد: موسوعة معارف العلوم الاجتماعية (منشورات الرسالة، 4 مجلدات، إسطنبول 1988)، وموسوعة المعارف العثمانية (Ağaç للنشر، 7 مجلدات، إسطنبول 1993). ترجم أربعة كتب من الإنجليزية إلى التركية (منها: المجلد الأول للترجمة الإنجليزية لصحيح البخاري وقد ترجمه إلى الإنجليزية محمد أسد تحت عنوان (Early Years of Islam). القضايا التي يهتم بها: التقاليد، والحداثة، والمدن، والنظرة الأوروبية للإسلام، ونقد الاستشراق، والتاريخ العثماني، والأكاذيب السائدة في تاريخ تركية القريب، وأساطير التاريخ الأوروبـي. نال ثلاثَ مراتٍ جائزة (مؤلف العام) من اتحاد الكتاب الأتراك: نقطة التحول في الفكر الغربـي (في مجال الترجمة، 1989). أيتها المدينة (في مجال التجربة، 1997). العثمانية: الجزيرة الأخيرة للإنسانية (في مجال الفكر، 2003). لعب دوراً هاماً في نشر محبة السلطان عبد الحميد الثاني بين شريحةٍ واسعةٍ من الناس. تستمر حالياً أعمدته التي يكتبها في صحيفة (زمان)، كما يشارك في حلقات تاريخية إذاعية وتلفزيونية كثيرة.

من مؤلفاته:

الوجوه والأقنعة في التاريخ العثماني (2005)

بورصة: المدينة التي أسست العثمانية (2006)

سلطان الآفاق: السلطان محمد الفاتح (2006)

التاريخ القريب تحت الرماد (2006)

المدن ذات الوجه الإنساني (2006)

الثقوب السوداء للتاريخ القريب/التاريخ القريب تحت الرماد ج 2 (2006)

الحقائق والأساطير/التاريخ القريب تحت الرماد ج 3 (2007)

تحطيم جدار الخوف/التاريخ القريب تحت الرماد ج 4 (2009)

تصفية الحساب بين الباشوات/التاريخ القريب تحت الرماد ج 5 (2010)

المدينة التي بنت الإمبراطورية العثمانية: إسطنبول (2007)
مشروع العثمانية الكبير (2008)
خمسون كذبة أوروبية كبرى (2009)
حطم قيودك أيها العثماني (2010)
رؤيا الفاتح (2010)
عالم جميل مريح (2010)
مندريس والأذان التركي (2010
عودي أيتها العثمانية! (2010)
عهد الحزب الواحد (2010)

ظهر السلطان عبد الحميد الثاني في الأيام المضطربة للدولة، وتلقى تربيةً منضبطةً، وأراد تحديث البلد بشكلٍ هادئٍ بعيدٍ عن المخاطر؛ يملك ذكاء بسمارك وخطته، لكنه كان محروماً من مخالبه!، وليست المخالب سوى فريق الموظفين من المثقفين. عندما تولى السلطان عبد الحميد السلطة؛ كان خلاف " الآباء والأبناء " ناشباً، والخصومة بينهما مندلعة بسبب العمل المنظم المتواصل للغرب، وكان النظام القائم يؤججها. فلم يكن لدى المسنين قدرة كافيةً للمحافظة على الدولة، وكان الشباب حريصون لدفعها إلى الهاوية بسرعة وهي على جرفٍ رهيبٍ. في مثل هذا الوضع عمل السلطان عبد الحميد على المحافظة على الدولة باتباع البرنامج التالي: بينما يقود فريق المسنين إدارة الدولة؛ يجري كسب الوقت بمماطلة فريق الشباب، ويجري العمل على إيجاد المنقذ الأصلي من خلال تنشئة فريق عملٍ من جيلٍ جديدٍ.. نشأ بسمارك بشكلٍ رائعٍ على حب وطنه، وكان على رأس فريق عملٍ منسجمٍ من المثقفين، ولكن لم يكن بين يدي السلطان عبد الحميد مثل هذا الكادر الديناميكي والفتي، ومن هنا بدأت مأساته كلها. ولذلك وضع كل قدراته في مجال المعارف. أصلح نظامها، وفتح المزيد من المدارس، وأعاد بناء الجامعة من جديدٍ، وأقام مدارس المعلمين والمعلمات على أسس سليمةٍ ومتينةٍ، وهكذا وجد [محمد] عاكف نفسه في سن الطلب في هذا الوسط من المعارف...

كانت الدولة تعزز قوتها مع الزمن، وتضمد جراحها تحت إدارة السلطان عبد الحميد، وكان الأوروبيون يدركون أن هذه الدولة إذا ما اندلعت حربٌ عالميةٌ في المستقبل، وبقيت خارجها؛ فإنها ستحرر الدول الإسلامية المستعمرة في خلال زمنٍ لا يقل عن خمسين عاماً، وستخرج من الحرب بخسائر أقل بألف مرةٍ، وأن الدولة التركية بهذه المكسب ستفتح من التاريخ واحدةً من أعظم فتراتها قوةً. وكان السلطان عبد الحميد الثاني يعرف ذلك أيضاً، فيعمل على إنقاذ الدولة بسياسته من جهةٍ، وينحني للجيل الجديد المفعم بالأمل من جهةٍ أخرى. لقد نشأ هذا الجيل بشكل جيدٍ من العلم والفعالية في ظروف تلك الأيام، لكنه للأسف صادفت المدرسة الخارجية قابليةً في المدرسة الداخلية، وأدخلتها مبكراً في عالم السياسة. (...) فكانت تلك هي الكارثة الأساسية للدولة.

سزائي قرة قوچ

مقدمة المترجم

بقلم: مصطفى حمزة

التاريخ هو سيل الأحداث السياسية عندما ينقضي تأثيرها، فالحدث السياسي يبقى حدثاً سياسياً ما دام تأثيره قائماً، وبهذا المفهوم يمكن للتاريخ أن يعود سياسةً عندما يستعيد تأثيره وفعله في الأحداث، وتكون عودته بمقدار عودة تأثيره. والأمثلة على ذلك كثيرة:

فالعثمانية انتماء وهوية أصبحت تاريخاً على أيدي الاتحاديين والجمهورية التركية، وحل محلها الانتماء الوطني والقومي والهوية التركية، وشكَّل التنافس بين مفهوم الوطنية والقومية محور الصراع ردحاً من الزمن على امتداد الشظايا التي تناثرت من جراء سقوط دولتها بدءاً من أواسط أوروبة إلى أدغال إفريقية، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وبذلك حل مفهوم الوطنية والقومية في الفعل السياسي محل الأمة الإسلامية التي تمثلها العثمانية التي أصبحت تاريخاً، ولكن إلى حين!... وإذا كانت القومية قد استسلمت مبكراً، فإن الوطنية لا زالت تصارع على وهن.. لكنه مع ظهور المد القومي الكردي وحزب العمال الكردستاني، اختلطت الأوراق من جديد، وأصبح النسيج الوطني التركي مهدداً، ليظهر على الساحة من جديد مفهوم " العثمانية " الجامعة للشعوب المختلفة التي كانت تنضوي تحتها باسم الخلافة الإسلامية. وكذلك عادت العثمانية لتفرض نفسها كشعار سياسي يجر معه زخم الصعود التركي نحو دور جديد في الساحة الإقليمية والدولية. وليس عجباً أن نسمع رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان يعزف على وتر العثمانية أمام تحديات الداخل كبديل عن التركية أو الكردية، ويُتَّهم هو وحزبه " بالعثمانيين الجدد " في الأوساط السياسية المختلفة... وبذلك عادت العثمانية لتستعيد بعض دورها السياسي، وعاد معها مفهوم الخلافة بقوة أكبر، لأنها كانت الأصل والعثمانية تبع لها.

والخلافة الإسلامية التي كانت تقترن بالعثمانية أصبحت تاريخاً بزوالها عن الأحداث السياسية وعن الحياة مع زوال عصر الإمبراطوريات. لكنها وقبل أن ينقضي قرن على خروجها من الحياة؛ عادت كمفهوم ومشروع سياسي يستعيد فعلها السياسي في الحياة على شكل تيارات وأحزاب تعمل من أجل إقامتها وإعادتها للحياة، وأصبحت في جدول أعمال مراكز الأبحاث الفكرية والسياسية العالمية، ومادة إعلامية تواكب أحداث الربيع العربـي.

والسلطان عبد الحميد ربما كان برمزيته لا يزال حدثاً سياسياً، تكشف

عنه محاولات خصومه المستمرة لطمس معالم شخصيته بعد مئة عام... إنه رمز " الانتماء الصحيح للإسلام " كما تقول ابنته عائشة، ورمز الحضارة الإسلامية في صراعها الأخير قبل انهيار دولتها مع الحضارة الديموقراطية الغربية على اختلاف أسمائها وألقابها.. وهو مفتاح الانتماء كما قال الشاعر نجيب فاضل: قل لي من عبد الحميد أقل لك من أنت!. لا يزال حدثاً سياسياً لأن عقارب الأحداث اليوم تدور في الاتجاه المعاكس للتحول الحضاري الذي كان يجري في عهده، ولا يزال واحداً من ألغاز الصراع الدائر منذ ذلك العهد..

لن أتكلم عن الكتاب كعادتي حتى لا أفسد على القارئ المتعة التي شعرت بها خلال ترجمتي للكتاب، فهو مليء بتفاصيل تفوق الخيال، والمؤلف كما كان في الجزء الأول لا يمل يجمع قطع البلور التي كانت تشكل شخصية السلطان عبد الحميد، ويعيد بناءها من جديد، بأقل قدر ممكن من التحليل والتأويل والافتراض، بعيداً عن النظرة الأيديولوجية المتحيزة التي أفسدت تاريخنا القريب أكثر من مئة عام. كل ما أريد قوله هنا هو أنه ينبغي أن نقرأ الكتاب كمشهد سياسي يربط بين عصرين، الأول عصر كانت الكفة فيه تميل لصالح الحضارة الغربية وتنحدر فيه الحضارة الإسلامية، والثاني عصر تستعيد فيه الحضارة الإسلامية دورها ونشاطها وتتجه نحو الصعود، والصراع استمر بين العصرين ولم يتوقف أبداً، وبقي السلطان عبد الحميد [الرمز والفكرة] واقفاً على قدميه يوجه الصراع السياسي برمزيته وانتمائه وببصماته التي لا تمحى، ويلقي بظلاله على هذا الصراع، ويشكل مفتاحاً لفهم تاريخ الصراع الحضاري في الماضي والحاضر.

الجمعة 02 جمادى الثانية، 1434 الموافق 12 نيسان، 2013

تقديم المؤلف

أحياناً لا يسعني إلا الشعور بالأسى عندما أرى للأجانب ميلاً أفضل مما لنا إلى معرفة تاريخنا. فقد سيطرت على ميشيل دو غريس اليوناني رغبةٌ عارمةٌ لكتابة رواية عن عبد الحميد، وأثارت حكايات هذا الرجل "الوحش" و"السلطان الأحمر" و"العبدل الملعون (*Damned Abdul*)" التي تربى عليها؛ لاقتحام عالمه!. ولهذا السبب كان عليه أن يقرأ من جانب، ويسافر ويشاهد الأماكن التي عاش فيها هذا الوحش من جهة أخرى. وكان من الطبيعي أن يأتي إلى إسطنبول، ويزور قصر يلدز، أهذا هو المكان؟!... وتفتنه صورة السراي التي رسمها في مخيلته عن قصر يلدز!. أهذا هو السراي الذي تحدثوا عنه؟! أهذه هي الأماكن المخيفة التي عاش فيها هذا الوحش الذي يتحدثون عنه؟!.

"عند الزيارة الأولى لقصر يلدز؛ أدركت بأن كل ما قيل عن عبد الحميد كان كذباً وافتراءً، فلا الوحش يبني قصراً كهذا، ولا يقيم في مثل هذا المكان أبداً. إنهم يسمونه قصراً، ولكن تعالوا وانظروا، فسترون بأنه ليس سوى فيلات ضواحٍ نائيةٍ صغيرةٍ منتشرةٍ داخل منتزهٍ رائعٍ. فقد كان عبد الحميد لا يبالي بالبيوت، ويميل إلى الطيور والأزهار" [1] .

هكذا أراد ميشيل دو غريس أن يكتب روايةً عن "الوحش"، فوجد نفسه يكتشف بطل مأساةٍ. وقف أمام هذا الرجل الوحيد الذي شرَّعَ صدره في جرأةٍ لأمواج الإمبريالية العاتية، ولو كان ذلك في يأسٍ، ونجح في التصدي لها في نضالٍ قادرٍ على إنهاك أي شخص آخر بسهولة، نضالٍ امتد ثلاثين عاماً من أجل وطنه، ونسج من حياة هذا الرجل الوحيد روايةً بالفرنسية باسم "السلطان الأخير" (*Le dernier Sultan*). فيقول: "بعد الأبحاث [الطويلة] رأيت الحقيقة المختفية خلف صورة عبد الحميد المشوهة والمزورة لأهداف دعائية".

نعم يستطيع ميشيل دو غريس أن يرى الحقيقة بالرغم من أنه أميرٌ يونانيٌّ من عائلةٍ ملكيةٍ، لكنَّه لا يزال عندنا غافلون لا يريدون أن يستيقظوا. فيا له من حقدٍ لا ينتهي! ويا له من انتقامٍ لا يعرف النهاية!

وهكذا تم إصدار عددٍ خاصٍّ للصحيفة الرسمية "التسوية" عام 2008، وتم تخصيصها للذكرى المئوية للمشروطية، وهو عام التخلص من تحريات عبد الحميد أيضاً، وكانوا يحتفلون بهذه المناسبة.

فهل بعد 100 عامٍ عيدٌ؟!، وعيدٌ للتحرر من عبد الحميد؟!. ومن

المثير أيضاً إنشاء مجلسٍ ماسونيٍّ حرٍّ ومقبولٍ في العام نفسه الذي تم فيه إسقاط عبد الحميد عن العرش، ومن هنا أتت كتابة "100 عامٍ" في شعاراتهم!، وهكذا بتنا نفهم قليلاً من أجل من كانت حقبةً داكنةً مظلمةً؛ حقبةَ الثلاثين عاماً من حكم السلطان الأخير، أليس كذلك؟!

فمن هو عبد الحميد؟!

ولد عام 1842، وحكم من عام 1876 إلى عام 1909، وبعد إسقاطه عن العرش عاش عشرة أعوامٍ تقريباً من حياة أشبه بالسجن، ووافته المنية في (10 شباط 1919) فقط قبل بضعة أشهرٍ من التوقيع على هدنة موندروس (متاركة موندروس)، أي قبل استسلام وطنٍ ناضل للمحافظة عليه من دون احتلالٍ أو انقسامٍ.

هذا هو عبد الحميد الفاني، وذاك عبد الحميد الميت!

ولكن إذا مات قبل قرنٍ فلماذا هذا العداء كما هو واضح في النموذج الماسوني؟!، ولماذا يحاسبون المسلمين في غوانتنامو نيابة عن عبد الحميد؟!. لماذا يلعن أصحاب الجمعيات عبد الحميد بشكلٍ دائمٍ ويعتبرونه رأس الشرور؟! لماذا لا ينتهي ذلك الحساب؟!

عندما نسأل هذه الأسئلة نرسو في مكانٍ مختلفٍ، نرسو فكرياً عند عبد الحميد!

فماذا يعني عبد الحميد؟!

وإذا كان سؤال "من يكون عبد الحميد؟" قد نال بعض الجواب؛ فإن سؤال "ماذا يعني عبد الحميد؟!" لا يزال ينتظر جواباً في نظري!

بحثي، في الأصل، يقوم على أن عبد الحميد يشكل فكرةً ، ويمثل المسؤول الأخير الكبير الذي يجسد عزيمة هذه الأمة (وليس العرق، بل الأمة بمعناها الأوسع) في الحياة، ونيته في الجهاد، وإرادته في الوجود.

إنه يعبر عن عزيمة العيش بشرفٍ في هذه الدنيا!

إنه الصراع من دون المساس بوقاره في زمن ألقت فيه أنواع الإمبريالية كلها بكل أثقالها عليه؛ هو الشيء الذي جعل من عبد الحميد فكرة!

وهو الفاعل العالمي الذي يطور ويطبق الخطط والمشاريع المضادة حتى لو كانت روتينية؛ لإفشال الألعاب والأفخاخ في عصر وحشيٍّ يضع فيه الجميع خططهم ومشاريعهم المتتالية، ويطبقها بالقوة!

يقول الفيلسوف المشهور تالس: "لو كانت آذاننا تسمع بشكلٍ كافٍ لكان موسيقا دوران الكواكب في السماء ملهماً!".

وما من شكٍّ بأنه ليس في وسعكم التحكم بدرجات سمعكم، لكنكم تستطيعون التعمق في المعرفة، ويمكنكم تحديد نظركم في أحسن الأحوال!

ونحن نقول: إن نظرنا حادٌّ كفايةً، ولو كان أفقنا واسعاً كفايةً لفهمنا تاريخنا بشكلٍ مختلفٍ جداً.

لاحظوا أنه كلما اكتُشِفَتْ تركية تبدأ جذور التاريخ بالظهور!. في فترة الحزب الديمقراطي اكتشفنا السلطان محمد الفاتح من جديدٍ بجهود عدنان مندريس. وبجهود جلال بايار اكتشفنا مالازغرت، وفي فترة طورغوت أوزال اكتشفنا العثمانية الجديدة!

وتجري الآن محاولات في تركية للتطور، والانفتاح، وإزالة كل الغيوم المخيمة على آفاقها منذ فترةٍ، واحدةً تلو أخرى. وفي هذه المرحلة نرى من التاريخ ملامح وجهه متكاملة من كل الزوايا في "شاشةٍ ممتلئةٍ"، بعد عبورنا زمناً لم نكن نرى من وجهه سوى زوايا ضيقةً.

والدور الذي نفصله لأنفسنا يحدد آفاقنا بإطاره.

ولسنا وحدنا من نتطلع إلى الآفاق...

بل الآفاق ترقبنا أيضاً، لنفتح لها آفاقا أعمق...

في فترةٍ ما كتب التاريخ المناسب لدور مفصلٍ لتركية... وقرأناه باستمرارٍ.. وتقدمنا من خلال ذلك التاريخ بشكلٍ ما، شئنا أم أبينا، نتعثر حيناً وننهض حيناً، حتى الوقت الحاضر...

ونعيش الآن فصلاً من الزمن الصعب نضطر فيه إلى تغيير ذلك الدور وتغيير ذلك التاريخ المفصل حسب ذلك الدور...

فلئن كان عبد الحميد يبدو اليوم أقرب إلينا، نسبياً، من أولئك الذين عاشوا قبل مئة عامٍ؛ فاعلموا أن السبب يكمن هنا في هذا الأمر في الدور الذي نرسمه لأنفسنا، والتاريخ الذي نفصله على مقاس هذا الدور.

ونحن!.. نمرُّ في فترةٍ من حملات التاريخ تقتحم علينا حياتنا، وذكرى السلطان عبد الحميد، وتذكير الناس به، وعرضه كفكرة؛ يكتسب أهميته في هذا الفصل الذي نعيشه من الحياة...

ونعود إلى دفاترنا الأصلية نفتحها...

وتبدأ اللعبة من جديد...

وتعاد كتابة التاريخ من جديدٍ...

مقدمة

في شباط 1924، نحن في إزمير، في اجتماعٍ حضره كبار ضباط حرب الاستقلال، بينهم فوزي چاقماق وجواد چوبانلي باشا وعلي فؤاد جبه صوي وكاظم قرة بكر، حيث تم اختيار مصطفى كمال باشا رئيساً للجمهورية، ونحن على وشك اتخاذ قراراتٍ بالغة الحساسية بما فيها إلغاء الخلافة!. في سلسلة هذه الاجتماعات التي تذكرها كتب التاريخ عندنا بأنها "ألعاب الحرب"؛ يقع حدثٌ مثيرٌ.

فقد روى فؤاد جبه صوي أن كاظم قرة بكر ادعى بأنه يستطيع استحضار الأرواح، ولم يصدقه الباشاوات الآخرون، وطلبوا منه إثبات ما يدعيه!. فما كان من قره بكر إلا أن طلب طاولةً مصنوعةً بالغراء بلا مسامير. وأحضرت الطاولة، واستحضر الروح، وتقولون لمن هذه الروح أليس كذلك؟!.. إنها روح عبد الحميد!... بدأت الطاولة تهتز، في دلالة على قدوم روح عبد الحميد!... وساد الجو وضعٌ جديٌّ.. وبدأوا يسألون الروح أسئلةً متعددةً، كما لو أن عليه أن يعاني أشد العذاب على ما فعل في هذه الدنيا!.. ثم يسألونه: كم ليرةً في جزدان فوزي چاقماق؟!.. إنه شيءٌ مذهلٌ: خمساً وثلاثين ليرةً، بالضبط كما هو في جزدان فوزي باشا [2] .

وسبب سردي لهذه الحادثة، هو أنه في جلسة استحضار الروح عندما يقول الضباط الذين انتصروا في حرب الاستقلال، وأسسوا الجمهورية الجديدة: "روح من نستدعي؟!"؛ فإن الاسم الأول المتبادر إلى أذهانهم كان عبد الحميد الثاني، الذي كان يطل فوق رؤوسهم كحاكمٍ مديرٍ في مراحل الطفولة والشباب. وهذا يعني أن روح عبد الحميد كانت أول من تبادرت في اللاشعور من عقول الكادر الذي قاد حرب الاستقلال وبنى الجمهورية. (وبإصرارٍ أقولها هنا حرب "استقلال" وليس "حرب تحرير" لأننا لم نكن أسرى، بل فقدنا استقلاليتنا، واسترجعناها في النهاية!)، ومن الصعب طرد هذه الروح العنيدة من اللاشعور المختبئ وراء العقول، ولا يزال لغزاً يثير الفضول.

تظهر روح عبد الحميد أمامنا من جديدٍ في روايةٍ غريبةٍ!، يرى فيها طورغوت (وهو بطل رواية أوغوز أطاي "الخاسرون") عبد الحميد في منامه، يخاف قليلاً، ثم يحاول بعث الشجاعة في نفسه، ويتجرأ، فيقول: "أنا ابن الجمهورية، لن أخاف من عبد الحميد". لقد كان لهذا الكائن المثير للرعب عبد الحميد "سلطةً رهيبةً"!، فطورغوت يحاول الدفاع عن الجمهورية من

جهةٍ، ويخاف عبد الحميد ويخشاه من جهةٍ أخرى!. وينادي عبد الحميد طورغوت مشيراً برأسه يدعوه للجلوس على كرسيٍّ بجانبه، وللوهلة الأولى أسقط في يدي طورغوت، واعتراه الشك في ثورات الجمهورية عندما رأى عبد الحميد حياً يرزق أمام عينيه، وسأله قائلاً: "أتقولون: إن كل ما قمنا به من ثوراتٍ ليس له معنى؟!". ويجيبه عبد الحميد بكل اطمئنانٍ، وهو يدفع رأسه إلى الوراء قليلاً: "في رأيي لا، وقد رأيت مسبقاً كل ما سيحدث"، ويضيف: "كنت أعلم أنكم لن تتمكنوا مني!".

في تتمة الحلم عندما كان طورغوت على وشك الاقتراب من عبد الحميد، ومد يده إليه، عندها حل الظلام، ووجد مصطفى كمال يقف مكان عبد الحميد!. يا للغرابة؟! لقد أصبح سميناً وصوته متعباً.. الخ، وهو يقول: إنه أسس الجمهورية، ولكنه لم يتمكن من الحيلولة دون عودة عبد الحميد!. إنه يقف عاجزاً، ويقوم بحركاتٍ كأنه يقول: "وهل في اليد حيلة؟!". ويستيقظ طورغوت وهو يتقدم منه، وقد غرق في العرق المتفجر من جسمه كله [3] .

ربما كان أمراً طبيعياً أن تبتسموا، وتقولوا: إنها مجرد روايةٍ، لكنه ينبغي أن لا ننسى دور بعض الفنانين وقدرتهم في حل ألغاز اللاوعي المجتمعي. وأوغوز أتاي أيضاً في الرؤيا التي رآها أبطال روايته؛ تمكن بمهارةٍ أن يلتقط روح عبد الحميد (أم كان علي أن أقول: ظله وخياله؟!) التي لم يغب أبداً عن محيطنا!

وهكذا يظهر في المقطعين أن روح عبد الحميد كانت لا تزال حية في عالم الفريق المؤسس للجمهورية، وفي عالم مثقفٍ شريفٍ في الستينيات!. إنه رجل يخشى منه، ويستحضر في آنٍ واحدٍ. رجلٌ مثيرٌ للفضول، لكنه يخشى منه. من يريد أن يمد له يده؛ فالظلام ينتظره!. ويقول: "لا يمكنكم التغلب علي"، فيلمِّحُ بأنه يمكنه أن يأتي من جديدٍ في أية لحظةٍ. ومن المثير أيضاً أنه بينما يُنْتَظَرُ منه الاعتراف بالندم من جهةٍ، فإن الجيل الذي أتى بعده لا يملك الشجاعة الكافية للدخول في محاسبةٍ جديةٍ له على الرغم من تجوله الدائم في محيطهم!

عبد الحميد في مرآة التاريخ!

بين يدي كتاب مدرسي يعود تاريخه إلى 1924م (1340هـ)، يحمل اسم (التاريخ الوطني). هذا الكتاب: "تمت كتابته وفقاً للبرامج الأخيرة ليُدرّس في المدارس الأولية بعد الموافقة عليه من وكالة معارف الجمهورية التركية". ويظهر في أسفل الصفحة أنه مخصصٌ لمنهاج الصف الثالث،

والكاتب هو مؤرخنا المشهور البروفيسور فؤاد كوبرولو prülü ö K الذي تولى في ما بعد منصب وزير الخارجية في حكومة مندريس.

فهل تعرفون كيف يبدأ هذا الكتاب الذي يدرس لتلامذة الصف الثالث الابتدائي الذين في التاسعة أو العاشرة من أعمارهم؟!

يبدأ من صفحته الأولى بالإساءة للماضي. وفي الصفحة الخلفية يكتب: "آهٍ لو تعلمون كم كانت مظلمةً تلك الأيام، كان الشعب التركي فيها يبكي دماءً!"، ويسوِّد حقبة عبد الحميد! فالتاريخ بالنسبة لكوبرولو يجب أن يدرس لأخذ العبر، ومعرفة كيفية التخلص من تلك الأيام المظلمة. في الصفحة السادسة صورةٌ خياليةٌ مثيرةٌ: ففي الطرف الشمالي يقف عبد الحميد واضعاً يديه وراء ظهره، وقد انحنى أمام قدميه شخصٌ، ويستعد آخرون للانحناء، وقد وقفوا حوله على هيئة مخلبٍ، وقد كتب في أسفلها: "تمثالٌ مُقْرِفٌ لعصر الاستبداد: رجال عصر الاستبداد لا يخجلون من عبادة عبد الحميد الظالم"!

ويتواصل القصف على العقول الفتية، ففي العام الأول من تأسيس الجمهورية هكذا يبدأ تدريس مادة التاريخ لأطفال لا تتجاوز أعمارهم عشرة أعوام، لكن هذا القصف لا ينتهي، ومن المفيد إعطاء أمثلةٍ أخرى!

تحت الصورة السابقة كتبت هذه العبارات التالية:

قبل 16 - 17 عاماً كان هناك ملكٌ ظالمٌ وجاهلٌ يدعى عبد الحميد، الذي ما زال بلاء استبداده مخيِّماً على بلدنا، كان عبد الحميد يسعى ليصبح ملايين الناس أسرى له على الدوام، وهو يعيش مُرَفَّهاً في يلدز سراي، لذلك كان عبد الحميد يغلق المدارس، ويمنع الكتب والجرائد، لأنه ما لم يكن الجهل في بلدٍ؛ لا يمكن أن يكون هناك استبدادٌ وظلمٌ.

وكانت إدارة عبد الحميد المستبدة الرهيبة الظالمة تدفع بالبلاد نحو حافة الدمار والخراب والتخدير والانقراض [4] .

تخيلوا أطفالاً صغاراً تتراوح أعمارهم بين تسع سنوات وعشر سنوات، يتم تلقينهم عداء عبد الحميد وكراهيته بعد تعليمهم الحروف الهجائية تقريباً، ويتم إشباع العقول الفتية بهذه الفلسفة التي تجعل من كراهية عبد الحميد تقارب في الأهمية تعليم الحروف الهجائية؛ أساساً، متى؟!.. في وقتٍ مبكرٍ يعود إلى العام 1924.

عندما نتذكر هذه النظرة التي يحملها رواد الاتحاد والترقي خلال فترة حكمهم؛ ندرك سبب امتداد هذه العداوة للسلطان عبد الحميد والتي امتدت حتى الأربعينيات، بل إلى يومنا هذا ولو ضعفت مع الأيام. ولذلك

أقول: إن فترة حكم عبد الحميد؛ مغطاةٌ بطبقةٍ سميكةٍ من الضباب!

وما جرى عندنا في كتابة تاريخنا؛ حصل أيضاً في كتابة تاريخ العرب والبلقان. إلا أنه طرأ تغيير جذري في النظرة العدائية لعبد الحميد والدولة العثمانية التي طالما قدمتها كتب التاريخ التي أعدها الإمبرياليون وبعض مؤرخي العرب للتدريس في صفوف المدارس، فمشاريع الإمبرياليين في المنطقة وخططهم الاستعمارية المنظمة ومجازر إسرائيل في حق مسلمي فلسطين ولبنان؛ فتحت الطريق لاكتشاف الجهود الجبارة لعبد الحميد في سبيل الحفاظ على المنطقة وحمايتها من الضباع التي كانت تجول حولها، وتحويل النظرة السلبية إلى نظرة إيجابية [5] .

لقد جرى تمايز ملحوظ على صورة عبد الحميد في تركيا منذ الأربعينات وحتى الآن، فمع ظهور الأبحاث الجديدة المستندة إلى الوثائق؛ بدأ يظهر بشكل أفضل الظلم المرتكب بحقه. وأصبح من المؤكد أنه لولا البناء والتعمير في عهد عبد الحميد لكانت تركية لا تختلف عن بلدة صغيرة نائية، فضلا عن أوهام الخراب الذي تركه في البلاد. فلو لم يتم بناء تلك السكك الحديدية والطرق السريعة؛ لبقيت المدن المركزية كحلب، وإسطنبول، وقونية، وبورصة، وأنقرة، وإزمير؛.. وحداتٍ منفصلةً عن بعضها، وما كان بالإمكان نقل المحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى، ولاستغرق تشكيل الاقتصاد السياسي الحديث وقتاً أطول. وكان واضحاً أيضاً أنه لم يكن بالإمكان وجود هذا الجيش المدرب والمجهز للحرب العالمية الأولى، ولا القادة المدربون تدريباً جيداً، ولا القدرة على التحكم في الوحدات على الجبهات، ولا تنقُّلها من جبهةٍ إلى أخرى كنتيجة لبناء السكك الحديدية. والأهم من كل شيء، إذا كان النضال الوطني قد اتخذ أنقرة مقراً له في حرب الاستقلال، واستطاع تحقيق النصر في الجبهة الغربية؛ فالفضل في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى السكك الحديدية التي تربط أنقرة بإزميت وبيلاجيك وإسطنبول من طرفٍ وقونية وأسكي شهر وأفيون ومانيسة وإزمير وأضنة الخ.. من جهة أخرى.

كل هذا أصبح واضحاً، والآراء تتغير تدريجياً، ولكن يبدو أن تطهير التربة من بعض البذور بالكامل ربما يستغرق بعض الوقت!

العصر الذهبي للتعليم

يشبِّه شريف ماردين عهد عبد الحميد بكرة خيوطٍ معقدةٍ، ويقول: إننا لم نقترب بعد من بداية فك خيوطها المتشابكة [6] . لهذا السبب لا يمكننا تقييم حقبة الثلاثين عاماً بالنظر إليها بعدسات العشرينيات من القرن

الماضي، وربما يمكننا القول بأننا أمسكنا مؤخراً برأس الخيط وبدأنا نفك خيوط الكرة، فلم يعد بالإمكان الدفاع عن الاتهامات التي تقول: "إن عبد الحميد ترك شعبه غارقاً في جهالته ليتمكن من استعباده، ويعيش مرفها في ملذاته". وفي الواقع لم يكن بين باشاوات التنظيمات منذ محمود الثاني (ومحمود الثاني ضمناً) اسمٌ آخر اهتم بالتربية والتعليم يمكن أن يرقى إلى عبد الحميد. ويمكننا أن نمدد هذا التحدي إلى يومنا هذا، أي أن عبد الحميد هو السلطان الأوحد الذي فتح باب الإنفاق على البنية التحتية للتعليم لدى الحكام منذ مئتي عامٍ الأخيرة من تاريخ التحديث، ويمكن القول بأن فترة حكمه كانت "العصر الذهب ـ ي" للتعليم في تاريخنا!. وربما نستطيع أن نعممه على التاريخ العثماني كله إذا استثنينا زمن القانوني والفاتح على سبيل المثال!

حسناً، على أي شيءٍ أستند عندما أقدم هذه الأطروحة والدعوى؟!.. بالتأكيد لن أستند إلى كتابات أولئك الذين أجبروا على التصرف المنحاز في كتاباتهم كفائق رشيد أونات (Unat)، بل أستند على أبحاث الخبراء [الموضوعية].

وفي هذا المجال يأتي أبحاث جيل الباحثين الحذرين التي تستحق التسجيل بدءاً من بيرم كودامان (Kodaman) وبنيامين س. فورتنة (Fortna) وحتى محمد أ. ألقان، والتي زودتنا بمعلوماتٍ ووجهات نظرٍ جديدةً في ما يتعلق بالتعليم في حقبة عبد الحميد. يهمني من هذه الأبحاث على وجه الخصوص ذلك الجهد الكبير الذي بذله محمد ألقان في جمع البيانات العددية والأرقام الملموسة، والمعطيات الإحصائية.

يذكر ألقان أنه في السنة الخامسة عشر من حقبة عبد الحميد أنشئت 160 رُشْدِيَّةً (مدرسةً متوسطةً) و55 مدرسةً إعداديةً (مدرسة ثانوية) و14 مدرسةً دار المعلمين ابتدائية (لتخريج معلمي المدارس الابتدائية) و19 مدرسةً إسلاميةً متخصّصة، و9649 مدرسةً ابتدائيةً حديثةً (مرحلة الابتدائية). علاوةً على ذلك فقد تم تحويل 5138 مدرسةً للبنين والتي كانت تعتمد الطراز التقليدي أو القديم في التعليم؛ إلى مدرسةٍ ابتدائيةٍ. وهذا التحول والزيادة في عدد المدارس الابتدائية والإعدادية على وجه الخصوص؛ كان مدهشاً!

وبالإطلاع على أعداد التلاميذ يمكننا أن نكوِّن فكرةً عن مستوى التعليم في حقبة عبد الحميد. ففي إحدى إحصائيات عام 1893 كان العدد الإجمالي للتلاميذ في البلاد ما يقارب 900 ألف تلميذ (896.424)، وعدد

المدارس يتجاوز 29 ألفاً، وعدد المعلمين يقارب 23 ألفاً. وفي الإحصاء ذاته يبلغ عدد مدارس إعداد المعلمين 14 في المناطق النائية، مقابل 16 مدرسةً في إسطنبول، بينها مدرسةٌ واحدةٌ للإناث. وكان هناك 413 رشديةً.

ولا بد لنا من المقارنة بما سبق من الفترات حتى نفهم كيف كان التعليم في عصره الذهبي خلال حقبة عبد الحميد. فبينما كان عدد المدارس الإعدادية (أي الثانوية بلغة اليوم) في العام الحادي عشر من حكمه عام (1887) [7] ... ارتفع إلى 55 مدرسةً في خلال ستة أعوامٍ، وارتفع العدد إلى 88 مدرسةً قبل المشروطية بفترةٍ وجيزةٍ عام (1907). فالزيادة الحاصلة في عدد المدارس الثانوية في خلال عشرين عاماً كانت تقارب 150%، وهذا يعني أنه تم افتتاح ما يقارب أربع مدارس ثانوية كلَّ عامٍ. وعلى الرغم من ضغوطات (التنظيمات) على المدارس الرشدية على وجه الخصوص؛ نرى افتتاح 58 مدرسة رشديةً حديثةً (مدرسة متوسطة) في حقبته. وارتفع عدد مدارس إعداد المعلمين في نفس الحقبة من 4 مدارس إلى 30 مدرسةً.

من جانب آخر، كان لا مفر من انخفاض عدد المدارس عند تأسيس الجمهورية، والسبب يعود إلى آثار الحرب، وخروج مدارس الأراضي التي خرجت عن السيطرة!. فاستلمت الجمهورية عام 1923: 42 مدرسةً إعداديةً، و39 مدرسةً للبنين، و3 مدارس للبنات. في خلال السنوات الأولى من تأسيس الجمهورية انخفض عدد المدارس الابتدائية إلى 4770 (أكثر من النصف) وعدد التلاميذ إلى 313 ألفاً (الثلث)، وانخفض عدد المعلمين إلى الثلث تقريباً (حوالي 12 ألفاً) [8] .

وفي الموضوع ذاته صدرت بياناتٌ إحصائيةٌ أخرى تؤكد على أن التعليم في حقبة السلطان عبد الحميد كان في عصره الذهبي، فقد بينت الإحصائيات المنشورة باسم إستاتيستيك عمومية بتاريخ 1895 أن عدد المدارس الابتدائية كانت 26 ألفاً، وعدد التلاميذ 830 ألفاً في حدود الجمهورية التركية فقط، وكان ذلك يعني أن نسبة التلاميذ في هذه المدارس إلى من هم في سن الدراسة كانت بحدود 60%، وهو رقمٌ كبيرٌ في تلك الأعوام. وفي أعوام الجمهورية الأولى انخفض عدد المدارس الابتدائية إلى 4890 وعدد التلاميذ إلى 342 ألفاً، فتراجعت نسبة التلاميذ بما يتجاوز النصف، فانخفضت إلى ما دون 25%. في بداية الثلاثينات بلغ عدد المدارس 6598 مدرسةً، وعدد التلاميذ 489 ألفاً، وفي فترة وفاة أتاتورك ارتفع عدد المدارس إلى 6700 وعدد التلاميذ إلى 765 ألفاً، وبقي العدد منخفضاً

بالمقارنة مع ما كان قبل أربعين عاماً. ولم يصل عدد المدارس الابتدائية إلى 17 ألفاً، ولم يتجاوز عدد التلاميذ المليون تلميذ؛ إلا ما بين عامي 1950 و1951.

وهكذا فإن سرعة انتشار التعليم المدرسي في مرحلة الجمهورية لم تستطع أن تبلغ حقبة عبد الحميد حتى مطلع الخمسينات [9] .

مكتب العشيرة بعيون أجنبي!

سنتناول في ما بعد مدرسة العشيرة بشكلٍ أكثر تفصيلاً، وسأتوقف عندها هنا قليلاً، فمدرسة العشيرة تحتل أهميةً خاصةً، لأنها تكشف أفق عبد الحميد وقدرته على رؤية المستقبل. فمدرسة العشيرة التي يقلل من شأنها في كتب تاريخ التعليم، وتوصف الجهود التي تبذل في سبيلها بأنها هدر وعديمة الفائدة، ولو كانت فكرةً أو مشروعاً مستقلاً بنفسه؛ يكشف عن الأهمية التي يوليها السلطان عبد الحميد لتشكيل نخبةٍ جديدةٍ تحمل أمانة الدولة في المستقبل، فضلاً عن رغبته وتلهفه للاستثمار في مستقبل الإمبراطورية العثمانية.

فقد كان السلاطين قبله ينفقون طاقاتهم في تشكيل بيروقراطيةٍ جديدةٍ، لكن عبد الحميد كان يرى أن مستقبل الدولة ينام في أحضان التعليم.

على أية حالٍ سيوضّح لنا ابن شيخ عشيرة الحيدراني الوجه الداخلي الحقيقي لمدرسة العشيرة. ويمكننا هنا أن نطلع على هذا المقطع من مذكرات مارك سايكس الموظف البريطاني المسؤول عن الشرق الأوسط. فماذا يقول هذا الدبلوماسي الإنجليزي الحاذق الذي كان ملحقاً عسكرياً إنجليزياً في إسطنبول في سلطنة عبد الحميد، وواحد من مهندسي اتفاقيات سرية هي اتفاقية سايكس - بيكو في ما بعد؛ عن نظرة عبد الحميد المتشكلة لمدرسة العشيرة:

أُخِذْنا بعد الظهر إلى مدرسة العشيرة، إحدى أكبر نقلةٍ في الإمبراطوية العثمانية في مجال التعليم. فهذه المدرسة لا تكتسب أهميتها من البرنامج التعليمي الرائع أو من المعلمين المحترفين، وإنما من الفكرة التي تأسست من أجلها، ومن الوسط الذي جاء منه القسم الأهم من الأولاد الذين يشكلون تلاميذها.

لقد تأسست مدرسة العشيرة من قبل السلطان الحالي عبد الحميد لتعليم أبناء الشيوخ والآغاوات المتميزين من قبائل الكرد والعرب وفق الأصول البطريركية. إنها رؤية رجل دولةٍ تفوق ما هو معهود عند أي تركيٍّ؛ جرأةً في الفكر، وبعد نظرٍ في الهدف **[10]** .

لا يقتصر التلاميذ الذين تستقبلهم مدرسة العشيرة على عشائر العراق وشرق الأناضول، بل يستقبل أيضاً تلاميذ من سورية واليمن وليبيا (طرابلس الغرب). فكان التلاميذ الوافدون من صحاريهم وقراهم النائية يتخرجون من مدرسة العشيرة بعد ست سنواتٍ كأفرادٍ يدركون أحوال العالم، إلى جانب تعلمهم القراءة والكتابة.

فكيف وجد مارك سايكس المدرسة والطلاب؟!.. هذا ما سنقرأه معاً، إن رغبتم، وبقلمه بالذات:

كانوا أطفالاً يمكن لأية مدرسةٍ أن تفتخر بهم، كانوا يرتدون ثياباً نظيفة، ونظراتهم ذكيةً، ووجوههم مختلفةً، لكنهم كانوا متشابهين في سلوكهم المستقل. (...)كانوا مزودين ببصيرةٍ وفطرةٍ سليمةٍ للعالم الخارجي. (...) كان هناك بصيص أملٍ للشرق، ولم يكن بصيص الأمل هذا في ارتداء الأحذية على النمط الغربي، بل كان بالعلم الذي يمكنهم القوة والشخصية التي تبلغ بهم إلى الإحساس بوجودهم الملّي [بوجودهم كأمة] . (...) لم يكونوا أفضل حالاً ولا أسوأ من أطفال الإيطاليين أو الفرنسيين أو البلجيكيين. ولندع جانباً ما يتعلمونه، فهؤلاء الأطفال كما قلت سابقاً؛ يكتسبون هنا هويتهم الفردية الخاصة بهم.

ولقد تأثر مارك سايكس بذكاء الأطفال العرب وقابليتهم للعمل، ولاحظ بأن الأطفال الأكراد يتفوقون على أقرانهم لما يملكونه من المواهب الخلاقة. لقد كانت مدرسة العشيرة من إحدى أحلام عبد الحميد، فكانت اللبنة التي حافظت على تماسك البلاد في فترةٍ امتدت فيها النـزعات القومية والانفصالية إلى مواطنيه من المسلمين [11] . فالدين (الإسلام) سيوحد المسلمين من الأكراد حتى الألبان تحت قاسمٍ مشتركٍ.

تم في عام 1907 إغلاق المدرسة، والسبب في ذلك للأسف يعود إلى إحجام شيوخ القبائل عن إرسال أولادهم إليها، واختلاق الصعوبات أمام المكلفين بجمع الطلاب ونقلهم إلى المدرسة، وإرسال أولادٍ آخرين بدلاً من إرسال أولادهم، في حين كانت مهمة هذه المدرسة تكمن في تعليم أولاد أشخاصٍ لهم الكلمة في قبائلهم، فهؤلاء الأولاد هم شيوخ قبائلهم في المستقبل.. لقد تحطم الحلم وبلغ نهايته بسبب هذه المقاومة التي لقيتها. لكن عبد الحميد كان قد غرق في النوم من أجل حلمٍ جديدٍ.

عملاء عبد الحميد في كوبا

لم يقتصر السلطان عبد الحميد في بسط نفوذه على القريب، بل كان يتطلع إلى البعيد،.. يهتم عن كَثَبٍ ليس بما يجري داخل الدولة العثمانية

فحسب، بل ينتشر نحو المحيط، حتى يقف على ما يجري في أمريكا أيضاً. كان يوجه تركيزه إلى أي مكانٍ فيه حركةٌ أو شرارةٌ أو وميضٌ.

سنتحدث هنا وللمرة الأولى عن محاولة السلطان عبد الحميد الحصول على معلومات حول الأزمة التي اندلعت بين أمريكا وإسبانيا في كوبا عام 1898، فعين باش شهبندر في كوبا [كبير التجار- كأنه مثابة الملحق التجاري اليوم]، ثم أرسل المعاون مير لواء (الجنرال) أنور باشا إلى كوبا عام 1901 وكان من المقرر إرساله إلى الصين. (ولا تذهبوا بفكركم بعيداً، فأنور باشا المعروف كان في الواقع طالباً في الحربية آنذاك، والمذكور هو شخص آخر).

كان قسطنطين Porzecki البولوني الأصل، وقد لقب بعد اعتناقه الإسلام مصطفى جلال الدين باشا؛ موظفاً في الجيش العثماني، وأصبح ابنه أنور باشا من معاوني [ياوَر] السلطان، وفي حرب اليونان عام 1897 كان واحداً من بين خمسين عضواً دائماً في اللجنة التي تشكلت في قصر يلدز. درس في باريس، وعمل كملحق عسكري فيها، واستلم رئاسة اللجنة المشكلة لرسم الحدود مع اليونان، وأرسل إلى كوبا من قبل عبد الحميد ملحقاً عسكرياً، ومراقباً للأزمة المندلعة بين أمريكة وإسبانية في كوبا، وكان خبيراً في الشؤون الخارجية، ولذلك يرسله هذه المرة وبعد انتفاضة Boxer إلى الصين على رأس هيئة النصيحة التي تحمل النصح لمسلمي الصين بعدم التدخل في الانتفاضة [12] .

كانت أزمة كوبا إحدى المسائل الجدية في تسعينيات القرن التاسع عشر، وكان من شأن حركة التحرير التي بدأت في كوبا من أجل التخلص من سوء الإدارة الإسبانية، والحصول على الاستقلال أن تستنجد تدريجياً بالتدخل الأمريكي، وبسبب هذه الضغوطات الداخلية والخارجية اتخذت إسبانية خطوةً تعلن فيها اعترافها بالحرية المحدودة لكوبا، لكن الأوضاع لم تهدأ، وظهر ظل رئيس دولة كوبا في واشنطن، واعترفت به أمريكة. وعلى إثر ذلك أغرقت سفينةٍ حربيةٍ أمريكية في هافانا، وتوجه أسطول إسباني نحو كوبا، وأرسلت أمريكة سفينةً حربيةً إلى مياه كوبا إلخ، حتى سحبت إسبانية جميع قواتها من كوبا بموجب معاهدة باريس في كانون الثاني 1899، واعترفت بإستقلالها، ثم باعت فلبيين لأمريكة بعشرين مليون دولار أمريكي. لقد بدأت الأزمة كوبية بالتصاعد الجدي تدريجياً حتى كادت أن تتحول إلى قضيةٍ دوليةٍ في أواسط 1898، ومن هنا كانت الجولات المكوكية لأنور باشا بين نيويورك وهافانا.

حسناً فهمنا اهتمام أمريكا وإسبانية بكوبا، فما هو شأن ذلك

السلطان الذي قطع علاقته مع العالم وحبس نفسه في يلدز سراي؟ لماذا اهتم بها السلطان عبد الحميد، ولماذا تملكه الفضول بما يجري هناك إلى هذا الحد؟!.

لست أدري فيما إذا كان أنصار كوبا أو دعاة الشيوعية في تركيا على بينةٍ من اهتمام عبد الحميد بكوبا، حسناً فلنتركهم جانباً، لأننا [ونحن أنصار عبد الحميد] نقف على هذه الحقائق حديثاً!.

في الحقيقة نرى في الوثائق الموجودة في أرشيف الوزارة أن القضية التي لفتت انتباه عبد الحميد في الأزمة الكوبية هي مسألةٌ محليَّةٌ، بمعنى آخر هو صدى مسألة الحكم الذاتي لجزيرة كريت. فعلى الرغم من كل مقاومة عبد الحميد كانت جزيرة كريت قد اكتسبت حديثا الحكم الذاتي بجهود فانيزالوس Venizelos ، وكان لا بد من فعل شيءٍ للحفاظ على هذا الجزء من البلد. تُرى كيف يمكنه حل مسألة كريت؟!.. هذا هو الموضوع الذي كان يشغل بال عبد الحميد.

إن الفوضى وحركات الاستقلال في كوبا ودعم الولايات المتحدة لهذه الحركات ومحاولاتها ضم كوبا إليها؛ استدعت صورة كريت في ذهن عبد الحميد!. ففي جزيرة كريت أيضاً مسألة الاستقلال، بل وضمها باليونان!. فقد ساده اعتقاد بإمكانية استخلاص الدروس من أحداث كوبا إن تمت دراستها وتحليلها بدقة مخابر التحليل، فأرسل أنور باشا إلى كوبا، وكتب سفيرنا في واشنطن علي فَرُّوخ (بالطبع في ذاك الوقت لم نكن قد افتتحنا سفارتنا هناك بعد، وبطبيعة الحال لم تفتتح الولايات المتحدة سفارتها في إسطنبول أيضاً، وقد كان هناك في الأصل بهذا المقصد) التقارير، ووضح ما يجري هناك بدقةٍ متناهيةٍ.

كانت الاهتمام كبيراً حتى أن السَّرْ عَسْكَر، أي وزارة الدفاع اليوم اهتمت بالموضوع، وتظهر إحدى التقارير الاهتمام بالتفاصيل كنفقات الجنود الإسبان في كوبا، وتخفيض عديد القوات الإسبانية، وانعكاس ذلك على النفقات، والموازنة (الواردات - النفقات). وهكذا.. في وقتٍ لم يكن الصراع المسلح قد اندلع بعد، في عام 1892، كتب السر عسكر رضا باشا من مقام السر عسكر هذه الكلمات:

في الملحق المرفق نسخة ضبط مرسل من الملحق العسكري في سفارتنا في مدريد البنباشي الركن عمر ياور بك متعلق بتخفيض عديد الجنود من قبل الدولة الإسبانية لقواتها في الجزيرة الكوبية بسبب عجز الواردات عن تسديد النفقات، وعدد القادة والضباط المفصولين عن عملهم، وأموراً تتعلق

بأشخاص آخرين، (...) وتم تسليم النسخ الأصلية إلى قيادة الأركان العامة.

(الأرشيف العثماني في رئاسة الوزراء،

(B.4/1310.R.20/70/108/3 .Y.Mtv

الجزء الأكثر إثارةً هو الجداول المفصلة التي تبين أوضاع القوات الإسبانية العسكرية في كوبا، واحدةً تلو أخرى، وعديد الجنود، وأسماء المفصولين عن عملهم، وتعييناتهم، وإلخ...



خارطة الأزمة الكوبية المعدة خصيصاً للسلطان عبد الحميد في أرشيف رئاسة الوزراء.

تظهر الخارطة الأصلية الملونة كيفية وصول الأسطول الحربـي الإسباني إلى كوبا.

أصيب أنور باشا في قصف الأسطول الحربـي الأمريكي عام 1898، ونجا من الموت بأعجوبةٍ، ووصل إلى نيويورك بصعوبةٍ.. وإليكم رسالته المثيرة في ذلك!.

من أنور باشا، عبدكم في نيويورك

خرجنا مع فريق الملحق العسكري من الحجر الصحي في نيويورك بعد نجاتنا بأعجوبة من الإصابة في طريق العودة من كوبا. وسيتم عرض التفاصيل بالبريد.

23 تموز *98*[*18*]

أنور [*13*]

يمكن بيان الأعمال التي قام بها أنور باشا في كوبا من خلال البحث في الوثائق الأخرى، إلا أن الدولة العثمانية كما يبدو مما ذكر لم تكن نائمة، وكانت تراقب العالم، وترسل العملاء، كما فعلت في كوبا لووقوف على خيوط القوة للمكونات الداخلية فيها.

(ملاحظة للاطلاع: لفت هذا الموضوع انتباه كاتبٍ كوبـي، فقام بعرضه في رواية خيالية بعنوان: الشغف التركي في هافانا *1898* [14] .)

فيدل كاسترو أيضاً منحدرٌ من إسطنبول

في وقتٍ ما هاجر أحد أجداد فيدل كاسترو الرئيس الأسبق لكوبا المستلقي حالياً على فراش المرض من إسبانيا إلى إسطنبول، ثم توجه من إسطنبول إلى هافانا التي كانت إحدى مستعمرات الإسبان آنذاك، وكان يهودياً اسمه فرنسيسكو روز، وكان روز حسب ما ترويه ابنة كاسترو خلال عيشه في هافانا؛ دائم الشوق إلى حياته في إسطنبول، وكان دائما يغرق في ذكرياتها. تزوج من امرأةٍ كوبيةٍ تدعى دومينغو، وأنجب منها ثلاث بناتٍ، إحداهن والدة فدل كاسترو .

من ذكريات بنت فيدل كاسترو غير الشرعية آلينا فيرناندس التي تعيش في منفاها في إسبانية : Castro's ,Revuelta Fermández Alina] Daughter: An Exile's Memoir of Cuba.] الترجمة إلى الإنجليزية : Dolores M. Koch, St Martin,s Griffin ، نيويورك 1999 ، ص: 1-6 .

أفق عبد الحميد

يمكن الحديث بالكثير عن عبد الحميد، ولكن لا يمكن الحديث عن أفقٍ ضيقٍ عنده أبداً، وخاصة عندما يكون الحديث حول قراءته في مسار الأحداث في العالم. فهو - كما رأينا - لم يعرض عن تطورات الأحداث في كوبا، ولم يقل "ما لي ولكوبا؟!"، بل أراد أن يعرف بكل ما يجري هناك، وبأدق التفاصيل... دعونا هنا نتابع مسيرتنا بمثالٍ مختلفٍ من الولايات المتحدة والأرشيفات.

هذه وثيقة تعود لتاريخ 25 آذار 1908، أي قبل المشروطية الثانية بأربعة أشهرٍ، تتضمن مراقبة لجان البلغار والأرمن والأرناؤط في أمريكة، وإرسال موظف من (الخفية) [استخبارات عبد الحميد] إلى أمريكة، لتفويت فرصة تحقيق أهدافهم الخائنة. (يلدز إرادة خصوصي 1326/ص: 21/65).

الجهود التي بذلت من أجل منع أنشطة الانفصاليين الجارية في

الخارج كانت كبيرةً بلا حدود ولا حساب، وهذه الجهود لم تكن جزءاً منفصلا من الصورة الكبيرة!. حسناً، فما هي هذه الصورة الكبيرة؟!. إنها مشروع انقاذ مستقبل العثمانية... فقد رأينا سابقاً لماذا بنيت المدارس القبلية!. ولست أدري لماذا يتم التغافل حتى الآن عن دور الألوية الحميدية في منع بناء دولة أرمنية في شرق أناضول، وتشكيل جدار ضد الغزو الروسي، وتتردد عبارة "السلطان الأحمر؟".

وفي الواقع لا زال موضوع Le Sultan Rouge (السلطان الأحمر) واحداً من المواضيع التي لا زالت تستعصي على البيان. واليوم عندما يقف مؤرخونا الرسميون والقوميون ضد الإبادة الجماعية للأرمن المزعومة؛ عن أي شيء يدافعون؟!. إنهم يتحدثون بأن الدولة العثمانية لم تلحق الأذى بالمواطنين الأرمن أصلاً، ولم تتعرض لهم بأي تهميش أو إقصاء، بل مكنتهم بشتى الوسائل وبقدر الإمكان من العيش الكريم، وأمنت سبل رفعتهم، ولم تمنعهم من العمل في الوظائف الحكومية.. الخ، حتى أنها أبدت كل الحرص والاهتمام والحماية خلال تهجير بعضهم إلى الجبال.

فإذا سلمنا بصحة ما يقولون (ومعظم ما يقولونه حق)؛ فلما لا يُسألون؟.. إن كان ما تقولون في حق عبد الحميد حق؛ فلماذا تصرون على وصفه "بالسلطان الأحمر"؟!. ثم ألم يكن عبد الحميد "سلطانا أحمر" إلا بفعل إشاعات الأرمن الكاذبة؟!... وانا هنا أقول: إن كنتم توافقون على وصفه بالسلطان الأحمر؛ فاتركوا دفاعكم ضد مزاعم مذابح الأرمن!، واتركوا حديثكم عن المعاملة الحسنة التي لقيها الأرمن في عهد عبد الحميد!. وإن كنتم تصرون على أن مذابح الأرمن لم تكن إلا مزاعم وأكاذيب؛ فاعترفوا بأن عبد الحميد لم يكن سلطانا دمويا، وأنه بريء من وصف "السلطان الأحمر". فهناك تلازم بين القولين، مذابح الأرمن والسلطان الأحمر، وإنكار أحدهما نفي للآخر.. ونفيكم المزاعم مع الاصرار على دموية السلطان عبد الحميد يجعلكم في مشهد هزلي مضحكٍ أمام العالم!.

إن بحث المقاربة التي سلكها عبد الحميد مع الأرمن موضوع واسع يتسع لكتابٍ آخرٍ مستقل. ولكن ينبغي هنا أن نعلم أن مساعيه في مؤتمر برلين وحدها كانت كافية للحيلولة دون تحويل شرق الأناضول وطناً مستقلاً للأرمن.

فالمقارنة بين المادة 16 من معاهدة آياستيفانوس الموقعة من قبلنا ضد الروس مع المادة 61 من معاهدة برلين تظهر الحقيقة بكامل بريقها، فقد أجبرنا على القبول بمعاهدة آياستيفانوس في سبيل الحيلولة دون احتلال

إسطنبول من قبل الروس، والتي تنص على بقاء الجنود الروس في نقاط تواجدهم حتى يتم إجراء الاصلاحات الضرورية (وهذه النقطة هامة جداً) في الأماكن التي يقطنها الأرمن في مناطقنا الشرقية. وهكذا كنا سنعيش وبشكلٍ مستمرٍ تحت الضغط الأوروبـي، وتحت متطلبات الأرمن في مناطقنا الشرقية، لو بقيت تلك الأماكن تحت الاحتلال الروسي. فما الذي حدث في نهاية التنازلات في قبرص للإنجليز؟! نعم بفطنة عبد الحميد وسياسته المتوازنة كسبنا البلقان جزئياً، لأن روسيا والبلقان كانتا مصرتين على فصل مقدونية والأرناؤوط من الأراضي العثمانية.

فما حصل في مؤتمر برلين أولاً أن عبد الحميد أعاد ضم روم إلي الشرقية إل الدولة وحال بذلك دون الانفصال المبكر لأراضينا في البلقان. والأمر الثاني، هو دعم انسحاب الجيوش الروسية من شرق الأناضول باستثناء قارص وباطوم دون انتظار تحقيق الاصلاحات. فالمادة 61 من مؤتمر برلين قلبت كل خطط الأرمن رأساً على عقب، وخيبت آمالهم. بالطبع لم ينسوا أبداً هذا "الوتد" الذي رماه عبد الحميد. وهكذا تمت كتابة الأحرف الأولى من لوحة "السلطان الأحمر" على يد الأرمن في برلين، أما الحروف الأخيرة فقد جرت على يد حزب "الجون ترك"، وفي عالم ما تزرع تحصد، تعرض الجون ترك أنفسهم هذه المرة وبشكل أعظم وعبئ أثقل لتهمة: الإبادة الجماعية [15] .

فالسلطان عبد الحميد بإرادته الصادرة قبل 118 عاماً يلمس بمهارةٍ الوتر الحساس لهذه المسألة:

منذ مدة يراد رسم حدود أرمنستان المستقبلية. في وقت يشكل المسلمون أغلبية في المنطقة التي يقطنها الأرمن، وليس فيها ما يطلق عليها من أجله اسم أرمينية، فالمطلوب هنا تأسيس دولة أرمنية تحت ذريعة الاصلاح. وهذا غير ممكن بالتأكيد. فلننتفع من الدول الغربية،.. لكن من [من هذه الدول] تحركت له شعرة أمام استعمار مصر من قبل إنجلترة، وتونس من قبل فرنسة، والبوسنة والهرسك من قبل النمسة؟!. طبيعي هنا أن نقف قريباً ممن يسهل لنا رفع هذه التنازلات التي تحد من ارتفاع مستوانا المادي والمعنوي. [ومنها] أصدر السلطان فرمانه بإجراء إصلاحات في المالية وهيكلة الجيش وإتمام الأسطول ورفع مستوى القوات البحرية والبلوغ في وقتٍ قصيرٍ وبمشاركة كلِّ فردٍ إلى هدف جيش بعديد مليون جندي والنهوض بالدولة إلى مستوىٍ رفيعٍ. (BOA, Yıldız Esas E. 31.172712, Z 158, K 86.).

لقد رأى السلطان عبد الحميد منذ نلك الحين السيوف التي ستبقى مسلطة فوق رؤوسنا منذ ذلك الحين حتى نصبح دولة قوية من جديد، وقدم الأدلة على ذلك. ولهذا السبب لقبوه "بالسلطان الأحمر". إنه يتحدث عن ضرورة تعزيز الأسطول، وإنشاء جيش المليون جندي. ثم كيف يمكن لرجل دولة يرى حل المسألة الأرمنية في قوة الدولة من جميع الناحي؛ أن يعادي الأسطول!.

ماذا فعل عبد الحميد؟

لا يمكننا أن نؤرّخ بدقة "مئة عام من دون عبد الحميد"؛ ما لم ندرك الممر الضيق الذي حملت عليه الدولة العثمانية في السياسة الدولية، والأفخاخ الفظيعة التي نصبت لها، والألعاب القذرة التي سيقت إليها في القرن التاسع عشر. ولذلك كان من الضروري جداً رسم إطارٍ!

يبدو أن البروفيسور غوكهان جتين صايا Gökhan Çetinsaya رئيس جامعة شهيرة قد رسم بنجاح إطاراً لفهم فترة "مئة عام من دون عبد الحميد" [16] . ومن هذا الإطار سأنطلق في الموضوع أدناه.

اتبع رجال دولة تنظيمات سياسةً تستند إلى فرنسا وإنجلترة في مواجهة روسية، ونجحوا في هذه الدبلوماسية؛ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي تمكنوا من استخدامها، فأثمرت هذه السياسة في حرب القرم، فكان هدفهم هو جعل الإمبراطورية العثمانية جزءاً لا يستغنى عنها في النظام الغربـي، فإذا استجاب النظام الغربـي؛ فسيكونون عوناً لنا ضد روسية. وهكذا كانت مساعينا بعد مرسوم التنظيمات تتوجه إلى الحفاظ على بقاء هذه دولةً بنسبة 40% من سكانها غير مسلمين، والهدف هو مواجهة التفكك، والمحافظة عليها، وربط غير المسلمين بالدولة، وإلا؛ فسيتمرد غير المسلمين، وتتسارع الدول الكبرى لمساعدتهم، ويتدخلون، وتتجزأ الدولة!

بعد عام 1841 حلت فترة من السلام النسبـي، تتابعت في خلالها سلسلة من الإصلاحات، وأعيدت هيكلة الدولة على أساس المركزية، واتخذت خطواتٌ لإنشاء الدولة الحديثة وتكوين البيروقراطية... لكن كل هذه الجهود لم تكف لعرقلة الجهود الانفصالية، كانت الإصلاحات حاجةً ملحةً لإنقاذ الإمبراطورية من التفكك والانحلال... لكن الإمبراطورية كانت تتفكك مع اجراء الإصلاحات!.. فكيف كان يمكن الخروج من ذلك المأزق.

تم تحويل الاستثمارات إلى البلقان، وتمّ تعيين أكثر الباشاوات كفاءةً، لكن تلك التدابير لم تكن حلاً لمشكلاتنا أيضاً، فمع بداية عام 1870 زادت أعمال الشغب، ونشأ فراغٌ سياسيٌ بوفاة علي باشا، وبه انتهت حقبة

الصدور الأعظم الأقوياء، ودخلنا في أزمة!... كانت أزمةً سياسيةً، ودبلوماسية، واقتصادية. كان العثمانيون الجدد (نامق كمال وأصدقائه) يؤمنون بحل هذه الأزمة بمجرد إجراء تعديلٍ في المشروطية!. وبعبارةٍ أخرى اعتقدوا بأنه إن وضعنا نظاماً مبنياً على أساس المساواة السياسية بين المسلمين وغير المسلمين؛ فإننا نتفادى النـزعات الانفصالية، وتعترف المؤسسات الغربية بالعثمانية، وسيزول بذلك سبب التمرد والانفصال!

ولدت هذه الإجراءات والقوانين الجديدة ردة فعلٍ معارضةٍ... وكانت نتيجة ردة الفعل هذه التي تتلخص على شكل: (كفانا! كفانا تنازلات!)؛ توَلُّدُ عداوةً للغرب، ونمواً في المشاعر الإسلامية. وهكذا، في قلب هذه الخضم المتلاطم؛ بلغت الدولة العثمانية عام 1875، عمْق أزمتها، وأعلنت الخزينة إفلاسها، وزادت حدة الصراع بين الليبراليين والمحافظين، وفي هذا الصراع ظهرت خارطة طريق لخلع السلطان عبد العزيز الذي لم يستطع أن ينتج أي حلٍّ. وهكذا كانت خطة انقلاب عام 1876.

لكن الجنون الذي طرأ على مراد الخامس الذي خلف والده السلطان عبد العزيز؛ جعل الانقلابيين يقررون اختبار حظهم مع ولي العهد عبد الحميد!، فسمحوا له بارتقاء العرش شريطة إعلان المشروطية، فجرت الانتخابات، وافتتح المجلس، إلا أن الحرب مع روسية كانت بالمرصاد، واندلعت الحرب، وانتهت بالكارثة. ولو لم نعط إنجلترة قبرص مؤقتاً، ولم تتدخل في مؤتمر برلين عام 1878، وتعمل على ترتيب بعض البنود لصالحنا، واستعادة الولايات في الروم إلي الشرقية وشرق الأناضول؛ لأصبحت الإمبراطورية العثمانية في ذاك الوقت خاضعةً لحكم روسية.

وفي ذلك التاريخ بالذات بدأ نقد عبد الحميد لسياسة التنظيمات، يحتفظ ببعضها، وينتقد بعضها الآخر، وبدأ بالظهور اتجاه جديد في السياسات الداخلية والخارجية يتميّز عن التنظيمات على ضوء العبر المأخوذة من الماضي والماضي القريب بعد عام 1875.

يمكننا أن نتناول مبادئ نظام عبد الحميد التي تشكلت في مطلع عام 1880 تحت العناوين التالية:

أ- الحكم المطلق (إدارة الرجل الواحد).

ب- الإيمان بالمحافظة.

ت- الإدارة في المركزية.

ث- الإصلاحات الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية.

ج- السياسة المالية الصارمة.

ح- إعطاء الإسلام أهميةً خاصةً كدينٍ وأيديولوجية اجتماعية وسياسية.
خ- توخي الحذر والتدبير المفرط في كل مجال.

في إطار هذه المبادئ كانت المحافظة على القيم المرتكزة على الإسلام تسير جنباً إلى جنبٍ مع التنمية والإصلاح. في السياسة الخارجية اتبع سياسة عدم اكتساب عداوة أية دولة، وعدم الاتكاء الكامل على أية دولة. في مجال الاقتصاد استطاع حل الأزمة التي اندلعت في عام 1875، وبينما كنا في الماضي لا نجد من يقرضنا؛ أصبحنا في وضعٍ نرفض المتلهفين لإقراضنا، واستطاع تسديد ما يزيد عن نصف الديون المتراكمة علينا منذ ربع قرن. وفي هذه الفترة أيضاً تحققت إعادة هيكلة الجيش والتسلح.

وكذلك أصبحنا أصحاب المبادرة في تحديد مسار سياستنا الخارجية وذلك بفضل خلاصنا من فخ إنجلترة وفرنسة ومن قبضة روسية وما أوقعتنا فيه بعد التنظيمات، وفي سبيل ذلك استعملنا الأوراق التي في أيدينا، وعلى الأخص ورقة الخلافة، لقد استعملناها للتلويح بها من دون استعمالها. لوحنا بها وجعلناهم يشعرون بها، لكننا لم ندفعها إلى وسط الحلبة كما فعل الاتحاديون.

وإذا أردنا الاختصار؛ فإن أزمة التنظيمات التي انفجرت في أواسط سبعينات القرن التاسع عشر تأجلت إلى عام 1910 بفضل السياسات التي اتبعها عبد الحميد. وكانت الأعوام الثلاثين الفاصلة بين التاريخين؛ فترة بناء الأسس التي قامت عليها تركية الحديثة.

كيف قام عبد الحميد بذلك؟

هل قام عبد الحميد بكل هذه الأعمال وحده؟!. لقد كان هذا عمل فريق بلا شك، ولم يكن عبد الحميد كما يظنه بعض الأتراك الشباب؛ من الاتحاديين الذين يأمرون وينهون ويقررون وحدهم ولا يسمعون لأحد.. يقتلون ويشنقون من دون مراجعة أو حساب.

كيف كان يعمل؟!

مرة أخرى نرى كيفية صناعة القرار الإداري كما يراه غوكهان جتين صايا على النحو التالي:

يتم تحويل أي تكليف مقدم من الباب العالي (من الصدر الأعظم) إلى القصر؛ من قبل السلطان إلى اللجان، ثم تؤخذ آراء المستشارين حول البيانات الخطية للجان، وتكون الكلمة النهائية للسلطان. ويوافق السلطان عبد الحميد على هذه الآراء الصادرة عن اللجان والمستشارين، ما لم تتعارض مع مبادئه الأساسية، ويقبلها في الغالب كما هي [17] .

وعلي أق يلدز وهو أحد الأكاديميين المطلعين الباحثين في نظام عمل السلطان عبد الحميد، كشف بمهارة في إحدى مقالاته القيمة غطاء الظلام المسدل على عبد الحميد. (وما أكثر الأغطية المسدلة عليه، أليس كذلك؟!).

نجح عبد الحميد في نقل البيروقراطية إلى القصر بعد عام 1891، أي أن النظام في الأعوام الخمسة عشر الأولى من سلطنته لا يعتبر من النظام التام الذي أراد بناءه. لقد بدأت بيروقراطية يلدز بشكل كبير بعد تعيين إحسان باشا في منصب الباش كاتب (السكرتير العام) عام 1894. وكان إنشاء مكتب البرقية الخاص بالقصر يحمل معنى وصول القصر إلى العالم من خلاله، وبهذا المكتب ومكتب شيفرة المابين وغيره من المكاتب الأخرى؛ تحول قصر يلدز إلى مركز الدولة ودماغها.

عندما يريد إصدار (قرار نامة)، يحيل الطلب إلى خبراء موثوقين، وعندما يتخذ القرار تكون آراء هؤلاء الخبراء في ذهنه. وعندما يعالج المواضيع التي تتطلب الخبرة؛ يتفادى الإفصاح عن رأيه، ويحول الوثيقة إلى الشخص المعني أو إلى المؤسسة المعنية بالأمر. ففي الأمور الطبية أخذ برأي الأطباء، وأعاد الإرادة العدلية وهي الحكم القضائي مرفقاً بالوثائق المتعلقة به كمن يقول "أنا لا أتدخل في عمل القضاء".

وهكذا تبدو بيروقراطية عبد الحميد أمامنا في صورةٍ مختلفةٍ عما كنا نتصورها، أمّا التدقيقات اللازمة التي يقوم بها في قسم من الطلبات الواردة قبل اتخاذ القرار فيها؛ ينبغي تأويله على أنه دليلٌ على عدم إهماله الاستشارة في وقتٍ تكون الكلمة الأخيرة في اتخاذ القرارات له. وإذا ظهر في الموضوع رأيان مختلفان؛ فإنه - وحسب المعلومات التي يقدمها علي أق يلدز - يستدعي صاحبـي الرأيين المختلفين، ويعقد بينهما حواراً لبيان مسوغات كل طرف، قبل أن يعطي قراره.

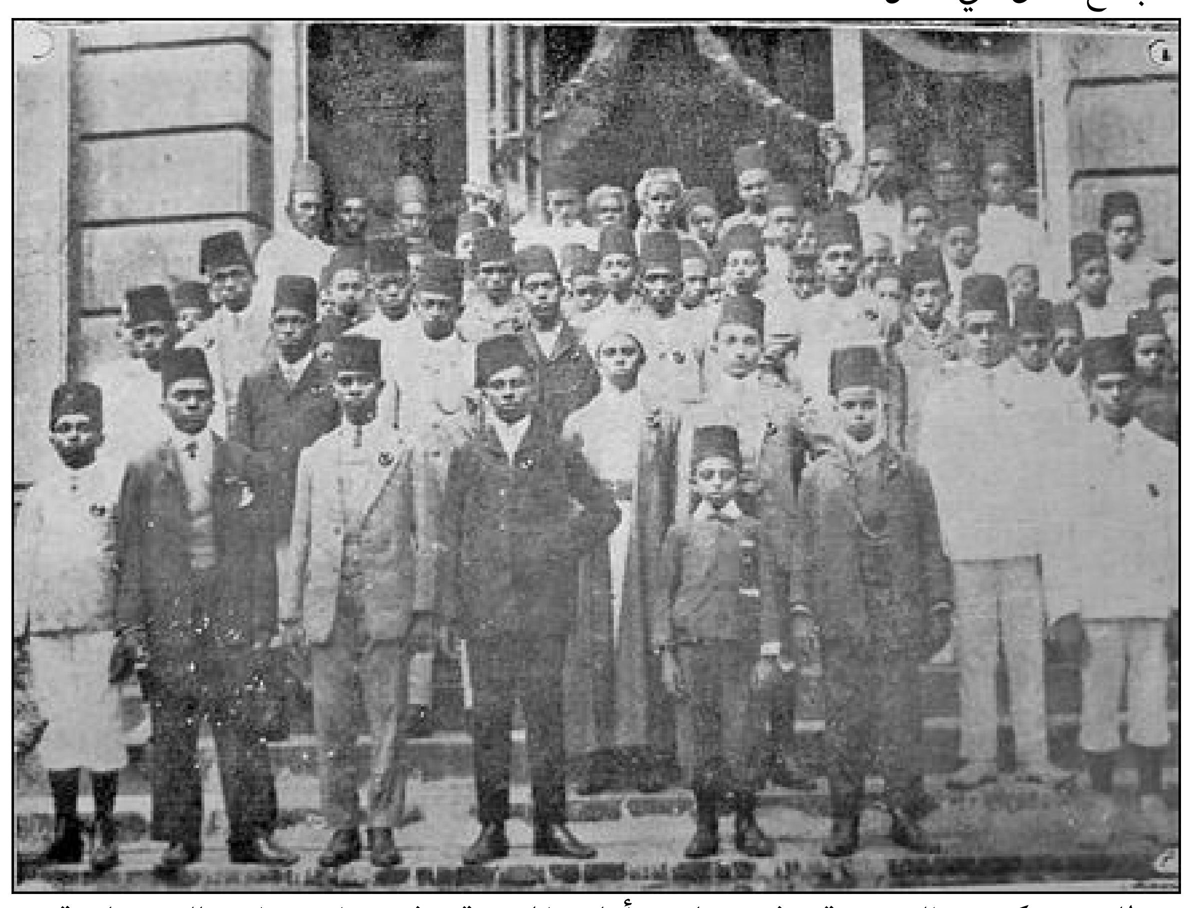
في بحث أجراه علي أق يلدز على أكثر من خمسة عشر ألف قرارٍ مسجلٍ استخلص ما يلي: وافق السلطان على القسم الأكبر من الطلبات الواردة من الحكومة كما هي. ووافق على 56% من القرارات الواردة من الدرجات الدنيا، ومن دون إجراء أي تعديلٍ، وأضاف ملاحظاتٍ عديدةٍ على 6.5% منها. ومن ذلك يظهر أن عبد الحميد على خلاف الشائع عنه؛ صادق على نسبةٍ كبيرةٍ من آراء الباب العالي [18] .

وهكذا يبدأ مشهد التاريخ يتغير عندما نتناول التفاصيل!

عالَمُ عبد الحميد!

أين زامبوانغا، وأين قصر يلدز؟!

زامبوانغا Zamboanga إقليم في جزيرة ميناناو Mindanao في الفلبين، جميع سكانه مسلمون، فيه جامعٌ يحمل اسم طالوكصانغاي Taluksangaya ، وبينما نذكر المسلمين بجذورهم هنا في هذه الأراضي؛ نذكِّر السياح بأنه مكانٌ جميلٌ لا يمكن تجاهله. بني في عام 1885 كما هو مدوَّن على بابه. نال هذا الجامع أيضاً حصته من المساعدات التي أرسلها عبد الحميد إلى هناك، والهلال الظاهر على منارته وقبته يدل على أن الجامع كان في ظل الخلافة.



طلاب مكتب الحميدية في سيلان أمام المدرسة في مراسم احتفالٍ بمناسبة وصول سكة الحجاز الحديدية إلى المدينة

والآن دعونا نبحر في المحيط الهندي: نحن في سيلان، نرى في صورةٍ قديمةٍ طلاباً ومعلمين مجتمعين أمام المكتب الحميدي الذي يفتخر به المسلمون، وفي أسفل الصورة تظهر أسماؤهم: سمير لر، محيي الدين لر، أنيس لر، سليم لر، يلقون التحية على عبد الحميد.



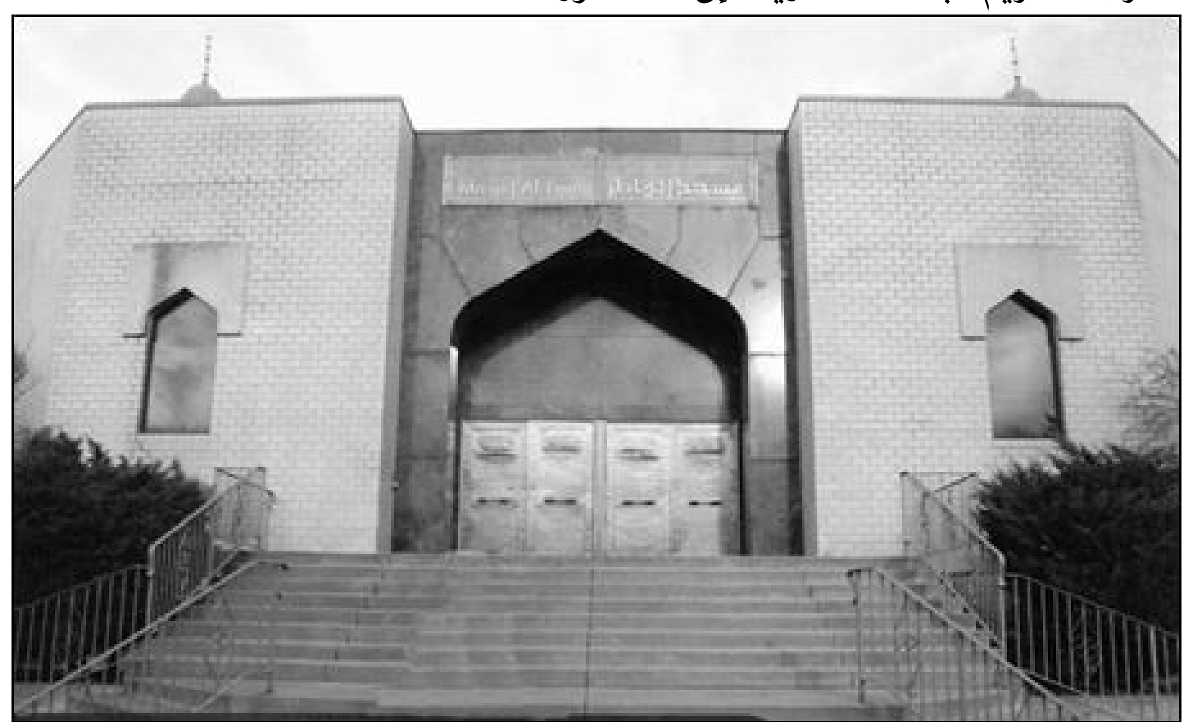
المدرسة الحميدية ببكين، وإلى جوارها الجامع وفي فنائه المصلون الصينيون يؤدون صلاة الجمعة. (مجلة القارات السبع)

وهذا مثال آخر يثير الإعجاب، إنه جامع مسجد الفاطر في تشيكاغو. تقول المعلومات: إن المسلمين هناك طلبوا في ذاك الوقت دعماً من إسطنبول لبناء هذا الجامع، فأرسل لهم عبد الحميد مبلغاً من المال، واشتروا به قطعة الأرض لبناء الجامع، ولكن العمل في بنائه لم يبدأ فوراً لسببٍ لا نعرفه، ومن ثم تم بناء الجامع على تلك الأرض [19] .

وفي سنغافورة!.. هل تعلمون بوجود متحف عبد الحميد؟!. ربما هذا المتحف هو المتحف الوحيد الذي يحمل اسمه في العالم. وهنا تحتل لوحة عبد الحميد الزيتية مكاناً، ويجتمع أمامها مسلمو سنغافورة كل عام في الذكرى السنوية لوفاته، ويقرأون الفاتحة على روحه. وفي أصل الموضوع نجد أنه في تشرين الثاني عام 1900 اتصل أحمد عطا الله أفندي بمسلمي سنغافورة باسم عبد الحميد [20] . هكذا روى الإمام السنغافوري العطش ، وهذا اسمه، عن حب المسلمين في سنغافورة لعبد الحميد:

لقد أنمى السلطان عبد الحميد سنغافورة من الناحية الإسلامية!. لو لم يرسل إلينا تفسير القرآن "للقاضي البيضاوي" مترجماً إلى اللغة الملاوية؛ ربما لم يَنْمُ الإسلام في هذه المنطقة إلى هذا الحد. فكان بذلك أول من أرسل

القرآن الكريم باللغة الملاوية إلى سنغافورة!



"مسجد الفاطر" في شيكاغو، بني بمساعدة عبد الحميد

ربما كان ما يسمونه "القرآن الملاوي"؛ قرآناً مكتوباً بالحروف الملاوية للذين لا يتمكنون من القراءة بالعربية [21] . بالطبع لو لم نتحدث عن الجامعة الحميدية في بكين وقد مرَّ ذكرها في الكتاب الأول، لبقيت هذه اللائحة ناقصة جداً، ولا يزال حتى اليوم يملأ باحتها المسلمون الصينيون لأداء صلاة الجمعة كما يظهر في الصورة الفوتوغرافية. (المصدر: مجلة القارات السبع).

وهكذا يبدو برج الساعة في كوموتيني (كومولجينة *Gümülcine* بالتركية) التي بقيت داخل الأراضي اليونانية الآن أكثر شباباً بعد ترميمه في عام 2004، إنه كذلك من الإرث المتبقي من حقبة عبد الحميد. وكذلك مدارس الصبيان والرشديات، ومبنى البلدية، ومقر الحكومة من الآثار التي تأسست في تلك الحقبة، وعلى الرغم من تهدم بعضها، فإن الأثار المتبقية كأنها عيون عبد الحميد تنظر إلينا من البلقان.



خبرٌ مصورٌ منشورٌ في مجلة "ثروت فنون" عام 1899 عن برج ساعة أرغاني المشاد بأمر من السلطان عبد الحميد، وهو الآن في مدينة معدن Maden في ولاية ألازيغ Elazığ الحالية، والجزء العلوي الذي كان يرفرف فوقه علمنا غير موجود، والبرج في حالة خراب. والبناء الظاهر في الخلف من إرث عبد الحميد أيضاً، وكان مقراً حكومياً، ثم ثانوية شرعية حتى عهد قريب

الاسم الذي يتردد صداه في المينسك Minsk

وعن ماذا أتحدث؟!، ففي جعبتي الكثير، بدءاً من علاقة عبد الحميد بالباباوات إلى المدرسة التي استحدثها للمسلمين في كيب تاون في جنوب

أفريقية، ومن المخططات التي عمل عليها للحفاظ على اليمن حتى لا تقع فريسة لإنجلترة إلى جهوده في مواجهة مرض السل،... نعم، بين يدي الكثير، وستدوّن، ولكن متى؟!.. إنه متروك للقدر.

أذكر هنا عنوانين قصيرين للتفكّر فقط.

الأول هو ذاك الكلام الثقيل كالمطرقة الذي وجهه عبد الحميد لمعارضه الدكتور عبدالله جودت بعد خلعه عن العرش:

حضرتك دكتور، أليس كذلك؟!. ألم يكن من الأفضل لو طالبتم بمشفىً بدلاً من المشروطية، لكان أرحم للإنسانية، وأثبتم مروءتكم، وأن مهنتكم تليق بكم؟! [22] .

العنوان الثاني يا صديقي العزيز، هو الحدث الذي عاشه شخصياً البروفيسور الدكتور محمد كورمز rmez ö G رئيس الشؤون الدينية قبل بضع سنوات في ليلة من ليالي رمضان، وفيه ما يلي!

أم عبد الحميد المصلين في صلاة التراويح في جامع بقرية إفيا İvya التابعة لمينسك عاصمة بيلاروسية، فاصطف الرجال في الأمام والنساء في الخلف، وفوجئ بالذكر الذي يرتفع في الترنيمة في الترويحات عقب كل تسليمة: "لا إله إلا الله، جبريل مَلَكُ الله، لا إله إلا الله، ميكائيل مَلَكُ الله". واستمر في صلاته. وارتفعت هذه المرة؛ اسم عزرائيل وإسرافيل في الترويحة الثانية. ثم تتابعت أسماء الأنبياء بالتسلسل في الترويحات التالية. وفي الترويحة الأخيرة؛ ارتفعت الأصوات بشكل طبيعي: "لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله". وردد الجميع من الخلف: "لا إله إلا الله، عبد الحميد خليفة رسول الله".

فاضت عيناه بالدموع، وقال: "انتهت الأذكار، لكنني أنا أيضاً كنت قد انتهيت"، لقد تملكني الذهول: "أين أنا؟، في أي زمن أعيش؟".

يبدو أن عبد الحميد سيذهلنا أكثر......

الباب الأول : عالم عبد الحميد



صورة الشاهزادة عبد الحميد

رجل القفازات البيضاء

على الرغم من أن جوليان رابـي (Raby Julian) الباحثة في عصر النهضة استخدمت تعبير "سلطان التناقضات" للدلالة على السلطان محمد الفاتح؛ فهذا التعبير ينطبق تماماً على "فاتح" آخر، على السلطان عبد الحميد الثاني الذي جدّد الفتح العثماني.

فالفتح الجديد الذي تشبث به عبد الحميد هو فتحٌ من الداخل لدولةٍ ومجتمعٍ يعانيان حصاراً خانقاً، واحتلالها مسألة وقتٍ، وأيامها معدودةٌ، وكونه في حد ذاته مثالاً للتناقضات، ومزاياه الشخصية التي دفنها في ظلال حديقة قصر يلدز، مكنته من ذكر اسمه على المنابر كل يوم جمعة كخليفة للمسلمين على وتيرة واحدة تمتد من السودان إلى الصين ومن كوبا إلى بيلاروسية، وما حمله من تناقض (الظاهر - الباطن)؛.. كل ذلك برهن استحقاق عبد الحميد لقب " سلطان التناقضات " .

ولأمر ما يسكت الذين يتحدثون عن استعماله أطباقاً وأشواكاً وملاعق من الذهب في ولائم القصر، ولا يتحدثون عن سريره البسيط الذي لا يختلف عن أسرّة أبسط المستشفيات!

حاكم صاحب فضول، يهوى التقاط الصور إلى الحد الذي يلتقط فيه صور المحكومين فرداً فرداً، ويمنع التقاط صوره الشخصية، في تصرف يضاف إلى تناقضاته.

وبينما يمارس الرقابة على الصحافة من جهةٍ، تتطور الصحافة بفضله من جهة أخرى.

إنه عبد الحميد! ذلك المجهول الذي لا يزال ينتظر من يكتشفه!

وهذه الصورة التي أمامنا بالأبيض والأسود عندما كان أميراً، لعلها التقطت في منتصف عام 1876 بعد ارتقاء أخيه الكبير العرش، وتمت طباعتها من قبل استديو W.&D. Downey في لندن.

على رأسه طربوش عزيزي " Azizî " ، كتافيته بادية على كتفيه، يجلس على أريكةٍ مرصعةٍ بالصدف، كأنه واقفٌ على شوكة!، وسيفه الفولاذي، الذي استلّه بشراسة في خلال بضع سنوات، بين ساقيه؛ يقف بهدوءٍ ووقارٍ، وربما كان العرش خلفه ينتظره...

جسور كما يبدو، نظراته العميقة تتخلّل قلوب الناظرين.

معلوم أن الشاهزادات العثمانيون لا يعفون لحاهم وفق تقاليد القصر. وشارباه مفتولتان على "الطراز العثماني " ، يبدو بوضوح أنه سيخرج في

سفرٍ طويلٍ.

يتسرب الهدوء قبل العاصفة من كل جانبٍ من جوانب الصورة.

انظروا، لقد خلع أميرنا قفاز يده اليمنى، فقد قال مكيافيلي " لا يمكن العمل في السياسة بالقفازات البيضاء " ، وعناداً منه؛ فضل اللون الأبيض في جميع قفازاته، ووجدوا خزانةً مليئةً بالقفازات البيضاء في قصره بعد إرساله إلى سالونيك، وهكذا فضل البياض في سياسته ودبلوماسيته.

ومن الغريب أننا نعيش في بلدٍ لا زال يتنفس فيه أولئك الذين ما زالوا يصرون على وصفه " بالسلطان الأحمر " ؛ على الرغم من أنه لم يصادق على إعدام سياسيٍ واحد. يا للأسف...

وأقول: إن كان هناك شخصٌ ما زال يحافظ على قفازاته وهي بيضاء؛ فليرم عبد الحميد بحجر!

فليرم!

رؤيا السلطان الأخير

يبدو ضرورياً أن يخطر في البال " حضارة الرؤيا " عندما تذكر " العثمانية " .

تتحدث الرواية أن السلطان عثمان غازي رأى في منامه ارتفاع قمرٍ من صدر الشيخ أدب عالي (Edebali) ووقوعه في أحضانه، ثم نمت شجرةٍ من سرته، وامتد ظلها إلى العالم.

فهل نحاول تفسير الحلم؟!

هناك إلى جانب الحدود الظاهرة المنظورة للدولة العثمانية كانت حدودٌ غير مرئيةٍ تبرهن على أن الدولة العثمانية في عالم هذا الحلم ليست محدودة بهذه الجغرافية المادية، يكفي التذكير " بالجشمة (ماء السبيل) العثمانية " في المكسيك، وقصة لا فونتين (La Fontaine) بعنوان "نحل العسل والنحل البري " [23] ، والتي يقول فيها: " يا إلهي! ليت لنا نظاما كالأتراك يقوم على عدالة تستند على الحس السليم ولا يغرق في عالم الأوراق! " .

وهكذا كانت أحلام العثمانيين لا تنتهي أبداً، وحسنٌ أنها لا تنتهي.

وربما كانت النظرة الثاقبة لياوز (السلطان سليم) التي لا ترى في من لا يحلم إنساناً، والتي تدفعه ليوقظ حسن جان ذات صباحٍ قائلاً: "تعال، واقصص علي رؤياك " ؛ إحدى أكثر الأدلة المؤيدة لهذه الرؤيا العثمانية.

أما الرؤيا التي حلم بها عبد الحميد خان الثاني فهي إحدى الأحلام الأخيرة الشهيرة التي ينبغي أن نرويها هنا، وذلك على الرغم، من الرؤيا الكاذبة التي حلم بها أنور باشا من بعده، فمعلوم أن هذا الحلم ترك الدولة العثمانية " مهدمة " .

عند حديثي ذات مرة إلى البروفيسورة غونسل رندة وهي من نخبة مؤرخي الفن في تركية عن دهشتي المتزايدة عند النظر عن كثب إلى عبد الحميد من الناحية الفنية، عبرت البروفيسورة عن دهشتها بالسلطان نفسه وهي تقول: " كيف حدث واختفى عن أعيننا - نحن مؤرخي الفن - كل هذه المدة الطويلة، ولم نقدره حق قدره " . ثم أضافت: " عجباً!، كيف استطاع أن يخفي نفسه جيداً إلى هذا الحد؟! " .

كيف اختبأ؟!..

ربما كان كل شيء يرتبط بسر هذا " الاختباء " .

يكشف البروفيسور سليم درينغيل (Deringil) أحد أعضاء الهيئة

التدريسية في جامعة بوغاز إيجي (Boğaziçi) من خلال أبحاثه المتعمقة بأن عبد الحميد موجودٌ وغير موجودٍ في آن واحد، موجود في كل مكان، وغائب عن كل مكان. فلا يمكنكم أن تجدوا صوراً له حتى المشروطية الثانية باستثناء صورتين؛ التقطت إحداهما عندما كان أميراً، والأخرى عند ارتقائه العرش، لكن أختامه باسم " غازي " لا تزال تتحدّث عنه؛ في مراسم التخرج المدرسية، ومطابخ المدارس، وأماكن العبادة العائدة للأديان الثلاثة بدار العجزة، ومحطة قطار المدينة، ومنارة مستشفى شيشلي للأطفال في إسطنبول، وعلى المدخل المُدَرَّج لثانوية (Işıklar) العسكرية ببورصة.

يطلق البروفيسور درينغيل (Deringil) على سرّه المثير هذا اسم " الظهور من غير ظهور " ، وهو في رأيي اكتشافٌ صائبٌ إلى أبعد حدٍّ. حسناً، ولكن كيف نجح عبد الحميد في الظهور من دون ظهور؟!

لقد مضى الآن على وفاته واحداً وتسعين عاماً، وعلى خلعه عن العرش مئة عامٍ، لكنه لم يغب عن الذاكرة على الرغم من الكم الهائل من المنشورات والدعاية ضده، بل يتفجر كالماء من الذاكرة المشتركة، ويتربع في أفئدة الشعب، وكان كما قال أحمد راسم، إنه الرجل النادر الذي استطاع أن يعود في يوم وفاته ليتربع على العرش من جديد، فكان يحضر في الأذهان عندما يقال " السلطان الأخير " .

فما الذي كان يحدث لهؤلاء المثقفين؟!.. لقد أخذ شريحة من القراء والكتاب على عاتقهم إسدال طبقةٍ أخرى من الظلام على الرجل الذي يستهدف في الأصل إخفاء نفسه، وقاموا بحملةٍ دعائيةٍ عظيمةٍ ضده عندما وجدوا الساحة فارغة بعد خلو العرش، وأثاروا فوضى عارمة، ولم يستفق الوعي الاجتماعي إلا بعد تعرض البلاد حتى مشارف عاصمتها للاحتلال. فعندما حملت صحف إسطنبول خبر هروب الباشاوات أنور وطلعت وجمال الذين استولوا على السلطة بمزاعم إنقاذ البلاد بعد تسليمهم البلاد للذئاب في زورقٍ ألمانيٍّ... نعم عندما انتشر الخبر ارتفع النواح والعويل: " لو كان على رأس البلاد عبد الحميد لما اندلعت الحرب، ولم نذق هذا القدر من المعاناة الأليمة " .

مقابلة الأبناء للآباء

هل بدأ الأبناء يفهمون حقيقة أبيهم عندما قابلوه؟!. فلعل هذا الحوار المباشر أزاح الستار المنسدل على أعينهم، وبدأوا يدركون الحقيقة المدهشة الكامنة وراءه، أو كأن المقابلة صفعة على وجوههم أيقظتهم من غيبوبتهم.

لفهم هذا يكفي أن نذكر مثالين هنا: المثال الأول هو نيازي رسن لي (Niyazi Resneli)، وهو من أوائل الذين شقوا طريقهم إلى الجبل في مقدونية متمرداً في سبيل المشروطية، والمثال الآخر هو شهادات المقربين من مراد ميزانجي الذي قام برئاسة جمعية جون تورك في أوروبة عدة سنوات. أسجل هنا انطباعات كل من هذين الثوريين الحماسيين وقد تغيرت نظرتهما بعد مقابلة عبد الحميد الثاني:

نستمع أولاً إلى السيد نيازي رسن لي " بطل الحرية " الذي قابل عبد الحميد بعد مشروطية 1908 مباشرةً:

لم يكن السلطان عبد الحميد يشبه على الإطلاق ما حدثونا عنه. كان حزيناً ومتعباً جداً بدا أنه أكبر من عمره. ولكن لا أستطيع أبداً أن أنسى حيوية عينيه وتأثيرهما. كانت نظراته عميقة الغور ثاقبةً كأنه يريد أن يعرف ما يجول في قلب الشخص الذي أمامه. لم أشعر أبداً بالذنب والندم، لأني لم أَكُنْ أُكِنُّ لذاته أي حقدٍ أو عداوةٍ. فقد قمت بالمقاومة الفعلية لأني اعتقدت أن إعلان المشروطية ضروريٌ من أجل أمن وسعادة الشعب والدولة [24] .

ستقرأون لاحقاً الظروف التي خرج في أثنائها نيازي رسن لي إلى الجبل. أما انطباعات مراد ميزانجي فكانت جياشةً جداً. قابل عبد الحميد قبل المشروطية. فقد ورد في إحدى المصادر هذه الأقوال القاسية التي وجهها مراد ميزانجي لموظفي القصر في طريق عودته من مقابلة السلطان:

جزاكم الله بأعمالكم! فبينما لدينا سلطانٌ كالملاك؛ فإنكم تعكسون آثاره للخارج في صورة أسوأ من آثار الشيطان. أليس هذا خزياً في الدين، وخزياً أمام ملايين الشعب؟ (...) كنت نشواناً بسعادتي. (...) آه، ما أنبل وما أعظم غزو في سبيل سلامة الشعب والدولة وإنقاذ مستقبلها، علاوة على إنقاذ هذا السلطان الذي يشبه الملاك، في جو من شكران الأصدقاء، وحسد الأعداء وحيرتهم!، فما الذي كان ينقصني لأقوم بغزوة مقبولة معطاء كهذه؟! [25] .

النضال في سبيل جامع

فاعليته في الإعمار جانب لم يسلط عليه الضوء بشكلٍ كاملٍ، أضف إلى ذلك الآثار التاريخية التي أنقذها. فله في صوفيا اليوم جامعٌ ضائعٌ بناه المعمار سنان. والضائع ليس هو الجامع فقط، بل كذلك المجمع المحيط بالجامع، ويضم مدرسة ومكتبة ومأوى للفقراء ومشفىً للمجانين وحماما وخانا، في مكان مبيت السلطان سليمان القانوني في سفره إلى موهاج (

Mohaç). يعود تاريخ بنائه إلى عام 1547 حسب ما دُوِّن في متحف الآثار البلغارية.

تم استعمال هذا الجامع كمستودع للذخائر منذ حصول بلغارية على استقلالها عام 1878وحتى عام 1901. ثم كان أن اتخذ قرار من قبل مجلس خاص أسس في ذلك العام لتحويل الجامع إلى معبد، وتم البدء مباشرةً بإجراءات التعديل.

تناهى الخبر إلى سمع السلطان عبد الحميد، فأبلغ البلغار بأنه على استعداد لإرسال مبلغ وفيرٍ من المال إذا لزم الأمر لبناء كنيسةٍ، شرط عدم المساس بهذا الجامع. تم إيقاف إجراءات التعديل لفترة بفضل التدخلات الدبلوماسية، لكن الأمر لم يحسم. فقدم السلطان للبلغار عرضاً جديداً ورضي بموجبه أن يتكلف هو بنقات تعديل الجامع إلى معبدٍ لا يشبه بشكله جامعاً على الإطلاق، مقابل عدم هدم الجامع. فمهما يكن من أمر؛ فإن التعديل أفضل بكثير من الهدم، لقد فضل الحفاظ على الجامع كونه بصمة من بصمات معماريٍّ محترفٍ كالمعمار سنان.

وهكذا تم تنفيذ قسم من مطلب عبد الحميد من قبل البلغار، وعملوا على إعطاء طراز كنيسةٍ بيزنطيةٍ لهذا المعبد من خلال التعديلات والإضافات. وتم تسمية جامع صوفو محمد باشا بكنيسة *Sveti Sedmoçislenitsi Kilisesi* عند افتتاحه الرسمي في 27 تموز عام 1903 [26] .

فليتحول الجامع إلى كنيسةٍ إذا لزم الأمر، المهم ألا يهدم الجامع، بل يكفي أن يبقى صامداً!

وإلا فهل توقّع للسلطان بما هو آتٍ؟ فربما يأتي يومٌ، ويظهر فيه الجامع بصورةٍ أكثر بهاءً، ألهذا السبب لم يهدم الجامع يا ترى؟!

فمن يدري؟ إنها أسرار عبد الحميد لا تعرف النهاية؟!..

غرفة نوم عبد الحميد

نحن قادمون من المجلس، ولدينا الفتوى، لقد عزلك الشعب، لكن حياتك في أمان [27] .

(كلام الوفد الذي أتى لإنزال
عبد الحميد من العرش)

أمام باب دائرة المابين الصغيرة المطلي بالطلاء الزيتي الأبيض في قصر يلدز، انهمرت هذه الكلمات من فم أسعد توبتاني باشا نائب دراج (Draç) بلهجةٍ ألبانيةٍ قاسيةٍ، واستمرت 8 إلى 10 ثوانٍ، ثم ساد الصمت، وسكتت الألسن، وتحدثت العيون.

حدق السلطان عبد الحميد ليس فقط في الشخص المتحدث، بل في ياوره [معاونه الشخصي] السابق فريق البحرية عارف حكمت باشا وآرام أفندي عضو أعيان الأرمن الكاثوليك الذي عينه قبل شهر في 19 آذار سنة 1909، ثم في إيمانويل قرة صو عضو نائب اليهود، وأخذ يتحدث بثبات في نبرة لوم: " ربما تقصدون الحل " ، ثم أضاف: " حسناً، ما هو السبب؟ " ،.. وشوهد عارف حكمت باشا وهو يخرج من جيبه ورقة، ويقرأ فتوى عزله عن العرش (الحل).

وهل بقي شيء من التفاهات لم تذكر في نص الفتوى؟! بدءاً من منع الكتب الشرعية وإحراقها [28] وصولاً إلى نهب الخزينة، وسفك دماء مواطنيه بلا سبب شرعي، وكثير من الكلام الفارغ.

حسناً، إذا كانت الادعاءات مستندة إلى أدلةٍ قطعيةٍ لهذا الحد؛ فلماذا لم يستعملوها كالرماح في حق السلطان عبد الحميد؟! ولماذا تلعثمت ألسنتهم بالكلام؟!... لأن أمين الفتوى حجي نوري أفندي المعروف بإخلاصه يعلم أن هذه الادعاءات التي دونها حمدي ألمة لي Elmal ı l ı أفندي (وهو نائب في البرلمان) في مسودة [29] بيان الفتوى ليس لها أساس من الصحة قانونياً، ولذلك امتنع عن التوقيع على الفتوى التي أرادوها بأي شكل من الأشكال، ورأى انسحاب السلطان بنفسه هو الأنسب، إلا أن مصطفى عاصم أفندي وهو واحد من أعضاء المجلس المعممين سحب حجي نوري أفندي إلى منعزل، وهمس له أن الاتحاديين عميت أبصارهم إلى الحد الذي يدفعهم إلى قتل السلطان إن لم يوقع على الفتوى، واستمر في الكلام معه حتى أقنعه بالتوقيع على الفتوى [30] .

دعونا نعود مرةً أخرى، إن رغبتم، إلى دائرة المابين الصغيرة بقصر

يلدز.

" أترك خدمتي لتقدير الله "

أراد عبد الحميد أن يعرف المقام الذي صدر منه قرار [العزل هذا]، لأنه لم يكن هناك قرار قاطع بفتوى الحل. زعموا أنه " المجلس الملّي " [31] ، على أساس أن القرار اتخذ من قبل المجلس، لكنه علاوة على أنه لم يترك لأحد فرصة التصويت ضد القرار، وعندما تخلف بعضهم عن رفع أيديهم لصالح القرار؛ فإن نظرات طلعت باشا القاسية وقد وقف إلى جانب سعيد باشا كانت كافية لإقناعهم! [32] .

لم يعترض سوى صوت واحد فقط، صوت واحد لا غير، من شيخ مسن ذي لحية بيضاء طويلة: " عارٌ عليكم، وحرامٌ عليكم!" قالها وهو يرتجف، وعيونه المبللة تجول في أرجاء المكان!، ولم يكن هذا الشخص للأسف سوى يورغيداس أفندي، وهو رومي من أعضاء الأعيان، وما لبث أن علت الهتافات من هنا وهناك: "حقير، خائن، رجعي" وساروا نحوه وهاجموه لإسكاته [33] .

إنه "المجلس الملّي" إذاً، وبناءً على هذا الجواب تفوه السلطان عبد الحميد بهذه الكلمات:

لقد عملت ثلاثةً وثلاثين عاماً من أجل ملتي ودولتي ومن أجل سلامة بلدي، وبذلت ما بوسعي في سبيل خدمتها. الله هو حاكمي، ورسول الله هو من سيقوم بمحاكمتي. أقوم بتسليم هذا البلد كالذي وجدته عليه، لم أتنازل لأحدٍ أبداً عن شبرٍ من أرضه. وأترك خدمتي لتقدير الحق سبحانه وتعالى. فما الفائدة، لقد أراد أعدائي أن يغطوا جميع خدماتي بلحافٍ أسودٍ، وقد وفقوا إلى ذلك **[34]** .

دوّت كلماته في دائرة المابين الصغيرة، حتى أنه يروى قوله للاتحاديين: "فليديروا هذا البلد عشر سنوات، وعندها سأعتبرهم أداروها مئة سنة".

كان انضمام أرمني ويهودي إلى الهيئة التي ستقوم بتبليغ الفتوى الدينية إلى خليفة الإسلام الشيء الأشد مرارة في وقعه على السلطان عبد الحميد [35] . فيما بعد سيخون أسعد توبتاني باشا الاتحاديين في حرب البلقان، وإيمانويل قرة صو الخبير الماسوني المشهور، الذي سيفر في نهاية الحرب بحملٍ من ذهبٍ أكلها سحتاً من حقوق اليتامى والأرامل من الإحالات التي أخذها في سنوات الحرب؛ إلى إيطالية التي تبين أنه يحمل تابعيتها، لكنه سيموت لاحقاً هناك قبل أن يتمكن من الاستمتاع بهذه الثروة [36] .

يتحدث الألباي العقيد حسام الدين أرتورك Ertürk Hüsamettin من مؤسسي التشكيلات المخصوصة، جهاز الاستخبارات، لصديقٍ له يدعى دبرة لي ذو النون Zünnün Debreli في مذكراته بعنوان عهدان من خلف الستارة *İki Devrin Perde Arkası* [37] عن عبد الحميد المخلوع في منفاه في سالونيك:

سترون يا يوزباشي! إن دخل الاتحاديون بحماسهم الطوراني في حربٍ مع روسية وإنجلترة معاً لا قدر الله؛ فسنشهد تفكك العثمانية وانحلالها. أسأل الله أن لا يدخلوا في استعراض القوة هذا!

وعندما تلاحقت الحوادث ورأى الألباي حسام الدين أرتورك ما رأى سأل وهو محقٌّ في سؤاله: "إن عبد الحميد الذي تكلم هذا الكلام عام 1909، إذا لم نقل عنه: إنه حكمدار [حاكم] بعيد النظر، فماذا يمكن أن نقول؟!". ونحن نقول لا إجابة على هذا السؤال!

في الحقيقة توجد إجابة ولكن أين؟!

نهب قصر يلدز

والآن دعونا نتناول نهب قصر يلدز الذي بدأ عقب إقصاء عبد الحميد عن العرش، ولنعمل على أخذ العبرة من هذه الحادثة.

كان ما حدث تماماً هو "نهب الخان"، (وأظنكم تعرفون من أين أتى هذا التعبير، أليس كذلك؟!. قديماً كان الأسياد والآغاوات الأثرياء يخرجون مع عائلاتهم في يوم من أيام السنة ويتركون دورهم وخاناتهم للنهب، فيقوم الناس بمهاجمتها وينهبون كل ما يجدونه فيها من الخيط إلى الإبرة. وقد كتب توفيق فكرت شعره المشهور "نهب الخان" على ذكرى نهب يلدز).

في ذاك اليوم كل من وجد شيئاً في القصر نهبه، وتم تحطيم باب الخزينة السرية التي بناها السلطان عبد الحميد تحت المسبح للأيام الصعبة، ونهب أحدهم تلك الثروة العظيمة وأخفاها من دون أن يبلغ مسامع المجلس، وبقيت في عالم الضياع تلك الأموال المنقولة والمنهوبة التي استحوذ عليها أولئك الاتحاديون الذين يزعمون أنهم فتحوا عصراً جديداً بإعلان الحرية. لكن حسام الدين أرتورك رجل "التشكيلات المخصوصة" أضاف: هذا المال "الحرام" لم يكن لهم عوناً أيضاً. وانطفأ الموقد الملتهب المشع، وتشتت الجميع كسربٍ صغيرٍ من الطيور المذعورة، ولفظ بعضهم أنفاسه الأخيرة في الديار النائية برصاص الأرمن، وبعضهم داخل البلاد على حبال المشانق على شجر البلوط في إزمير بقرار المحكمة التي عقدت في قضية مشاركتهم في الاغتيال.

عندما بلغت شائعات التشكيك ذروتها، تذكر المتورطون في نهب خزائن قصر السلطان "السلطان الأحمر" كما أطلقوا عليه، والذي يفترض أنه قاتل آلاف البشر؛ بأن عليهم محاسبة المجرمين، وكلف بهذه المهمة الوفد الذي كان من عداده الروائي خالد ضيا صبـي [الاتحاديين]، وهنا كان هذا المشهد الذي يصلح للعبرة والاعتبار في قصر ذلك الرجل الذي قيل: إنه المتلذذ بسفك الدماء، والمنغمس في المتعة مع ألفٍ من الجواري، إنه مشهد للاعتبار.

فلنترك خالد ضيا يتحدث، ونحن نستمع إليه في هدوء:

"لم نتمكن من رؤية غرفة نومه"

كنت أقول: إن الدهشة الأولى بدأت مع الخطوة الأولى. أهذه هي الدائرة الخاصة (Hususiye Daire-i)؟!... و هل محور جميع سياسات عبد الحميد كان عبارة عن سقفٍ منخفضٍ، وركنٍ ظليلٍ، وخزانةٍ مكتظةٍ بحزم الأوراق؟!

بعد المدخل مباشرةً أشاروا إلى ديوانٍ في أوَّلِ غرفةٍ مظلمةٍ : هنا مكان استراحة السلطان عبد الحميد، وربما سريره .. في الحقيقة لم نر في هذه الدائرة الخاصة غرفة نومٍ حتى بأبسط أثاثها. و بجانب الدائرة الخاصة كان هناك بناء جميل للغاية مؤلف من طابقين، لم يبق فيه أثر لأي أثاثٍ (....).

في مكان ما في الدائرة غرفةٌ يمكن أن نسميها " غرفة الكتابة " كانت تحوي أشياء متنوعةٌ جميلةٌ جداً، وذات طرازٍ جديدٍ، وكان بعضها ثميناً جداً. وبعد إلقاء نظرة سريعة على هذه الأشياء... الأقلام المرقمة والتي تظهر عليها الكتابة، ورؤية الحمام الخاص بالسلطان، وفي طرفه طبق فيه بقايا بيض مأكول على صينية، وبعد رؤية المنشرة التي هي مكانه الترفيهي الخاص [38] ؛ عدنا إلى غرفة بالمابين الصغيرة... [39] .

منير سيرار Sirar أخو صالح منير (orlu Ç) باشا [40] أحد الشهود الأكثر قرباً من القصر؛ يكبر لنا إذا صح التعبير صورة ذلك السرير الذي رآه خالد ضيا. ذلك الصوت الذي أضرم النار في أعماقنا؛ يهمس في أرواحنا بهذه الجملة الرصاصية:

العجيب في الأمر هو أن سرير عبد الحميد كان من النوع الذي يستخدم في أسوأ المستشفيات [41] .

كان أعضاء الوفد الذين لم يعثروا على غرفة النوم الأسطورية للسلطان عبد الحميد والذين زعموا أنه يعيش في إسرافٍ ومجونٍ ومتعةٍ مع آلاف

النساء في القصر؛ مصدومين تماماً عندما أدركوا بأن السرير الذي وجدوه أخيراً هو أحد الأسرة المتنقلة المستعملة في أسوأ المشافي.

لم ينم السلطان عبد الحميد أبداً في الغرفة التي مر ذكرها في بعض الآثار المنشورة باسم " غرفة نوم عبد الحميد " . وفي غرفة نومه الثانية صُمم سريره بصورةٍ يمكن القول بأنها غير مريحةٍ، حتى لا ينام نوماً مريحاً. وفي الغرفة الثالثة وضع فيها سرير (محمولٌ) أي سريرٌ يمكن مده وطيه، كما رآه خالد ضياء. وقد بين حجته على النحو التالي: " الجندي ينام هكذا، وأنا كذلك؛ أنام مثله " . وقد أخبر الدكتور نظيف باشا بأنه مرتاح جداً على هذا السرير [42] .

هذه هي القصة يا أصدقائي الأعزاء!، والذين يسألون " أين تكمن عظمة عبد الحميد؟ " ؛ أريهم فقط سريره المتنقل ذاك، مع طبق البيض في القصر، وليس شيئاً آخر!

إن نومه على السرير [43] الحديدي المتنقل المستعمل في أسوأ المشافي يضيف حلقةً جديدةً إلى الألغاز التي عاشها عبد الحميد في حياته، ويرغمنا على السعي للتعرف عليه بشكلٍ أعمق.

وهذا لغز آخر من تلك الألغاز: كيف يقوم حاكم يقال عنه: إنه " حكمدار ظالم حكم البلاد ثلاثة وثلاثين عاماً باستبداد " ؛ .. كيف يلغي عقوبة الإعدام تقريباً، ويعفو باستمرار عن ملفات حكم الإعدام التي تُرفع إليه؟!

دعونا نرى...

السلطان الذي وقف ضد الإعدام

تم في خلال 600 عام ونيّف من تاريخ الإمبراطورية العثمانية تنفيذ عقوبات إعدام متعددة، ولكن كان هناك سلطان وقف بقناعةٍ ضد الإعدام، فكان يعيد الملفات التي تأتي إلى طاولته، مع بعض الاستثناءات لإعادة صياغتها، أو يخفف العقوبة بموجب صلاحياته إلى السجن المؤبد، أو الأشغال الشاقة!

فمن هو هذا السلطان؟

في الحقيقة كانت الكتب التي ألفها أعداؤه لا تكتفي بنعته بالسلطان الأحمر، بل تضيف إليها جملة من الصفات الوحشية كالسلطان الملعون، والسلطان الدموي، والسلطان السفاح. حتى أن المسجل الماسوني بول دو ريغلا الذي لم يستطع أن يشفي غله فكتب ملفقاً الأكاذيب [44] : " لقد غرق في متاهات الجرائم والأنشطة التعسفية، فترك بذلك بصمة لا تمحى على عهد سلطنته " .

لا أعلم إن كان هناك شيء اسمه "وجدان التاريخ " ، فإن كان موجوداً فلا بد أنه ينفطر حزناً على هذا الظلم!. لفّقت الأكاذيب الكثيرة بحق السلطان الذي لم يصادق على أي حكم من أحكام الإعدام السياسي طيلة فترة سلطنته، أو من تجميع طلاب الحربية وإلقائهم في البحر، إلى هوسه الجنسي. لقد أحرج الاتحاديون، بعد إنـزاله من العرش، وعاشوا حالة الضيق لعدة سنوات؛ لأنهم لم يتمكنوا من الحصول على دليلٍ واحدٍ يدينه على الرغم من محاولاتهم الكثيرة المتكررة.

لكن التاريخ لم يكن متعجلا في غسل وجهه وتبرئته، ففي أواسط القرن العشرين كانت الوثائق التي تكشف بياض جبينه لتملأ المكتبات وكأنه الماء النقي الذي يتدفق من الأعماق.

تعالوا نحوّل آذاننا إلى أحد هؤلاء الشهود، وننصت إلى جلال بيار أحد رؤساء جمهوريتنا ورئيس الوزراء الأسبق، وهو يتحدث عن " السلطان الوحش " :

لم يقم بأي تصرف ضد أي قاض يخالفه ولم ينقض قرارات محكمة أو دعوى قضائية. وقد ترك الشؤون المتعلقة بالقضاء والعدلية إلى ناظر العدلية عبد الرحمن باشا. فكان لا يتدخل في أعمال القضاء . وعبد الرحمن باشا كان حازماً وحذراً إلى حدٍ بعيدٍ في هذا الموضوع. كان يرفض التدخل ولا يقبله أساساً، أياً كان التدخل وممن كان. والسلطان عبد الحميد

يرحب بتصرفات عبد الرحمن باشا ويقدرها. ولهذا كان عبد الرحمن باشا على رأس أجهزة القضاء والعدلية في زمانه وأهليتهم وكفاءاتهم؛ من الشخصيات القيمة التي تستحق البحث عنها حتى في وقتنا الحاضر [45] .

فنحن لا نعلم على سبيل المثال أن تنظيم وزارة العدل في البروتوكول الحكومي إنجاز من إنجازات عبد الحميد، لماذا؟ لأنه كان قد أولى أهميةً كبيرةً للعدالة ولعبد الرحمن باشا... ولهذا السبب تم تقديم وزير العدل (ناظر العدل) على وزير الحربية (ناظر الحربية) في بروتوكول الامبراطورية. وهذا الترتيب يستمر بصمت إلى يومنا هذا على الرغم من انقضاء مئة عام ونيف [46] .

بإمكانكم أن تنتقدوا عبد الحميد لتفرُّده في الحكم. يمكنكم أن تسددوا إليه كل سهام الهجاء والذم لأن الصالح اختلط بالطالح. ويمكنكم أن تعتبروه علة لأنه يتدخل في كل تعيين وتوظيف، لكنه هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، كان حساساً جداً في موضوع القضاء، ولم يتدخل في تعيين القضاة، كما أن رجال استخباراته المشهورين لا يمكنهم أن يعطوه إخباراً واحداً بحق القضاة والقضاء. وهذه الحقيقة كانت للأسف مجهولةً بما فيه الكفاية، فكان " استقلال المحاكم " على حد تعبير نامق كمال، أي استقلال القضاء أحد دعائم نظامه الذي بناه.

ولكن ألم يُعدَم أحدٌ في حقبة عبد الحميد؟!. إنه أمرٌ مثيرٌ ألاَّ نجد أحداً أعدم بجريمة ٍسياسيةٍ في حقبته إذا قارناها بحقبة الجمهورية التي شهدت إعدام رئيس وزراء. لكن الإعدام بسبب جنايات عادية كان موضوع نقاشٍ، وكان عدد هؤلاء بعدد أصابع اليد الواحدة، فلا تجوز المقارنة بين 36 عقوبة إعدام عقب استفزازات منمن Menemen وبين 11 عقوبة إعدام لم تصدر سواها طيلة 30 عاماً ونيّفاً. وقد تم الإعدام لسفاحين وقتلة الآباء والأمهات، وبعبارةٍ أخرى لم يتمكن أن يعفو عن هؤلاء لأنه فقد أمه وأباه في سنٍ مبكرٍ. علاوة على أنه وقع على عقوبة الإعدام بحق آغا الحريم الذي قتل صديقه في القصر بلا سبب حتى لا يكون قدوةً سيئةً للآخرين.

ثم بعد ذلك نرى أنه صفح الصفح الجميل عن الشخص الذي أراد قتله في حادثة تفجير القنبلة أمام جامع يلدز. وكأن هذا العفو عن الرجل الذي تعمد قتله غير كافٍ، فيستخدم ذكاءه لتسخيره في خدمة الدولة، ثم ماذا! ندعوه " بالسلطان الأحمر " و " السفاح " !

أخشى أن يستمر ترددنا إلى أيام نبحث في خلالها عن مكانٍ مناسبٍ في ذاكرتنا لنعلق فيها صورة السلطان الأحمر الذي صفح عن من سعى

إلى قتله، بعدما حكم عليه بالإعدام.

وستبقى القصة ناقصة حتى أشاطركم هذه المعلومة:

المحكوم عليهم بالإعدام إلى الأعمال الشاقة

يتجاوز عدد أحكام الإعدام التي صدرت بحق الذين قاموا بجرائم عادية غير سياسية وفكرية 100 حكم، في خلال أربعة عشر عاماً من خدمتي ككاتب، صادق السلطان على حكم إعدام واحد فقط بحق الوحش الذي قتل والده ووالدته. أما أحكام الإعدام الأخرى فكان يخففها اعتماداً على أسباب الجناية إلى السجن المؤبد أو الأعمال الشاقة لمدة عشرين أو خمسة وعشرين عاماً أو أقل من ذلك... وتخفيفه لعقوبة الإعدام باستمرار إلى عقوبة السجن ما يزال موثقاً في سجل أوراق الخزينة .

الناقل من مذكرات باش كتاب المابين رشيد بك: إسماعيل حامي دنشمند، حادثة 31 مارت، إسطنبول 1961، دار إسطنبول، ص 146-147 .

كانت هناك عقوبة إعدام فريدة من نوعها صادق عليها عبد الحميد بعد تنفيذ الحكم بأمر من كمال باشا والي إزمير (الصدر الأعظم في ما بعد)، لم يطلع السلطان عليه لأنه كان يعرف أنه لن يصادق عليه، فكانت مصادقة السلطان عليه مكرها كأمر واقع. كان الأرمني الذي أُعْدِمَ من أعضاء الجمعيات، مذنب، قتل سركيس باليوز أوغلو بك أحد أغنياء الأرمن في إزمير بإطلاق أربع رصاصاتٍ عليه وسط الشارع. وتنفيذ الإعدام هذا الذي تم تنفيذه في إزمير في تلك الفترة كان حدثاً كبيراً حسب ما يرويه الكاتب. " كان الناس يشاهدون جثة القاتل بدهشةٍ ورهبةٍ لأنه لم يعتادوا رؤية رجلٍ مشنوقٍ " [47] . لكن في فترة الاتحاديين أصبح الشعب يغير طريقه ليتفادى رؤية منصّات الإعدام. إنه فرق كبير أليس كذلك!؟

حتى غبار القرآن؛ كان عبد الحميد يحترمه !

"أنـزل القرآن الكريم في مكة، وقرئ في القاهرة، وكتب في إسطنبول " كلامٌ يجري تداوله عن ألسن الكبار. في هذا الكلام الوجيز تلميحٌ عميقٌ بأن كل خطاطٍ في إسطنبول كان يعمل بإتقانٍ تماماً مثل آلة الطباعة [48] ، حتى أن الخطاطين في إسطنبول لم يكونوا يبيعون المصاحف التي يعتقدون أنها من أجمل ما كتبوه، بل يرسلونها هديةً توضع عند الروضة الشريفة لمحمد صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، والسلاطين أيضاً شاركوا في هذا التقليد، فالسلطان أحمد الثالث شارك بمصحفين اثنين كتبهما بيديه.

على الرغم من وصول آلة الطباعة بالحروف العربية إلى أراضي الدولة العثمانية قبل فترةٍ طويلةٍ في العام (1727)؛ لكنه لم يسمح بطباعة الكتب الدينية - وعلى الأخص القرآن الكريم - بواسطة هذه الآلة حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهذه النقطة تحتاج إلى تفسير، فمن وقت لآخر يساء استعمالها من بعض الجماعات. كما كانت حماية الموارد المعيشية للخطاطين - حيث كانت كتابة القرآن الكريم تشكل مصدر رزق الخطاطين الأساسي - لعبت دوراً هاماً في هذا بلا شك، ولكني أعتقد أن هناك قلقٌ جوهريٌ آخر، ألا وهو:

فقد كانت الأخطاء التي يمكن أن تقع من الكاتب في الكتب المخطوطة باليد يجري تصحيحها بحكها بالسكين أو بمحوها بطرف اللسان [49] . لكن ذلك عسير في الكتاب المطبوع، ولا يمكن التدخل لتصحيح الأخطاء بعد كتابتها، فكما أن أدنى خطأ في حركةٍ يؤدي إلى التغيير في نص القرآن الكريم؛ فإنه يصعب تصحيحه، ويشكل عبئاً معنوياً شديداً، ويؤدي إلى عواقب لا رجعة فيها.

أضف إلى ذلك أنه - كما قال جودت باشا آنذاك - يجب أن نقبل الدور الذي يلعبه أيضاً الخوف من انتهاك حرمة القرآن في خلال عمليات الطباعة في ذاك الزمن؛ من ضربٍ بالمطرقة، وثقب بالمخرم، وضغط بالمكبس. والعناية بألواح الطباعة وعدم إلقائها على الأرض، والعناية الدقيقة بها إذا تحطمت، ومحافظة العمال على الوضوء طيلة فترة الطباعة، كل هذا كان يزيد من عبء العمل المطبعي. أعرف صاحب مطبعة قديمة في جغل أوغلو Cağaloğlu امتنع عن طباعة المصاحف لمجرد احتمال أن عمال مطبعته لن يظهروا الاحترام والحرص المطلوب للقرآن الكريم.

هذا يعني أن الأمور لا تتوقف على وصول المطبعة، بل لا بد من توظيف الحريصين المؤهلين للقيام بطباعة النصوص الدينية، وتهيئتهم وتدريبهم. فكان معظم العاملين في الطباعة، وعلى الأخص منضدو الحروف المطبعية الذين يلعبون الدور الرئيس في الطباعة؛ كانوا من غير المسلمين. ففي ظل هذه الأوضاع نسأل: هل كان يمكن السماح لمطابع أراكيل Arakel وقرابت Karabet بطباعة القرآن الكريم؟!

أترك هذه المسألة الدينية لكم...

احترام العثماني ي ن للقرآن

كان الطلب الذي تقدم به إبراهيم متفرقة Mütefarrika صاحب أول مطبعة بالحروف التركية في العام (1727) لطباعة كتب غير دينية خوفاً من أن تحدث طباعة الكتب الدينية على الآلة مشكلةً عَقَديه تدفع ببعضهم إلى عداوة المطبعة. ولهذا السبب فضل مؤسسو المطابع أن يتجنبوا المجال الديني في طباعة الكتب ويريحوا رؤوسهم بحصر الطباعة بالمجالات الدنيوية مثل الجغرافية والتاريخ والقواعد والمعاجم.

فإن تذكرتم حوادث تخريب المطابع وإحراق عمالها على أنهم سحرة في إسبانية وإنجلترة؛ فستدركون أن هذه القضية لم تنشأ من فراغ. وعلى الرغم من ذلك؛ لم تكن الفتوى تحظر طباعة الكتب الدينية، بل أصحاب المطابع هم الذين نأوا بأنفسهم عن الدخول في هذا المجال المحفوف بالمخاطر.

علمنا مؤخراً من صحيفة عربية أن أول نسخةٍ مطبوعةٍ للقرآن الكريم في العالم؛ كانت بأيدي عمال الطباعة البنادقة. فقد تمت وفق هذا الخبر طباعة أول نسخة من القرآن الكريم في البندقية عام 1537، وتم إخفاء هذه المعلومة سنواتٍ عديدةٍ خوفاً من إساءة فهمها من قبل المسلمين، وقد أعلن البروفيسور السعودي يحيى محمد جنيد الخبر لأول مرة في آذار عام 2006 من الرياض، وتم نشر الخبر في 15 آذار عام 2006 في صحيفة الشرق الأوسط [50] .

ثم ظهرت طبعات مختلفة أخرى للقرآن الكريم، توزعت في العالم الإسلامي والدولة العثمانية، فشكل وصولها ضغوطا دفع الحكام العثمانيين إلى اتخاذ التدابير، وجعل موضوع طباعة القرآن الكريم موضوعاً اضطرارياً.

أما في العالم الإسلامي فقد ظهر القرآن المطبوع لأول مرة في مدينة قازان عام 1801، ويتم بعد هذا التاريخ طباعة القرآن كلما استدعت الحاجة في البلدان الإسلامية المتنوعة، وأصبحت البلاد العثمانية تستقبل نسخاً

مطبوعة متنوعة، وربما كانت بينها نسخ تحمل أخطاء. وقد ضبط قسم من هذه النسخ التي كانت تطبع في روسية ومصر والهند، فتم ضبطها وجمعها وإحراقها مباشرةً في كولخانة külhanlarında [51] .

بعد مدة طويلة، أصبحت طباعة المصاحف كنهر فاض عن مجراه فلا يقاوم مقارنة بالمصاحف المخطوطة من جهة انخفاض تكاليفها وأثمانها وسرعة انجازها وتدفقها، وتبين أن حظر طباعتها لا يمكن أن يشكل حلاً، وكان الحل الأمثل هو أن نطبع بأنفسنا مصاحف صحيحة ومن دون أخطاء. وسنرى كيف تحقق ذلك مع الزمن. حيث أخذت الدولة العثمانية وبالأخص في حقبة عبد الحميد الثاني زمام المبادرة، لتصبح إسطنبول أفضل مكان لطباعة القرآن كما كانت أفضل مكان يكتب فيه، وبدأ العالم الإسلامي يتعرف إلى القرآن المطبوع ويتلقاه.

طباعة أول مصحف في الدولة العثمانية

وأخيراً طبع المصحف الأول في عهد السلطان عبد العزيز عام 1875-1876 (1291هـ) في مطبعة العامرة. واتخذت هذه الطبعة النسخة البديعة التي كتبها محمد شكرزاده أفندي المنحدر من مدرسة الحافظ عثمان، والتي أهداها إلى الروضة الشريفة في المدينة المنورة كما ذكرنا آنفاً؛ أساساً لطباعة هذه النسخة. وبذلك تحمل المصاحف المطبوعة منذ ذلك التاريخ بصمة وتوقيع أحد كبار أساتذة الخط عندنا.

وكان لا بد من الانتظار بضع سنوات لمأسسة هذا العمل. ويبدو أن مطبعة الدولة المعروفة بمطبعة العامرة المتخصصة بطباعة القرآن كانت عاجزة عن تلبية الطلب المتزايد على المصاحف، لذلك قرر السلطان عبد الحميد خصخصة عمل طباعة القرآن. وبدأ البحث عن خبير طباعة من الخارج.

كان السلطان عبد الحميد المعروف بحرصه في الأمور الدينية لا يثق بأصحاب المطابع، وعلى الرغم من رغبته الشديدة لم يمنح أحداً منهم إذناً بطباعة القرآن، وكانت الفكرة في ذهنه هي كالتالي:

كان لا بد من تحرير القرآن الكريم الذي حمل أخطاءً من أيدي الأوروبيين وتجارهم، ولذلك كان لا بد من إيجاد بديلٍ مسلمٍ يمكنه أن يطبع المصاحف بلا أخطاء وبأعدادٍ كبيرةٍ، ولكن كيف؟!

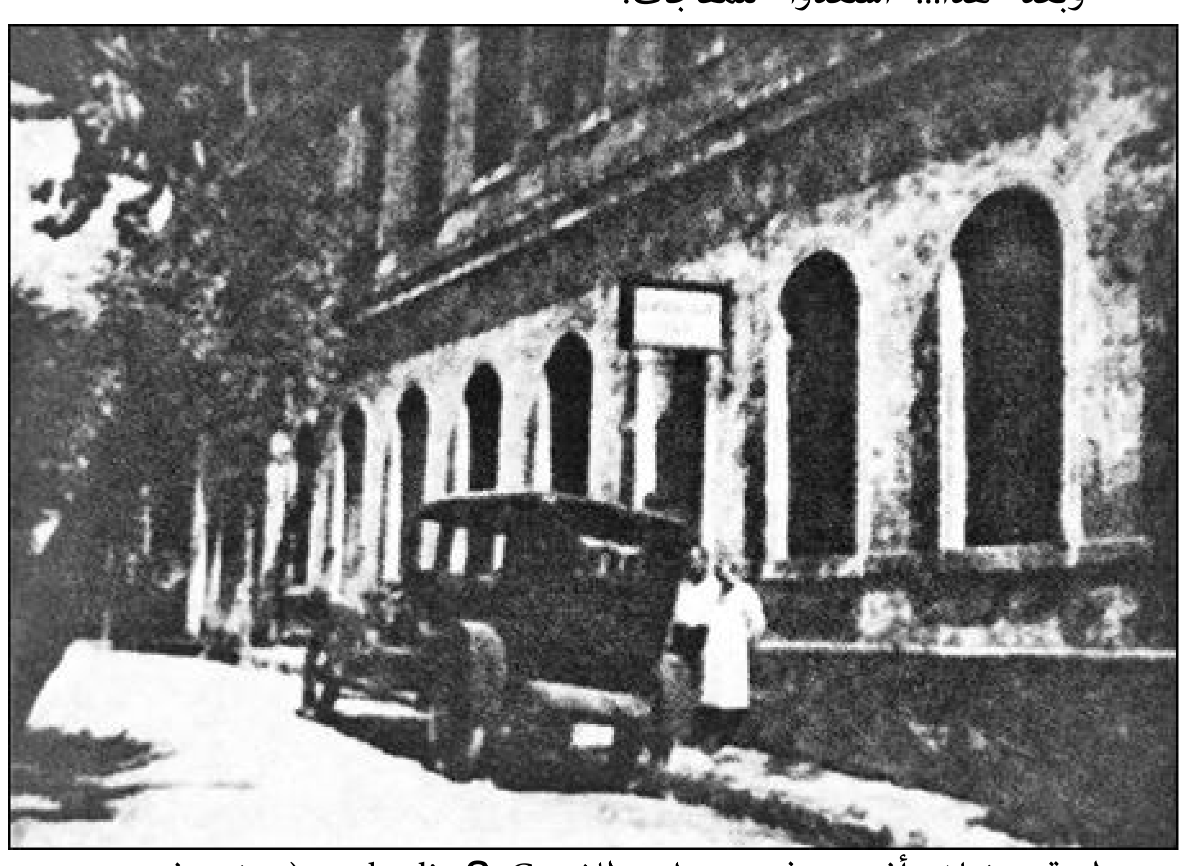
الاسم الذي استقر عليه عبد الحميد بعد بحثه الطويل كان الحافظ عثمان ذكي أفندي المتخصص بالطباعة والمنحدر من عائلة راسخة في الخط. تعود صداقة عبد الحميد مع عثمان ذكي أفندي الذي ارتقى إلى منصب

رئيس المابين، ويقابله السكرتير العام اليوم؛ إلى أيام الطفولة في القصر. ولهذا السبب لم يقتصر عبد الحميد على منح عثمان ذكي أفندي الذي يعرفه جيداً شرف (امتياز) طباعة القرآن الكريم، بل دعمه، وشجعه أيضاً.

انتقلت المطبعة العثمانية المكونة من أحدث الآلات والتكنولوجية لأول مرة عام 1878 بعد ست سنواتٍ إلى جمبرلي طاش Ç emberlitaŞ ، لتنشط في عملها سنواتٍ طوال. كانت آلات الطباعة الثماني عشرة في المطبعة القائمة في بناءٍ على شكل مستطيل ذي طابقين؛ تعمل على البخار بكامل طاقتها. وكان عثمان ذكي أفندي يظهر الحرص والاحترام اللازمين للمطبوعات، وبعد اجتياز مرحلة التنقيح والتدقيق يقوم به رجال العلم، تصبح الصيغة النهائية جاهزة للطباعة [52] .

وفي عام 1889 نشْهد تأسيس مجلس الحفّاظ *Huffâz Meclis-i* ، لإتمام هذا العمل المتقن الذي لا يحتمل أي خطأ. دعنا نقول قبل أن ننسى إن هذا المجلس كان طليعة مؤسسة تدقيق المصاحف في وزارة الشؤون الدينية التي تأسست بقانونٍ صادرٍ عام 1938 [53] .

وبعد هذا... استعدوا للمفاجآت:



مطبعة عثمان أفندي في جمبرلي طاش Ç emberlitaŞ (تنتشر فيه دور السينما حالياً)

مفاجآت عبد الحميد

المفاجأة الأولى: مرةً أخرى وبتشجيع من عبد الحميد؛ تم بناء حي عثمان بـي بمنطقة شيشلي في إسطنبول من قبل عثمان أفندي صاحب المطبعة بالأموال التي تم ربحها من طباعة القرآن الكريم [54] .

المفاجأة الثانية: كانت مطبعة عثمان بك مقابل جمبرلي طاش مكان البناء الضخم الذي يضم في أسفله مراكز التسوق ودور السينما، وهناك في الطوابق العلوية لهذا البناء لا يزال معهد فرات التعليمي FEM ومركز فرات الثقافي FKM قائمين إلى يومنا هذا.

والحقيقة أن هذا البناء الذي دخلت إليه وخرجت منه عدة مرات، وشاركت في الاجتماعات التي أقيمت فيه بحماس، وألقيت فيه المحاضرات عندما علمت أنه كان ذات يوم مكاناً لمطبعة تطبع القرآن الكريم ليلاً نهاراً، وقفز أمامي فجأة سؤال ذكي: ترى هل تم اختيار هذا المكان خصيصاً من أجل هذين المركزين؟!. آمل أن أجد ذات يومٍ جواباً على هذا السؤال.

بينما كنت أكتب هذا المقطع أذهلني الأخ أوغور درمان الذي أعتبره هبة لي بهذه المعلومة التي سلطت الشعاع على أسطري، فحدثني عن أستاذه الكبير الخطاط نجم الدين أوقياي: " أنشأ عبد الحميد مجاري مائيةً منفصلةً لمياه المطبعة الملوثة " . أتريد السبب؟ قطعاً إنه الغبار الناتج عن طباعة القرآن الكريم حتى لا يختلط بالمياه الملوثة الأخرى في مياه المجاري [55] .

لا يمكنني أن أعطي جوابا أفضل من هذا على من يسأل: لم كل هذا التركيز على عبد الحميد؟!

تنظيمات عبد الحميد للفحم والأضحية

في أي مكان أو زمان وقعت مصيبة كزلزال مدمّر (...)، ما إن يبلغ خبرها سمع السلطان حتى يبادر إلى مساعدة المتضررين وتلبية احتياجاتهم (...) وتعزية القلوب الحزينة اليائسة، ليبعث الأمل فيها.

لويس ألبري صابونجو زادة *1* [56] (*1989*)

أعتقد أن مشاهد المعونات في أعياد الأضحى في السنوات الأخيرة ستكون ذكرى على أنها فجر ليقظة [جديدة]. فقد عشنا سابقاً روعةً لا توصف بذبح 60 ألف أضحية في جنوب شرق تركية، آلاف البشر شعروا بعيدهم إلى جانب إخوانهم في انتظام لا يمكن رؤيته إلا في حال " سفربرلك " [نفير عام]. سعدوا وأسعدوا. ولم تكن الدولة أيضاً بعيدةً عن هذا الجو المفعم بالرضا، فتم توزيع خمسة ملايين طن من الفحم في عام 2007 لأصحاب الحاجة، واختلط الولاة ورؤساء البلديات بالشعب، وساد في الرأي العام جو من الوئام. أعتقد أنه بإيجاد " مثل هذه التقاليد " وإحياءها فقط سيكون كفيلاً بالحفاظ على حيوية المجتمعات العصرية.

لكنه عندما يذكر تنظيم " التقاليد " وإيجادها؛ فإني لا أتصور أن أحداً في تاريخنا القريب يمكنه أن يضاهي السلطان عبد الحميد الثاني، فيده السخية التي تمتد من احتفالات الختان الجماعية التي لا تزال تجري حتى يومنا هذا، واحتفالات تأسيس الدولة العثمانية في سوغوت S ö tüğ ، وأعياد " فتح إسطنبول " إلى " الصدقة السنية " ، والهدف المرجو من جميع هذه الفعاليات بالتأكيد هو " تعزيز هوية مشتركة بين العثمانيين " ، و " هيكلة علاقات الدولة والمجتمع، في إطار علاقات إيجابية ومتكاملة شاملة " . وهذه الجهود وأمثالها كانت في سبيل " فتح العثمانية من جديد " أو " الفتح الداخلي " .

تقدم لنا أبحاث نادر أوزبك عضو الهيئة التدريسية في جامعة بوغاز إيجي، وكتابه بعنوان الدولة الاجتماعية في الإمبراطورية العثمانية [57] ؛ معلوماتٍ مقنعةٍ عن حركة عبد الحميد في هذا الفتح، وكيفية تنظيمه للمساعدات التي تعمل على زيادة الرفاهية الاجتماعية من خلال تنظيم هذه التقاليد الجديدة.

فلنتناول " الصدقة السنية " على سبيل المثال، فمن المؤكد أن السلاطين أيضاً كانوا يقدمون الصدقات، لكنها عند عبد الحميد كانت تأخذ الصفة الرسمية بهذا التقليد، وتصبح " ظاهرة " على يديه، وصورته واقفاً إلى

جانب الشعب في كل مناسبةٍ باعتباره رأس الدولة والسلطان بقيت محفورة في الأذهان. وقد استخدم في ذلك وسائل الاتصال الاجتماعي المتوفرة في عصره.

فالكتاب يلفت الانتباه إلى ذبح الأضاحي كل جمعة في سمت مختلف عن إسطنبول، وتوزيعها صدقة على الناس المحتاجين باسم السلطان. كان يبدى اهتماماً بالأحياء التي ينتشر فيها الفقر ويكثر فيها الفقراء، فيرسل المماليك من القصر إلى ذاك الحي، فتذبح القرابين باسم السلطان، ويعاونهم الدروايش والطلاب، ويقومون بتوزيع اللحوم على الناس المحتاجين. ففي خبر لمجلة الصباح بتاريخ 13 شباط 1899 على سبيل المثال؛ توجهت لجنة من القصر إلى Kâğıthane ، وقامت باسم عبد الحميد بتوزيع 300 ليرة صدقة، ثم قدمت 18 قرباناً، وتقاسم أهالي القرية الفقراء اللحم في ما بينهم، وبعد ذلك، وفي طريق العودة وعند وصولهم إلى علي بـي كوي تم توزيع 100 ليرة أخرى صدقة للمحتاجين أرسلها السلطان أيضاً.

إذا فكرنا بالمنطق الحالي؛ يمكننا أن نظن بأن المعونات وزعت فقط على المسلمين!. لن نكون على صواب، فالهبات والمعونات التي قدمها عبد الحميد لجماعات اليهود والروم والأرمن لا تعد ولا تحصى، وإذا أردتم مثالاً ملموساً فلنذكره.

كان عبد الحميد على سبيل المثال يلتمس الوسائل الكثيرة ليقدم العطايا (والهبات) إلى وجوه الأرمن لتسليمها إلى الشرائح الفقيرة على شكل معونة اجتماعية. ترى من يعلم اليوم عن إرسال 50 أوقة okka [58] لحم، و75 أوقة من الخبز الخاص كل يوم إلى مشفى الروم، و150 أوقة لحم مع 600 أوقة خبز إلى مشفى يدي قلة Yedikule للروم؛ من مشفى حميدية للأطفال الذي أصبح في ما بعد مشفى شيشلي للأطفال، علاوة على تخصيص 12 ألف قرش كعطية سنية كل شهر؟!

يبرز نادر أوزبك عبد الحميد في كتابه عكس ما قيل عنه، فينفي كل ما قيل عليه، ويعترض على صورته كحاكم قاسي القلب عديم الرحمة. فيلفت الانتباه إلى أنه في مجال المساعدات الاجتماعية ارتفعت في زمانه نسبة النشاطات الاجتماعية ارتفاعا يستحق التسجيل وتوسعت إلى ميادين كثيرة، ربما جرى التضييق على الجمعيات ذات التوجّه السياسي، لكن الجمعيات التي تستهدف الإعانة الاجتماعية فقد أُجيز لها سواء أسست من قبل مسلمين أم غير مسلمين.

كان تأمين الوقود للشعب الفقير أحد مَهام المعونة الاجتماعية. إن

تميز عبد الحميد وأصالته لا تكمن فقط في تقديم هذه المعونات من خزينة الدولة أو من صندوق المال العام، بل كان الإسهام الأول من جيبه الخاص، ومساهمته الشعب في التوزيع. وإن لزم المثال، فإنه في عام 1888 شكّل هيئة للمعونة الشتوية، وبدأ السلطان الحملة من جيبه الخاص فاشترى ألف ليرة من بطاقات المساعدات المطبوعة بقيمة ثلاث آلاف ليرة. وفي شتاءٍ سابقٍ بست سنوات، اشترى ناظر الخزينة الخاصة الذي يدير أموال السلطان الخاصة 500 طن من الفحم، ووزعه على شعب إسطنبول.

وباختصار، كان السلطان عبد الحميد عند اقتراب أشهر الشتاء يرسل التعليمات اللازمة إلى الوجهاء، لتسجيل أسماء المحتاجين والمشردين واليتامى في أحيائهم فرداً فرداً، ويخصص لهم معونات المال والوقود. وفي خلال ذلك يعمل على تأمين الاحتياجات الفردية ضمن الإمكانيات المتاحة ولا يهملها، ففي أحد الطلبات كانت هناك طفلة بعمر 7-8 أعوام تحتاج إلى ساقٍ مستعارة بسبب إصابتها بمرض المفاصل، وبأمرٍ من السلطان تم تصنيع الساق المستعارة لها. ومرةً أخرى نعرف أيضاً الانفاق على بهاء الدين المقعد الملازم لسريره وأمه 12 عاما في إطار ترتيب " صدقة الفقراء " .

ولكن ما هي النقطة الأساسية المؤلمة، أتدرون؟! بعد المشروطية الثانية، انتهت هذه التقاليد التي كانت تؤمن التكافل والمعونات الاجتماعية من قبل الاتحاديين، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا أيضاً بإقفال الجمعيات الخيرية التي أسسها عبد الحميد بكاملها حيثما وجدت!، وما الطلب المؤثر للاجئ الكوسوفي فهيم الذي وقع ضحية الفقر الاضطراري في فترة المشروطية؛ إلا واحدٌ من آلاف الأمثلة..

هل حدث أن قطع عبد الحميد شيكاً؟

في قلبي مخافة الله وحده، ولا أخاف أحداً غيره. أهتمُّ للحادثة لمنعها قبل وقوعها، وإن أحسست بأني في خطر؛ لا أخشى من اقتحام النار إن لزم الأمر [59] .

شيكٌ...

يرقد هناك في مستودعات الأرشيف.

كتوم.

في الحقيقة لا يقول شيئاً.

مكتوبٌ على وجهه (وليس على خلفه!):

" 15 تموز 1909، سلانيك " .

والمقدار 40.375.79 ليرةً (أربعون ألفاً وثلاثمئة وخمس وسبعون ليرةً وتسعة وسبعون قرشاً).

في أسفله فقط توقيع:

عبد الحميد.

وهذا كل شيء...



CHEQUE N°

Salonique, le quinze Juillet 1909. B. P. Ltq 40.375.79

VU: Bon à Payer

Vous veuillez payer par ce Chèque à l'Ordre de

La Deutsche Bank la somme de

Quarante mille trois cent soixante-quinze Livres Turques et soixante-dix-neuf Piastres or

à la

Banque Impériale Ottomane

Constantinople

OSMANLI BANKASI Arşivleri

OSMANLI BANKASI Arşivleri

هذا هو ذاك الشيك الذي وقع عليه عبد الحميد. توقيعه في أسفل زاويته اليمنى، يظهر فوق الطابع. (أرشيف البنك العثماني)

كان هذا المبلغ جزءاً من وديعة عبد الحميد الثاني المخلوع التراكمية في البنك العثماني والمقدّرة بـ52.971.54 (اثنان وخمسون ألفا وتسعمئة وواحدا وسبعين ليرةً وأربعةٍ وخمسين قرشاً). ويقضي هذا الشيك بتسديد

المبلغ المعلوم من حساب البنك العثماني بإسطنبول إلى البنك الألماني.

حسناً، ولكن لماذا؟

لنحاول قليلاً الإحاطة بخلفيات الموضوع. ما الذي كان يجري عند قطع هذا الشيك؟

الاتحاديون الذين أنـزلوا السلطان عن العرش ووضعوه في القطار المتوجه إلى سلانيك " التي لا يحبها أبداً " لينتهي به المقام في إقامة جبرية في قصر ألاتيني (Alatini)... نعم هؤلاء الاتحاديون أكرهوا السلطان رشاد هذه المرة على التوقيع على قرار يقضي بإعادة الأموال التي حولها عبد الحميد إلى الخزينة الخاصة إلى خزينة الدولة.

من ثم نقلوا الأموال الموجودة في حوزة القصر في حقبة عبد الحميد إلى قبضة الحكومة، أو بالأصح إلى قبضة المركز العمومي لحزب الاتحاد والترقي، ولم يكتفوا بهذا بل تحركوا للاستيلاء على أموال السلطان السابق الخاصة التي عرفوا بوجودها في البنك.

يعرف بأن السلطان الأسبق هو أحد أغنى زبائن البنك العثماني، وارتفع المبلغ المودع بصورة منتظمة في حسابه اعتباراً من حزيران 1886 والتي تتراوح بين 1000 و3000 ليرة إلى 92.700.75 (اثنين وتسعين ألفا وسبعمئة ليرةٍ وخمسة وسبعين قرشاً) حتى نهاية عام 1891.

كذلك تم إيداع 3.166.24 ليرة تماماً لحساب مست نياز إحدى زوجاته، ومحمد سليم أفندي والسلطانة زكية والسلطانة نعيمة من أولاده، وإبراهيم توفيق أفندي ابن أخيه (أو ابن أخته) [60] . كما تم إيداع سند بـ250 سهماً يعود " لشركة عربات تعمل من طرابلس إلى حماه وحمص " في خزنة البنك.

بحلول أيار عام 1909 انخفضت ثروة عبد الحميد " أحد أغنى زبائن البنك العثماني، وأكثرهم احتراماً " إلى اثنين وخمسين ليرة تقريباً.

وهذه الرسالة التي كتبها السلطان السابق من منفاه في سلانيك إلى البنك العثماني بتاريخ 5 أيار عام 1909 تتضمن المبلغ الذي أراد أن يسحبه. وهذا المبلغ سيرسل من قبل المستر نيفي (Neef'i) المدير العام للبنك في حقائب إلى سلانيك، وسيدفع إليه نقداً في قصر ألاتيني [61] في تموز 1909.

أما المتبقي من الحساب وهو 13.733.55 ليرة فقد انتزع منه بالتوقيع على " إشعار الاستلام " . ينقل لنا المؤرخ إسماعيل حقي أظن جارشيلي Uzunçarşılı في مقالته كيف تم اغتصاب هذا القسم المتبقي الأخير من

الوديعة من حساب عبد الحميد، فيقول:

إن مبلغ ثلاثة عشر ألفا وسبعمئة ليرة عثمانية المودعة باسم حضرة السلطان السابق عبد الحميد خان في البنك العثماني؛ صرفت لشراء قصر علاتيني، وتعميره، والباقي هدية من السلطان المذكور تُصْرَف لتجهيزات الجيش الثاني والثالث [62] .

لقد تم الاستيلاء إذاً على قسم من المبلغ يقارب 4 آلاف ليرة لتصرف في تجهيز الجيش الثاني والثالث بعد إخراج مصاريف شراء وتعمير القصر.

لنعد ثانيةً إلى الحكاية الأساسية لذلك الشيك، حتى نرى كيف كانت تطل المأساة الرهيبة برأسها من تحت هذا الشيك؟

فقد بينت عائشة عثمان أوغلو ابنة عبد الحميد ماهية هذا المال وكيفية أخذه من السلطان الأسبق، وهي الشاهدة على الحادث، فلنقرأ ما كتبته:

ذات يومٍ بدأت رياح الضيق تهب في القصر من جديد، كانوا يريدون أخذ مال أبي من البنك الألماني، وكنا متأثرين لحزن أبي. أرسلت حكومة إسطنبول الأخبار بواسطة راسم بك، وكان أبي يكتب أوراقاً، ويدخل راسم بك إلى حضرة السلطان ويخرج ويأتيه بالجواب. وأبي يقول: " أنا أبٌ لعائلةٍ كبيرةٍ. عندما أصبحت سلطاناً أنفقت من جيبي قسماً من المال الذي كسبته في أيام الإمارة من عرق جبيني قبل تنصيبي على العرش؛ لأني لم أكن متسكعاً مثل إخوتي الآخرين، لم أعش عاطلاً عن العمل، بل كنت أعمل في مزارعي بلا راحة. وأودعت المال الذي ربحته في البنك ليأخذه عيالي وأولادي من بعدي... ولهذه الأسباب لن أعطيكم المال الذي أودعته في البنك " [63] .

كان الضغط يزداد على عبد الحميد كلما قال: " هذا المال مال أولادي، لا أستطيع أن أعطيه " . فقالوا له: " أنتم مجبرون على ذلك " ، وهددوه وقالوا " سيجعلونكم وبناتكم في القبو، ويسجنونكم فيه " . كانوا يهددونهم بحياتهم، فخافت العائلة، وأصبحت في حالٍ تطلب معها النجاة مقابل بذل المال:

عمّ الخوف أرجاء القصر. وبدأنا نفكر أن هذا المال سيكون وبالاً علينا. كنا نقول: فلنعط المال من أجل سلامة أبينا وسلامة أنفسنا، وبلغت رياح الضيق ذروتها، وأثّرت على معنوياتنا، وبتنا لا نستطيع الوقوف أمام النوافذ.

ركب الهم عساكر البستان خوفاً على أنفسهم، وتألم عبد الحميد ألم

الأب العاجز أمام حال أولاده، وهو لا يملك لهم شيئاً. لا تنظروا إليه أنه مجرد سلطانٍ سابقٍ، إنه أبٌ يقاسي ما يقاسيه أي أبٍ يائسٍ كبّلت يداه، فهو لا يستطيع أن يقدم لهم أي قرش من تلك الأموال التي جمعها بعرق جبينه وادخرها طيلة حياته؛ كان شبح الأذى الذي يحيط بهم قد أصبح واضحا للعيان. وقال: " ليتني كنت أودعت هذا المال آنذاك في حسابٍ متفرقٍ باسم كل واحدٍ من أفراد عائلتي. أما اليوم فقد انقطعت قسمتنا به".

لقد أصاب الأمير عبد الرحيم أفندي اصفرارٌ نتيجة التوتر، وفي كل صباح كانت عائشة سلطان تستيقظ على رعاف أنفها. وعبد الحميد يبحث عن حل للمسألة ويطرق باب الوسيلة الأخيرة، ويراجع مجلس المبعوثان، ويطلب حلا للمسألة، فيأتيه الجواب بالاستحالة،علاوة على التهديد والإنذار.

وأصبحت العائلة المحبوسة في القصر في جحيم لا يطاق، فرجت قادن أفندي والدة عائشة سلطان زوجها عبد الحميد متوسلة:

أعطهم ما يريدون وتخلص. تخلص من هذا المال لضمان سلامتك وسلامتنا جميعاً، فسنجد لقمة عيشنا كيفما كان، وأولادك يقولون ذلك أيضاً.

أراحت الرسالة المنعشة الصادرة عن زوجته وأولاده الأحباء قليلاً. وهكذا في خضم الآلام والهموم وقّع السلطان عبد الحميد الثاني على الورقة الموضوعة أمامه، وصادق على القرار الأليم الذي يحرم أولاده من إرثهم الحلال.

لكنه هذه المرة لم يقبل البنك الشيك الموقّع بتاريخ 5 أيار 1909، واشترط إرسال المال إلى حضرته كي يسلِّمه إلى المودع نفسه أمام شهود الوفد. كان من الواضح أن هذا الشرط سيعزز من موقف عبد الحميد، فاشترط السماح لأولاده بالذهاب إلى إسطنبول ليتابع ابنه عبدالرحيم تحصيله العلمي، ولتزويج بناته الثلاث، والاعتراف بحرية جزئية لمن معه من الخدم، والالتزام بمقدارٍ كافٍ من التخصيصات له، وشراء القصر، وتأمين راحته بعيدا عن المضايقات حتى وفاته.

ولم يكن للاتحاديين بد من قبول الشرط. وفي 15 تموز 1909 مثل مدير البنك مع قنصل الألمان إليه في سلانيك ومعهم التحويلات وستة صناديق مليئةٍ بالنقود. كان عبد الحميد قد أجلس الأمير عابد أفندي البالغ من العمر خمس سنوات إلى يمينه عندما عبّر مدير البنك والقنصل عن رغبتهما في مقابلة المودِع على انفراد، وتم لهم ذلك، وخرج الضباط إلى الخارج، وبعد أخذ التوقيع وتسليم المال؛ ركب مدير البنك والقنصل

سياراتهما بسرعةٍ وابتعدوا عن القصر. وسار عبد الحميد إلى باب الشرفة، وصاح على الضباط بصوتٍ أجش وهو يشير إلى صناديق المال قائلاً: " خذوا هذه! " .

وبينما كانت السيارات المحملة بالصناديق في طريقها مباشرةً إلى الحصن الأبيض المشهور في سلانيك، استدعى عبد الحميد الأب، الذي تهدلت أكتافه، أولاده قائلاً لهم:

أولادي! إني حزينٌ جداً لأنني لم أستطع تأمين مستقبل أي واحدٍ منكم. ماذا أفعل؟ هذا قدركم ونصيبكم. وسيهتم بكم الناس بالتأكيد.

واصطف الأولاد بدورهم، وقبلوا يديه وهم يقولون: " والدنا الغالي! فداك المال، المهم أن تسلم أنت " ... كان عبد الحميد في هذه الأثناء يقبلهم فرداً فرداً وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

لم يكد يمر يومٌ على تسليم المال حتى أحس عبد الحميد أن محافظ القصر راسم بك يريد أن يعبر عن إعجابه بالصلابة التي أبداها السلطان الأسبق وهو يرى ثروته تؤخذ من يديه، فمرّ عبد الحميد مبتسماً على هذا القول كما تروي عائشة عثمان أوغلو في خواطرها. وقال هذه الكلمات التي تشع حكمةً وإيماناً:

راسم بك...! المال سجنٌ. يأتي إلى يدٍ ويخرج من يدٍ أخرى. إني إنسانٌ مجربٌ، ورأيت الكثير من الأشياء وتخطّيتها. فالله وهبنيه، وهو الذي استردّه.

نامت الأعين الأخيرة التي رأت عبد الحميد

ولد عثمان أرطغرل أفندي في إسطنبول عام 1912 . عاش في نيويورك وعمل بالتجارة. وتزوج من فتاة من جنوب إفريقية في العام 1946 . ليس له أولاد **[65]** .

عائشة عثمان أوغلو (*1960*)

عندما فارق عثمان أرطغرل أفندي (كبير العائلة العثمانية المولود في إسطنبول في 31 آب عام 1912) الحياة في الساعة 20:19 من مساء يوم الأربعاء الواقع فيه 23 أيلول عام 2009؛ طويت معه صفحةٌ ملونةٌ من تاريخنا القريب. فقد كان آخر من رأى عبد الحميد الثاني 'السلطان الأخير' للدولة العثمانية بعيونٍ دنيوية. من ناحيةٍ أخرى كان الشهزادة أو الأمير الأول الذي خلف وراءه 95 عاماً من رحلة عمره التي بدأت في إسطنبول.

زرت المرحوم عثمان أرطغرل أفندي في صيف 2004 في بيته بمجقة (Maçka) وتعرّفت هناك إلى زوجته زينب عثمان هانم أفندي. كما دخل علينا هارون عثمان أوغلو أفندي وحفيد محمد سليم أفندي الابن الآخر لعبد الحميد، وبذلك زاد ابتهاجي وكدتّ أن أطير فرحاً. ياللروعة! تخيّلوا، أمامكم يجلس حفيد إنسان كنت قد شمرت عن ساعدي للكتابة عنه بإنصاف وأمانة.



المرحوم عثمان أرطغرل أفندي مع هارون عثمان أوغلو حفيد عبد الحميد الآخر (2004)

أظن أن عثمان أرطغرل أفندي كان متعكّر المزاج بعض الشيء، فقد كان مشغولاً بمقابلة وريبورتاج، ولهذا السبب لم نتمكن أن نتحدث كثيراً، لكن ذلك التعارف كان كافياً بالنسبة لي.

مرت سنون إلى أن قرأت رسالة في بريدي الإلكتروني... كانت الرسالة من زينب عثمان هانم أفندي. في تلك الأيام كان كل من لا يعرف قدر نفسه يرمي بافتراءاته على السلطان بين الحين والآخر... تقول الرسالة " إنه أجرى مفاوضات مع الصهاينة من أجل أرض في فلسطين " ، " إنه يشرب الخمر كما يشرب العسل"... وأنا على ضوء العقل السليم كنت أردّ عليها بالوثائق. (ستقرأون ذلك بإسهابٍ في الصفحات لاحقاً).

والظاهر أنّ زينب عثمان هانم أفندي قامت بقراءة ما كتبته على أسماع عثمان أفندي، وطلب إليها أن تعبّر عن امتنانه لي لدفاعي عن حق جده، ومن ثم أرسلت المجلّد الأوّل من عبد الحميد والرقص مع الذئاب إلى عنوانه في نيويورك ليسلّم إليه باليد عن طريق ابن حميَّ يشار داغلار، وعلمت بأنهم قرأوه مجتمعين، وكان إعجابهم به مصدر سعادةٍ لا توصف لفقير مثلي.

وأخيراً كنّا سنلتقي على انفرادٍ عند قدومهم إلى تركيا هذا الصيف، وكان من المنتظر زيارتهم نهاية شهر تموز، لكنها الأقدار، ولا شيء يمكن أن يتجاوز المكتوب!. في غفلةٍ مني، تأخرت عن الموعد قليلاً، وكان عثمان أفندي قد مرض ونقل إلى المشفى. ثم انتهى كل شيء... أدركت مرةً أخرى أن الخير لا ينتظر، وعلي أن أبادر قبل فوات الأوان، نعم ولكني تعلمت ذلك في درس واختبارٍ مؤلمٍ. وليس لي إلا أن أقدّم التعازي إلى المنسوبين إلى آل عثمان، وعلى رأسهم زينب هانم أفندي، وبالطبع إلى شعبنا الذي يعرف قدره، والذي شارك في مراسم الجنازة.

النجل المفضل لدى عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد الثاني، وفق ما عرفناه من مصادر مختلفةٍ، يحب أكثر ما يحب ابنه محمد برهان الدين والد عثمان أرطغرل من بين أبنائه الثمانية الذين بقوا على قيد الحياة. كان يرسم بشكلٍ جيدٍ، ويعزف على البيانو ببراعةٍ، ذكياً، موهوباً، يتكلم بصورةٍ لبقةٍ، فكان يصطحبه إلى جواره، ويجلسه أمامه مع غازي عثمان باشا جنباً إلى جنبٍ في عربة السلطنة عند الذهاب إلى تحيات الجمعة، وينتدبه أحياناً إلى السفارة

الألمانية لتقديم التهاني باسمه!

ربما تعلمون أن مدينة برهانية في ولاية باليكسير Balıkesir اشتقت اسمها من اسم برهان الدين أفندي والد عثمان أرطغرل أفندي، ويمكنكم أن تخمّنوا أنّ السلطان عبد الحميد الثاني هو من أعطى اسم أميره المحبوب لهذه البلدة وأبهجها باستثماراته. كما أن هناك حي (برهانية) في أسكدار يضم جامع برهانية الذي بناه عبد الحميد نسبة لاسم الشهزاده محمد برهان الدين أفندي.

لذلك أقولها... لا تضيعوا وقتكم هباء، إنّكم لن تستطيعوا إزالة بصمة عبد الحميد من هذه البلاد.

على أية حالٍ؛ بدأت الأخطار تطرق باب محمد برهان الدين أفندي الذي كان يشكل شوكةً في حلق الاتحاديين بعد إنـزال أبيه من العرش.

في البداية تطلّقت عليّة هانم أفندي أم عثمان أرطغرل أفندي من أبيه محمد برهان الدين أفندي، ثم تزوجت من جاويد بك خبير المالية المشهور من الاتحاديين. (لكن هذه المرة أيضاً لن تدوم سعادتها طويلاً، وسيعدم جاويد بك عام 1926 بحكم صادر من محكمة الاستقلال). ثم اندلعت حرب البلقان، وعرض على برهان الدين أفندي ليكون ملكاً على ألبانيا التي نالت استقلالها، لكن غرور العثمانية فيه حال دون ذلك، ورفض هذا العرض المغري [66] . ثم ما لبث أن توفي برهان الدين أفندي المتزوج من امرأةٍ أمريكيةٍ ثريةٍ وهو مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية في 15 حزيران عام 1949، وحاولت العائلة يومها نقل الجنازة إلى إسطنبول على متن سفينة، لكن حكومة CHP لم تسمح بذلك، ولذلك نقل إلى الشام، ودفن في فناء جامع السلطان سليم بجانب عمّه السلطان وحيد الدين [67] .

محمد فخر الدين أفندي الابن الآخر لمحمد برهان الدين أفندي يكبر عثمان أرطغرل أفندي بعامٍ، وهو رسامٌ، ووافته المنية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1968 [68] .

حفيد السلطان الأخير

ما رأيكم أن نتعرّف أكثر على المرحوم عثمان أرطغرل أفندي؟

تقول المعلومات التي أرسلتها إليّ زينب عثمان هانم أفندي... ولا بدّ لي أن أبين هنا، أن قسماً على الأقل من هذه الوثائق تنشر لأول مرة:

كان والده برهان الدين أفندي كلّما توجه إليَّ اصطحب معه ولديه منذ نعومة أظفارهما، وعاشت العائلة في النمسة بعد النفي، لذلك لم

يعيشوا حالة النفي كبقية أفراد العائلة، ولكن مع ذلك أحسّوا بالغربة أيضاً. وقد أقامت بعض عماته وأفراد العائلة مدةً معينةً في بيت برهان الدين أفندي في نمسة.

كان يمتطي الخيل بشكلٍ رائعٍ، وقد ربح الكثير من الكؤوس والميداليات. لكن الحريق الذي اندلع في المنطقة بير هاربور حيث بيت أبيه في (ولاية مين في شمال نيويورك) أدّى إلى احتراق مقتنياتٍ ثمينةٍ كثيرةٍ من بينها هذه الكؤوس والميداليات.

في أواخر 1930 سافر إلى واشنطن لزيارة زوجة أبيه الأمريكية، وبعد مدةٍ التحق والده بزوجته وابنه عثمان وعاشوا حياتهم بين نيويورك وواشنطن. ثم استقروا في نيويورك. تزوج عثمان أفندي من غولدا تورسكوي (Twerskoy Gulda) جنوب إفريقية من أصل إنجليزي. وأسس شركةً للمعادن لسنواتٍ طويلةٍ، ووفق في افتتاح أفران المعادن في عدة بلدانٍ وتشغيلها، وقد درّس تأسيس الشركات وتشغيلها في جامعة كولومبيا باعتباره اختصاصاً جديداً.

كان والده عازف بيانو ممتازاً. وكان عثمان أفندي يردد دائماً: " لو لم يكن والدي ابن عبد الحميد فإنه كان أفضل عازف بيانو في عصره". لقد وُلِد موسيقياً، فكان من أفضل من يفهم الموسيقى ويحللها بين من يعرفهم حتى ذلك الحين. شخصياً لم أتعرّف أبداً على أحدٍ يمتلك علماً في الموسيقى وأذناً موسيقيةً مثل الذي يمتلكه.

كان نجّاراً ممتازاً، والطاولات الثلاث التي صنعها بيده ما زالت في البيت. ثم كان طباخاً من الدرجة الأولى أيضاً. يقرأ كثيراً، ويتقن الإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية، ويتكلم الإسبانية، ويفهم الإيطالية، وإذا لزم الأمر يتكلم ذلك أيضاً، لكنه لم يكن بنفس مستوى اللغات الأخرى.

حبه للحيوانات دفعه إلى بناء وقف (adoption) لإنقاذ وتوطين الحيوانات في نيويورك، وأدارت هذا الوقف زوجته الأولى طيلة سنواتٍ. تعرّفت عليه بعد عامين من وفاة زوجته الأولى، وبعد عامين من التعارف تزوّجا. عام 1991 .

عندما حصلت على هذه المعلومات كان عثمان أرطغرل أفندي لا يزال على قيد الحياة، وكنا نأمل لقاءه. سألت زوجته العزيزة بعض الأسئلة الإضافية المتعلّقة به، واستعدادا للقائه بعد تماثله للشفاء. فلها الشكر فقد ردت على أسئلتي في أيامها الصعبة تلك. أريد هنا أن أشاطركم قسماً من هذه الأجوبة.

ما ذكرتنا به مراسم الجنازة الحاشدة

في الواقع صارت مراسم جنازة المرحوم عثمان أرطغرل أفندي في جامع السلطان أحمد في 25 أيلول 2009 مسرحاً لكثير من المراسم القديمة. ولأول مرة بعد 93 عاماً من مراسم جنازة ولي العهد يوسف عز الدين أفندي في شباط 1916 إن لم تخنّي ذاكرتي تحظى جنازة الشهزادة بمثل هذا المشهد الحاشد. أما دفنه في ضريح السلطان محمود فهو نقطة مثيرة وملفتةٌ أيضاً. في حين لم يتجاوز عدد المشاركين في مراسم جنازة رئيس العائلة الأسبق محمد أورهان أفندي قبل خمسة عشر عاماً من وفاة عثمان أرطغرل أفندي عدد أصابع اليدين [69] .

والآن هيا معا نخرج مباشرةً في مشوارٍ قصيرٍ نستطلع فيه آراء قيلت في المرحوم وحياته؛ ولنعرف الأسباب وراء هذا الازدحام الحاشد في جنازته، وهذا القدر الهائل من محبّة الناس له، وسنرى أنه أحد أعضاء العائلة النادرين الذي يتولون الدفاع عن حقوق أجداده بشكلٍ محكمٍ، بتوجيه أشد الانتقادات إلى النظام، والثبات على موقفه النبيل، من دون أن يتدخل في السياسة.

هذه هي الأجوبة التي أعطتها زينب عثمان هانم أفندي لأسئلتي، وذلك قبل ساعات من وفاة زوجها رئيس (الخانة دان):

- أعتقد أن عثمان أفندي هو الشخص الوحيد الذي رأى السلطان عبد الحميد وهو ما يزال على قيد الحياة. فكيف كان ذلك؟

- قام عثمان أفندي بزيارة جده في قصر بيلاربيي Beylerbeyi بصحبة أخيه الكبير فخر الدين أفندي ووالدته، وذلك بعد حصولهم على الإذن بشق الأنفس، عندما كانا بعمر 6 - 7 أعوام، وربما أصغر من ذلك بقليل. يتذكر تماماً كيف وقف جده على رجليه احتراماً لوالدتهم لدى دخولهم غرفته، ولطفه، وتقبيله لأحفاده وهو يمسح على رؤوسهم، وجلوسه على ركبتيه، ونظراته المفعمة بالحب، ونبرة صوته.

- كيف يقيّم سياسة جده؟

- يفتخر كثيراً بعبد الحميد، يقدّر كثيراً سياساته وإنجازاته، ويرى بأنه أحد أكبر رجال الدولة في زمانه، ويقول: " السبب الوحيد في بقاء الإمبراطورية العثمانية لثلاثة وثلاثين عاماً آخر هو سياسة جده بعيدة النظر".

كما ترون نحن أمام حفيدٍ مصممٍ حتى النهاية في الدفاع عن عبد الحميد. في شهر نيسان من عام 2009 كنت قد سألت زينب هانم سؤالاً

أعلم أنكم أيضاً توّاقون لمعرفة جوابه:
- زعموا في برنامجٍ تلفزيونيٍ أنّ عثمان أفندي قال: " زرت في صغري عبد الحميد في قصر بيلربيي، فأجلسني على ركبتيه، وكان في يده كأساً من المشروب". هل يمكننا أن نسأله عن هذه المعلومة؟

في ذاك الوقت عندما سألت هذا السؤال كان عثمان أفندي في نيويورك، وكانت صحته ما تزال على ما يرام. لكن بدت لي إجابة زينب خانم مهمةً جداً:

- أولاً قد ذهب في تلك الزيارة مع أمه وليس مع أبيه. ولم يكن في يده أي نوعٍ آخر من المشروب. ولم يرد أي حديث عن الخمر. إني متزوجةٌ من عثمان أفندي منذ 18 عاماً، استمعت إلى ذكرياته مراتٍ متعدّدة، لم أسمع أبداً عن إدمانه المشروب. وقد روى لي جميع ذكرياته تلك كما بينتها لك أعلاه، حتى أنه كتب ذلك في خواطره المكتوبة بالإنجليزية.

عليّ أن أضيف هذا أيضاً، أن الوصف الذي ينقله أشخاص آخرون يقارب المشهد الذي وصفه عثمان أرطغرل أفندي حين رأى جده عبد الحميد. فعلى سبيل المثال في إحدى تلك الأقوال هذا المشهد بهذا الشكل.

رأيت جدي في قصر بيلربيي ثلاث مراتٍ في صغري. لم يسمحوا لوالدي بالدخول، كنّا نذهب لزيارته مع والدتي. أقعدونا على الأريكة، كان يمسح على رأسي. لا أتذكر تفاصيل كثيرة، ولكن أتذكر تماماً لحية جدي، وأن شخصاً ذا لحيةٍ لم يقبّلني حتى ذاك الزمن [70] .

إنه يتذكّر لحية جده، وتقبيله له، ومسحه على رأسه، وكيفية وقوفه على رجليه احتراماً لوالدته، ولطفه، وإجلاسه على ركبتيه، ونظراته المفعمة بالحب، حتى نبرة صوته يتذكرها تماماً. أليس ذلك غريباً؟ لكن الشيء الوحيد الذي لا يتذكره: شربه الخمر!

جدي لم يكن أبداً السلطان الأحمر

كان عثمان أفندي لا يتحمّل أبداً تسمية جده السلطان عبد الحميد " بالسلطان الأحمر". بل إنه أظهر موقفه هذا بإرادة صلبة لا تنثني في حديثٍ له مع الصحفية أصلي أيدن طاش باش Aslı AydıntaŞbaŞ ، نُشِر في جريدة الصباح. فقد كان عثمان أرطغرل أفندي مستاءً جداً من ذكر اسم جده في عهد الجمهورية " بالمستبد" و " الطاغية" يقول في المقال:

من المحتمل أنه لا يوجد شخص تم تشويه سمعته بقدر ما تم تشويه سمعة جدي. لقد اتهم من قبل الأرمن بقتل آلاف الأشخاص

باعتباره السلطان الأحمر. وفي الواقع لم يوقّع إلا على فرمانين من فرمانات الإعدام طيلة 33 عاماً من حكمه، وذلك في بداية ارتقائه العرش. وعندما كان يرغب في معاقبة أحدٍ كان يرسله إلى المنفى أو لأوروبة أو لسنجق من السناجق. وعند نفيه كان يذهب باسم سفير أو وال أو واحدا من البيروقراط [71] .

وهو أيضا من يأمل في أن تكون تركيا " زعيمة الكتلة الإسلامية"، ويقول: " سيكون رائعاً إن ترأسنا العالم الإسلامي"، وإن كان هناك من يستطيع فعل ذلك فإنها " حكومة حزب العدالة والتنمية". وكان يرى أيضاً:

"ضرورة إجراء مصالحة أولاّ مع التراث الإسلامي والعثماني حتى تستطيع تركيا أن تلعب دوراً حيوياً على المستوى العالمي".

هل يمكنكم أن تجدوا أوجز من هذا الاختصار الذي طالما حاولنا جاهدين أن نقوله منذ سنين؟!

لم يكن وحيد الدين خائناً!

نعلم من نفس الحديث أيضاً أنّ عثمان أرطغرل أفندي يدافع علناً عن وحيد الدين فيقول أنه لم يكن خائناً. فقد قال مرةً:

يقولون عن السلاطين إنهم خونة الوطن. لم يكن وحيد الدين ولا رشاد خائنين للوطن. وجميعهم أحبّوا بلادهم. ينسى الناس أنّ من أرسل مصطفى كمال إلى صمصون هو وحيد الدين. وهو من حصل على إذنٍ خاصٍ عندما كانت إسطنبول تحت الاحتلال. اجتمعوا في قصر دولمة بهجة قبل أن يتحرّك مصطفى كمال إلى صمصون.

أما جوابه للصحفية أصلي أيدن طاش باش عندما سألته عن هروب السلطان وحيد الدين على متن السفينة الإنجليزية فقد كان واضحاً للجميع:

أولاً: لم تكن هناك سفنٌ أخرى غير السفن الإنجليزية والفرنسية تصل إلى إسطنبول. ثانياً: كانت العائلة مضطرةً أن تأخذ قراراً هاماً جداً. فلو بقيت لاندلعت حرب أهليّة. كان هناك أنصار الانقلاب وأنصار السلطان. فقرّر السلطان وحيد الدين قراراً هامّاً ليتجنّب موت آلاف البشر. فلو بقي في إسطنبول لاقتتل أنصار السلطنة مع أنصار الانقلاب [72] .

لكننا نلاحظ في تصريح عثمان أرطغرل أن الصحفية أصلي أيدن طاش طاش أوردت عبارة تنم عن حقدها الدفين في ذاكرتها على العائلة؛ وهذا ما كتبته:

في حواري مع عثمان أفندي أؤكّد على الانطباع بوجود مشاعر معقدةٍ في ما يتعلق بمصطفى كمال. قالت زينب هانم التي تصغر زوجها كثيراً في

السن بافتخارٍ: " أنا بنت الجمهورية. جزى الله مصطفى كمال خيراً". لكن عثمان أفنديٍ فقد كان أكثر احتراساً. فإنه وإن كان لا يحب أتاتورك من أعماق قلبه؛ فإنه يحترمه. ويقول: " كان ذلك سيئاً جداً لعائلتنا، لكنّه كان قائداً عظيماً من أجل تركيا" [73] .

وهكذا نجد أنّ هناك بعض التفاصيل الماهرة في إخفاء حقدها بين الأسطر.

حسناً، فهل كانت الحشود المشاركة في جنازة المرحوم تعرف كلّ هذا؟ لست واثقاً من ذلك. ألا يجب على مثقّفينا على الأقل أن يعلموا أن هذا لا يعتمد فقط على علم الشعب بل على " حدس الشعب العميق"؟!

زوجة السلطان عبد الحميد والحوار الوحيد

إنّ تعلّقها بعبد الحميد الثاني بعد طول هذه المدة كان مذهلاً، لقد ذابت في السلطان، وأصبحت جزءاً منه. كانت تفكّر كيفما يفكّر، وتهوى ما يهواه. لا بدّ لي هنا أن أقول: إنني لم أصادف بين آلاف الأزواج الذين أعرفهم شخصيًّا زوجةً تعلّقت بزوجها وبذكريات زوجها من دون أن يكون لها أية نية خاصةٍ؛ مثل مشفقة قادن خانم.

[74] (1975) ztuna Ö Yılmaz

بعد فراغي من أخبار محكمة Yassıada تراجعت فجأة من هول الصدمة وأنا أغلق صفحات عدد قديم من مجلة "الحياة" عندما وقعت عيناي على صورة سيّدة على غلافها: فقد بدا لي هذا الكم من التجاعيد التي خططت وجهها بسخاءٍ، وكانت ترتعش وكأنها تريد أن تهمس لي بأشياء كثيرة. فمن تكون هذه المرأة ذات الأعوام الأربعة والتسعين، وكيف ظهرت على غلاف مجلة منوعات؟

إنها ليست سوى السيدة [kadın] مشفقة قادن التي لفظ السلطان عبد الحميد الثاني أنفاسه الأخيرة على ذراعيها، والتي ستشرح للقرّاء " أسرار هذا العمر الطويل"، وهي بعمرٍ يناهز مائة عامٍ. كان اكتشافاً رائعاً بالنسبة لي. ما وجدته في الحقيقة ليس مجرّد حوار مع زوجة عبد الحميد بل هو الحوار الوحيد المنشور الذي تم إجراؤه مع زوجة السلطان. ومن يدري ما الذي أخبرت به؟!

بدأت القراءة بحماسٍ، لكن خيبة الأمل كانت تنتظرني، فبدلاً من أن يتحدّثوا عن عبد الحميد، تحدّثوا عن مشربه ومأكله، وعن حياته اليوميّة، وعن أشيائه الخاصة. بما أنّكم عثرتم على زوجة السلطان؛ فاجعلوها تتحدّث بشكلٍ معقولٍ، أليس كذلك؟. نحن نفكّر هكذا، لكن لا تنسوا أنّ أفواه نساء الحرم كانت مختومةً، كان محرّماً عليهنّ الحديث بما يجري في القصر، وبالأخصّ الحديث عن السلطان!

ومع ذلك وجدتُ نقاطاً كثيرةً مثيرةً في الحديث. أترك بعضها لتقديركم.

لنقم بوصف المكان: تخيّلوا بيتاً خشبياً في منحدر Serencebey في بشيك طاش، فيه أريكة خشبية عريضة قليلة العمق منخفضة مغطّاة بقماشٍ مخملي من الأطلس في زاوية الغرفة، وخلفها تنتشر وسائد من الأطلس تعلوها نقوش بالزهور، وخلفها سجادة صلاة من جلد الخروف

معلقة على الجدار، ولوحة " التعليق" [75] بعبارة: " يا رب لا سلطان غيرك في عرش فؤادي".

ثم الزمن: يجب أن يكون تاريخ الزيارة في كانون الأول عام 1960، وآثار الحزن على وفاة ابنتها عائشة عثمان أوغلو ما تزال بادية على وجهها.

والسيدة مشفقة قادة خانم تقول منذ ثلاثين عاماً بالتمام لم أخط خطوةً خارج هذا المسكن. ثم تتجاوز سؤال الصحفي عن السبب بمهارة، وهي تقول: إنّ والدها كان من محاربـي حرب بليفين Plevne ، بلغاريا، وقد وهبت وأختها للقصر، وأنها تزوجت عبد الحميد الذي تناديه " بأفندم" وهي في السادسة عشرة من عمرها.

ويتركز اهتمام الصحفي مرّةً أخرى على أسرار عمرها الطويل، ويسألها: " هل تتبعين نظام ريجيم أو حركات رياضية يمكن أن تكون سببا في المحافظة الجيدة على صحتك ولياقتك؟". كانت مشفقة قادن أفندي تجيب ببساطة ووضوح:

دائماً أتناول طعاماً قليلاً جداً، فعندما أستيقظ صباحاً، لا بدّ أن أشرب فنجاناً واحداً من شاي الميرمية على معدةٍ فارغةٍ، ثم آكل شريحةً رقيقةً من الخبز، وبعض الجبن مع كأسٍ من حليبٍ ممزوج بقليل من القهوة. في وجبة الغداء أتناول القليل، والقليل جداً من اللحم المسلوق، وبعض الخضروات، وقليلاً من الأرز أو المحلبية إن وجد. وفي العشاء كانت وجبتي اللبن وحده، ولتفادي حموضة المعدة بسبب اللبن أضيف بعض السكر إليه. منذ أربعين عاماً لم تتغير لائحة الطعام في وجبة العشاء. إنه اللبن المحلّى بالسكر فقط.

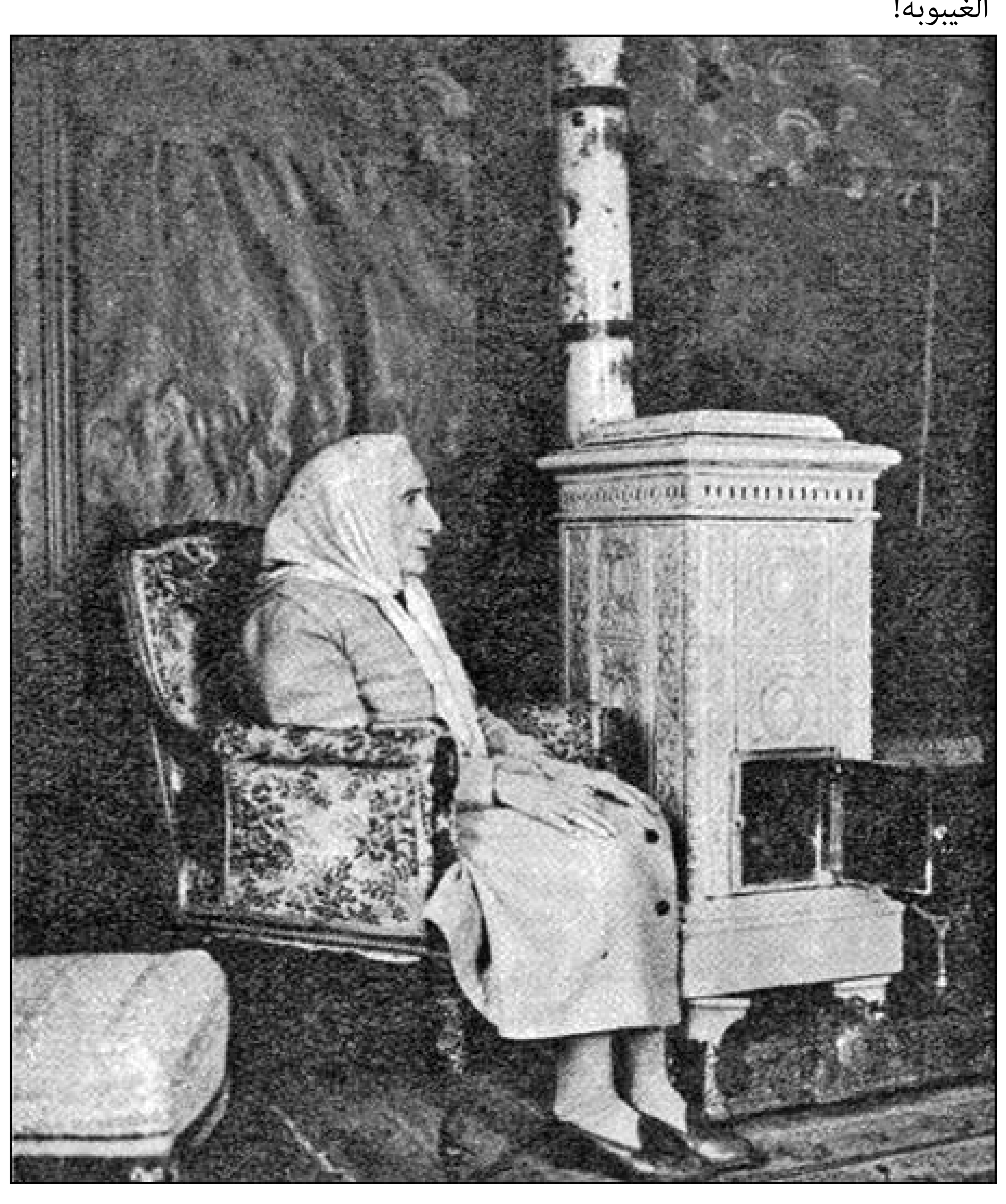
ربما يقول قائل: " إن المرأة في التسعين من عمرها، فماذا عليها أن تأكل بعد؟!. انتبهوا، إنها تقول: " أنا دائماً أتناول طعاماً قليلاً جداً"، الطعام القليل نافعٌ، والحال في القصر هكذا إذاً، ليست حياة بذخ وإسراف على الإطلاق، وليس هناك في خضم ذلك الثراء سوى معيشةٍ مقتصدةٍ، ومعيشةٍ متواضعةٍ أضفاها عبد الحميد للحرم، كان يأكل القليل أيضاً، ويعيش بشكلٍ منظّمٍ، ويبدي اهتماماً بصحته [76] .

يسألها الصحفي بفضولٍ: " إنكم لم تخرجوا منذ ثلاثين عاما، وهذا يعني أنّ حركة أجسامكم قليلةٌ جداً. ألا تعانون من مشاكل صحيّة من قلة الحركة؟!". كان جواب مشفقة قادن أفندي وكأنه يصافح العبارة المكتوبة على لوحة التعليق المعلقة على الجدار بجانبها:

يا بني إني أصلّي، والصلوات الخمس تقرّبني من الله ربي، وتمنحني الصحة، وهل هناك حركةٌ أفضل من الصلاة؟!

ويعود الصحفي للسؤال: " على الرغم من كل شيء فالحياة لا يشبع منها، أليس كذلك سيدتي؟". وتجيبه: " نعم، لكنه كذلك إذا عاش مع أحبائه".

عند الكلمة الأخيرة، كانت عيون مشفقة قادن أفندي غارقة في دوّامة التاريخ كالماء المتسرّب إلى الأعماق. من يدري أية مشاهد كانت تتموّج في عيونها، ربّما تذكّرت أيضاً ذاك اليوم العصيب عندما دخل سيدها في الغيبوبة!



اليوم الذي أجري فيه الحوار مع مشفقة قادن أفندي، تجلس إلى جانب مدفأة خزفية، ويداها فوق ركبتيها. " في ليالي الشتاء الطويلة تجلس على هذه الأريكة، وتغرق في ذكريات الأيام الماضية.والمدفأة الخزفية هي إحدى المدافئ الأولى التي ركّبها عبد الحميد بالذات في القصر في عهد سلطنته".
(الحياة). تصوير: نجدت إشلر.

على الرغم من أنها لم تتحدث بأي شيء له صلة بعبد الحميد؛ إلاّ أنّها تحدّثت إلى صديق للعائلة عن خاطرة لا تنساها أبداً:

شعر عبد الحميد ذات يوم بوعكةٍ صحية في الصباح عند نهوضه من الفراش، إلى الحد الذي لم يعد يملك القدرة على لبس جوربيه، وتسرع مشفقة هانم إلى الجوارب وتلبسها قدمي السلطان برقّةٍ وهي تجلس القرفصاء أمام السرير. وأراد عبد الحميد من زوجته أن تسامحه متأثراً لإخلاصها وحميميتها: " زوجتي تعبت كثيراً، أدامك الله لنا، سامحيني!". وتملكت الدهشة مشفقة هانم من هذه الكلمات التي لم تكن تتوقعها على الإطلاق، فقالت: " لا يا سيّدي! ماذا فعلتُ حتى تحتاج لاستسماحي؟!". ويصرّ عبد الحميد: " لا يا زوجتي إنَ حقوق الزوجة على زوجها كبيرةٌ، فسامحيني". لم تجد كل محاولاتها بإقناع عبد الحميد أنّ ما تقوم به هو أمر طبيعي تقوم به كل زوجة.

لم يبق من حديث ذلك اليوم سوى عيون مشفقة هانم الغارقة في التاريخ، وهيئتها الحزينة، و... والمدفأة الخزفية التي جلست إلى جانبها.

قراءة: 1

كيف عشت أربعاً وتسعين سنةً؟ [77]

ريبورتاج : Etingü Turgut

يقولون: إنّ " قصر سلملك السلطان غازي عثمان" بناءٌ خشبيٌ، كبيرٌ، مؤلّفٌ من ثلاثة طوابق، يحمل الرقم 53 في منحدر Serencebey الصاعد إلى قصر يلدز. ولا يزال حتى اليوم في مكانٍ قريبٍ من بابه الخارجي عبارةٌ بأحرفٍ عثمانية قديمةٍ على لوحةٍ صغيرةٍ متهالكة " دار سعادت إلكتريك شركتي ".

مشفقة قادن أفندي [78] ، إحدى حريم عبد الحميد، تسكن في هذا القصر الآن .

بعد ست سنوات ستكمل المئة من عمرها .

فتحت لنا الباب جاريةٌ ودودةٌ، عرفنا فيما بعد أنّها من القصر. إنها جارية تجيد التركية بلهجةٍ إسطنبولية، وقد تقدم بها السن قليلا. وخلفها

فتاةٌ شابّةٌ، وخلفهما امرأةٌ مُسنَّة تنظر إلينا من زاويةٍ بين بابين زجاجيين كبيرين .

أوّل ما يلفت الأنظار هو استقبالها الضيف بوجهٍ بشوشٍ، وهذه إحدى أجمل الأعراف التركية .

دخلنا قاعةً قرميديةً .

أخبرناهم عن سبب الزيارة .

قالوا: فلنخبر ...

بعد دقيقة أو دقيقتين سمح لنا بالدخول .

تجاوزنا الأبواب الزجاجية. وصعدنا إلى الطابق العلوي عبر درجات عموديةٍ محلزنة. بعدها إلى غرفة واسعة تطلّ على أبراج قصر يلدز. كانت على الجدران لوحاتٌ زيتية كبيرةٌ لبعض شخصيات بني عثمان المعروفة: السلطان عبد المجيد، والشهزادة عبد الحميد، والسلطان عبد الحميد، والشهزادات، الأمراء، من أبنائه والسلطانات الهوانم من بناته ...

كل الأشياء حولنا قديمةٌ: لا يوجد أثاث كامل في غرفة الجلوس، وعلى الرغم من ذلك؛ فهي لا تخلو من تناغم وتناسق. قديمٌ بالٍ! لكنه جميل بالرغم من كل شيء، أشياء قليلة تعبّر عن عراقة الماضي ...

قالوا: تفضّلوا... قادن أفندي تنتظركم .

غادرنا غرفة الصالون، ودخلنا هذه المرة إلى غرفة أخرى، نوافذها الشمالية تحتضن أسكدار كلها .

جلست قادن أفندي الرابعة على أريكة خشبية عريضة قليلة العمق منخفضة مغطّاة بقماشٍ مخملي من الأطلس في زاوية الغرفة، وخلفها تنتشر وسائد من الأطلس تعلوها نقوش بالزهور، وخلفها سجادة صلاة من جلد الخروف معلقة على الجدار، ولوحة " التعليق" بعبارة: " يا رب لا سلطان غيرك في عرش فؤادي ".

غطّت شعرها الأبيض بخمار أسود مزيّنٍ بحلقاتٍ صغيرةٍ فضيّةٍ. كانت بشرة وجهها ورديةً تحتفظ برونقها، وتحت الحواجب الرفيعة عيونٌ زرقاء ما تزال جميلةً ومفعمةٌ بالحيوية. إنها نحيفةٌ، ضعيفةٌ، لكنها نابضةٌ بالحياة. كانت ترتدي لباساً صوفياً رصاصي اللون أزراره من الأمام، وسترةً بدون أكمامٍ من نفس اللون .

- قالت: ثلاثون عاماً لم تدس قدميّ التراب، ولم أغادر هذا المسكن ...

- سألتها بدهشةٍ: لماذا يا سيدتي؟ إسطنبول ما زالت جميلة! ولئن فقدت طابعها القديم منتصف القرن العشرين، إلا أنّها ما تزال جميلةً جدّاً

...

هزّت رأسها بهدوء، وبحزن الوحدة وكأنها الركن الأساس الوحيد الباقي الذي يحمل هذا القصر العظيم، بعد فقدانها كل شيء، وبعد فقدان ابنتها عائشة عثمان أوغلو ذات الـ 64 عاما على وجه الخصوص؛ اكتفت بالقول :

- من هنا أيضاً يمكنني أن أرى السماء والأرض ...

- سألتها من أين هي .

- قالت: من بليفين... كان والدي من حاشية الباشا عثمان غازي. هاجرنا بعد إصابته بجروح إلى إسطنبول، وعائلتي تتكون من أخ وأختين. وبواسطة أحد الباشاوات أُحضرتُ إلى القصر أنا وأختي. وتزوجني سيدي عندما كنت في السادسة عشرة من عمري .

- ما شاء الله، لقد وهبكم الله عمراً طويلاً، عمراً مليئاً بالأحداث، فهل من نظامٍ غذائيٍ معيّن أو أمورٍ أخرى تتبعونها باهتمامٍ للمحافظة على هذا القدر من العافية والصحة؟

- أنا دائماً أتناول طعاماً قليلاً جداً. عندما استيقظ صباحاً، لا بدّ أن أشرب فنجاناً واحداً من شاي المريمية على معدةٍ فارغةٍ. ربّما قرأتم في الكتب أنّ شاي المريمية يمتلك خاصية إعطاء الحيوية للإنسان. بعد ذلك آكل شريحةً رقيقةً من الخبز، بعض الجبن مع كأسٍ من حليبٍ ممزوج بقليلٍ من القهوة. منذ القديم أتناول الطعام القليل. في وجبة الغداء أتناول القليل القليل من اللحم المسلوق، وبعض الخضروات، وقليلاً من الرز أو المحلبية إن وجدت. كانت وجبتي للعشاء اللبن فقط. ولتفادي حموضة المعدة من جرّاء تناول اللبن أضيف بعض السكر إليه. منذ أربعين عاماً لم تتغير لائحة الطعام في وجبة العشاء. إنه فقط اللبن المحلّى بالسكر ...

- عليّ أن أقول أنكم قليلو الحركة على اعتبار أنكم لم تقوموا بخطوة خارج الباب لثلاثين عاماً، إنّكم داخل هذا المسكن حتى ولو كان متعدد الغرف. ألا تعانون من مشاكل صحيّة بسبب قلة الحركة؟

- يا بنيّ إني أصلّي، فالصلوات الخمس تقرّبني من ربـي، وتمنحني الصحة. هل من حركةٍ أفضل من الصلاة؟

- كيف أنتم مع النوم؟...هل تحبون النوم؟

- أنام دائماً قبل موعد صلاة العشاء بساعةٍ. ثم أنهض للصلاة، وبعدها أنام ثانيةً. يكون نومي بعد ذلك مستمراً. أنام حتى موعد صلاة الفجر. ثم أجلس متمددةً حتى الساعة الثامنة .

- هل تكثرون من زيارة الطبيب للمعاينة؟ وهل تعانون مرضاً هذه

الأيام .
- لا... إلى اليوم لم أعان من مرضٍ حقيقيٍ .
- هل تستطيعون القراءة والكتابة براحةٍ؟
زمت شفتيها، ونظرت إلى يديها التي تبدو عليها رجفةٌ خفيفةٌ. ثم قالت :
- أقرأ وأكتب بالحروف القديمة، أما الحروف الجديدة أستطيع قراءتها فقط. لكن الرجفة التي أصابت يدي وبالأخصّ بعد وفاة ابنتي، فإن كتابتي كذلك ترتجف ...
- على الرغم من كل شيء فإنّه لا يُشبع من طعم الحياة، أليس كذلك يا سيدتي؟ وربما تكون أكثر متعة مع العمر الطويل .
ردّت على الجواب مستسلمةً لمشيئة القدر :
- نعم، لكنها مع الأحبة ...
- هل تشتكون من ضعفِ الذاكرة؟
- لا، أتذكر الأسماء والأرقام. لكن عيوني ضعفت في الأيام الأخيرة. سأضطر إلى النظّارات .
- عذراً، أرهقناكم كثيراً. ولم يبق لدينا إلا سؤالٌ أخيرٌ .
- في رحلة العمر الطويلة هذه هل حدث شيء ما أضحكم أو أبكاكم كثيراً؟ هل لك أن تحدثيننا عن شيء من هذا القبيل من ذاكرتكم؟
لم تجب، وشردت بذهنها إلى بعيد، واغرورقت عيناها.. من يدري أية ذكرى من تلك الذكريات المؤلمة أو الحلوة التي لا يمكن نسيانها مرت على شريط ذاكرتها في عمرها الطويل؟ ولن يكون هناك أحد يملك بالتأكيد الذكريات التي تملكها ذاكرة ثرية لامرأة عاشت ثلاثة أدوار مختلفة كقادن أفندي الرابعة للسلطان عبد الحميد ...

مطالعة: 2

زوجة عبد الحميد مشفقة تتحدث: " سامحيني زوجتي" [79]

مصطفى دوغان طانجو

كانت زوجة عبد الحميد الثاني المحترمة مشفقة هانم آخر ممثلي الخاندان [آل] العثماني العظيم مع ابنته الموقرة عائشة سلطان تسكنان في بيتٍ متواضعٍ جداً مؤلّفٍ من ثلاثة طوابق في نهاية شارع بشيك طاش على اليسار بعد صعود منحدر Serencebey. بين ليلةٍ وضحاها وُجدتا في قلب الأحداث الأكثر ألماً لحياةٍ شاقةٍ ومليئةٍ بالمصاعب، وذلك بعد حياةٍ

امتدت سنوات عاشتاها في طنطنة وفخامةٍ باعتبارهما زوجة السلطان وابنته .

كانت والدتي تتردد إليهما كثيرا. وذات مرة كنت مع والدتي لزيارة مشفقة هانم وعائشة سلطان. كان نور إيمانهما الساطع يشع برّاقاً في الشخصية النبيلة لكلٍ منهما؛ الأم والبنت. تحدّثنا معهما بعذوبةٍ ساعاتٍ في قضايا متشعبة شتّى، وكانت ممتعة، كانا معظم الوقت يتكلمان ونحن نستمع باستمتاعٍ. لم يرغبا في الحديث عمّا عانياه من المآسي المؤلمة في بلادٍ مختلفةٍ، وعمّا تعرضا له من أنواع الظلم، وعن الوالد والأب عبد الحميد الثاني على وجه الخصوص، حتى استأذنّا للرحيل في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وفارقنا حضرتهما بعد تقبيل أيديهما .

وفي زيارة نهارية أخرى مع والدتي كان الحديث في نهاية المطاف يصل إلى عبد الحميد. كانت مشفقة هانم تذكر زوجها باحترام وتدعو له دائما بالخير، بادرت تقول :

قالت مشفقة هانم: إن أحببتم حدثتكم بهذه الذكرى التي تتعلق بسيدي عبد الحميد. وبدأت تسرد قصتها في حماس وكأنها حدثت قبل قليل :

شعر عبد الحميد في صبيحة ذات يوم بوعكةٍ صحية عند نهوضه من الفراش، إلى الحد الذي لم يعد يملك القدرة على لبس جوربيه، وتسرع مشفقة هانم إلى الجوارب وتلبسها قدمي السلطان برقّةٍ وهي تجلس القرفصاء أمام السرير. وأراد عبد الحميد من زوجته أن تسامحه متأثراً من إخلاصها وحميميتها: " زوجتي تعبت كثيراً، أدامك الله لنا، سامحيني!". وتملكت الدهشة مشفقة هانم من هذه الكلمات التي لم تكن تتوقعها على الإطلاق، فقالت: " لا يا سيّدي! ماذا فعلتُ حتى تحتاج لاستسماحي؟!". ويصرّ عبد الحميد: " لا يا زوجتي إنَ حقوق الزوجة على زوجها كبيرةٌ، فسامحيني". لم تجد كل محاولاتها بإقناع عبد الحميد أنّ ما تقوم به هو أمر طبيعي تقوم به كل زوجة .

إنها لعبرةٌ جميلةٌ جداً: زوجتي سامحيني! يقولها عبد الحميد خمساً أو ست مرات طالباً المسامحة من زوجته لمجرد أنها ألبسته جواربه عندما كان مريضاً .

الباب الثاني : التحريض على التمرد في الدولة العثمانية



مبنى (المركز العام للديون العمومية [ديون الدولة - ربما كان يعادل وزارة المالية])

ثانوية إسطنبول للذكور حاليا

مشروع عبد الحميدفي تشبيك البلاد بالخطوط الحديدية !

كنت أقول دائما ولم يكونوا يصدقون: إنه " لغز عبد الحميد " يتم حله خطوة خطوة. ويمكننا بسهولة تصديق فرانسوا جورجيون Georgeon عندما قال: " فهم عبد الحميد سيكون فهما لتركيا اليوم " ؛ من خلال شبكة السكك الحديدية التي أنشأها.

ولذلك سنغيّر نمط أسئلتنا في تاريخ عبد الحميد.

فعلى سبيل المثال لماذا نسأل: " لماذا كان عبد الحميد عدوا للبحرية؟ "، ولا نسأل: " لماذا اهتم عبد الحميد بخطوط السكك الحديدية على حساب الملاحة البحرية؟ " . ولست أدري لماذا لا نستطيع أن نرى الأولوية الاستراتيجية في هذا الأمر وكأنما هناك سحرٌ أرخى ستارة سميكة على أعيننا!، فعوضاً عن أن يضخ أطناناً من الأموال في سبيل بناء السفن الحربية حتى تبحر إلى إسقارطة بعد 15-20 عاماً؛ كان يرى، بدلاً من ذلك، أن حل مشكلة بقاء دولته وسلامتها يكمن في خطوط السكك الحديدية، أي أنه كان يقيِّم القضية بشكل أفضل؛ تقييماً منطقياً طويل الأمد!

في حين نجد اليارباي، المقدم، م. ثريا بك من قائم مقامية الأركان الحربية (أي من هيئة الأركان العامة) طرح سؤاله الصحيح في كتابه (الأسطول؟ أم الشيمندوفير؟) عام 1912، للقول بضرورة اختيار أحدهما يتحدث عن محدودية المال المتوفر للمشاريع.



خطوط السكك الحديدية حين اعتلى عبد الحميد العرش

ولما كانت هذه المصادر المالية المحدودة غير قادرة على تلبية كل الاحتياجات؛ كان لابد من التفكير ملياً في ترتيب الأولويات، وصرف المال وفق ذلك الترتيب.

لا تنسوا أن نشر كتاب الياربا ي م. ثريا كان عام 1912 حين استولى أنور باشا على الحكم، أي في زمن كانت فيه حملة الاتحاديين في غسل الأدمغة ضد عبد الحميد في أوجها، فيخرج علينا ضابط من الأركان الحربية ويستل قلمه وبكل صدق يبين صواب مشروع الدفاع الذي بناه عبد الحميد في إنشاء خطوط السكك الحديدية.

وهذه أطروحته: لقد توجهنا بسذاجة نحو بناء أسطول بحري بسبب اعتقادنا أن عبد الحميد كان قد أهمل البحرية. حسناً، ولكنه على الرغم من كل الجهود؛ لم نتمكن من جمع سوى 800 ألف ليرة، وهذا المبلغ لا يكفي لشراء نصف سفينة حربية مدرعة Dreadnought [80] ، وإذا اشترينا سفينة أو سفينتين بميزانية نظارة البحرية الحالية؛ فإياك أن تفكر بنفقات التعليم والمناورات، بل وبطلائها مرة في العام، علماً بأن المبلغ نفسه كان يكفي لإنشاء بضع كيلومترات من الخطوط الحديدية، وبنفقات قليلة متوفرة بين أيدينا.

وهكذا يسأل ثريا بك: أي وسيلة للمواصلات هي الأهم بالنسبة لنا السفينة أم القطار؟!، وهو يرى أن مستقبل الوطن في السكك الحديدية من دون أن يذكر اسم عبد الحميد - وذكر عبد الحميد غير ممكن أصلاً في تلك الأيام - ويدافع عن رأي عبد الحميد وترجيحه من دون ذكره.



الخطوط الحديدية عند عزل عبد الحميد عن العرش

وكذلك يظهر ثريا بك السر الذي دفع عبد الحميد إلى تركيز الاهتمام

بالسكك الحديدية بدلاً من البحرية، ومرة أخرى من دون ذكر اسمه:

أنا مع مد خطوط السكك الحديدية التي سيتم إنشاؤها في الأناضول؛ بحيث تربط بين سورية والعراق وكردستان وبغداد وأذربيجان. ألم تكن كردستان وسورية والعراق متصلة ببعضها لو تم إنشاء هذا الخط؟ ويصبح التواصل بين هذه الأقاليم سهلاً؟

ترى أمن الممكن أن نرى السكك الحديدية تمتد من المدينة إلى صنعاء، ومن سورية إلى مصر؟!. في ذلك الوقت عند مد خط الحجاز الحديدي؛ كان الجميع يسخرون، وقد أصبح الآن يؤمن الإيرادات أيضاً. فهذا الخط الذي يربط سورية بالحجاز... ترى هل يمكن أن يمتد ليصل إلى صنعاء أم لا؟

إن هذا التقرير المثير الصادر عن ضابط عسكري من الاتحاديين يكشف في الواقع عن المشكلة بين الدولة العثمانية والدولة التركية.

والحاصل أن مشروع السلطان عبد الحميد بتشبيك الدولة العثمانية بالسكك الحديدية تم تبنيها ثانية في زمن أتاتورك في سبيل وضع " الوطن الأم" الأناضول داخل إطارٍ حديديٍّ من جهاته الأربع. أي أن الرحلات عبر السكك الحديدية لم تعانِ من انقطاع أو انكسار أو انفصال.. بين الدولة العثمانية والجمهورية.

والنجاح في مشروع رائع كخط الحجاز الحديدي هذا لن يكون قائماً بمجرد طول سككه وجسوره، بل بإدارته وتنظيمه، أليس كذلك؟!، فهذا المشروع الذي تم إطلاقه في 1 أيار 1900 والذي تحقق فقط بأموال المسلمين وجهود المسلمين وخبرات المسلمين؛ كان مثار دهشة العالم الإمبريالي كما يقول هارتمان. نعم ف هذا الخط المقدس أثبت للعدو وللصديق أن المسلمين في هذا العالم المتحضر لم يموتوا، وأنهم واقفون وبقوة على أرجلهم. وعندما نأخذ بعين الاعتبار خط بغداد الحديدي الذي أعطي امتيازه للألمان تظهر بوضوح جدوى مشروع عبد الحميد.

كان المتوقع أن يتم مد سكة حديد بغداد من أنقرة، فقيصرية، فديار بكر، ثم إلى الموصل، بل وسيمتد خط فرعي إلى أرضروم ليرتبط بخط تم إنشاؤه مسبقاً بين أربة جاي - صاري قاميش، وينفتح على القفقاس. ومن جهة أخرى تم التخطيط لخط آخر يرتبط بإيران للوصول إلى ما وراء بحر الخزر أي إلى أفغانستان والهند.

لكن الروس عارضوا بشدة مد الخط الحديدي إلى أرضروم وديار بكر، كما عارض الإنجليز وصوله إلى إيران وأفغانستان، وحال ذلك دون وضع

هذه الخطوط قيد التنفيذ، واضطر هذا الخط أن يختصر خط سيره على قونية، أضنة، حلب، والموصل.

لكن عبد الحميد كان عنده ما يقوله للروس أيضاً، فتقدم بعرضه للروس قائلاً: " تعالوا أعطيكم امتياز مد الخطوط الحديدية في شرق وشمال الأناضول، ومن أجله تم توقيع اتفاقية البحر الأسود عام 1900، لكن الروس لم يتجاوبوا مع العرض لأنهم كانوا آنذاك مشغولين ببناء أطول سكة حديد في العالم ترانس سيبيريا. وهكذا كان هم عبد الحميد هو أن يقدّم شيئاً للوطن، ولم يكن همه من يقوم بالعمل. وهكذا " أصبحت سكة حديد بغداد شبح القرن العشرين " كما قال البروفيسور موريس جاسترو [81] . آه يا برفيسور: اليس عبد الحميد نفسه هو الشبح الذي لا زال يتجول في الشرق الأوسط إلى الآن؟!

يابانى يدافع عن عبد الحميد

يبدو أن الباحث الياباني كاوري كوماتسو استطاع أن يفهم، بقدرة أفضل مما نملكها نحن، سياسة عبد الحميد البحرية. ففي رأيه أنه حتى لو كانت تركيا محاطة من جميع أطرافها بالبحار؛ فهي لا تملك بنيةً تحتيةً اقتصاديةً قادرة على أن تغذي قوة بحرية كبيرة. فعوضاً عن أن يكون لديه سفينةٌ بحريةٌ، ويبقى معتمداً على الخارج؛ فضل عبد الحميد أن يختار البر والسكك الحديدية، ألسنا نستعمل حتى الآن تلك السكك الحديدية؟ ألم يعط الاتحاديون وأتاتورك والمارشال فوزي جاكماك [82] وإينونو الأولوية للسكك الحديدية؟ فاهتراء السفن القابعة في الخليج إذاً؛ لم يكن سوى نتيجة لا مفر منها بسبب هذا الاختيار الاستراتيجي، وليس له علاقة بكراهية البحرية.

Kaori Komatsu, "Financial problems of the navy during the reign of Abdülhamid II", *Oriente Moderno* , Luigio 2001, pp. 200-219 (ed. Kate Fleet, "Ottomans and the Sea" özel sayısı)

ما الذي أضافه عهد عبد الحميد لأرض الأناضول؟

الإنجازات التي تم تحقيقها في مجال الإصلاحات الزراعية في عهد عبد الحميد كانت مؤثرة.

Quataert Donald

عالم التاريخ الفرنسي فرنارد برودويل الذي يرى الإمبراطورية العثمانية "منطقة مجهولة مذهلة " و"لغزاً كبيراً " موضوعاً على طاولة البحث أمام المؤرخين تحدث عن أن آراءنا المتداولة القديمة غير كافية لفهم حقيقة العثمانية العظمى، وأن على المؤرخين إعلان نفير عام جديد.

لقد بقيت صورة التاريخ العثماني ولسنوات طويلة ظاهرة ثابتة، قيل في حقها القول الفصل، وصدر الحكم المبرم، وختم التاريخ العثماني وكأنه عاش زمناً ثم انتهى. فالتغيير الذي جاءت به عشرينات وثلاثينات القرن العشرين والحكم القاطع في المجال التاريخي؛ حمل معه أيضاً وهم القدرة على تأطير التاريخ الذي يمتد طيلة 600 عام في لوحة واحدة جامدة. فهذه اللوحة العثمانية كانت تقدم صورة الهوية الجامدة التي تقاوم التطور والتي عفا عليها الزمن. والنظرة الأيديولوجية قامت بوضوح ولعشرات السنين بدور "سراديب الموتى الرومانية " في تقديم العثمانية للشعب والمؤرخين من خلال هذه اللوحة المشوهة.

اعتباراً من أواسط السبعينات حدث "انفتاح تاريخي " ، فقد كان لتطور علم التاريخ العثماني الجديد في الغرب وظيفة إيقاظنا من سبات أهل الكهف، فدعانا من جديد إلى مواجهة واقعنا الذي حملنا على احتقاره، وهز أساسات هذا الاحتقار، ولا يزال يهزها حتى الآن...

دونالد Quataert "عثمانيست " أمريكي، أي متخصص في التاريخ العثماني، ومجال اختصاصه الاقتصاد التاريخي، وبين أيدينا بعضٌ من أبحاثه المترجمة إلى لغتنا من قبل، منها كتابه " توسع الاقتصاد الأوروبـي في الدولة العثمانية والمقاومة" (1881-1908) [83] يتناول فيه مشهد ربع قرنٍ من النضال الذي خاضه الحكام العثمانيون في عهد عبد الحميد ضد الاستعمار الأوروبـي. وقد نهج نهجاً مختلفاً في كتابه التاريخي الآخر الذي يفتح عصراً جديداً، والمسمى: " الصناعة العثمانية في عهد الثورة الصناعية" [84] . الذي انتقد فيه بجرأة وشجاعة المنهج " الدولتي" الذي يكتب فيه المؤرخون العثمانيون، ويركزون في التاريخ الاقتصادي على أرباح وخسائر الدولة، في وقت يغيب فيه الطرف المنتج، ولا يسمع له أي صوتٍ أو

حسٍّ، وأن المنتجين والناس لم يكونوا موضوع بحث في هذه الدراسات العثمانية.

ونحن نتيجة هذه النظرة الدولية للتاريخ كنا نرى الواقع من خلال طبقة واحدة هي الدولة، نصر على إغلاق أعيننا عن الطرف الآخر وهو الشعب. وفي رسالة الدكتوراه التي قدّمها الكاتب عام 1973 والتي تمت ترجمتها إلى اللغة التركية بعد 35 سنة؛ يكرر السؤال والانتقاد هذه المرة؛ ففي الماضي كانت الأبحاث والنقاشات الزراعية العثمانية تتجاهل أصوات القرويين، فلا تتعرض لقضاياهم وكأنهم مغيبون في المجتمع. فكان محور الخطاب الكلاسيكي يمضي في حديثه عن الدولة؛ أصبحت غنية، وافتقرت، وجاء الاحتلال، واستعمرت، وسقطت العثمانية وانتهت، والملتزمون، الإقطاعيون، سحقوا القرويين واستغلوهم أبعد استغلال.. الخ، لكن القسم الأكبر الذي يمثل الطرف المنتج الرئيس في الدولة ودافع الضريبة الأساسي والذي يمثل 85 بالمئة من السكان؛ كان بعيداً عن الاهتمام.

يدعونا دونالد Quataert في رسالته للدكتوراه وموضوعها " بالإصلاح العثماني والزراعة في الأناضول " [85] لإعادة النظر ثانية في أناضول عبد الحميد الذي سوقوه لنا "كسنوات انهيار " العثمانية. فالصورة المدهشة الديناميكية التي يرينا إياها في كتابه مختلفة بشكل كبير عما نعرفه، ويأخذنا إلى حقيقة ثلاثية الأبعاد. فنتعرف على وجوه غامضة مبهمة لتاريخنا، فالقروي عند الكاتب بفضل جهوده الصادقة يحتل دور الفاعل المساوي لدور الدولة في التغيير، لا دور المتلقي المطلق.

فبينما كانت الجهود الشخصية التي يقوم بها السلطان عبد الحميد الثاني في مجال تنمية الزراعة والفلاحة، وجهوده البارزة للتحول إلى الزراعة الحديثة في استخدام الآلات في المزارع النموذجية التجريبية من جانب؛ كانت هذه الجهود من جانب آخر تتكامل بالتحول إلى الزراعة التجارية مع توفر إمكانية توصيل المنتجات إلى المدن الساحلية بشكل أرخص وأسرع من خلال الحركة غير المتوقعة التي تدفقت إلى أحضان الأناضول العجوز مع إتمام الخطوط الحديدية.

ولا يبدو في هذه اللوحة أن الدولة قد استسلمت على الرغم من وجود ما يسمى بالديون العمومية التي يقال إنها تستنـزف مصادرنا. فيتم على سبيل المثال إنشاء البيروقراطية الزراعية؛ غرف التجارة، وزارة (نظارة) الزراعة، مجلس التجارة والزراعة، إدارة الزراعة، مدارس الزراعة، والهيئة الفنية الزراعية التي ستتولى الإشراف على الإصلاحات الزراعية.

وبالطبع يغدو بنك الزراعة الذي سيتولى تمويل هذه الإصلاحات بما يوفره من القروض المعين الأكبر لمزارِع الأناضول لمبادرته في تحسين الانتاج، وهذه القروض ستخلص المنتجين الصغار من أيدي المرابين.

المزارع النموذجية التي ظهرت في جهات الإمبراطورية الأربع كأدرنة، وسالونيك، وسيواس، وحلب.. كانت المظهر المذهل الذي يدل على أن الإصلاحات لم تبق في إطار النظريات، بل دخلت حيز التطبيق العملي، في وقت كان ري سهل قونية بحد ذاته حدثاً مدهشاً.

وبينما كان عبد الحميد يقوم بمراقبة آلات الزراعة الأمريكية من ناحية، كان من الناحية الأخرى يقوم بإصدار الإرادات، القرارات، المتتالية لتعيين المهندس " ديفيد كِنْت" (من Iowa) في وزارة الزراعة. كما نرى أنه أرسل هيئة لدراسة قمح رومانيا المشهور، ويأسف على قلة الطلاب المسلمين في معهد تربية دودة القز في بورصة، ويطلب من المسؤولين اتخاذ التدابير السريعة لزيادة أعدادهم. ويناضل من جهة أخرى للتخلص من قرارات الإذعان التي تقف عقبة كأداءَ في طريق تقدمنا (ص 44 وهامش 20).

والطريف في كل هذه الأبحاث أن نشهد تطوراً في زراعة: الورد والبطاطا.

فمدينة إسبارطة اليوم تعتبر مركز انتاج الورود، وتلازم اسمها بالورود، حتى أصبحت رمزاً لها. لقد تطورت زراعة الورود في إسبارطة على يد اللاجئين البلغار، بعد حرب 1893، المتقنين لتربية الورود على الأراضي التي استقروا بها حديثا، فأصبحت هذه المدينة [إسبارطة] تفوح بعبق الورود في كل موسم.

أما البطاطا فكان المنتج الزراعي الحيوي الذي تم اللجوء إليه من قبل الحكومة لمواجهة خطر المجاعة التي كانت قد انتشرت في الأناضول. زرعت أولاً في الولايات الغربية: أضة بازاري، سوغوت، أسكي شهر، ثم ديار بكر، هاربوط، طرابزون، أرضروم، بل وفي وان من الولايات الشرقية.. تم تشجيع زراعة البطاطا بإعفائها من كل أنواع الضرائب من قبل الدولة، فكان لذلك فائدة كبيرة لمواجهة خطر المجاعة التي أطلت برأسها في خلال السنوات المناخية الصعبة التي عاشتها الأناضول.

بطبيعة الحال لم تكن هذه الجهود كافية للقضاء على الفقر في الأناضول، لكنها على الرغم من ذلك؛ فإن "النجاحات التي حصلت عليها إدارة عبد الحميد من الإصلاح الزراعي كانت فاعلة " حسب دونالد. فعلى الرغم من أن النجاح لم يكن الحليف دائماً؛ فإن الجهود المبذولة للاستفادة

من الدور الريادي للدولة والفرص التي قدمت للناس شكلت لاحقاً التغيير الجذري في المجال الزراعي في عهد الجمهورية.

عبد الحميد أرسى أساسات " سلام سوغوت "

في كنفِ موقد [86] أرطغرل استيقظنا

... وبدماء الشهداء اصطبغنا

في " إحياء ذكرى الغازي أرطغرل ومهرجانات سوغوت ğüt ö S عام 2008 كانت الذكريات الأليمة التي ظهرت بين الطرفين الغالبين في الحملات الانتخابية التي سبقت 22 تموز 2007 يبدو أنها قد نسيت، والثلوج السياسية بينهما ذابت، ولقيت الذكرى اهتماماً من أعلى المستويات مقارنة بالسنوات الماضية، وقد انعكست المصافحة الحارة بين رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان ورئيس حزب الحركة القومية دولت بهجة لي في ختام المراسم التي ظهرت في الصحف تحت مانشيتات (صلح سوغوت) أو (أخوة سوغوت) في دلالة لها معنى.

ربما كان الإعلاميون محقين من وجهة نظرهم، ولكن لا بد لنا من ناحية صلحنا مع التاريخ أن نذكر البصمة الخفية الكامنة وراء هذا الصلح أو هذه الأخوة، إنها بصمة هذا الرجل الخفي الذي له حصة كبيرة بلا جدال في وصول احتفالات بيلاجيك وسوغوت وفتح إسطنبول الذي يحتفل به في كل عام، وإعلان استقلال إسطنبول، واحتفالات الغازي أرطغرل، إنه ليس سوى السلطان عبد الحميد.

وظهوره كشبح في كل زاوية من زوايا حياتنا على الرغم من مرور كل سنوات التخريب هذه لم يكن من فراغ، فهناك روابط مختبئة في الأعماق تربط عبد الحميد بأيامنا هذه كأنها حبال متينة.

حسناً، لماذا إذا اتجه السلطان في نهاية القرن التاسع عشر باهتمامه نحو هذه المناطق التي وضعت فيها أساسات الدولة العثمانية؟! أو باختصار ماذا كان يريد أن يفعل؟ وما هو همه؟!

تذكير بالجذور العثمانية

يؤكد كمال قرباط وبإصرار في كتابه تسيس الإسلام *on Politicization Islam of* أن عهد عبد الحميد أرسى أساسات الجمهورية، بل والأهم من ذلك هو أنه رسخ فكرة وطن غير قابل للانقسام في أذهان الأجيال الحديثة من خلال المدارس التي افتتحها. وقد تم اللجوء في سبيل ذلك إلى طرائق متعددة، منها على وجه الخصوص إحياء الذكريات المشتركة التي تغذي مفهوم "الوطن " في اللاوعي، وإحاطة التقاليد الاجتماعية بهوية رسمية..

فالذكريات المشتركة الضعيفة في هذه المجتمعات المتجهة نحو التطور؛ يتم التقاطها من أماكن وجودها، وتسليط الأضواء الرسمية عليها، ومن ثم إحياؤها واحدة تلو الأخرى، وتأسيس قناة ثقافية يتدفق من خلالها ذلك القديم بسهولة وكأنما لم يكن هناك شيء جديد أبداً.. يتم استرجاع الذكريات من رحم التاريخ المظلم إلى يومنا هذا، وهكذا يصبح من السهل أن يتم تبنيها والحفاظ عليها من قبل الناس.

وها هو السلطان عبد الحميد ومنذ أواسط الثمانينات من القرن التاسع العشر يعمل على تنشئة الأجيال على معرفة العثمانية من خلال افتتاح المدارس الحديثة من جهة، وتنشيط الأدوات التي ترسخ هذه الأيديولوجية من جهة أخرى. في هذه الإطار، ومن خلال التركيز على مسألة الحنين للأصل؛ تتم دعوة الذكريات المنسية لتشكل ذاكرة مشتركة، فتعود إلى الحياة الأصول العثمانية الصحية والقوية، ولذلك تتم دعوة ذكريات الغازي وأرطغرل للحياة من جديد لتتنفس في هذا الوسط الفوضوي من جديد بعد مئات السنين لأنها بمثابة الهواء النقي للصفحة الأولى لسوغوت وما حولها.

الرياح المنعشة التي تهب من سوغوت

كان أفراد الحراسة الشخصية الذين وثق بهم السلطان عبد الحميد؛ يشكلون الإشارة الأولى للاهتمام الذي أولاه السلطان عبد الحميد لسوغوت. فقد أسس كتيبة الماهية من 200 شخص من سوغوت من عشيرة القرة كجيلي، عشيرة الماعز الأسود، ونعلم أن السلطان كان يخاطبهم وهو يقول: "يا أصحابـي المخلصين " ، وتذكر الكتب أنه قدَّمهم للإمبراطور الألماني وليام الثاني عند زيارته بأنهم أقرباؤه.

ثم تأتي الاستثمارات التي أنفقها في الآثار التاريخية التي بجوار بلاجيك وسوغوت، وإذا قلَّبت جريدة "إقدام" الصادرة في 4 أيلول 1905 ستجد نفسك أمام خبر افتتاح 12 مسجداً للعبادة في خلال تلك السنة في سوغوت، وتستولي عليك الدهشة لكل هذا الاهتمام بهذه المنطقة الصغيرة جداً. مسجد الحميدية ذو المنارتين، وبجواره المدرسة الثانوية، في دلالة واضحة إلى أنه يرى المسجد والمدرسة مكملين لبعضهما.

وكذلك إصلاح مسجد محمد جلبـي في سوغوت، وكان قد تحول إلى خرابة، فافتتحه للعبادة. كما قام بإصلاح قبر الفقيه دورسون عديل الغازي عثمان وأول من اعترف به كشيخ للإسلام في الدولة العثمانية في قرية " كرة". وإعادة بناء قبر الغازي عثمان وكان ابنه الغازي أورخان قد نقله إلى

بورصة، وبناء وتجديد قبر الغازي أرطغرل وأمه هائمة. وبالتأكيد ستبقى اللائحة ناقصة إن لم نضع في الحسبان يوم بناء الدولة العثمانية الذي بدأ الاحتفال به في 27 كانون الثاني 1884.

البرقية والرز الشافي

وتبدو مهارة السلطان عبد الحميد في ابتكار التقاليد في احتفالات سوغوت المستمرة إلى يومنا هذا. فعادة زيارة قبر أرطغرل وتقديم أطباق الرز هناك التي تقوم بإعدادها وتقديمها عشيرة " قرة كجي لي" مع أهالي سوغوت، ثم ما لبثت أن أخذت طابعاً رسمياً بمشاركة عبد الحميد في عام 1895.

يجتمع أبناء عشيرة " قرة كجي لي" المنتشرون في أسكي شهر وسوغوت وكوتاهية ويني شهر؛ في أولوكلو Oluklu في خلال مواسم الاحتفالات ويتجهون إلى سوغوت وهم يرتدون ملابس الرحل الوسط آسيويين على ظهور الخيول، يرددون النشيد الوطني حتى يصلوا إلى الساحة المحيطة بقبر الغازي أرطغرل، تحت أنظار المتابعين لعروض الخيل ورمي الرماح أمام القبر. (بالطبع من نافلة القول أن الملابس الرسمية كانت تأتي من إسطنبول).

ويمكث رئيس العشيرة التي تقيم الاحتفال ثلاثة أيام أو أربعة، ويرسل برقية إلى السراي " لقد قمنا بأداء وظيفتنا السنوية بتقديم الاحترام لقبر أجداد حضرة السلطان المحترمين". وتكررت هذه الجملة سنوات بنمطية واحدة. وبعد تناول الرز الشافي المطبوخ بلحوم الخرفان والحلوى؛ يختتم المهرجان بالدعاء الجماعي للسلطان.

الرز الشافي ورمي الرماح ما زالا مستمرين حتى الآن، لكن نطاق المهرجانات قد اتسع إلى حد كبير جداً، فأصبح يشارك فيها بالإضافة إلى القرة كجيلي؛ التركمان القادمين من كل أنحاء تركيا، ليقدموا الفلكلور والمهتار والحفلات الشعبية الموسيقية. تنصب الخيام السوداء وتقدم الفطائر والعيران.

نعم! لا يمكن لميت أن يقدم خدماته للأحياء أكثر من هذا!

المصادر:

سليم درينغيل، أيديولوجية ورموز السلطة: عهد عبد الحميد الثاني (*1876 - 1909*) ، الترجمة إلى التركية: Çağalı Gül ، إسطنبول 2002 ، منشورات Kredi Yapı .

أيدن تالاي، السلطان عبد الحميد بآثاره وخدماته ، إسطنبول 1991 ، منشورات الرسالة.

مهد التأسيس والاستقلال، سوغوت مركز الغازي أرطغرل، سوغوت 2005

.

بيلاجيك ، بيلاجيك 2005 ، منشورات ولاية بيلاجيك.

اهتمام عبد الحميد بالقرة كجي لي

هذه العادة التي استمرت لمئات السنين بين القرة كجي لي؛ أثارت اهتمام وانتباه السلطان عبد الحميد الثاني، فيتحمس لها عبد الحميد، ويقوم بإضفاء الصفة الرسمية عليها، وفي خلال زيارته تقوم كتيبة عسكرية بمرافقة القرة كجي لي على ظهور الخيل، ويردد الجميع معا نوعاً من النشيد (المارش):

نحن العسكر النادر في موكب أرطغرل خان

نحن العسكر الشجاع الفريد في القوة والقدرة

بكر صادق بك رئيس قبيلة القرة كجي لي في زمان والد السلطان المذكور؛ شخص مثقف تلقى تحصيله العلمي في المدرسة التي أسسها والده في القرية .

في عام 1901 منح السلطان رئيس القبيلة وزعماءها ميداليات امتياز ذهبية ونياشين مجيدية عثمانية. وقد تم تقليد الميداليات والنياشين من قبل صاحب مقام عال من مساعدي السلطان في مراسم حضرها القائم مقام مع موظفيه .

كان السلطان يرى في قبيلة القرة كجي لي صورة حية عن أجداده الشجعان. فكان صادقا في اهتمامه بها، وجعل حرسه الشخصي من أبنائها .

وفي عهد هذا السلطان كذلك تم تشكيل آلاي، لواء، خيالة من حملة الرماح باسم الغازي أرطغرل، وقد أعطى الاسم نفسه لسفينة حربية (السفينة الخشبية التي غرقت في سواحل اليابان. م. أ.). ولم يكن ذلك إلا تخليداً لذكرى الغازي أرطغرل من قبيلة القرة كجي لي .

والنشيد الذي كان يتردد في المدارس إلى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين هو :

في موقد أرطغرل استيقظنا

ومن دماء الشهداء اصطبغنا

يحمل نفس الطابع، فهذه الأغنية تظهر تعبير أمة كانت تعاني في ذلك الوقت أياماً كارثيةً حزينةً، كما تظهر حسرتها على ماضيها المشرف .

فاروق سومر، " البطون التي نشأ منها العثمانيون الأتراك، الغازي أرطغرل وقبيلة القرة كجي لي، مجموعة التاريخ المصورة، 22 تشرين الثاني 1951 ، ص 1017 - 1018 .

مغامرة الهاتف العثمانية

عند دخولي إلى غرفتي في فندق فرانكفورت انتركونتينتال استقبلني ملف على الطاولة، وعندما فتحته وجدت في داخله بضع صفحات، يمكن أن تقول إنها رسالة باسم " Maın am Frankfort " ،.. جملة وردت في هذا النص الذي يتحدث عن مدينة فرانكفورت تلك المدينة الألمانية اللطيفة القائمة على أطراف نهر مين الجميل؛ أثارت انتباهي، حيث كانت تذكّر أن مخترع الهاتف الأول هو شخص فرنكفورتي يدعى Reis Philippe Johann ، وفي الحقيقة لا أذكر أبدا أنني سمعت بهذا الاسم من قبل. وإن كنت سمعت به ذات يوم بوصفه مخترع الهاتف؛ فقد محي من ذاكرتي من دون أن يترك أي أثر.

هذا الملف اللطيف جعلني أفكر بأمرين: أولهما ترى هل يترك رؤساء بلدياتنا في مدننا وفنادقنا مثل هذه الخطابات التي تذكر بما كانت عليه وبما حققته الإمبراطورية العثمانية؟!. والأمر الثاني: من هو مخترع الهاتف البديل هذا الذي لا أعرفه؟!

مثل هذه المنازعات كثيرة في أوروبة. فمخترع المطبعة هو شريك Gutenberg ، وعلى الأصح رئيسه في العمل المسمى Fuchs ، فالهولانديون يدرسون في كتب التاريخ أن Fuchs (رئيس Gutenberg) كمخترع للمطبعة. أما الألمان فيعتبرون Gutenberg صاحب الحق الكامل في الاختراع ولو أنه كان عاملا عند Fuchs ، ولذلك لا يتنازلون عن هذا الحق لاحد. ويستمر النـزاع هكذا لمئات السنين.

هاتف في العاصمة العثمانية

الوثائق التي في أيدينا مثيرة للاهتمام، فهي توضح أن الهاتف بعد ثلاث سنوات فقط من اختراعه طرق أبواب إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية في وقت كانت تمر فيه بأيام قاسية.

في عام 1879 وبعد خروج العاصمة العثمانية من حرب 93 بائسة منهكة، نرى أن مقاولا اسمه موسيو كامبري يطلب امتيازاً لبناء شبكة هاتف في إسطنبول وما حولها، ولا بد أن الطلب قد اثار اهتمام الإدارة حتى وجدته يستحق التشاور حوله في مجلس شورى الدولة الذي يمكن وصفه في أيامنا هذه بمجلس الدولة. ولكن ولسبب غير معروف تم رده. وبعد سنة تم رد طلب آخر بنفس الموضوع من شورى الدولة. ثم تتابعت مبادرات أخرى لقيت نفس المصير.

نعرف أن أول هاتف في الإمبراطورية العثمانية قد تم تركيبه في قصر يلدز في المكتب الخاص للسلطان عبد الحميد. وفي ضوء المعلومات التي بين أيدينا: نرى أول خط هاتفي وُضع عام 1881 يمتد من مركز التلغراف في سوغوت جشمة إلى بناء البريد الخشبـي القديم في يني جامع، وهذا أول هاتف عرفته الدولة العثمانية. ومن ثم تم تركيب أربعة أجهزة على خط الهاتف هذا؛ جهاز في غرفة المدير، وآخرين في البناء المجاور: في غرفة مدير قلم الصناعة ومدير المصنع، والأخير في غرفة مدير البريد في يني جامع.

وفي خطوة أخرى في نفس العام أيضاً تم تركيب خطين يمتدان بين البريد الموجود في خان الشعب في غلطة وبريد يني جامع، وبين البنك العثماني في غلطة وشعبته في يني جامع. كما تم تركيب خط من إدارة ميناء غلطة إلى مكتب التخليص في Kilyos ، وتمت الاستفادة في تنفيذ هذا الخط من كابل أوديسا التابع لشركة تلغراف ايسترن وتلغراف بـي أوغلو.

ثم نرى خطا آخر يصل غرفة ناظر البريد والبرق بغرفة مدير معمل التلغراف. ومعلوم أن السلطان عبد الحميد في قصر يلدز كان يستعمل الهاتف بهدف التواصل، وكانت بعض الأوامر السلطانية بناء على السرعة المطلوبة تعطى من الهاتف، وكانت المعلومات المختلفة في شتى المواضيع تؤخذ من المسؤولين [87] .

ولكن ولسبب غير معروف حتى الآن نرى أنه وبأمر من السلطان في 16 آب عام 1886 تمت إزالة كل خطوط الهاتف، ومنع استعمال الهاتف بعد هذا التاريخ، عدا الهاتف الواصل بين إدارة ميناء غلطة ومكتب التخليص في كيلوس. إنه قرار مثير للفضول، ترى هل اشتبه السلطان بأمر ما؟!. وكذلك يقال: إن القرار استمر تطبيقه وبشدة اعتبارا من عام 1892. وقيل: إن السلطان كان يراه " اختراعا يساعد على كشف أعماله السرية الخفية"، ويزعمون بأنه منعه لهذا السبب. والفترة التي تلت ذلك التاريخ كانت مظلمة في تاريخ الهاتف، ولا بد أن تخرج للضوء.

لماذا منع عبد الحميد الهاتف؟

لا بد لنا هنا من أن نتناول سبب منع الهاتف الذي يتخذه بعضهم دليلا على استبداد السلطان عبد الحميد وشكوكه؛ من منظور أوسع. فنحن على سبيل المثال نرى بأن السلطان قام بجهود عظيمة لنشر خطوط التلغراف في كل أنحاء الوطن [88] ، وبالتالي لا يمكن أن يكون قبوله للهاتف مجرد نـزوة غريبة، ومنعاً لاختراع عصري حديث. فلا بد أن يكون

هناك سبب آخر يدفعه التردد والخوف أمام وسيلة الاتصال هذه، كخوفه من خروج هذه الوسيلة الأجنبية عن السيطرة، وربما اشتبه بالتنصت على أحاديثه.

وربما من المفيد القول أن هذا المنع الذي طبق على الهاتف قد أفاد بتطور التلغراف وانتشاره، وربما كان كثير من الخطابات الحاسمة تتبخّر وتطير وهي تسير في أسلاك الهاتف، فبفضل التلغراف نحافظ على القسم الأهم من وثائق التاريخ القريب المكتوبة [89] . ولا ننسى أن الثورة التي أتت بالمشروطية الثانية كانت نتيجة توالي البرقيات من الروم إلي.

يبين التاريخ أن عام 1908 هو العام الذي تكثّف فيه استعمال الهاتف. وقد أزيل القانون الذي يمنع الهاتف مع إعلان المشروطية الثانية، لكن نظارة البريد والتلغراف لم تترك اتخاذ التدابير، فاحتكرت الهاتف واحتفظت به في يد الدولة فقط، وتجنبت وبإصرار منح التراخيص أو الامتيازات الخاصة.

ولكم أن تقولوا: "حسناً، فمن هم أبطال الهاتف عندنا؟! " .

من هو بطل الهاتف عندنا؟

إن المصادر ماهرة في كتم اسمه او أسمائهم. ربما لم يكن عندنا أبطال مخترعون. حسناً لن نتحدث عن وصول الهاتف إلينا كإنجاز آخر للسلطان عبد الحميد، ولكن ألا يفترض على الأقل أن نقبل بأن مدير البريد والتلغراف في بداية عام 1880 قد تم تركيب أول الخطوط الهاتفية في عهده؛ له نصيب في هذا الانجاز؟

ولكن مع الأسف في لائحة أصدرها البريد [90] ، لا نجد اسم أي مدير للسنوات التي تفصل بين الأعوام 1880 و1888. وقبل هذا التاريخ نقرأ اسم حيدر أفندي، ثم حسن علي أفندي، وبينهما فراغ وصمت عجيب، فلم يا ترى؟ ألم يكن هناك مدير عندما أجريت المكالمة الهاتفية الأولى؟ وفي خلال هذه الأعوام الثمانية الطوال، وبما أن أبواب الإدارة لم تغلق؛ هل سارت الأمور بالوكالة بلا مدير يا ترى؟!، وإن كان هناك مدير فمن هو هذا المدير المتميز الذي استطاع توفير دخول الهاتف إلى بلدنا؟ هذه أمور لا نعرفها مع الأسف. كل الذي نعرفه أنه بعدما خلع السلطان عبد الحميد عن العرش، وضع البلجيكي مسيو ستربين Sterpin على نظارة التلغراف والهاتف، اللذين انتشرا في عهده.

والآن ما رأيكم: هل ينبغي أن يكون أبطالنا المعاصرون دائماً من الغرب؟!

متحف البحر أيضاً تم افتتاحه في عهد عبد الحميد

نستمر باكتشاف بصمات السلطان عبد الحميد الثاني المباركة في تأسيس تركيا الحديثة. والآن نحن على أبواب أحد المتاحف.

إنه متحف البحر الموجود في بشيك طاش، وهو أيضا واحد من المؤسسات الثقافية التي افتتحت في زمن عبد الحميد. إلا انه ينبغي أن يعلم الجيل الجديد ويعتبر ما حل بهذا المتحف الذي نتباهى بوجوده اليوم من سوء المصير في زمن الحزب الواحد.

إنها طريقة واحدة نستطيع بها الانتقام ممن سرق منا ذكرياتنا؛ إنها تكمن في تذكرها ثانية...

يكتب المؤرخون أن أول المتاحف العثمانية قد أسس في عهد السلطان عبد المجيد عام 1847 من قبل مشاور الترسانة أحمد فتحي باشا. ولكن لماذا يتناسون انه وقبل 550 عاماً قام السلطان محمد الفاتح بتحويل كنيسة أيا إيريني الفارغة في القاعة الأولى من قصر طوب قابـي إلى متحف للأسلحة، وجمع فيه الأسلحة التركية القديمة، وغنائم الحرب من الأسلحة المختلفة. وهكذا أطلق عليه في عام 1726 اسم دار الأسلحة، ولكنه كان مغلقا لم يسمح بزيارته إلا لبعض الخاصة.

أول متحف عصري تم افتتاحه عام 1875 في جناح قصر Çinili في عام 1881 وعين الرسام عثمان حمدي بك مديرا للمتاحف الهمايونية، وبتعيينه تطورت متاحفنا تطوراً جدياً. وبينما تسلط الأضواء على المعمار فالوري الذي قام ببناء المتحف الأثري عام 1893؛ يتم التغافل عن اسم السلطان الذي أسس في عهده أيضا المتحف البحري.

المتحف البحري يفتح عينيه

تم بناء المتحف البحري من قبل قائد كبير في البحرية اسمه سليمان نطقي بك في بناء خاص داخل ترسانة قاسم باشا. وهذا المتحف هو الثاني وهو أول المتاحف العسكرية.

وكان سليمان نطقي بك قد أعد تقريرا ضمنه اقتراحا بفتح متحف يضم الآثار القديمة العائدة للقوات البحرية، عوضاً عن بقائها في المستودعات والمكتبات ليعلوها الغبار وتهترئ. وأرسل هذا الطلب إلى نظارة البحرية، ولقي الطلب قبول ناظر البحرية حسني Bozcaadalı باشا، فقام بتعيين صهره أمير اللواء البحري حكمت باشا مديرا [91] ، وسليمان نطقي بك مساعد مدير، وكلفهما إنشاء المتحف.

وكانت ترسانة قاسم باشا أول مكان للمتحف، وكانت بناءً يستخدم مخزناً للقذائف، فتم جمع الأثار المختلفة الموجودة في المراكز البحرية وفي مصنع قاسم باشا ومستودعاته على وجه الخصوص، وأحضرت إلى الميدان. كما نجد المكتبة التي أُنشئت بجهود رجال البحرية والتي ما زلنا نستعملها حتى الآن.

وقد افتتح المتحف البحري في مراسم الجلوس الحادي والعشرين للسلطان عبد الحميد، وذلك في يوم الثلاثاء 31 آب 1897.

وفي المراسم قدم له ناظر البحرية كتابا من ثلاث مجلدات مخطوطة على ورقة آبادية فستقية اللون مزينة برسومات، ذات علاقة بالبحرية، وخريطة تظهر ترسانة إسطنبول. كان المتحف الحربـي خارج أيام العطل يفتح أبوابه من الساعة 11 وحتى الساعة 16.

لكن مركزاً مهماً كهذا مع الأسف كان نصيبه الإهمال في زمن الاتحاديين، ومرت عليه طفرة اهتمام من ناظر البحرية جمال باشا، فنهض ثانية بتعيين رسامنا المشهور اليوزباشي علي سامي بك مديراً للمتحف، لكنه ما لبثت أن نشبت الحرب العالمية، وأسلم لقدره وسقط ثانية في مستنقع الإهمال أمام ضعف الإمكانيات كما هو العادة في زمن الحروب.

في خلال الحرب العالمية الثانية يتم نقل محتويات المتحف البحري المهملة في السنوات الأولى لبناء الجمهورية بالقطار إلى قونية؛ خوفاً من احتمال قصفها.

ولم يكن ذلك خاتمة الأيام المؤلمة من تاريخ هذا المتحف.

نقل المتحف إلى الجامع

لم يكن المتحف الذي بقي مغلقا طيلة زمن أتاتورك يعلم بما سيحل به. ففي عام 1946 مع قدوم الملازم الأول البحري خلوق شخصوار أوغلو إلى إدارة المتحف بدأ يبحث عن مكان جديد توضع فيه الأشياء الملقاة في مستودعات الترسانة، ولا بد أن مدير المتحف شخصوار أوغلو قد ابتلع لسانه حين سمع الإجابة المذهلة من الوالي لطفي كردار Kırdar حيث قال له: إن خبير المدن الفرنسي هنري بروست حدثه عن إعجابه بجامع دولمة بهجة مكانا للمتحف البحري!

لا يسارعن أحدكم إلى التعجب فيقول: وهل هذا يعني أنهم كانوا يريدون تحويل الجامع إلى متحف؟!... نعم لا تنسوا أنه كان في ذلك الزمان في تركيا عدد غفير من العقول التي دعت إلى تحويل جامع السلطان أحمد إلى متحف للرسوم والتماثيل!

نعم وكأنه لم يبق مكان سوى المساجد لتكون مقرات للمتاحف، ولم يبق مكان سوى هذا الجامع الرائع ليكون متحفاً بحرياً اعتباراً من 27 أيلول 1948.

ولحسن الحظ كان مسؤلو المتحف من اللباقة بمكان إذ تجنبوا وضع الرسوم والتماثيل في القسم المخصص للنساء!

يا لها من أيام أليس كذلك؟! نؤسس متحفاً في جامع، وليس أي جامع، بل جامع دولمة بهجة الجامع الذي أدى فيه السلاطين العثمانيون صلاة الجمعة، ولولا الخوف على السمعة العالمية لحولوه إلى متحف للإلحاد كما فعل ستالين بكاتدرائية قازان في سان بطرسبورغ.

"لا يفل الحديد إلا الحديد " كما يقال في المثل، وإذا كانت الشدة تقوى على الصواب، فستزول ذات يوم بشدة أقوى وأظلم. وهكذا كما تحول جامع دولمة بهجة إلى متحف بقرار واحد، فقد أخرج عن كونه متحفاً بعد الانقلاب العسكري في 27 أيلول 1960، وسلم بقرار عسكري واحد إلى إدارة Yassıada ، وطلبت الإدارة بدورها إخلاء المسجد من المتحف على الفور.

ابتلت أرض الجامع عاماً كاملاً بالدموع الغزيرة التي ذرفها أقارب المشتبه بهم في Yassıada ، وبعد تنفيذ الإعدامات في أيلول عام 1961 يبدأ العد العكسي ليعود للمكان دوره كجامع يفتح أبوابه للصلاة بعدما تمّ إخلاؤه، ويعود داراً للعبادة بعد ست سنوات من تاريخه في العام 1967، وينتقل المتحف البحري إلى مبنى مالية بشيك طاش الفارغ، وبعد هدم البناء وإعادة بنائه ارتدى المتحف حلته الحالية.

وبعد يحق لي أن أستغرق ضاحكا من وصفهم السلطان عبد الحميد بعدو البحرية! من دون أن يسألوا أنفسهم: (كيف لشخص اهتم بالبحرية حتى تخصيص متحف لها إن كان عدواً للبحرية؟!).

" باوة كردان " :الأكراد الذين انتفضوا بعد عزل عبد الحميد

لقد فقد الأكراد حاميهم ومواقع امتيازهم بسقوط عبد الحميد.
Jwaideh Wadie

هل يمكن للتاريخ أن يكون ظالما بعض الشيء؟! فهو كظلنا الذي يرافقنا، كشبح يلازمنا دائماً. في كتابي "عودي ثانية أيتها العثمانية " كتبت في إشارة للفيلسوف الفرنسي جاك دوريدا:

كما أن الأرواح التي لا يتم دفنها وفق أصولها تعاني وتتسلط على أقاربها كأشباح مخيفة؛ فكذلك العثمانية لا يمكننا أن نتخلص منها بمجرد شق طريق فوقها، بل لا بد لنا أن نضعها في المكان اللائق بها وندفنها في نفوسنا. ولنتصالح مع روحها.

يعترف علي فؤاد جبة صوي Cebesoy صديق أتاتورك في المدرسة لفريدريك ب. لاتيميه Latimer ؛ لماذا تحتل العثمانية في كتب التاريخ حيزا ضيقاً في زمن أتاتورك:

كان أتاتورك يريد أن ينسي الناس الجهل والتعصب القديمين... لو أننا تابعنا التقليد العثماني كان من المستحيل أن نقوم بانقلاب. فعندما كان على قيد الحياة؛ كان التاريخ العثماني الذي يدرس في المدارس قصيراً وموجزاً يشمل تاريخ السومريين والأشوريين بدلاً من تاريخ العثمانيين، حتى يسْهُل عليه القيام بالانقلاب. إنه فعل ما فعل حتى أوقف العثمانية وبنى الجديد.

هذه الاعترافات ذات القيمة تعزز أطروحة عالم التاريخ أرنولد توينبي الذي يرى بأن المدنية العثمانية ما انهارت، بل أوقفت عن الحياة. نعم إنها مدنية تم إيقافها ووأدها حية في التراب قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهل خروجها اليوم أمامنا في كل خطوة كشبح مرعب سوى نتيجة لذلك الوأد؟.. ها هو شمال العراق، وها هو إن شئت أن تطلق عليه اسم "مشكلة الجنوب الشرقي " ، أو إن شئت فقل: "مشكلة الأكراد " ، أو إن أردت "فمشكلة الإرهاب " .. ألا تظهر العثمانية في كل هذه المشاكل، ونضطر للجوء إليها في سبيل الحل، لأن التاريخ لا يعفو أبداً عن من ينساه!

فلنفتح اليوم نافذة أخرى على جانب منسي، ولنتواجه مع تمرد كردي غريب!

لكن هذا التمرد مختلف بعض الشيء و... مليء بالعبر!

الأخذ بثأر عبد الحميد

تعرفون الصفات المنسوبة للسلطان عبد الحميد، وكان من الجند من يعرِّفونه "بالأب " . وكان كثيراً ما يقول: "أنا والد هذه الأمة " . ولكن الحقيقة التي لا يعرفها إلا القليل هي أن الأكراد وجدوا فيه الصديق الذي يعتني بهم حتى جعلوه تاجا على رؤوسهم بصفته "أب الأكراد " . ولهذا السبب كانوا يذكرونه بين العشائر الكردية المقيمة في الشرق باسم "باوا كردان " .

يذكر الأستاذ Jwaideh Wadie في رسالة الدكتوراه بعنوان: "تاريخ القومية الكردية " قيام الشيخ سعيد برزنجي من السليمانية (لا علاقة له بالشيخ سعيد الذي نعرفه) برفع راية التمرد ضد الجون ترك وتأييداً لعبد الحميد فور إعلان المشروطية، وقد قمعت هذه الثورة، ووضع الشيخ سعيد تحت المراقبة في الموصل، وقتل بعد سنة أمام بيته في خلال تمرد كردي جديد.

بعد ذلك تم جرّ المنطقة إلى دوامة الفوضى حيث استمرت فترة طويلة. (أما ابنه الشيخ محمود برزنجي؛ فقد قام بعد فترة بالتمرد على الإنجليز بعد موندروس). إلا أن التمرد الذي ينبغي أن نتوقف عنده هو العصيان الذي قام به الأكراد انتقاماً لعزل عبد الحميد.

فبعد ثورة الجون ترك في 24 تموز 1908، قام رئيس الاتحاد القومي وقائد الألوية الحميدية إبراهيم باشا وهو من أوثق قادة عبد الحميد؛ بالإعلان عن عدم اعترافه بالنظام الجديد ولا بالمشروطية، معلنا استقلاله. ثم في نيسان عام 1909 سار بـ 1500 من رجاله المسلحين إلى الشام تأييداً لعبد الحميد الذي أنـزل عن عرشه، وأعلن عن احتلاله المدينة باسم السلطان المعزول.

بالطبع لم يكن السلطان عبد الحميد المقيم في قصر ألاتيني في السلانيك على علم بأي شيء مما يجري، بينما كان قائدٌ كرديٌّ يقوم باحتلال الشام باسمه، ويدعو السوريين للاتحاد ثانية تحت راية عبد الحميد ضد الجون ترك.

لكن قوات القائد إبراهيم باشا باءت بالخسران أمام القوات التي أرسلها الجون ترك، فانسحبت إلى جهة جبل عبد العزيز الموجود بين الرقة وأورفة، ثم قتل في طريق عودته إلى مركز العشيرة في فيران شهر في معركة بينه وبين عشيرة شمر التي أوكلت إليها مهمة الإمساك به.

يمكننا أيضاً أن نصل إلى معلومات قليلة عن هذا التمرد في كتاب مارتن فان Bruinessen "الآغا، الشيخ، الدولة " ، ولا أدري لم لم يتوقف مؤرخونا بالشكل الكافي أمام هذا التمرد المميز. فهذا التمردان ولو كان مصيرهما الفشل؛ لكنهما مظهران هامان للمكانة التي كان يشغلها السلطان عبد الحميد في عالم الأكراد، وعمق الوعي الذي أيقظه عندهم.

ولا ننسى هنا أنه يجب علينا أن نضيف إلى هذين التمردين؛ تمرد رضا خالد رئيس عشيرة حسنان في ملاذكرد Malazgirt . ففي31 تموز 1910 أكد تقرير فرنسي بأن الأكراد الذين يعيشون في زمن المشروطية لن ينسوا بسهولة الميزات التي منحت لهم في زمن عبد الحميد. (الوثائق الفرنسية السرية، ملف الجون ترك، المجلد 7 ص48).

الألوية الحميدية

وهنا أريد أن أنقل إليكم هذه الأطروحة التي تحمل آراء للبروفيسور روبرت أولسون مقابل الآراء السلبية لبعض القوميين الأكراد المثقفين والمؤرخين (بمن فيهم الماركسيين) من أن السلطان عبد الحميد حين أنشأ الألوية الحميدية تسبب بفتور في القومية الكردية، وشكل فترة فراغ وخطوة إلى الوراء عند الأكراد. يقول البروفيسور: إن الألوية الحميدية كان لها دور جدي في تطور الأكراد ماديا وثقافيا. ويستدل عليها قائلاً:

السؤال الذي يجب علينا أن نسأله هو: هل كانت ستقوى القومية الكردية على أعتاب الحرب العالمية الثانية؟ يدعي المؤرخون القوميون الأكراد وكذلك المؤرخون الماركسيون أنها كانت ستكون أقوى. وما أحاول أن أثبته هنا أن ذلك غير صحيح. فالعهد الحميدي كان مفصلاً مهماً دفع القومية الكردية إلى المرحلة الثالثة في تطورها. إن هذه المرحلة قد عززت مشاعر التكافل بين الأكراد السنة، وقدمت لكثير من الشباب الأكراد فرص القيادة، وأكثر من ذلك أن الألوية الحميدية قد وفرت لجندٍ أكراد كثيرين التقنيات العسكرية ومعلومات عن الأجهزة العسكرية، وطريقة استعمالها.

لا بد أن هذه الأسطر توضح وبشكل كاف السبب وراء اعتماد الأكراد لقب "أبو الأكراد " للسلطان عبد الحميد الثاني. ولكن أليس السلطان هو صاحب الحق الأكبر في الكلام في هذا الموضوع؟ إذا فليتكلم عبد الحميد ولنستمع إليه:

"في حال قيام حرب مع روسية فإن كتائب الأكراد هذه والتي تلقت تدريباً منضبطاً ستقدم لنا خدمات كبيرة. علاوة على أن فكرة "الطاعة " التي يتعلمونها في الجيش ستكون فيها فائدة لهم أيضاً... أعلم أنه تم

انتقادي بسبب إحضار بعض أبناء الآغاوات الأكراد إلى إسطنبول، وتعيينهم في الوظائف، فلسنوات طويلة شغل الأرمن المسيحيون مواقع الوزارة، فما الضرر الذي يمكن أن يلحق بنا إذا قربنا الأكراد المسلمين من ديننا إلينا بعد الآن؟!".

يجب أن نفهم التاريخ قبل أن نوجه أصابع الاتهام؛ فأين ينبغي أن نضع الألوية الحميدية ومدارس العشائر؟. بالطبع لا يوجد حل مثالي في عالم البشر. فالإجراء الذي يحل مشكلة في وقت ما، يمكن أن يجلب نتائج غير مأمولة ولا منتظرة بعد فترة. وهذا ما حدث للألوية الحميدية!

الأكراد والعصرنة

الألوية الحميدية التي لعبت دوراً مهماً في تفكك الإمارات الموجودة في المنطقة إلى رئاسات أصغر، أي إلى تفكك الاقطاع؛ قلبت موازيين القوى المحلية رأساً على عقب. فكانت الحكومة تلاحظ الفرق بين العشائر المرتبطة بالحميدية وبين عشائر أخرى غير مرتبطة، ويشكل هذا بدوره حافزاً للعشائر الكردية صاحبة الكلمة بين الأكراد لإقامة علاقاتها مع الدولة. وهذا بدوره يؤدي إلى تسريع تطور الأكراد، وتوفر بيئة اندماج التقاليد مع التطور.

تقول الدكتورة جانيت كلين:

إن الألوية الحميدية لعبت دورا هاما في تاريخ الأكراد والأرمن وفي جوانب كثيرة من التاريخ العثماني بشكل أعم، حيث كانت لاعباً مؤثراً في المنعطف المرافق للتغيرات التي كانت تطرأ على بنية السلطة المحلية والدولة والعشائر والقرويين وعلى العلاقات في ما بينهم. وفي الختام تركت إرثاً في العلاقات بين الدولة والعشائر وصل إلى يومنا هذا.

وهكذا كان الخلل في توازن قوى الصراع على المنطقة، والذي أحدثته الألوية الحميدية التي ساهمت في سيطرة الدولة وإحكام قبضتها على المنطقة؛ مشكلتها الأساسية أنها سببت تمييزاً بين العشائر المرتبطة بالحميدية وبين غيرها من العشائر، وهذا التمييز بدوره فتح باب التنافس والغيرة بين العشائر وخيبة الأمل بالدولة، ولذلك نجد في مشروطية عام 1908 وجود قسم من العشائر المستاءة بين المطالبين (بإعلان الحرية).

ألوية سلاح الفرسان الحميدية الخفيفة كانت ألوية غير منظمة مكونة من بعض العشائر الكردية المنتخبة. تأسست هذه الألوية عام 1890من قبل شاكر باشا والمشير زكي باشا بأمر من عبد الحميد. وكانت تلك الألوية الحميدية التي شكلت الجيش الرابع للعثمانية قد أصبحت في نفس الوقت

حائطاً متيناً ضد التهديد الروسي، وكان تنظيمها يقوم على طراز سلاح الفرسان الكازاخستاني، وكانت مهمتها إعاقة الانتشار الروسي والتهديد الأرمني للمنطقة.

وبعد إنـزال عبد الحميد عن العرش لم يتغير شيء فيها إلا اسمها فأزيلت منه (الحميدية). وشاركت تلك الألوية في الحرب العالمية الأولى، وفي حرب الاستقلال، فكانت مساهماتهم الجلية والمختلفة فيهما. وهكذا كان لمشروع الحميدية امتداداته المختلفة إلى جانب كونه التطبيق العملي للدفاع يفتح الطريق للجدل حوله تماماً، كالنقاشات التي تدور حاليا حول مشروع حراس القرى في زماننا.

لكن عبد الحميد لم يكن ينظر إلى ألوية العشائر من وجهة نظرة عسكرية بحتة، بل ربما كان الأهم من ذلك هو أن مقاربته كانت سياسية ودينية ولا بد أن نضيف هنا أنه كان يتم تفضيل عشائر الأكراد السنة.

لم يكن هذا الأمر حكراً على إسطنبول والشرق فقط، بل تم أيضاً إنشاء خمسة ألوية من الألوية الحميدية في طرابلس الغرب. وكانت النتيجة التي ظهرت لنا كما سنرى عما قريب التمكن من الدفاع عن المناطق التي يصعب الدفاع عنها بقدرات وطاقات محلية، وعدم تشتت العشائر المرتبطة بالحكومة المركزية والمعتمدة عليها.

وباختصار يمكننا أن نوجز أهداف تكوين الألوية الحميدية على الشكل التالي:

- إنشاء قوة مراقبة.
- مقاومة الاحتلال الروسي.
- الحيلولة دون استثمار جهات أخرى لقوة الأكراد والبدو الرحل.
- توطين البدو الرحل.
- التحول إلى حياة المدنية والاستقرار والتعليم.
- وضع حد للنـزاعات القبلية.
- اعتبار تأمين النظام والأمن مرحلة تسبق نهضة شرق الأناضول.

حقيقة مكتب العشيرة

تكتسب مدرسة (مكتب) العشيرة التي سلطنا عليها الأضواء من وجهة نظرٍ أجنبية في بدايات كتابنا؛ معناها الحقيقي بأنها جزء من مشروع عبد الحميد لربط المناطق البعيدة في الإمبراطورية بالمركز. لكن هذا المشروع المميز تمت السخرية منه، واحتقر بطريقة انتقامية من قبل الاتحاديين الذين تبوأوا السلطة، وربما وقع "المكتب " ضحية دعايات سيئة قامت

لإجهاضه وإلغائه، ولا زالت تلك الدعايات مع الأسف مستمرة إلى يومنا هذا.

وبدلاً من تقديم الأدلة المطولة سأحاول هنا إبراز المزايا التي تميزت بها المدرسة من داخلها على لسان ابن شيخ عشيرة درس في هذه المدرسة، وسنرى أن مدارس العشائر هذه كانت في الواقع مشروعاً رائداً ذا نظرة مستقبلية "للدولة العثمانية المصغرة " . لم يكن مشروعا للأكراد فحسب، بل يشمل أيضاً أبناء الأمة الإسلامية للارتقاء بهم إلى اكتساب وعي مشترك في وقت مبكر. يقول ابن شيخ عشيرة حيدراني:

إلى جانب أبناء شيوخ العشائر الكردية؛ كانت هذه المدرسة تضم أبناء شيوخ العشائر المختلفة من عرب ومسلمين من سورية والعراق والأردن واليمن والحجاز وطرابلس الغرب وجاوة. ولم يكن أحد من القادمين يعرف اللغة التركية. فكانوا يتعلمون التحدث بالتركية بشكل ممتاز في خلال سبعة أو ثمانية أشهر... كان الأكراد أكثر من نصف الطلاب المئتين، والباقي عرب وبعض منهم كان من أولاد الشركس والأرناؤوط.

كانت المدرسة منتظمة، كل أنواع الخدمات ووسائل التدريس كانت مثالية. وأماكن النوم والطعام كانت منتظمة جدا. وتقدم وجبات الإفطار والغداء والعشاء يوميا. والزي الرسمي للمدرسة كانت أكمامه وياقته المخملية المغلقة منقوشا عليها "طلاب مدرسة العشيرة الهمايونية " أي السلطانية.

وفترة الدراسة كانت خمس سنوات. في كل سنتين يسمح لنا بالسفر إلى بلدنا للتواصل مع الأهل. وتغطى نفقات الرحلة من قبل الدولة، ويرافقنا في خلال الرحلة ضابط بصفة "مربي " . وإلى جانب الدروس كانت هناك الرياضة والتدريب أيضاً.

أما في أيام الجمعة وغيرها من أيام العطل؛ فكان يسمح لنا بالخروج في مجموعات مؤلفة من عشرة أشخاص، يرافقنا رئيس المجموعة. فنذهب إلى مقاهي محمود باشا وأق سراي، أو نذهب إلى مسيرة إهلامور أي زيزفون ثم نعود مساءً إلى المدرسة. كانت المدرسة بالطبع مجانية. وكان مصروفنا اليومي قرشين. أي ستين قرشا في الشهر، وكان يكفي كل احتياجاتنا، بل ويزيد.

في شهر رمضان كنا ندعى مرتين للإفطار في قصر يلدز. وفي نهاية الإفطار يخرج السلطان إلى الشرفة، ويظهر أمامنا، ويسألنا قائلاً: "كيف حالكم يا أولادي؟ " . فنجيب بناء على التنبيهات المسبقة بصوت واحد عال ثلاث مرات: "عشت طويلاً يا سلطاني " . وعندما نهم بمفارقة القصر يمنح

كل واحد منا ليرة ذهبية واحدة.

وفي أيام الأعياد وفي أفواج "الصرة " بشكل خاص نصطف بملابسنا الجديدة بانتظام لتحية السلطان. كانت الأغنام تصل إلى المدرسة في أيام الأعياد من السراي، وتوضع على موائدنا، غنمة واحدة لكل سبعة طلاب.

(......)

في خلال فترة تحصيلي الدراسي كنت شاهدا ذات مرة على حادثة بلغت السلطان عبد الحميد. فقد نشبت مشاجرة بين طالب كردي وآخر عربي، حيث قال العربي للكردي وهو يقرأ القرآن: "قراءتك غير صحيحة " ، وتعاظمت المشاجرة، وتدخل فيها الأكراد والعرب، وبينما كان العساكر المدربين على يد زكي باشا يحاولون تهدئة الطلاب والفصل بين المتشاجرين؛ كانوا يتعاملون بقسوة مع الطلاب العرب ويضربونهم بأعقاب البنادق، مما أدى إلى وقوف الطلاب العرب بوجه العساكر "لأنهم يحمون الأكراد " ، فأصدر الباشا أمره بضربهم جميعاً.

فازدادت ضربات العساكر بأعقاب البنادق وظهور السيوف، فتسببت ببعض الإصابات بين الطلاب، فسقط على الأرض من سقط، وهنا تناسى الطلاب العرب والأكراد ما شجر بينهم، واتجهوا نحو الأبواب الخلفية وكسروها، وتوقفوا عند أبواب قصر يلدز، أمام باب المابين. وعلى الرغم من محاولة الحراس المناوبين منعهم من الدخول؛ فإن "الياور أي " وهم المعاونون الشخصيون أو الحجاب الذين رأوا جمهرة الطلاب قاموا باستقبال الطلاب وسؤالهم عن طلباتهم، فعرض الطلاب شكواهم من معاملة زكي باشا القاسية لهم، وقالوا: "جئنا نطلب الحماية من راعينا وولي نعمتنا وسلطاننا " . فأجاب السلطان على طلبهم قائلاً: "حسناً! فليرتاحوا وليعودوا إلى مدرستهم، وسنرسل إلى المدرسة من يقوم بالتحقيقات " . وأصدر إرادته بالفعل، وفي اليوم نفسه أرسل هيئة يرأسها الشركسي محمد باشا للتحقيق في ما حدث، وتم اصلاح ما بين الطلاب تماما، واستدعي زكي باشا إلى السراي، وتم التحقيق معه لخمس أو ست ساعات.

أول صحيفة كردية صدرت في عهد عبد الحميد

كانت "كردستان " أول صحيفة كردية تصدر من قبل آل البدرخاني، وكان هدف هذه الصحيفة الكردية - التركية التي صدرت في العام 1898 واستمرت حتى العام 1902 لفت نظر السلطان إلى الأكراد. وكان مؤسس الصحيفة ومحررها مقداد مدحت بدرخان قد وجه خطابات مفتوحة للسلطان عبد الحميد في كثير من مقالاته .

حاقان أوز أوغلو، القومية الكردية والدولة العثمانية، [Kurdish Notables and the Ottoman State, SUNY Press, 2004] ، الترجمة إلى التركية: نيلاي أوز أوق كوندوغان وآزاد زانا كوندوغان Gündoğan ، إسطنبول 2005 ، دار الكتاب، ص 50 .

الباب الثالث : ما وراء الحدود



برج ساعة Gümülcine بعد ترميمها (2004) وقد بنيت بأمر عبد الحميد

السلطان عبد الحميد وحرب البترول

لقد سبق أن دعم الإنجليز الألمان حتى في إنشاء خط السكة الحديدية، لكن توقيع اتفاقية خط سكة حديد بغداد مع الألمان وصدور قرار إيصال السكة الحديدية إلى البصرة؛ أخرجهم عن طورهم.

Ediger Volkan

من المعلوم أن هناك نقاط غامضة كثيرة بقيت في الظلام لأسباب متعددة في عهد السلطان عبد الحميد. إحدى هذه النقاط هو ما رأيناه في ما سبق في مشروع ربط الدولة العثمانية بالشبكة الحديدية. وهو المشروع الذي أطلق في شأنه مؤرخنا الشهير المعروف ولن أذكر اسمه لشيوع أحكامه المتعجلة غير الناضجة عندما يقول: " إن عبد الحميد قدم للإمبريالية الألمانية امتيازات"، وهو قول لا يستحق النقاش.

يمكن أن يقال الكثير بخصوص خط حديد الحجاز، ولكنه على كل حال نُفِّذ برأس مال محلي، ومهندسين محليين، وعمال محليين، والمساعدات التي تم جمعها كانت نتيجة استنفار السلطان مواطنيه العثمانيين والعالم الإسلامي،.. هذه المساعدات واللافت أن هذه المساعدات كانت محلية أيضاً.

إنه مشروع محلي بامتياز من تخطيطه إلى تنفيذه وتشغيله، وهو الذي وضع أسس عمل خطوط السكك الحديدية في عهد الجمهورية، والتي تكاملت في خلال تنفيذ المشروع، وكما يقول يعقوب قالقاي الخبير بالخطوط الحديدية:

فإن خط حديد الحجاز شكل مجالا واسعا ومدرسة زاخرةً بالتجارب في عمل الخطوط الحديدية. وإن قسما من مهندسينا القائمين على أعمالهم اليوم (يكتب في تشرين الثاني عام 1945) في الحقيقة قد أتموا تدريبهم في ساحات العمل هذه، وقدموا امتحان الأهلية والكفاءة بتفوق هنا **[92]** .

فلا يكفي إذاً ونحن ننظر إلى خط حديد الحجاز أن نراه مجرد منشأة حديدية ضخمة تمتد إلى 1465 كيلومترا، بل علينا أن نؤكد على كونها مدرسة للخطوط الحديدية المحلية التركية. ولا ننسى هنا أن هناك نقطة مهمة أخرى تهمل غالبا ألا وهي العلاقة بين هذا المشروع وسياسة الطاقة عند عبد الحميد.

عبد الحميد يبحث عن مصادر الطاقة

أود في البداية أن أبين أن التاريخ يتناول الأمور بشكل ضحل وسطحي ومن دون التطرق إلى الأسباب والنتائج. فالسبب الرئيس للدخول

في الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال كان السيطرة على طريق المحيط الهندي، والسبب الحقيقي في ذلك هو البترول. فالصراع الأساسي كان يقوم على السيطرة على طريق المحيط الهندي والقضية، هي في القوة الإمبريالية التي ستتمكن من الوصول أولا إلى البترول المنتشر في إيران والعراق وسورية والكويت وأذربيجان وغيرها.. لأنه كان معلوما بطريقة ما أن الشرق الأوسط ينام على أهم مصادر الطاقة مستقبلاً في العالم.

في عام 1882 كان الأميرال الإنجليزي فيشر يعمل على أن يقنع وزارة الدفاع أن إحكام سيطرتهم على العالم مرتبطة باستعمال البترول بدل الفحم في سفنهم. أما مصادره فهي في القفقاس والشرق الأوسط.

إذاً؟

يبدو أن خط حديد بغداد الذي وقعت اتفاقية تنفيذه مع الألمان في نهايات عهد عبد الحميد سيشكل جداراً متيناً أمامهم، بل كان مثيراً لقلقهم من أنه سيشكل تهديداً للانتداب الإنجليزي في الهند. ففي حال تحقق المشروع فإن الإمبريالية الإنجليزية التي تعمل على استخراج النفط لسفنها من إيران وباكو ستصطدم بجدار حديدي يمتد لآلاف الكيلومترات ينطلق من ألمانية، ويمر بالإمبراطورية النمسوية المجرية، وبلغارية والصرب وصولاً إلى الدولة العثمانية ليرتبط بخليج البصرة، وسيكون ذلك سبباً لقطع صلتها مع حليفتها روسية. وبذلك كان يمكن إعاقة المحاولات الروسية للوصول إلى المياه الساخنة. وفي النتيجة كان خط حديد بغداد سيشكل "حاجزاً حديدياً " في وجه الإمبرياليتين الروسية والإنجليزية.

بيد أن أضعف حلقة في هذا الحاجز الحديدي كانت صربيا، فإن انحاز الصرب إلى صف الألمان يعني خروج الإنجليز من اللعبة، وإن انحازوا إلى الإنجليز خرج الألمان. وهكذا فإن السبب الحقيقي وراء اغتيال أرشيدوق مجري نمساوي من قبل أنارشيست صربي في سراييفو، وبدء الحرب العالمية الأولى؛ هذه الحلقة هي الأضعف في خط السكة الحديدية الذي سيمتد إلى نفط الشرق الأوسط [93] .

في عام 1896 كان قد بلغ خط بغداد الحديدي من برلين إلى قونية، وبقي مده من قونية إلى بغداد، وبذلك تكون السوق الداخلية للدولة العثمانية قد ارتبطت بالسوق العالمية عبر القنوات الأوروبية. من جهة أخرى فإن خط حديد الحجاز الذي انطلق بإرادة السلطان في عام 1900، وبالاعتماد على القوى المحلية الذاتية، ومن غير مساعدات خارجية، كانت حركة عثمانية لفتح قناة بري داخلي للشرق الأوسط.

كان إنشاء خط حديد الحجاز جزءاً من مشروع السلطان عبد الحميد لإنقاذ الإمبراطورية، وتحقيقه كان كفيلا بتأمين حركة اقتصادية جيدة، كما يوفر التحرك السريع للقوات العثمانية قبيل وقوع الحرب المحتملة ضد العثمانية، ويكون سدا أمام هجوم إمبريالي للسيطرة على مناطق النفط [94] .

القطار والنفط

إن السبب الحقيقي وراء إنشاء خط الحجاز الحديدي له علاقة بسر تحويل مسار الفتوحات العثمانية من قبل السلطان ياوز سليم إلى الشرق، فكما أن السلطان ياوز قد توجه لفتح إيران وسوريا ومصر براً لمواجهة الاحتلال الذي قام به البرتغاليون عن طريق المحيط الهندي [95] ؛ يأتي حفيده السلطان عبد الحميد الثاني ليجابه الإمبريالية الإنجليزية التي وضعت يدها على مصر والهند أيضاً عن طريق البر، ليستبق الأحداث، ويدافع مبكراً عن أحواض الطاقة التي تثير شهية الذئاب.

إذا أمسكتم بخريطة ونظرتم إلى مسار خطوط سكة حديد بغداد، ستلاحظون واضحاً أنها تمرّ من المناطق التي يخرج منها النفط. لكن كانت هناك حسابات دقيقة أخرى؛ وهي أن الألمان كانوا يطلبون ان يدخل في الامتياز نطاق بعرض 30 كم على جانبي الطريق لاستخراج كل المعادن والثروات الطبيعية الموجودة على الطرفين.

ماذا فعل عبد الحميد مقابل هذا؟ قام بتسجيل الأراضي التي أثبت المهندس باول جروسكوف أن فيها حقولا للنفط في خط سير القطار على اسم الخزينة الخاصة، وبذلك تحولت تلك الأراضي إلى ملكية خاصة، ولن تصبح تحت سيطرة الألمان من جهة، ومن جهة أخرى ستبقى تلك الأراضي في أيدينا في حال احتمال خروج تلك الأراضي من سيطرتنا، لأنها ملكية خاصة.

لقد غدا عبد الحميد هذا مثارا للقلق...

وهكذا بدأت نهاية حكم عبد الحميد تلوح في الأفق عندما فجر رئيس عمليات شركة Limited Syndicate Concession جورج ب. رينولدز أكبر بئر للنفط اكتُشِف آنذاك في أيار عام 1908 في منطقة مسجد سليمان داخل حدود إيران. أليس غريبا أن تبدأ الثورة بعد شهرين، .. شهرين فقط منطلقة من مقدونية، وأن يعلن السلطان عبد الحميد المشروطية في شهر تموز من نفس العام، ويضطر للتخلي عن العرش بعد 9 أشهر فقط؟! إن الزمن الفاصل بين الحدثين هو 11 شهراً بالضبط.

وهكذا تسبب النفط بالقضاء على رئيس دولة [96] . وهذه الحادثة لن تكون الأولى، ولن تكون الأخيرة!. فبعد عشرة أعوام فقط، يتم القضاء على الدولة العثمانية باستخدام الذين عملوا على عزل السلطان عبد الحميد عن الحكم. وسنرى في تقرير عن البترول 2 كيف أنه وبسرعة مذهلة؛ ستتم السيطرة من قبل الإنجليز على المواقع المشار إليها في خريطة النفط التي رسمها المهندس الألماني بول غروسكوف، بطلب من السلطان عبد الحميد [97] .

لماذا يكره الإنجليز عبد الحميد؟ !

أقام التوازن في المنطقة بما ينسجم وتوتر العلاقات بين الروس والإنجليز.

وكان عبد الحميد محقا في تقييمه عندما اعتبر أن لا خطر قادماً من أوروبة مجتمعة ما دام الروس والإنجليز في حال تنافس.

لم يقترب كثيراً من روسية، لكنه رفض بشكل قاطع أيضاً التعاون المفرط مع إنجلترة.

Koloğlu Orhan

في عام 2009 أدلى مؤلف كتاب العمق الاستراتيجي وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو ببيان لافت للنظر قال فيه:

نحن أكبر دولة في الشرق الأوسط والقفقاس والبلقان، ولذلك يجب أن نكون الدولة التي تؤسس النظام في هذه المنطقة.

على الرغم من أن هذه الكلمات الخطيرة كانت سببا في إثارة مخاوف بعضهم؛ فإنها كانت كلمات تخرج بهدوء لتعيد إلى ذاكرتنا عودة تركيا إلى مهمتها الضائعة. الدبلوماسية الإيقاعية التي بسطها أحمد داود أوغلو بقوله: يجب أن تكون علاقتنا مع الدول المجاورة جيدة، وأن نأخذ زمام المبادرة عن طريق استخدام موازيين القوة لصالحنا.. كلمات ذكرتني مباشرة، شئت أم أبيت؛ بألعاب التوازن المشهورة لعبد الحميد قبل ما يزيد عن مئة عام.

خرج السلطان عبد الحميد الثاني من حرب 93 بخسائر باهظة، فشمر عن ساعديه، وتوجه لبناء مركز جديد للسلطة الموجودة في الباب العالي الذي تحول إلى ساحة صيد للقوى الخارجية، وكانت مقاليد أموره بيد الخارج، وعمل على نقل السلطة إلى قصر يلدز، وبالطبع جاءه التنبيه الشديد الفوري من إنجلترة التي لم يعجبها هذا الأمر أبداً.

حضر السفير الإنجليزي يوماً إلى حضرة السلطان حاملاً معه خطاباً من لندن كالسم الزعاف. ينصحه الخطاب أن عليه أن يأخذ العبرة مما حل بعمه عبد العزيز وأخيه الأكبر مراد، ويلمح إلى أنه إن استمر على هذه العقلية فان نهايته لن تكون محمودة.

كانت إنجلترة في الأصل قد أظهرت مطامعها بشكل واضح وصريح حين انتظرت لحظة ضعفنا لتمارس نوعا من قطع الطريق وتطالبنا بقبرص، فكانت إنجلترة في نظر عبد الحميد منافساً غير موثوق به، ولكنها كانت

أيضاً من الخطورة بمكان بحيث لا تمكن مواجهتها، وبالأخص بعد احتلال مصر عام 1882، فاتجهت سياسة عبد الحميد بشكل كامل إلى إفساد مخططات إنجلترة، ومحاولة كسب الوقت في بناء قوته بما يتوفر له من الإمكانيات.

هذه الوثيقة التي سأعرضها لافتة للنظر بشكل كبير، لكونها تظهر بوضوح أفكار السلطان عبد الحميد حول دسائس إنجلترة النكراء. أنقل لكم النص بعد اختصاره وتبسيطه:

إن عمل إنجلترة على تقسيم الدولة العلية - لا سمح الله - وجعلها على شكل "ممالك طائفية " (دول صغيرة)؛ واضح جلي. إنهم يريدون تقسيم الدولة العلية إلى أرناؤوط وأرمن وحكومات عربية وتركية، وهذا ليس حكماً ذاتياً (أوتونومي)، وإنما هو تشريح (أناتومي). أي إنهم يطمحون إلى تقسيم الدولة العلية إلى أقسام صغيرة، ويريدون نقل الخلافة من إستطنبول إلى مصر أو جدة التي يسيطرون عليها، ومن هناك سيحكمون المسلمين كما يشاؤون. ولكن الأمر المؤسف حقاً هو هذه الفرقة المسماة جون تورك التي يعمل رجالها المستهترون مع هذه الفرقة بكل طاقتهم ليلا نهارا في سبيل هدف الإنجليز [98] .

واضح هنا أن السلطان عبد الحميد قد أدرك وبكل دقة الأهداف الحقيقية لإنجلترة. فما هو فاعل الآن؟. في نفس الوثيقة يظهر ذلك بشكل موجز:

من أجل ضمان بقاء أمة أو حكومة لا بد لها من هذه الأشياء: 1) الدين، 2) التعليم، 3) الهوية أي الانتماء، 4) الصناعة والغنى. والعلماء المتمكنون مع الأسف قليل عندنا. في وقت يتوفر منهم العدد الكافي عند المسيحيين. ولذلك يجب على الدولة العثمانية أن تنهج طريقاً وسياسةً بين روسية وإنجلترة إلى أن تتوفر وتستقر عندنا كل هذه الأمور [99] .

وهذه باختصار سياسة عبد الحميد بين إنجلترة وروسية:

جلادستون في وجه عبد الحميد

تطوير علاقات حسن الجوار مع جارتنا بالشمال بالإضافة إلى الحذر من الوقوع في "فخ الروس " ، والعمل من الناحية الأخرى على منع اتحاد مصالح روسية وإنجلترة بشتى الطرق، فمع تضارب مصالح الاثنين (وسائر الدول العظمى) تزداد فرص بقائنا، ونتنفس الصعداء، وإلا فإن تشريح جسدنا (أناتومي) إلى قطع متفرقة يصبح مصيراً لا مفر منه.

تذكرون وليم جلادستون Gladstone Ewart Wiliam الذي أطلق عليه

بديع الزمان سعيد النورسي لقب "ناظر المستملكات " أي وزير المستعمرات عندما كان رئيسا للوزراء (توفي عام 1898) في خطابه الشهير أمام البرلمان الإنجليزي عام 1882، وهو يحمل المصحف الكريم بيده، ويقصد بكلامه مسلمي مصر:

لن يتمكن الإنجليز من حكم المسلمين ما بقي هذا الكتاب بين أيديهم. إقصاء المسلمين عن هذا القرآن هو الحل الوحيد **[100]** .

تأخرت هذه الكلمة الرهيبة لتصل إلى أسماع بديع الزمان سعيد النورسي، ففي العام 1894 اطّلع عليها في الصحف التي وصلت إلى قصر طاهر باشا في مدينة "وان " ، ومنذ ذلك الوقت اتخذ قراره بأن يسخر علومه القرآنية كلها لمواجهة خططه الماكرة. وصرخ قائلاً:

سأبين للعالم وأثبت لهم أن القران الكريم شمس لا يمكن أن تُخْمَدَ أو تَخْمُد **[101]** .

وعمل بعد ذلك بأقصى جهوده، ونذر نفسه لتنظيم مجموعته المعنوية التي تقف في وجه الإمبريالية الإنجليزية المعتدية بقيادة وليام جلادستون في ذلك الوقت.

كان جلادستون - الذي حرض ببيانه طاقة بديع الزمان - هو العدو اللدود لعبد الحميد؛ لقد وردت عبارة "عدونا هو جلادستون" في مذكرة أرسلها عبد الحميد إلى السفير الإنجليزي هنري لايارد Layard Henri الذي توفي في العام (1894). لقد أمضى جلادستون أعوامه الـ22 الأخيرة من عمره بالفعل وهو يوجه الاعتداءات والإهانات ضد السلطان عبد الحميد. بالطبع لم يكن جلادستون الذي عمل بأقصى جهوده وطاقته في سبيل تقطيع أوصال الدولة العثمانية ووضع العالم الإسلامي تحت سيطرته.. نعم لم يكن وحيداً في هذه العداوة. فذات مرة قال الرئيس تيودور روزفلت بغضب "إن القوتين اللتين أود سحقهما أولاً وقبل كل شيئ في هذا العالم هما إسبانية وتركيا " [102] . في حين كان عبد الحميد كما رأينا مشغولاً برسم صورة خريطة القارة الجديدة على يد ممثله الخاص الذي أرسله إلى كوبا.

كان السلطان عبد الحميد مجبراً على التحلي بصبر النبـي أيوب وهو يلعب بكل أوراقه في مواجهة هذا الممثل الكبير للإمبريالية الإنجليزية الذي يجاهر دائماً: "لا بد للأتراك أن يجمعوا عدتهم وعتادهم وينسحبوا إلى آسية " .

قامت إنجلترة على حين غرة باحتلال مصر عام 1882. لكن عبد الحميد كان مصراً على عدم الاعتراف بهذا الاحتلال. كان من المفترض أن

يتم أخذ وثيقة تفيد بموافقته على الاحتلال رسمياً. وكانوا يتوهمون أنهم استطاعوا إقناعه، وهكذا تم توقيع اتفاقية في 22 أيار 1887 من قبل المسؤولين من الطرفين، مفادها أن الجيش الانجليزي سينسحب من مصر خلال ثلاثة أعوام، ووقع جميع المسؤولين حتى الملكة فيكتوريا وضعت توقيعها في ذيل الاتفاقية، وتوقفت المسألة على موافقة عبد الحميد.

لا أرضى بالاحتلال

بيد أن السلطان قام بما لم يكن يتوقعه أحد، حيث رفض التوقيع على الاتفاقية في اللحظة الأخيرة؛ لأن هذا التوقيع، لن يتوقف عند الاعتراف بحكم الإنجليز لمصر ولو لفترة مؤقتة، بل سيكون له معنى آخر وهو القبول بتسليم المسلمين لسلطة الإمبريالية على يدي خليفة المسلمين. (هل نذكركم هنا أن خروج مصر من أيدينا بشكل رسمي كان في لوزان؟!) [103].

وقالها السلطان عبد الحميد صريحة: "طالما كانت دولتي قائمة فلن أرضى أبدا بوجود حكم أجنبي أو احتلال مؤقت على الأراضي التي تقع تحت ملكي حقوقياً " .

أأنت من يجرؤ على الرفض؟! إليك إذا مشكلة الأرمن!

والقوة العسكرية التي تستخدم لقمع حركات التمرد الأرمنية المتعاقبة التي امتدت على شكل واسع من طرابزون إلى وان في عامي 1895-1896 ستعتبر ذنباً أيضاً.

وكان جلادستون قد سبق له أن وصف عبد الحميد (بالتركي السفاح) بسبب قمعه التمرد البلغاري عام 1876، ووجد الآن صفة جديدة، إنه السلطان (الدموي) الأحمر.

وكأنها ليست إنجلترة هي التي قتلت الآلاف في ثورات الهند عام 1857 وليست هي التي كانت تربط قادة التمرد على فوهات المدافع، وتطلق المدافع، فتمزقهم إرباً، حتى تتحول في العام 1876 لحظة إلى راعية وحامية لمصالح الأرمن العثمانيين، ليس حباً فيهم بالطبع، بل رغبة في استخدامهم كرهائن في محاولة لإعادة وصل الأنابيب التي قطعها عبد الحميد. الإمبريالية الإنجليزية الباردة التي لا تتورع عن استخدام أي شيء يخدم مصالحها؛ لن تجد شخصية أفضل من شخصية وليم جلادستون لتتوِّجهُ راعيا لمصالحها [104].

من جهة أخرى نجد أن النائب الإنجليزي المنصف اللورد Ponsonbay يتكلم عن عبد الحميد أمام البرلمان في 18تشرين الثاني 1918 عقب هدنة

موندوروس قائلاً:

إن عبد الحميد كان أظرف وأبرع دبلوماسي رأته أوروبة، فقد كان يعرف بالضبط الوقت الذي يضع فيه العصا في طريق الاتحاد الاوروبي، والوقت الذي يبث فيه الخلاف بين الدول العظمى [105] .

وكذلك كان Herbert Aubrey ، واحدا من الدبلوماسيين الذئاب الذين يتقنون سبع لغات والعربية والتركية ضمنا، وكان قد قال في 14 كانون الأول 1911 أمام مجلس العموم البريطاني:

لم تكن سياسة السلطان السابق عبد الحميد محبوبة في إنجلترة، وكان السلطان وبشخصيته النادرة؛ يُظهر بكل صدقٍ عدم حبه لإنجلترة. أمران علينا أن نتذكرهما دائماً: سياسة عبد الحميد كانت تعمل على تدمير مصالحنا عند أدنى فرصة تجدها، والإدارة الجديدة الواثقة بصداقة إنجلترة كبرى القوى الليبرالية [106] .

إن ما يقصده هربرت بالإدارة الجديدة هو بالطبع الاتحاديون الموجودون في السلطة في ذلك الوقت. دعونا لا ننسى أن القيام بتصفية أولئك الذين يعملون على تدمير مصالح الدول العظمى هو قاعدة لا تتغير، وقد تكررت عدة مرات في التاريخ القريب، وسيعرف الاتحاديون في ما بعد وبشكل مؤلم؛ حقيقة الصداقة المزيفة لإنجلترة، ولكن " بعد خراب البصرة" كما يقول المثل...

لولا سقوط عبد الحميدلعقد اتفاقية البلقان

لا أدري إن كنتم تذكرون أن واحدة من التطورات التي تركت بصمتها على عام 2008 كان مصدرها القوقاز، وذلك حين هاجمت جورجية جنوب أوسيتية، فكان الرد القوي من الروس كفيلا بإيقاظ العواصم من نيويورك إلى باريس، ومن هناك إلى موسكو فأنقرة من سباتها. وفي تلك الفترة طرح الكاتب أردل شفق في زاويته (صباح 10 آب 2008) مشروع بحث بعنوان (ما الذي يمكن لتركية أن تفعله؟).

يعيد في المقالة إلى الأذهان ما قاله رئيس الجمهورية سليمان دميرال آنذاك في قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبـي AGİT المنعقد في إسطنبول عام 1999، ويذكر نداءه المثير ممثلي المنظمات الدولية بقوله: (تعالوا لنبني ميثاقاً للاستقرار في القوقاز)، وفي ختام مقالته يذكر السياسيين اليوم بهذا النداء، ويدعو إلى إقامة مؤتمر قوقازي دولي بقيادة تركيا.

ونذكر الصدى السريع لنداء أردل شفق هذا في الساحة السياسية. وعبر رئيس الوزراء أردوغان أنه يؤيد عقد اتفاقية شبيه باتفاقية البلقان في القوقاز، وجدد هذا العرض في موسكو وتفليس، وبذلك تكون تركيا قد أعطت الإشارة بأنها ستلعب دوراً فعالاً في الأحداث الجارية حولها.



صالح منير باشا من أوثق دبلوماسيي عبد الحميد

حين نسمع باتفاقية البلقان يتبادر إلى الأذهان عام 1933 حيث حاول أتاتورك عقد اتفاقية البلقان في بدايات عام 1930، لكن هذه الاتفاقية لم يكتب لها الحياة، أو لم يكتب لها العمر الطويل على الأصح لأسباب معينة. وأود هنا العودة إلى الماضي قليلاً، والحديث عن اتفاقية البلقان التي لم تكتب لها الحياة.

دبلوماسي عبد الحميد المغامر الشجاع

نحن في عام 1908، يستعد تموز فيه للهبوب على سطح الدولة العثمانية كأنه ريح السموم، والسلطان عبد الحميد يعمل من جهة على تهدئة العاصفة التي أقامها " الجون ترك" المضحوك عليهم بهراء تقسيم الدولة العثمانية في رفال ، ومن جهة أخرى يعمل على كسر دائرة الدول المتحالفة، إنجلترة وفرنسة وروسية من خلال هجوم مضاد لتأمين البلقان، كان هدفه تهدئة البلقان "القنبلة الموقوتة " التي اشتعل فتيلها لإغلاق المنطقة أمام القوى الخارجية، ولو كان ذلك مقابل بعض التنازلات.

وكان لا بد من وجود دبلوماسي يكون رأس حربة للقيام بهذا العمل الصعب، يثق به السلطان، وهو على صلة جيدة مع قيادات دول البلقان، ولن يكون هذا الشخص سوى صالح منير باشا سفيره في فرنسة، الذي يتوجه إلى الدول المعنية لإقناعها وحملها على التوقيع على "اتفاقية البلقان " ، وكانت هذه آخر لعبة دبلوماسية قام بها عبد الحميد وأودت بحيل ومخططات الإنجليز والفرنسيين والروس حين أعطى امتياز السكة الحديدية للنمسا، لكن هذه اللعبة مع الأسف ستكون متزامنة مع أحداث مأساوية.

سنعرج هنا على السعي في سبيل عقد "اتفاق البلقان " من خلال مذكرات صالح منير باشا البطل الأساسي في هذه اللعبة.

دعا السلطان عبد الحميد صالح منير باشا من فرنسة، وأبلغه بمهمته الجديدة، وهي العمل على إيقاف بلغارية التي تستعد للهجوم على إسطنبول. قابل الباشا في البداية أمير بلغارية فرديناند، ثم جلس إلى طاولةٍ مع باقي المسؤولين في الدول الأخرى حتى توصل إلى هذا القرار: إن بلغارية وحيدة في البلقان، ويمكن الحيلولة دون خطر بلغارية إذا ما أُبرمت اتفاقية بين دول البلقان، بل ويمكن عندها وضع حد للبلبلة التي تحدث في مقدونية، والتي ستؤدي في النهاية إلى إعلان المشروطية. شرح الباشا انطباعاته للسلطان، فأوكله السلطان هذه المرة بمهمة عقد اتفاقية البلقان. توجه صالح منير باشا في البداية إلى رومانية وصربية واتفق مع مليكهما. ولنستمع منه معا إلى ما حدث بعد ذلك:

في يوم من أواسط عام 1908 جاءني دلي ياني Yani Deli السفير اليوناني في باريس وأبلغني برقية سرية تبين الرضى من حيث النتيجة، وتبين أنهم بانتظار زيارتي إلى أثينا. ذهبت إلى أثينا، والتقيت رئيس الوزراء تاوتوكي ووزير الخارجية بلطة جي، واستقبلني معهما الملك جورج بسرور وحفاوة. وفي نهاية الزيارة الرسمية دعاني الملك إلى قصره القريب من أثينا. وعرضت عليه البنود التي اتفقت عليها مع رومانيا وصربيا، ووافقني عليها. والتقينا في اليوم التالي مع رئيس الوزراء ووزير الخارجية. وأيد هؤلاء الاتفاقية وبشدة أيضاً كملكهم، وقالوا: "إن شكلنا كتلة مع رومانية وصربية سيزداد نفودنا، ونحفظ السلام في الشرق " ، وبدأنا المفاوضات بحسن نية، واتفقنا على الكيفية التي تقدم لنا اليونان المساعدة العسكرية حين اللزوم، وما الذي سنقدمه نحن بالمقابل. ولكن كانت هناك مسألة كريت لا بد من التوصل إلى حلها. حين عاودت اللقاء مع الملك قام بتقديم هذا العرض وهو يقول: "ما رأيك يا بني أن أعطيكم الأمير جورج وامنحوه الجنسية العثمانية، ثم عينوه خديوياً على كريت، واجعلوه باشا، واحكموا كريت بمعرفة الباشا جورجي، وبذلك نحمي اليونان من الوقوع بين براثن البلغار.

قمت بإعلام الباب العالي بالمحادثات التي دارت بيني وبين الملك والآخرين في تقرير أرسلته إليه. ولكن بعد زمن قصير وقع انقلاب المشروطية، وكما أخبرني توفيق باشا؛ لم يجد الوزراء في ذلك الوقت ولا الاتحاديون الفرصة لقراءة تقريري بسبب انشغالهم بالمظاهرات عديمة الجدوى!.. ولكن هيهات **[107]** .

هيهات!.. فهذه الفرصة الذهبية كان مصيرها أنها ذهبت ضحية للمشروطية.

ولن يمضي وقت طويل، فقط أربع سنوات، حتى نرى تصدع شجرة الصنوبر العثمانية من منتصفها مع انفجار حروب البلقان، وتتمزق إرباً إرباً عن جذعها، وعندها وبعد فوات الآوان سيدركون أهمية مبادرة عبد الحميد لعقد اتفاقية البلقان التي بقيت عقيمة من دون جدوى!. فالاتحاديون يعملون وفق منطق أعوج مفاده: ينبغي علينا حتى نصل إلى الصواب أن نقوم بعكس ما كان يقوم به عبد الحميد في كل شيء، وهؤلاء ضيعوا فرصة الاتفاق الخارجي، وسرعوا في سقوط الدولة العثمانية، وأدخلوا الفتن السياسية في صفوف العسكر، وعشنا مأساة انقسام ضباطنا إلى اتحادي وائتلافي، وكانت النتيجة ضياع البلقان والسبب المباشر هو هذه الغفلة التي

غرق فيها الاتحاديون.

فماذا حدث لصالح منير باشا؟

بينما كانت المفاوضات الدبلوماسية مستمرة في بوخارست عند إعلان المشروطية حيث انفجرت ثورة الحرية في 24 تموز؛ كانت تجري تصفية وإعدام رجال عبد الحميد أيا كانوا ومهما كانت مواقعهم. عاد سفيرنا في فرنسة من بوخارست إلى باريس، واستقال من منصبه، وعكف في زاويته التي انسحب إليها، لتأليف كتاب من مجلدين باللغة الفرنسية عن تاريخه الدبلوماسي. وبقي حتى وفاته عام 1939 يعمل على بيان الحقائق التي أخفيت عن جمهرة الناس كالحادثة السابق ذكرها. ودافع ولو خفية عن عبد الحميد وسياساته.

الأمر اللافت للانتباه بهذا الخصوص هو أن ما كتبه في سلسلة مقالاته التي نشرت في صحيفة "حريت" عام 1934 كان يشكّل خلفية تاريخية لمبادرات أتاتورك في طريق اتفاقيات البلقان، فكأنه يريد أن يقول لأتاتورك: إن سلكت طريق عبد الحميد؛ تجد الصواب.

وربما نقول ذلك في أيامنا هذه أيضاً؟

عبد الحميد و علماء الشيعة

محاولات السلطان لإحضار أطفال الشيعة إلى إسطنبول، هو مثال واضح على اتخاذه التعليم وسيلة دعائية (..). حين وصل الأطفال إلى إسطنبول أعطاهم السلطان من جيبه الخاص 200 ليرة، ولم يكتف بذلك، حتى خصص لهم 5000 قرش تصرف على مصاريف الإعاشة والمعلم الخاص والخدم [108] .

سليم درينغيل

قولوا ما شئتم عن الشخصية المميزة مدحت باشا، فإنه هو الذي فكر بهدم أسوار إسطنبول، وشق طريق عام في المنطقة المكتسبة من الهدم، (وربما كان سيصل إلى هدفه لولا الإنجليز عشاق إسطنبول)، وهو الذي افتعل حريقا في روسجوق (مدينة بلغارية) عندما كان والياً عليها لبناء مدينة منظمة، وأحرق بيوتها الخشبية؛ ليبني مكانها بيوتاً آجرية جديدة [109] .

ولا ننسى هنا ولاية مدحت باشا لبغداد الشهيرة، وفكرته العبقرية التي طرحها في خلال زيارة قام بها شاه ايران ناصر الدين إلى النجف وكربلاء عام 1870، حيث عرض بيع الكنوز الضخمة التي اجتمعت في النجف وكربلاء في خلال مئات السنين بالمزاد، وصرف عوائدها من الأموال لبناء سكة حديد تربط بين بغداد وإيران.

وبذلك كان الباشا يهدف لتحقيق قفزة سياحية في كربلاء!. بالطبع جاءه الرد سريعاً بالرفض من علماء الشيعة. وكذلك قاوم علماء الشيعة أفكاراً منطقية أخرى للعثمانيين. فقد عرض عليهم استعمال القيمة المادية لتلك الكنوز في الخدمات العامة وتطوير المدن المقدسة ولكن الإجابة كانت بالرفض أيضاً.

أي أن مدحت باشا كان يحاول الدخول إلى العراق بعقليته الإصلاحية، ولكن المقدسات كانت تجابه العقل وتطلب إليه الرجوع خطوة إلى الوراء، وكان علماء الشيعة يقاومون التنظيم الجديد، في حين كانت التنظيمات تعمل على الدخول في قلب هذه الكتلة الشيعية الأكبر في بنية الدولة العثمانية، لكن التوتر التاريخي بين الشيعة والسنة كان يعمل باستمرار على منع تنفيذ هذه الإصلاحات.

فقد بدأت الدولة بتأسيس مراكز التعليم العلمانية، أي الرشديات والإعداديات أي الثانويات، على سبيل المثال، ولكنها لم تتمكن من النفوذ

إلى المدن الشيعية المقدسة، فاقتصرت المدارس في الغالب على المناطق التي يقيم فيها السنة، وحبذا لو لم يكن هناك قرار الجندية الإلزامية، لكن الدولة العثمانية كانت قد اتخذت قرارها، فالدولة العثمانية تريد الخدمة من المدن المقدسة الشيعية أيضاً، وبدأت بسحب الشباب للجندية منذ عام 1858 قبل تعيين مدحت باشا بسنة واحدة، وقد أرعب هذا القرار العلماء الشيعة بشدة.

كان تلاميذ المدارس معفيين من الخدمة العسكرية، والشيعة يعارضون تسجيل أبنائهم في المدارس في القيود الرسمية، فلم تكن بين أيدي تلامذتهم وثائق ذات صفة رسمية، والنتيجة أن التلامذة السنة كانوا يعفون من الخدمة، والتلامذة الشيعة يؤخذون إلى الخدمة لعدم قدرتهم على إبراز وثائق رسمية، مما يفتح الطريق إلى انتشار مشاعر الغيرة والحقد في صفوف الشيعة. وتوصلوا في النهاية إلى الحل، وعينت الدولة العثمانية على رأس الشيعة منصب آية الله رسمياً، فتم تعيين سيد محمد تاكي بحر العلماء " رئيساً للمدرسين في النجف". وبذلك تم تجاوز مشكلة تلامذة الشيعة الذين لا يرغبون بالخدمة العسكرية من خلال ورقة موقعة من السيد محمد.

لكن الدولة العثمانية كانت أمام قضايا جديدة: ماذا لو أساء الشيعة استخدام هذه الصلاحية؟ وماذا لو أنهم احتالوا على الدولة وأظهروا كل من يرفض الخدمة تلميذاً؟!... ووجدت الدولة الحل في امتحان يتقدم إليه تلامذة المدارس في بغداد، وبذلك يتميز الصالح من الطالح، والتلميذ من غير التلميذ.

كما يقول اللاز [الذي يُضرب بهم المثل في التندر والفكاهة عند الأتراك كالصعيدية في مصر والحماصنة في الشام. والشائع عنهم عنادهم. م.]: " مسألة الآن مسألة عناد". كان أهل الشيعة يعملون على التهرب من الضغوطات القادمة من مركز الدولة العثمانية، والدولة العثمانية تبذل أقصى جهدها في سبيل منع التهرب من الخدمة، فالمجتهدون [110] واثقون بأن تلامذتهم سيقدمون الامتحان بجدارتهم. وبهذه الطريقة بدأت علاقاتهم بالدولة تتكون، وقاموا بتعزيز مواقعهم من خلال دور الوساطة التي يلعبونها بين التلامذة والدولة.

وجاء وقت الامتحان وبدأت أعمال الشغب في النجف وكربلاء، يثيرها الراسبون فيه، ونعلم أن مثيري الشغب قد اعتذروا عن أعمالهم القبيحة، وطلبوا العفو بوساطة من السيد علي. وهذا ما ذكره الصحفي الإنجليزي

جيري Geary بأن " المجتهدين وبقية الوجهاء أيدوا بشكل كامل الإجراءات التي يقوم بها الأتراك في سبيل إرساء النظام".

عبد الحميد والشيعة

هذا هو الميراث الذي ورثه عبد الحميد الثاني في العراق، ومرّت العلاقات بين العثمانيين وعلماء الشيعة في عهده بتحولات حادة. كان عبد الحميد يرى أن الإسلام هو الدعامة الأساسية للإمبراطورية، وكان يؤمن أن الفُرْقَةَ والصراعات الطائفية على أساس سني- شيعي ليست لمصلحتنا، بل هي خدمة مصالح أعدائنا، ولذلك كان يهدف لإدخال الشيعة في رسالة الاتحاد العثمانية، ويجد أنه من الضروري أن يذكرهم بأنه سلطان يحب الخير.

وكان تأييد المرجعيات الشيعية (آيات الله) سياسات عبد الحميد في سبيل الاتحاد الإسلامي أهم منعطف في علاقات العلماء الشيعة بالدولة العثمانية. من جانب آخر فتح السلطان عبد الحميد الحوار هذه المرة مع آيات الله من علماء إيران الذين بدأوا بتأييد التقارب والحوار [111] .

إن سياسة عبد الحميد في إيران والعراق وجهوده المبذولة لإرخاء السلام بين السنة والشيعة والتقارب بينهما على وجه الخصوص لم تأخذ حقها الكامل من البيان، وبالتالي لم يتم فهمها. وكما ذكر صديقي كوكهان جتين سايا في مقالته الرائعة المعنونة بـ " The Caliph and the Mujtahids " [112] ، فإنه كان هناك بعض " العلماء" من الشيعة المؤيدين للسلطان عبد الحميد، وكانوا يضربون به المثل أمام الشاه الإيراني كحاكم يحترم أديان الآخرين واعتقادهم، ويطالبونه بأن يكون مثله.

وانطلق العمل مع المجتهد الشيعي المعارض ميرزا شيخ حسن رئيس الموجود في إسطنبول في تلك السنوات، وبدأ يكتب مع أصدقائه يوسف رضا باشا والعالم التاريخي أحمد جودت باشا بكتابة تقارير ورسائل حول كيفية التقريب بين الشيعة والسنة، وعرضها على السلطان، ووفقاً لرأي جودت باشا ومنعاً لغلبة الدول النصرانية وتحكمها؛ يجب على المسلمين الاتحاد في ما بينهم شيعةً وسنةً.

لم يكن يريد رؤية الدماء في مراسم كربلاء

في إيران في الحال هو وكما العثمانية الأراضي في المقيمين الشيعة كان بالسلاسل قاماتهم بضرب السنوية الحداد بمراسم يقومون كربلاء؛ سنوية الحميد عبد السلطان فوضع ،أجسادهم من الدماء تخرج حتى الحديدية الشوارع في التطواف من الجموع ومنع ،الطقوس هذه على القيود الثاني

.الخاصة أماكنهم في إلا الطقوس بإجراء لهم يسمح ولم ،بدمائهم مضرّجين
بليغة جروحاً ويجرحون ،للإغماء يتعرضون الشيعة كان سبق ما في
.أيضاً حياته بعضهم يفقد كان بل ،المشافي إلى نقلهم تفرض لدرجة

كان عبد الحميد شديد الاهتمام بحياة الإنسان، وقد خطا خطوة هامة على طريق جعل مراسم كربلاء خالية من الدماء، ويطور الاتحاديون هذه الخطوة في ما بعد حتى يتم التخلص من هذه الطقوس نهائيا في زمن الجمهورية.

Mithat Sertoğlu "Kerbelâ faciası ve mâtem âyini" *Resimli Tarih Mecmuası* , Sayı: 65, Mayıs 1955, s. 3835 .

أما بالنسبة ليوسف رضا باشا فإن عبد الحميد يجمع بين كونه حاكماً وكونه خليفة للمسلمين، وبذلك يملك نفوذاً وسلطةً على الشاه الإيراني الذي لا يملك إلا سلطةً دنيوية، ولذلك هو الشخص الوحيد القادر على إرساء التقارب والاتحاد السني الشيعي، وبالتالي قام السلطان عبد الحميد بتشكيل مجموعة عمل تضم جمال الدين الأفغاني ومعارضين للنظام الإيراني، قاموا بكتابة ما يقارب 600 رسالة إلى علماء الشيعة الموجودين في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وتلقوا قرابة 200 إجابة [113] .

وقد استفاد عبد الحميد من جمال الدين الأفغاني صاحب الشهرة الكبيرة في إيران للعمل على تكوين البنية التحتية لهذا الاتحاد، فقابل بالسرور تكوين جمعية مؤلفة من المجتهدين الشيعة الموجودين في إسطنبول، وقام بإرسال رسائل تحمل معاني الاتحاد لآيات الله الموجودين في إيران، وتوجّه إلى إيران، وعقد لقاءات فيها، وتلقى من هناك رسائل إيجابية وحارة [114] .

فهل كان ذلك في طريق تجاوز الصدع الهائل في العالم الإسلامي؟

قام الشاه الإيراني بالهجوم المضاد إثر الأخبار الواردة عن أن السلطان يتدخل بشؤونه الداخلية، ويقلب عليه آيات الله، وبدأ يلعب بورقة الأرمن أيضاً، وتصل الرسالة إلى عبد الحميد بشكل صريح تطلب إليه التوقف عن التدخل بشؤونه الداخلية؛ وإلاّ سيقوم بإيواء العصابات الأرمنية ودعمها.

واضطر عبد الحميد إلى الضغط على المكابح حتى يتقي ضربة من إيران أيضا بسبب هذه المسألة التي حرّكتها أوروبة كثيراً، وفاتت هذه الفرصة الكبيرة لاتحاد السنة والشيعة، ونفى المجتهدين المعارضين الإيرانيين

الموجودين في إسطنبول إلى طرابزون، ويقال أن الشاه قام بالضغط لتسليم الأفغاني.

قلِّبوا هذا الأمر كيف ما شئتم، فسترون أن إخفاق مبادرة اتحاد العالم الإسلامي كان مرا كمرارة العلقم.

عمليات ما وراء الحدود موجهة من عبد الحميد إلى إيران

لا يُعرف ذلك الحدث كثيراً، قام السلطان عبد الحميد بعملية عسكرية خلف الحدود الإيرانية، وأعطى أوامره لعساكرنا بالتوجّه نحو الشرق. يشبه سنان كونر ألب Kuneralp كاتب مقالةٍ مهمةٍ حول هذا الموضوع؛ هذه العملية بتوجّه الألمان المشهور نحو الشرق *Osten Nach Drang* . [115]

لم ينته حسابنا عند الحدود الإيرانية. وقد أظهرت المعاهدة التي أجبرنا على التوقيع عليها مع نادر شاه في عام 1736 أو معاهدة أرضروم المبرمة في عام 1823 أنّه لم يكن بالإمكان التقدم أكثر من توقيع معاهدة قصر شيرين Kasr-ı Ş irin في 1639 في حق كل من الطرفين [116] . في عام 1837 بلغت الخلافات الحدودية حافة الحرب مع إيران، وحال دونها التدخل الروسي والإنجليزي، فتمّ تحويل موضوع الحدود هذا إلى لجنة كُلّفت بالأمر، حتى إذا كان عام 1847 تمّ ترسيم الحدود بين الدولتين العثمانية والصفوية من المحمّرة حتى جبل أغري بطول يبلغ 1125 كم. وكفلت المعاهدة كل من روسية وإنجلترة.

كانت النتيجة أننا وافقنا مكرهين على ترسيم حدود مع إيران، لكنّ نار أذربيجان بقيت متأججةً داخل الدولة العثمانية. إنها تبريز وأورمية وسلماس وأوصال. والمعاهدات المتعاقبة لم تطمئن رجال الدولة. ثم قام ضابط يدعى درويش باشا برسم خريطة تُظهر أراضينا خلف الحدود، وعلى ضوء هذه الخريطة ينهمك عبد الحميد الثاني في عمليةٍ دقيقةٍ.

" عليك أن تطلب حتى لو لم يعطوا"

فكانت الاستراتيجية هي الأولى، وكانت الثانية إدراج مطالبتنا بالأرض على جدول الأعمال لأسبابٍ سياسيةٍ. (تخطر لي هنا كلمات كمال طاهر في روايته بعنوان مفترق الطريق : كان البطل الكهل فيها يعارض تصفية الأراضي بسهولة في حقبة الجمهوريين حين يقول: " عليك أن تطالب حتى لو لم يعطوا". إنّ شريط الحدود التي استولينا عليها كان مكاناً ملائماً للاجتماع في حال قيام الروس بالهجوم على العراق وشرق الأناضول. أمّا من الناحية السياسية فكنّا نهدف إلى تأمين حدودنا الشرقية في حال حدوث تفكك في إيران. علاوة على مطلب سياسة الوحدة الإسلامية.

وأخيراً حانت الفرصة التي طالما انتظرها السلطان عبد الحميد عام 1904. وهي قتل المبشّر الأمريكي B.W. Labaree الذي يعمل في شرق الأناضول من قبل أكراد إيران بعد دخوله تركيا عبر الحدود. وعلى أثر هذا ظهر دوي الإنذار في قصر يلدز عام 1905، ونرى دخول القوات العثمانية الأراضي الإيرانية مسافة خمسين كيلومتراً بحجة بسط سيطرتها على الحدود. واعتبرت هذه البلدات التي أطلق عليها اسم " النواحي الشرقية" أراضٍ خاصة للعثمانيين، بالإضافة إلى عرض خريطة درويش باشا دليلاً على ذلك.

بالطبع لم يكن عبد الحميد كالاتحاديين يتصرف منفرداً من غير استشارة أحد!. وكانت المعلومات التي تتدفق عليه من مصادر مختلفة والمشورات وقراءة اللوائح من الوسائل التي لم يكن عبد الحميد يستغني عنها!. فعبد الحميد لم يكن ينفرد بالرأي من غير استشارة كما يظن كثيرون، بل على العكس كان يعتمد آلية الاستشارة دائماً.

يدرك عبد الحميد أن شعب المنطقة ليس راضياً عن الشاه نصر الدين، فيشمّر الساعدين لانتهاز الفرصة، والملالي المؤثرين ورئيس مجتهدي إيران (وربما تستغربون ذلك)؛ كانوا يكتبون الرسائل لعبد الحميد على شكل: " مولاي السلطان تعال وأنقذنا من قبضة شاهنا هذا"، فكانت الرسائل تدعو عبد الحميد صراحة إلى إيران.

في عام 1906 طالبت حكومة إيران بتشكيل لجنة لترسيم الحدود من جديد، ولم نكن نقعد نحن مكتوفي الأيدي، كنّا نتقدم مباشرةً إلى الداخل، لأنّ ايران تحولت إلى قدرٍ يغلي، وقد تمّ الإعلان عن المشروطيات، ولم يبقَ للعسكر مجالٌ لحماية الحدود... وبذلك كنا نأخذ الثأر من إيران التي قامت بسرقة أراضينا خلسةً عندما كنا في الحرب مع الروس في حرب 93.

كان هدف عبد الحميد تشكيل " حبل الأمان" على الحدود بين البلدين. ولهذا السبب كان لا بدّ للعملية أن تستمر حتى نضمن حماية حدودنا... في عام 1907 نرى تطويق بلدة أورمية واحتلالها من قبل القوات العثمانية. إنّ الحكمة من العملية التي بدأها عبد الحميد خلف الحدود قبل بضع سنين وأهميتها؛ ستدرك بشكلٍ أفضلٍ عندما تتفق روسية مع إنجلترة على تقاسم إيران بينهما في خلال العام نفسه. فعبد الحميد يدرك ما سيحدث سلفاً، ويتخذ تدابيره اعتماداً على ذلك، وبذلك لا يقف موقف المتفرج أمام تقسيم الأراضي الإيرانية، بعد أن نكون قد شكّلنا حبل الأمان مع جيراننا الجدد.

هل تذكركم بشيء عبارة " وحدة الأرض" التي استعملناها غالباً في

موضوع العراق في أثناء حربها مع إيران؟

لقد فعلها عبد الحميد الثاني، وخطى خطوةً أخرى نحو الأمام، وادّعى أنّ أذربيجان جزء من الدولة العثمانية. نعم كان مشروع عبد الحميد في التدابير المتخذة ضد الروس والإنجليز يبنى على أساس دخول أذربيجان تحت حماية الدولة العثمانية. ولهذا لم يتردّد صادق بك ابن الشيخ عبيد الله شمدينلي في استعمال القوات الكردية في سبيل ذلك.

والآن كانت المشروطيات على وشك الإعلان في تركيا بعد إيران، وكان السلطان يخطط عملياته الأخيرة ضد الذئاب. قطع عساكرنا علاقات والي إيران في أذربيجان بمحيطه، وفرضوا عليه الطوق والحصار. وتدخلت الدول الكبرى مرة أخرى، ومرة أخرى صدر القرار وجرى الاتفاق على تشكيل لجنة لترسيم الحدود، ومن يدري كم كان عدد المرات التي جرى فيها اتخاذ مثل هذا القرار. وحلّ والي بتليس طاهر باشا، الذي أقام سنوات طوال عند سعيد نورسي، مكانه في هذه اللجنة، وشارك في عملية عبد الحميد في جانب من جوانبها.

كانت عملية ما وراء حدود إيران الذي أطلق عبد الحميد صفارة البدء بها عام 1904 مثيرةً، إلى الحد الذي جعلت الاتحاديين يتبعونه خلافا لما كانوا يروجون له في إفساد ما أنجزه عبد الحميد!، فقام أنور باشا في نهاية الحرب مباشرةً بتكليف كلٍ من نوري باشا وكاظم (قرة بكر) باشا بفتح أذربيجان.

انسحبت العساكر التركية من تبريز في تاريخ 18 تشرين الثاني عام 1918، أي بعد تسعة عشر يوماً من هدنة موندروس.

وبذلك انتهت عملية عبد الحميد المعروفة بعملية ما وراء الحدود. فهل انتهت حقيقة؟

أظن أنها لم تنته بعد طالما أنها دفعتني للكتابة عنها، وطالما قرأتم عنها ماكتبت بعد 105 أعوامٍ، أليس كذلك؟!

عبد الحميد يأمر بسجن مصطفى كمال !

" حقبة عبد الحميد مليئة بآلاف الألغاز على مدار الساعة في اليوم الواحد".

نظام الدين نظيف Tepedelenlioğlu صاحب القلم المتلوّن للسنوات الأولى من الجمهورية، والذي كان في الثلاثينات عدواً لدوداً لعبد الحميد؛ يظهر علينا في الستينات ككاتب معجب بعبد الحميد، وجملته الصاعقة أعلاه جعلتني أفكر ملياً، فآلاف الألغاز على مدار الساعة بقيت طويلاً مختبئة في تجاويف تلك الحقبة الحرجة، حتى بدأ الوجه الحقيقي يتضح تدريجياً في الوقت الحالي، وربما نحتاج مزيداً من الصبر لنستوضح الصورة بتمامها.

وهذه الحادثة التي سأرويها الآن على الرغم من أن مصطفى كمال باشا أتاتورك ذكرها على الأقل مرتين في سيرته الذاتية الرسمية؛ لكنها ذكرت من دون التعمق في التفاصيل، ولم تكن كافية لإقناعنا بشكلها المكتوب. فجان Dündar لم يجد للحادثة قيمة ليجعلها في فيلمه الوثائقي " مصطفى" الذي بدأ عمله زاعما بأنه لا يحمل الصفة الرسمية.

وسترون بعد قليلٍ أنّ الحادثة مهمةٌ جداً بحيث لا يمكن تخطّيها وإهمالها.

في 21 تشرين الأول من عام 1904 تخرّج مصطفى كمال من الأكاديمية الحربية برتبة يوزباشي قورماي yüzbaŞı kurmay أي يوزباشي ركن في عمر يناهز الـ24، واضطُرَّ للانتظار بعضاً من الوقت تمتد أسابيع أو عدة أشهر لتعيينه، وجد خلالها وقتاً يتفرغ فيه للعمل في توزيع " المنشورات" والانتماء إلى " الجمعيات" التي طالما حنّ إليها [117] .

بقي ضيفاً عند صديقه علي فؤاد Cebesoylar زميله في الأكاديمية الحربية، في بيته المطل على البحر في Kuzguncuk ، ثم استأجر مع عدد من رفاقه الذين كانوا أيضاً ينتظرون تعيينهم بيتاً يملكه أرمنيٌّ بالقرب من بيازيد - كديك باشا (Beyazıt-GedikpaŞa).

هناك كانوا يجتمعون ويتناقشون في شؤون البلد، ويبحثون في التخلص من الاستبداد وإعادة إدارة المشروطية والحياة الدستورية، ولهذا وصلوا إلى توحيد وجهات النظر في ضرورة ممارسة الجنود ضغطاً على القصر. وكان لا بد لكل واحد منهم أن يشكل " منظمة سياسية" في مكان تعيينه في سبيل تحقيق هذا الهدف، والعمل في ما بعد على تشكيل ضغط كبير على

الحكومة بتوحيد الفروع التي يشكلونها، علاوة على إصدار مجلةٍ سريةٍ باسم الوطن [118] .

إلا أنهم لم يحسبوا حساباً بأن عبد الحميد الثاني سيتمكن من التغلغل في هذه المنظمة السياسية السرية التي لم يكونوا يسمحون للطير أن يطير فوقها.

فقد كانت اجتماعات إنقاذ البلد تسير بكامل سرعتها؛ عندما قبلوا على غفلة منهم بانضمام شخصٌ اسمه فتحي بك ضابط قديم مطرود من الجيش. وأخبرهم فتحي بك ذات مرة بعد قيامه بخدمات كثيرة للمنظمة؛ أنّ صديقاً جديداً يريد هو الآخر الانضمام إليهم. وكان وقع هذا الخبر سارًّا وخطيراً في نفس الوقت. ورأوا أن عليهم أن يروا هذا الصديق الذي سبق ذكره، وينبغي للقاء أن يكون خارج البيت في مقهى منعزل بجوار جسر غلطة .

لكن " الصديق" الجديد الذي ينتظرون قدومه لم يكن سوى ياور - رتبة معاون - إسماعيل زولوفلو باشا Zülüflü من رجال عبد الحميد " الخاصة"!. وكان إسماعيل باشا قد أمر مفتّش المدارس في وقته بمراقبة طلاب الحربية سراً. ولم يأت الياور إلى مكان المقابلة ويداه فارغتان، بل أتى ومعه رتلٌ من الجندرمة. ولم يدروا أنّ فتحي بك الذي قبلوه بينهم مشفقين عليه كان في الحقيقة مخبراً، ينقل كل كلمة إلى السلطان عبد الحميد.

وفي هذه المداهمة الفريدة من نوعها يتم القبض من قبل الجندرمة على جميع العاملين في " المنظمة السرية" التي كانت على وشك أن تتشكّل بين مصطفى كمال وفتحي أوقيار، وزجّهم في الزنـزانة [119] . وبعد الاستجواب كانوا سيرسلونهم إلى سجن الأكاديمية الحربية الخاص بالضباط [120] . ولم يكن علي فؤاد Cebesoylar في الاعتقال، فتمّ استجوابه لاحقاً [121] .

كانت الأحداث التالية أكثر إثارةً.

الشاب مصطفى كمال يستجوب

تمّ استجواب اليوزباشي مصطفى كمال في دائرة المابين في قصر يلدز على خلفية تشكيله منظمة سرية حيث يعيش عبد الحميد، وبتهمة جمع الأموال وإصدار صحيفة والقيام باجتماعات بصورة غير قانونية بهذا الهدف. نعلم أنّ احتجازه لم يدم أكثر شهرين على الأكثر، حتى لو قال في خواطره أنّه سجن "لأشهر". فربّما كانت هذه المدة بالنسبة له بمثابة عدة أشهر.

(والشيء المؤكد الذي نعلمه أنّه تمّ الإفراج عنه في تاريخ تعيينه في الشام الواقع في 11 كانون الثاني عام 1905).

كانت إقامتهم في بيت أرمني ومتابعتهم منشورات " جون ترك" المحظورة؛ النقطة التي أثارت شبهة " الخفية" (استخبارات عبد الحميد).

في تلك الأيام كانت الأخبار تتدفق على عبد الحميد حول استعداد المنظمات الأرمنية لعملية الاغتيال. تمّ إبلاغ قصر يلدز بوجود تخطيط لتفجير يستهدف عبد الحميد في خلال زيارته " الخرقة الشريفة" كعادته في الخامس عشر من رمضان. كان من عادته في هذه الزيارة أن يمر بعربته من جوار السلطان بيازيد ويذهب إلى جامع " العباءة الشريفة" الجامع الذي بناه والده. فكان مما زاد الشبهة أكثر أن البيت الذي استأجره مصطفى كمال ورفاقه كان يقع على هذا الطريق. وقد وجدت الإخبارية عنوانها الصحيح بعد تبرئة مصطفى كمال ورفاقه وإرسالهم إلى الشام بست أشهر، في الحادثة التي دبرها الإرهابيون الأرمن (أعني حادثة تفجير القنبلة في موكب السلطان عند خروجه من الجامع في 21 تموز عام 1905) [122] . وعلى أساسه تم إرسال مصطفى كمال إلى الجيش الخامس في الشام، وتم تكليفه بمهمة تدريب لواء 30 للخيالة [123] .

وغريب أن الرواية التي سادت كتب التاريخ الخامس حتى العام 1931، والذي تم إعدادها للمدارس الثانوية تقول: إن السلطان عبد الحميد تنصت من مكان خفي إلى أجوبة مصطفى كمال في خلال الاستجواب الذي تمّ في دائرة المابين في قصر يلدز، وجرت الرواية على كل لسان [124] . ووجه الغرابة أنّ أتاتورك نفسه لم يحدّثنا عن هذه التفاصيل أبداً.

كما تتملكنا الدهشة لدى قراءة هذه الأسطر المثيرة في نصٍ مكتوب في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين:

احتفظ عبد الحميد بالضابط الفتى في قصره لأيامٍ بتهمة امتلاكه روح الانقلاب، ووضع قيد الاستجواب الدقيق. وهو يتنصت إلى الحوار بين مصطفى كمال والمحقّق من مكانٍ قريبٍ. في النهاية تغلّب الذكاء على القلق. وتراجع الحاكم المستبد أمام الضابط الفتي الذي عشق الشعب والحرية. وسيّر عبد الحميد مصطفى كمال إلى الشام، فقط لأنه لم يستطع إزاحة القلق الذي كان يسببه له، وليكون في أمان **[125]** .

مع ذلك ليس في مذكرات مصطفى كمال باشا أي نقاشٍ عن حضور عبد الحميد لاستجوابه. فقد قال في إحدى أحاديثه:

بقيت محبوساً لأنّ الاختلاط مع الآخرين كان محظوراً عليّ لفترةٍ ما.

ثم أحضروني إلى المابين، واستجوبوني، وحضر الاستجواب إسماعيل باشا والباش كاتب، ورجلٌ ذو لحيةٍ كثيفةٍ هو محمد باشا. لقد فهمنا من الاستجواب أنّنا سجنّا بتهمة إصدار الصحيفة وتكوين التشكيلات والعمل في الشقة، والحاصل كنّا ممنوعين من كل هذه الأعمال. واعترف رفاقنا الأوائل، ثم أطلقوا سراحنا بعدما أوقفونا بضعة أشهرٍ .

في كانون الثاني عام 1923 تداخلت هذه الحادثة بتفاصيل أخرى، وذلك في حديثٍ أجراه مصطفى كمال على رأس قبر والدته زبيدة خانم:

زنزانة الحياة

كنت في ريعان شبابي، أخطو الخطوة الأولى في الحياة. لكن هذه الخطوة لم تأخذني إلى الحياة، بل أخذتني إلى الزنزانة، فقد أخذوني ذات يوم ووضعوني في زنزانة حكومة الاستبداد. وبقيت هناك عدة أشهرٍ . ولم تعلم والدتي بذلك إلا بعد خروجي من السجن، وأسرعت من فورها لتراني، وجاءت إلى إسطنبول. وقدّر لي أن أتقابل معها ثلاثة أيام أو خمسة أيام فقط. لأنّ جواسيس الحكومة الاستبدادية وجلاديها طوقوا مكان إقامتنا مجدداً وأخذوني. كانت والدتي تتعقبني من الخلف وهي باكية، عندما وضعوني على متن السفينة التي ستقلني إلى منفاي، مخلفاً والدتي التي منعت من رؤيتي وهي تبكي في خضم الأكدار والآلام على رصيف ميناء السيركة جي.

ومع ذلك تمكن هذا الفتى مصطفى كمال الذي يتكلم عن والدته التي انطفأت عيناها من البكاء خلفه، نعم تمكن من النجاة بثمن غير باهظ، فلو لم يتدخل السر عسكر رضا باشا ويقنع السلطان بأنّ الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء إنما هو من طيش الشباب؛ لكانت عقوبتهم بتهمة تشكيل منظمة سرية بهدف تغيير النظام، وطردهم من الجيش، وإرسالهم إلى المنفى من أبسط العقوبات.

يصف اللورد كينروس Lord Kinross أيام احتجاز مصطفى كمال كالتالي:

تعرض للضرب بما فيه الكفاية في خلال الاستجواب. أمّا علي فؤاد الرجل الذي يعرف البروتوكول فقد نجى من دون أن يدفع الثمن باهظاً، بحجة أنّ شخصاً أقل رتبةً من السلطان لا يستطيع أن يرفع يده على ضابط يرتدي زي السلطان. وابتسم مصطفى كمال بمرارة من قلة خبرته عندما سماع مناورة رفيقه الدبلوماسية هذه. وبينما كانت والدته قلقة عليه من أن يصيبه مكروهٌ في خلال فترة احتجازه؛ لم يكن قلقا إلى حد كبير.

يكتب الشعر، ويقرأ الكتب المؤلفة والمهربة له، وفي أوقات فراغه يقرّر ما سيفعله [126] .

أطلق سراح علي فؤاد جبة صوي Cebesoy حسب رواية البروفيسور شرف الدين طوران بعد عشرين يوماً، واستمر احتجاز مصطفى كمال مدة أسبوع أو عشرة أيام إضافية.

كان زولوفلو إسماعيل باشا يسعى وبإصرارٍ لمعاقبة الطلاب، في حين كان رضا باشا يعمل للعفو عنهم. وعبد الحميد يعادل بينهما، ثم يعفو عنهم في النهاية، لكنه يعيّنهم في مكانٍ بعيدٍ عن المركز [127] .

من المفيد هنا أن نشير إلى أسطورة شائعة تم تطويرها حول نفس الحادثة.

يبدو أنّ مصطفى كمال المتألم من التعذيب في أيام الاستجواب، قال وهو يشدّ قبضتيه حسب رواية علي فؤاد أردن Erden : " سأدمّر قصورهم وعظمتهم وأحجارهم وأخشابهم على رؤوسهم". وليس لدينا ما يثبت صحة هذه الرواية أو عدمها كرواية شرف الدين طوران السابقة. وربّما يزعم بعض " وثائقيينا الرومانسيين" أن أتاتورك كان قد صمم منذ تلك الحادثة عام 1904 على القضاء على السلطنة استناداً لهذه الأقوال.

لو لم يعف عبد الحميد عنهم!

في البناء المركزي لجامعة إسطنبول وقف مصطفى كمال أمام إسماعيل حقي باشا وهو يتلو قرار عفو السلطان عنه كالتالي:

لقد أظهرت حتى الآن أنك تملك قدراتٍ كبيرةٍ... لكنك من ناحية أخرى، ألحقت العار بشرف الزي العسكري وبشرفك... فانضممت إلى الدعايات الهدامة لخونة الوطن ضد سلطانك وسياسته. وشجعت رفاقك على فعل الشيء نفسه. على الرغم من ذلك قرّر مولانا السلطان أن يظهر رحمته، فعفا عنك. ولكن التعيين لن يكون كما تتوقعه في مقدونية أو أدرنة، بل سترسل إلى الشام.

وصلت السفينة إلى بيروت بعد ثمانية أيام، وأخذ اليوزباشي الركن الشاب طريق الشام على الحصان متوجهاً إلى الثكنة التي عيّن فيها. وفي سجل التعيين وضعت ملاحظة تقضي عدم ابتعاده عن الثكنة: " يمنع ابتعاده عن المنطقة العسكرية" [128] .

وهكذا تبدأ حقبةٌ جديدةٌ في حياة مصطفى كمال. ربّما لو عاقبه عبد الحميد وأبعده عن الجيش لأخذ التاريخ شكلاً مختلفاً.

بعد سنواتٍ عدةٍ يروي علي فؤاد جبة صوي هذه الحادثة كالتالي:

في العام الذي تخرّجنا فيه من الأكاديمية، كنّا مراقبين من قبل جواسيس حقبة السلطان عبد الحميد. كانت الادعاءات تشاع بأن صفنا (مجموعتنا) سيقوم بتفجير سيارة السلطان عبد الحميد وهو ذاهبٌ لزيارة العباءة الشريفة في رمضان في خلال عبوره الجسر. في حين لم يكن لذلك أساس من الصحة. كنّا دائماً أنا وأغلب زملائي في الدراسة نتابع المنشورات السرية " للجون ترك" في إسطنبول وباريس.

نتيجة تعقبنا دخلت السجن أنا ومصطفى كمال مع رفاقٍ آخرين، ولأنّه لم يكن هناك دليل ولا أمارة تثبت الاتهام، اكتفوا بطرد الضباط القورماي (الأركان) الثلاثة عشر الذين تخرجوا من الأكاديمية ذاك العام. وبتدخل من رضا باشا نجونا من عقوبة الطرد، وتمّ تعيين ستة منّا في الشام والآخرين في أرزينجان. وعلى هذا النحو ذهب أتاتورك أيضاً إلى الشام عندما تخرّج من الأكاديمية عام 1905 برتبة يوزباشي قورماي **[129]** .

وربما كان الدافع للكلمات التي ذكرتها لكم في أواخر كتابي الأول عن لسان مصطفى كمال بتاريخ 1937 " على الرغم من كل شيء؛ فإن إدارةَ عبد الحميد.... كانت إدارةً تتمتع بسجايا التسامح"؛ التي برزت بقرار العفو هذا.

ترى هل تذكر أتاتورك وهو يقول هذه الكلمات أحكام الإعدام بحق أقرب رفاقه العسكريين بعد إدانتهم بمحاولة اغتيال إزمير وشنق عدد منهم؟!

محاكمة عبد الحميد في غوانتانامو !

" إن أردنا أن نحافظ على سيادة العنصر العربـي الإسلامي في فلسطين، فعلينا أن نتخلى عن فكرة استيطان اليهود. وإلاّ نكون قد وقّعنا على قرار موت إخواننا المسلمين، وإلا فإن المستوطنين سيمتلكون كل القدرات في وقتٍ قصيرٍ جداً في الأماكن التي يستوطنونها".

تعود الكلمات أعلاه إلى السلطان عبد الحميد الثاني، كتبت في دفتر مذكراته عام 1895. فكم كانت نظرته ثاقبة ترى مستقبل الأيام، أليس كذلك؟ فكان تأسيس الدولة اليهودية هو قرار موت إخواننا الفلسطينيين كما قال...

لم ينحصر نضال عبد الحميد ضد الإمبريالية الإنجليزية التي لا تغيب الشمس عن أراضيها فحسب، بل يبدي أيضاً مقاومةً ملحميةً وحماسيةً ضد العصابات واللوبيات الأرمنية والمنظمات الصهيونية والماسونية الخارجية والداخلية، وضد كل من يريد تفكك وانحلال الممالك العثمانية.

كان يؤمن من أعماقه أنّ فلسطين هي " الحلقة الأضعف"، وصارت كذلك بالفعل. لقد كانت بالنسبة لمنظِّر الإمبريالية الإنجليزية صلة وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر فالمحيط الهندي.

فالأراضي الفلسطينية في نظر ماكندر " جزيرة" تتوسط الشرق الأوسط وأفريقية وآسية؛ لا يمكن التخلي عنها، وينبغي دعمها ما دامت سلطة الإمبريالية الإنجليزية على النفط مستمرة [130] .

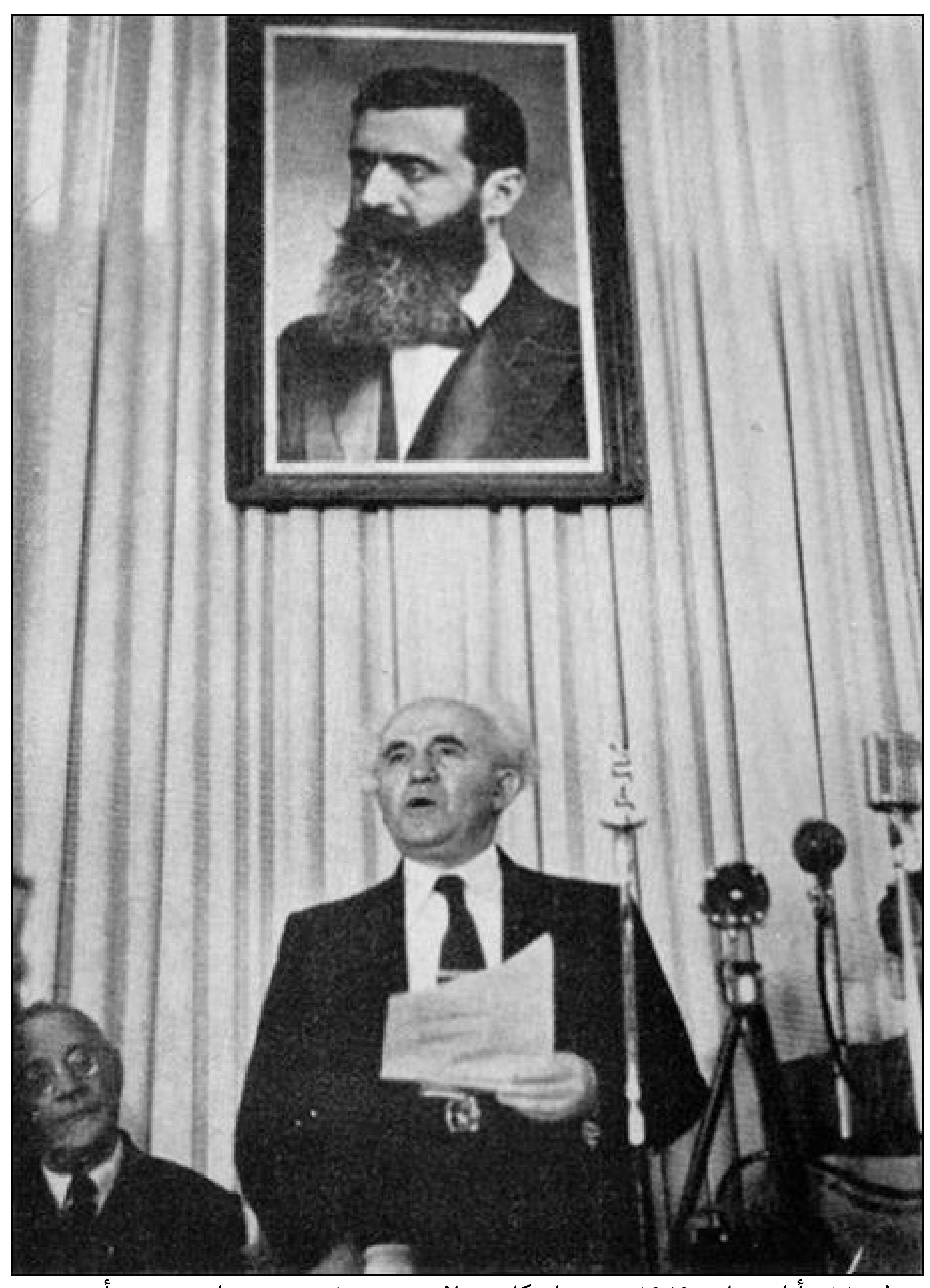
لقد أصبح واضحا الآن السبب في حرص الإمبريالية على فلسطين إلى هذا الحد، وندرك كلمات عبد الحميد المتكهنة لما سيحدث عندما تتخطف الإمبريالية منا فلسطين. وندرك أيضاً السبب الكامن وراء نشوء إسرائيل على تلك " الجزيرة".

لقد جاء يومٌ أفلس فيه الحكم الإنجليزي العالمي وعرض للبيع: ففي الحرب العالمية الأولى استدانت إنجلترة أموالاً ملء الدلاء من شركةٍ أمريكيةٍ بوساطة المصرفي مورجان Morgan ، وتقلصت سيادتها العالمية حتى وصلت مرحلة الانحطاط بسبب خزينتها الخاوية [131] . وبعد ذلك تولى الدائنون الأمريكان الإمبريالية المفلسة " مضطرين"!. واشتعلت حرب النفط من جديد. بعد 1945 بينما كانت حسابات الحرب العالمية الثانية تتم تصفيتها؛ انسحب الإنجليز نظرياً من فلسطين عام 1947، وبعد ذلك تأسست دولة إسرائيل في 14 أيار عام 1948. في الوقت الذي كان فيه دافيد بن

غوريون رئيس الوزراء يعلن عن تأسيس إسرائيل، كانت صورة ثيودور هرتزل Theodar Herzl منافس عبد الحميد معلقةً فوق رأسه. وبعد ذلك تولت أمريكا دور الإنجليز في رعاية إسرائيل. وهكذا كان لا بد أن تكون حسابات النفط أكبر وأطول، وكان منع توحيد المنطقة حول إدارةٍ واحدةٍ شرطاً ضرورياً.

كلما جلس عبد الحميد هناك

في كل عام تحرق قنابل إسرائيل خطوط الحدود وتشعلها من جديد، وتتحرّش دائماً بلبنان وغزة. وعلى حدودنا المتاخمة لشمال العراق يقوم قادةٌ إسرائيليون بعمليات تدريبية لقوات البشمركة. ونحن كبقية الأشخاص نتذكر ذاك الرجل الوحيد الذي عاش في التاريخ.



في 14 أيار عام 1948 عندما كان دافيد بن غوريون يعلن عن تأسيس دولة إسرائيل، كانت صورة ثيودور هرتزل معلقةً خلفه، هرتزل هذا الشخص الذي سعى جاهداً لسنواتٍ عديدةٍ حتى ينتزع قطعة أرض من فلسطين من عبد الحميد، لكنه فشل في ذلك. ترى لمن كان هذا التحدي في

الإعلان؟!

بعد قليلٍ سنقرأ كيف كانت لعبة عبد الحميد مع ثيودور هرتزل الذي لم يتردد في السفر إليه، وطلب المثول بين يديه، وطلب منه أرضاً تأويهم مقابل ملايين الجنيهات التي تسعف خزينة الدولة المفلسة وتنعشها.

إن البغض الذي تكنّها الصهيونية لعبد الحميد عميقٌ جداً، وضاربٌ جذوره في الأرض إلى حد يعلو الوصف. قبل بضع سنين صرح "إبراهيم شن" الأسير الذي سُجن في غوانتنامو عدة شهور؛ لصحيفة الوقت *Vakit* تصريحات مثيرة. حيث يبدو أن حاخامات إسرائيل كانوا يشاركون أيضاً في الاستجواب في معتقل غوانتنامو الذي قررت إدارة أوباما إغلاقه، حتى أن سجين غوانتنامو هذا يذكر لنا قائداً يهودياً اسمه ياسف قال له ذات مرة وهو يستعمل الكهرباء على جسمه:

أيها الإرهابي التركي لا تقلق بقي القليل. وسيأتي الدور على تركيا بعد العراق، وإيران، وسورية. سنجعل من نسائكم خدماً لنا ومن رجالكم عبيداً. وأول شيء سنفعله عندما نأتي إلى إسطنبول؛ هو إحراق قبر جدكم عبد الحميد **[132]** .

يمكننا أن ندرك بوضوح سبب حقد الغاضبين عليه، فقد جعل ثمن تمزيق العثمانية باهظاً على الإمبرياليين. وطبيعيٌ أن يحتد الذين قبلوا بتأجيل التجزئة والذي تحقق بفضل مناورات عبد الحميد (ورقصه مع الذئاب) فجرت عملية التجزئة بهدوء بعيدا عن الآلام.. فقد كلفتهم عملية التجزئة حرباً عالمية ذهب ضحيتها ملايين الأوروبيين فيها...

ندرك جيداً حقد الأرمن والصهاينة والفرنسيين والإنجليز، ... ولكن ما الذي يجري للناس في بلدنا؟ أكانوا يصبون جام غضبهم على عبد الحميد غضباً من عدم تجزئة العثمانية وزوالها أو من عدم زوالها مبكّراً؟!

كنت قد أطلقت سابقاً على مقاومة عبد الحميد اسم " ملحمة جناق قلعة"، ولكنها الملحمة البيضاء الصامتة غير المسلحة البعيدة عن العنف، والتي لا تسقط شهداء!

نعم لم يسقط في ملحمة جناق قلعة الصامتة هذه أي شهيد... لم يكن هناك سوى شهيد وحيد، أهدر حقه وقتل وهو على قيد الحياة، شهيدٌ غريبٌ هو عبد الحميد!. عليه من الله سحائب الرحمات..

ولنفتح الآن معاً إحدى أهم صفحات حياته التي أمضاها في النضال.

عبد الحميد والرقص مع الصهيونية

في 7 آب عام 1949 تمر سيارة جنازةٍ ببطءٍ على طريق تل أبيب - قدس، تحمل رفات " بطل" ما من فيينَّا. تتموج أعلام إسرائيل الزرقاء والبيضاء في أيدي المستقبلين على طرفي الطريق.

على الرغم من كونه كاتباً مسرحياً وصحفياً يحمل صفة *Neue Freie Presse* ؛ فإنه نذر نفسه للصهيونية، وبنى حلماً كبيراً، حلماً استهزأ منه حتى أقرب أصدقائه في بداية الأمر.. وهو في الواقع لم يتصرف بصورةٍ عمياء في سبيل تحقيق هذا الحلم، بل اتبع استراتيجيات مرنة متعددة الأبعاد ومتعددة الطبقات، ولم يتردد في هذا الشأن من استعمال الملوك والوزراء والمثقفين ورجال الدين والمصرفيين والصناعيين،.. وببساطة لم يتردد في استعمال كل ما ومن يرد في ذهنك.

كان اعتقاده الأساسي هو التالي: إذا كانت هناك فكرةٌ ما جيدة ومحقّة؛ فإنها لا بد لها أن تسود. ويضيف: " إن العلاقات بين الشعوب هي مسألة قوة... القوي دائماً هو الغالب؛ في الحاضر، وفي المستقبل، وربما إلى يوم القيامة" [133] .

عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرة عام 1897. وكتب في ذلك المساء تكهناته في يومياته:

"لقد بنيت الدولة اليهودية في بازل. وإذا قلت هذا بصوتٍ عالٍ اليوم، فسيستهزئ الناس كلهم مني. [لكن] ربما خلال خمس سنوات، وبالتأكيد خلال خمسين سنةٍ سيعرف ذلك الجميع" **[134]** .

ربما كان من الصعب العثور في الدنيا على سياسي مثله، متشبث متيقن بما يتكهن به.

كانت الرفات التي أحضرت من فيينا بعد مرور شهرٍ واحدٍ [من إعلان إسرائيل]، تعود ليهوديٍ مولودٍ في بودابست، مضى على وفاته خمسا وأربعين عاماً فقط. وضريحه الأسود اليوم في القدس يحمل على قمته " هرتزل" بالعبرية فقط، وتعني الدكتور ثيودور هرتزل...

إذن ثيودور هرتزل هذا الذي تعرض للاضطهاد في أوروبة كان يتردد كثيراً إلى قصر يلدز بهدف انتزاع قطعة أرضٍ من فلسطين للشعب اليهودي.

عبد الحميد وهرتزل

في تموز عام 1896 لم يتمكن هرتزل من مقابلة السلطان، لكنه نجح في تقديم عرضه إليه بواسطة الكونت Nevlinski Kont أحد مستشاري

القصر: يعرض فيه تسديد اليهود الأوروبيين الدين العام *publicdebt* للدولة العثمانية التي قدّروها بعشرين مليون جنيه إسترليني، مقابل السماح لهم بالهجرة وإعطائهم مكاناً للسكن في أرض فلسطين.

ولكن للأسف ذهب كونت نفلينسكي Nevlinski إلى القصر مبتهجاً، وعاد حزيناً، وأخبر هرتزل بأن كل شيء قد انتهى، وأنه لا يريد مرةً أخرى أن ينقل عروضه للسلطان. وفي مذكرات كونت نفلينسكي نفسه، يصفع عبد الحميد الكونت نفلينسكي بالكلمات المريرة التالية:

" إن كان هرتزل صديقك كصداقتك لي؛ فقل له بأن لا يخطو خطوةً أخرى في هذه القضية، فإني لن أبيع شيئاً من التراب ولو كان شبراً (موطئ قدم) **[135]** لأن هذا الوطن ليس (ملكاً) لي، بل هو أمانة لأمتي؛ عمروا هذه الإمبراطورية ورووها بدمائهم، وسوف نرويها بدمائنا قبل أن تنفصل وتبتعد عنا، لن يتمكن أحد من اقتطاع مثل هذه الأرض قبل أن نرويها بدمائنا، وستبقى لنا. إن جنود لواءين من ألويتي في سورية وفلسطين سقطوا على الأرض شهداء في Plevne **[136]** ، وثبت الجميع هناك في الميدان بلا عودة. إن الإمبراطورية التركية [العثمانية. م. أ.] ليست ملكا لي، إنها ملك للأمة التركية [العثمانية. م. أ.] . لن أتنازل عن أية قطعة منها، فَليخبئ اليهود ملايينهم، وعندما تتمزق إمبراطوريتي فقد يحصلون على فلسطين بلا مقابل. يمكنهم أن يمزقوا أجسادنا، ولا يمكنني أن أسمح بتشريح جسدٍ وهو على قيد الحياة" **[137]** .

وأخيراً، وبعد هذه الصفعة التي تلقاها هرتزل أيقن أن أسلوبه في طلب الأرض من رئيس الدولة كان غير لائقٍ، وأدرك الخطأ الذي ارتكبه، لكنه لم يترك متابعة القضية. وتأثر بهذه الكلمات التي أفسدت خططه، فكانت منه هذه الملحوظة المثيرة التالية في دفتر يومياته:

لقد تأثّرت من كلمات السلطان السامية هذه، على الرغم من أنها كانت في ذلك الوقت النقطة التي أنهت كل آمالي.

ما عليكم أن تفهموه هنا أن الرجل الذي جابهه عبد الحميد لم يكن أخرقاً، بل هو واحد من أدهى الأذكياء الذين كرّسوا أنفسهم في سبيل دعوتهم. يوميات هرتزل المكتوبة بالألمانية (فهو على الرغم من أنه يعتبر نفسه مؤسس دولة إسرائيل لا يعرف العبرية كمعظم الصهاينة) ترجمها إلى الإنجليزية باختصار Lowenthal Marvin ، وقد وصف رد عبد الحميد على الطلب الصهيوني بأنه superb أي رائع، في الوقت الذي ذكر فيه إعجاب (admiration) هرتزل بعبد الحميد لدى سماع رده هذا

. [138]

لم يكن الموضوع كما ادعاه هرتزل بأن اليهود الأثرياء كوّموا أكياساً من النقود خلف بابه، وعبد الحميد كان يعلم هذا الوضع من خلال جواسيسه. فكان هرتزل يخدع، والسلطان يعرف هذا، لكنه كان في نفس الوقت مسروراً في داخله من تضخم ثراء الصهاينة في أوروبة، ومن فتحهم له بابا جديدا للمساومات. فقد أصبحت في متناول يده أداةٌ جديدةٌ.

ولهذا السبب وبينما رفض عرضهم بخصوص شراء الأرض تركز انتباهه على مشاريع هرتزل اللاحقة. فألبس هذه المرة عرضه بثوبٍ عقلانيٍ بما يشبه الاستثمارات الأجنبية اليوم كتنمية الدولة العثمانية وإنقاذها من بلاء الدين العام. سيستثمر الصناعيون الأوروبيون اليهود في البلاد العثمانية، ويطورون البلد بما فيها فلسطين، علاوة على المساعدة في تسديد الديون، وذلك بفسخ الدين العام. شرطهم الوحيد مقابل هذا؛ هو السماح بتوطين اليهود في الأراضي الفلسطينية بصورةٍ رسميةٍ.

أمّا عبد الحميد فكان يعرف أنّ استعمال الصهيونية أفضل من ردها. لهذا السبب عرض عليهم عرضاً مقابل عرضهم، وهو يعرف أنهم لن يقبلوه: على اليهود أن يؤسسوا جمعية (Syndicate) لتسديد الدين العام للعثمانيين، والمقدر بثلاثين مليون إسترليني. مقابل ذلك، يسمح لهم بتوطينهم على الأراضي العثمانية شريطة أن يتخلوا عن جنسية البلاد التي قدموا منها، ويصبحوا تابعين للإمبراطورية العثمانية. والشرط الصادم الأخير: لن يستوطن اليهود في فلسطين مجتمعين، ولن يسمح لهم بالتوطين الجماعي، وعليهم أن يتفرقوا في مناطق مختلفة؛ خمس عائلات هنا، وخمس عائلات هناك.

اللعبة الكبيرة

وتلقى هرتزل العرض وكأنما وقع على رأسه " حجر الأساس" بالتعبير الأورفلي، ألم تكن دعوته كلها قائمة على التخطيط لاستيطان أبناء عرقه في فلسطين؟، فكيف له أن يقبل مثل هذا العرض؟!. ورأى أن عرضه لم يكن جذاباً للسلطان بما فيه الكفاية، وعاد ثانيةً إلى أوروبة لجمع أموال إضافية. إلا أن اليهود الأثرياء لم يسارعوا لفتح كيس المال ما لم يحصلوا على وثيقةٍ رسميةٍ من السلطان تسمح بهجرة اليهود. وعبد الحميد لن يسمح بالهجرة إلى فلسطين، ولن يوقع على الوثيقة الرسمية من دون رؤية المال... وهكذا تعقدت المسألة.

لقد أظهر جون (وهو الشيفرة التي تدل على عبد الحميد في يوميات) بأنه مفاوضٌ بارعٌ؛ كان يطلب الكثير، ولا يعطي إلا القليل القليل.

وأخيراً في تموز 1902 يدعى هرتزل إلى القصر بتلغرافٍ مستعجلٍ. لماذا؟ لأن هناك من كان أيضاً يتردد كثيراً على القصر... إنه الفرنسي موسيو روفيير M ö sy ö Rouvier ، كان يخرج من اجتماع ويدخل في آخر ليقدم عروضاً تريح المالية العثمانية. في حين لم يكن أحد يرحب بهرتزل، ولذلك تخلى هرتزل عن شرط فلسطين، وأخبر القصر أنه في حال القبول الرسمي بهجرة يهودي واحد إلى بلاد الرافدين (بما فيها حيفا)، سيقدم عرضاً أكثر إغراءاً من عرض أصدقائه الفرنسيين، وازدادت حدة المفاوضات.

لم يعد عبيد القصر (الذين كانوا يبعثون الأمل في نفس هرتزل في السابق).. يرحبون بهرتزل لسببٍ أو لآخر، يساندونه بأقوالهم، لكن أفعالهم كانت لها وجهة أخرى، وفي النهاية كان هرتزل يشاهد بشكلٍ مؤلم أنه لم يكن سوى بيدق يستعمله القصر الذي أحال المسألة إلى الفرنسيين. ولم يكن هرتزل سوى أداةٍ لتسخين المفاوضات مع الفرنسيين، ولأن المعاهدة تمت فلم يعد أحد يلتفت إليه...

ومرةً أخرى لعب عبد الحميد لعبته!...

وتغلق الآن صفحة العثمانية في دفتر خواطر هرتزل، وتفتح صفحة الإنجليز، وبينما كان يجمع حوائجه في حقيبته دوّن على دفتر ملاحظاته ما يلي: " سيأتي يوم يكون فيه الأتراك متسولين، وسيركعون عند ركبتي متوسلين".

هذه مسيرة المفاوضات، وعبد الحميد هو واحد من أفضل العارفين بما تخفي هذه العملية! كان هو وخصومه يلعبون لعبةً، إنها لعبةٌ دبلوماسيةٌ كالشطرنج...

ربما يكون أولئك الذين لا يمكنهم أن يستسيغوا تصرف عبد الحميد " المناور" مع الصهاينة؛ محقين بعض الشيء، إلا أنه من الضروري أن نميز الفرق بين النية الحقيقية والكلام الدبلوماسي.

في مقالة له بعنوان " عبد الحميد والصهيونية" كتب الباحث اليهودي أفرام غالانت Galante Avram أن الغضب الذي حلّ بموشي ليفي (MoŞe Levi) رئيس حاخامات إسطنبول الذي توسط لمقابلة هرتزل بعد انتظاره ثلاثة أيامٍ في القصر (وهو ما يعني نوعاً من الاحتجاز) يوضح حقيقةً كل شيء. كان عبد الحميد يقول لرئيس الحاخامات في نظرةٍ واحدةٍ " كيف لي أن أتجرأ وأبيع أرضاً؟". وحسب ما وصفه رئيس الحاخامات لحفيده أفرام غالانت Galante Avram المؤرخ التاريخي؛ فإنه كان يجثو على ركبتي السلطان وهو يبكي، ويبين له وهو يقسم بأنه ليس لديه علمٌ

بطلب هرتزل للأرض باسم الصهاينة، وكان يرجو العفو [139] .

ملاحظات من أجل الراغبين في الإطلاع

ما تزال يوميات ثيودور هرتزل المكتوبة أصلاً بالألمانية وفي خمسة مجلدات غير مترجمةٍ إلى لغتنا. والكتاب المجموع بعنوان " تركيا والصهيونية" (إسطنبول 1967؛ الطبعة الثانية، 2004) للمرحوم يشار قوطلو أي YaŞar Kutluay عبارة عن ترجمة مختصرة لأماكن كثيرة في اليوميات متعلقة بتاريخنا إلى حد كبير. أما ما زعم ترجمته المرحوم أرغون غوزة G Ergun ze ö في " خواطر" (إسطنبول 2002)؛ فإنه مع الأسف لم يأت بأي جديد، وهو ليس إلا تكملة لبعض نقاط ترجمة قوطلو أي Kutluay ، علاوة على أنه اقتبس قسمه الأكثر من ترجمة قوطلو أي من دون بيان النقل.

يمكنك العثور على مختصر عن ثيودور هرتزل في (Herzl Theodor: Biography Impact An) بتاريخ 1987 لنورمان Norman H. Finkelstein الذي التحق بالصف المضاد للصهيونية (Franklin Watts Edition).

وقد استفدت في هذه الكتابة من المرجعين الأساسين التاليين:

اسحاق فريدمان (Isaiah Friedman)، ألمانية وتركية والصهيونية، 1897-1918 (أوكسفورد 1977).

والتر لاكور (Walter Laqueur)، تاريخ الصهيونية، (Tauris 2003).

والأبحاث المساعدة في هذا المجال والتي تذكر بالمواقف المتضادة بين هرتزل وعبد الحميد في التاريخ اليهودي العام ليست قليلة. يمكن أن نذكر هنا المثالين التاليين:

هذا الجزء الموجود في كتاب مسار التاريخ اليهودي المعاصر (Howard Morly Sachar, The Course of Modern Jewish History, Delta Book, 1963, pp. 269-279 .)، هام بالنسبة لموضوعنا. وهذه ترجمته إلى الإنجليزية:

The Sultan was interested. He plied Herzl with cigarettes, the Grand Cordon of Order of the Majidje, and the color of Herzl's money. Herzl promised to have an answer for the Sultan soon. He rushed back to paris, tried desperatly to get some kind of a commitment from Rothschild- and fariled. In February 1902 , he returned to constantinople and attempted to maneuver the Sultan was more explicit: The Turkish government would approve Jewish settlment throughout the Ottoman Empire, but not as a corporate

group in Palestin. Herzl's hear sank; he recognized that the Sultan had made a fool of him, and was using the threat of a Jewish loan to obtain better intrest terms from French creditors. Herzl's morale badly shaken, he have serious consideration now to resigning from the presidency of the movment. (pp. 273 - 274).

كان السلطان راغباً في العرض، وكان يُغري هرتزل بالسجائر والوسام المجيدي ويعده بوثيقة أو معاهدة غامضة، لكنه أراد أيضاً أن يرى لون نقود هرتزل. ووعد هرتزل أن يردّ الجواب للسلطان حالاً. وأسرع بالعودة إلى باريس، وحاول بشدة الحصول على تعهد من روتشيلد ولكنه فشل. في شباط 1902 عاد إلى إسطنبول، وحاول مناورة عبد الحميد في مفاوضة قاسية. لكن السلطان كان هذه المرة أكثر صراحةً: الحكومة التركية توافق على استيطان اليهود في أنحاء الإمبراطورية العثمانية، لكن ليس كجماعات مجتمعة في فلسطين. أدرك هرتزل أن السلطان استهزأ به، وأنه استعمل القرض اليهودي ليحصل على عرض أفضل من الدائنين الفرنسيين، وتعكر مزاج هرتزل بشدة، حتى أنه فكر في الاستقالة من رئاسة الحركة (ص 273-274).

لفهم الموضوع بصورة مختصرة حيادية كاملة، ارجع إلى بول جونسون، تاريخ اليهود ، Library Perrennial ، 1988 ، ص 400-402.

= مقالة فرنسية تطلق على هرتزل اسم " موسى جديد"، انظر:

Rene ,1965 Paris , *d'Israel resurrection La* ,Latour Anny . 101-52 .pp ,Julliard

= كتاب ميم كمال أوكة Mim Kemal Ö ke ، مشكلة فلسطينيين: من الصهيونية إلى الصراع بين الحضارات، دار أفق، إسطنبول 2002. وهو من أهم الأبحاث الأكاديمية الأساسية لفهم ماضي وحاضر فلسطين باللغة التركية، ولا بد من الاعتراف هنا أني تعلمت الكثير من هذا الكتاب.

= كتاب يدحض أساطير الصهيونية، انظر: جون روز John Rose ، أساطير الصهيونية ، Pluto Press ، 2004 . في هذا الكتاب تم اختزال العلاقة بين عبد الحميد وهرتزل في المقطعين التاليين:

Herzl had been ready to help protect the Tsarist status quo because he wanted the Tsar to put pressure on the Sultan, the head of the Ottoman Empire, to let more Russian Jews into

Palestine. He had already made a highly offensive and demagogic appeal to the sultan were, aiding and raising allegations about Jewish financial powr. Herzl had offered Jewish regulation of the sultan's finance in retern for letting the Jewish into Palastine. The sultan had politly refused .

Herzl's appeal to sultan was revealing in another regard. It would set seal on Zionist strategy for the rest of the twentieth century, to be explored in detail in the rest of this book, as the intrument for Great Power domination of the Arab world. 'We world from a portion of a rampart of Europe against barbarism'. (D. Vital, The Origins of Zionism, Oxford University Press, 1975 , p. 26 (**[140]** .

المطالعة 1

عبد الحميد وجوابه التاريخي لهرتزل (من يوميات هرتزل) **[141]**

In the evening Nevlinski returned from Yildiz Kiosk with a long face and bad news .

He ordered only a half-bottle of champagne- *en signe du deuil* -and told me in two words: "It’s all off! the great lord will not hear of it ! "

I took the blow bravely .

" The Sultan told me: if Mr. Herzl is your friend in the same measure as you are mine, then advise him not to go a single step further in the matter. I cannot sell even a foot of land, for it does not belong to me but to my people. They have won his Empire and fertilized it with their blood. We will cover it once more with our blood, before we allow it to be torn from us. Two of my regiments from Syria and Palestine allowed themselves to be killed to a man at Plevna. Not one of them yielded; one and all remained, dead, upon the field. The Turkish people own the Turkish Empire, not I. I can dispose of no part of it. The Jews may spare their millions. When my

Empire is divided, perhaps they will get Palestine for nothing. But only our corpse can be divided. I will never consent to vivisection ."

They spoke next of other matters. Nevlinski advised him to bring the Young Turks into the government. The Sultan said with irony: "A constitution, then? I know this much: Poland's constitution did not prevent your fatherland from being partitioned ."

I was touched and moved by the truly lofty words of the Sultan, although for the time being they put an end to all my hopes. There is a tragic beauty in this fatalism which foresees death and dismemberment, yet this fights to the last breath, if only through passive resistance **[142]** .

الوثيقة التي أضاءت التاريخ: اعتقل عبد الحميد رئيس الحاخامين لأنه توسّط عنده للصهاينة

تظهر الخلفية الملونة لمقابلة ثيودور هرتزل مع عبد الحميد بقلم أفرام غالانتي الخبير في تاريخ يهود الأتراك.

هذه الوثيقة غير المترجمة إلى التركية حتى الآن؛ ما إن تصبح في متناول أيدي قسم من المؤرخين حتى يتلقفوها وينشروها في الشوارع مرددين كما ردد أرخميدس " وجدتها، وجدتها"، ويتركوها تحت عناوين مخجلة مثل " مساومات عبد الحميد مع الصهاينة حول الوطن"، ربما بنية غير سيئة، وللشهرة فقط، لكنها تفعل فعلها في تشويش أذهان الناس. لا بد لهذا التشويش من جوابٍ قاطع يوقف رغباتهم البشعة!

لقد كان عبد الحميد يقظاً على الدوام، لم يخط خطوة إلاّ بعد ألف حساب، ثم إنه يعطي الجواب اللازم بصورة جيدة من وراء الأبواب لأمثال هرتزل الذي لا يعرف معنى الأخلاق الدبلوماسية.

الكاتب يهودي والمراجع المكتوبة والمسموعة التي استعملها هي كذلك يهودية فهي موثوقة، وللمرة الأولى أقدم لقرائي في هذا الكتاب هذه الوثيقة الملموسة التي تظهر كيف أدار عبد الحميد لعبته الذكية مع الصهاينة. ومرةً أخرى أشكر صديقي جمال أيدن على مساعدتي في ترجمة النص من الفرنسية إلى التركية. م. أ.

المطالعة 2

عبد الحميد والصهيونية

أفرام غالانتي Galante Avram

إن العرض الذي قدمه عبد الحميد إلى ثيودور هرتزل أوجد صدى كبيراً في الصحافة العالمية. الوعد: هو الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

قال يحيى بك العقبة (حفيد رئيس حاخامات الأتراك في حقبة عبد الحميد) "في يدي وثائق أعطيها لكم". والأسطر التالية أنقلها لكم من هذه الوثائق بقلمي ...

في 17 أيار عام 1901 قبل عبد الحميد أن يقابل هرتزل مقابلة خاصة. فألبس ومبري Vambery هرتزل وسام المجيدية الذي قلّده إياه السلطان، وربطة العنق .

أرسل السلطان إلى هرتزل عن طريق منير باشا أن يأتي إليه على أن يكون برفقة رئيس الحاخامات. وأبلغ هرتزل السلطان أنه يريد مقابلته لمقصدين اثنين :

1 - التعاطف الذي أبديتموه نحو اليهود، أن توسعوا هذا التعاطف ليشمل يهود العالم .

2 - أتيت لأقدم إليكم عرضاً باسم المنظمة الصهيونية التي أسستها. هذا العرض لا يتعارض مع مبادئ جلالة السلطان. إن هجرة اليهود إلى فلسطين تلبـي حاجة اليهود المعذبين للحصول على الطمأنينة. لا أريد حكماً ذاتياً مثل الخديوية في مصر. أريد أن تعطوني وضعا يشبه وضع جزيرة كريت. إن وافقتم عليه؛ فإن منظمتي والكتل المساندة لنا مستعدون لتقديم ما يريده جلالة السلطان لخزينة الإمبراطورية. أرجو أن يحظى عرضي هذا برضاكم، وإلاّ؛ فإني أسحب عرضي .

وقف عبد الحميد صامتاً لدقيقتين ثم قال ما يلي :

ثقتي الكبيرة بالشعب اليهودي لا يمنع من ردي لعرضكم، لكن احتمال قبوله ممكن، وسأستشير حكومتي في هذا الموضوع، فإن وجدنا عرضكم مناسباً؛ فسوف يقومون بتحضير الوسائل العملية لوضعه في حيز التنفيذ. هل يسركم جوابـي؟

قال هرتزل: "سعيدٌ جداً"، جلالة السلطان، إسمحوا لي أن أسألكم: هل تأذنون لي أن أخبر أصدقائي بالبيان الختامي لهذا اللقاء عن طريق التلغراف؟". أجابه السلطان: "طبعاً". وأضاف: "مروا إلى هنا قبل أن مغادرتكم إلى فيينا، أبواب القصر مفتوحةٌ لكم ".

أرسل ثيودور هرتزل تلغرافاً إلى فيينا بعد خروجه من القصر، فكان لهذا الخبر صدى كبير في أوروبة .

بالنسبة لي، لم أصدق أساساً وعد السلطان المذكور أعلاه حتى علمت بهذه الوثائق الأربعة ومقابلة هرتزل. ولهذا سببان مهمان :

1 - كان عبد الحميد يُتهم من قبل الجون ترك [تركية الفتاة] والتي تقوم بحملة كبيرة ضده في أوروبة تدعي فيها بأنه السبب في تقسيم الدولة. وهذا الادعاء بأن عبد الحميد سيعطي اليهود وضعاً [نظاماً] خاصاً في فلسطين يشبه وضع كريت مقابل الأموال؛ لا يعني سوى الجهل بنفسية عبد الحميد وبوطنية الشعب التركي .

2 - إن عبد الحميد كان محبوباً في العالم الإسلامي إلى درجة العبودية له؛ لأنه حامي الدين والخليفة الحقيقي. فقد كنت في القاهرة بصفة لاجئ سياسي من عام 1904 حتى عام 1908 ، وفي خلال هذه المدة كنت أتابع دائماً الصحافة العربية والعالمية كصحفي. وحينها، كانت القاهرة العاصمة الروحية كما كانت إسطنبول عاصمة الخلافة للعالم الإسلامي؛ بسبب استقطاب جامعة الأزهر أكثر من عشرين ألف طلاب من جميع أطراف العالم الإسلامي. في تلك الحقبة، كانت عيون العالم الإسلامي متركزة على عبد الحميد. ولهذا السبب لا يستطيع عبد الحميد أن يفعل شيئاً لصالح الصهيونية في موضوع هذه المدينة المقدسة التي هي مقدسة عند اليهود كما هي مقدسة عند المسلمين .

عندما علمت بسلوك عبد الحميد وتصرفه مع موشيه ليفي بعد مغادرة هرتزل إلى فيينا [سأوضح ذلك في الأسفل]؛ أدركت أني لم أخطئ في تقييماتي الآنفة الذكر، وأن جواب عبد الحميد لهرتزل لم يكن سوى "نعم بتحفّظ" لا أقل ولا أكثر .

لذلك انتهى هذا الموقف بعد ثلاثة أشهر لأنه كان يُلزم اليهود أن يكونوا تابعين للإمبراطورية العثمانية، ولصعوبة الإجراءات في ما يتعلق بدخول فلسطين من أجل الحج .

تحدثت ذات يوم مع بهور Behor أفندي (من يهود الأشكناز) حول ما جرى في خلال الحرب العالمية الأولى. وسألته عما جرى حتى وافق السلطان على مقابلة هرتزل، فأخبرني بأنه لا يعرف شيئاً، إلا أنه يعلم أن عبد الحميد أهدى هرتزل إبرةً قيّمةً جداً، وكان مقصد السلطان من ذلك هو وخز الإبرة في صدر المؤسسة الصهيونية. أراد بهور أفندي بهذا أن يقول: إن السلطان انـزعج كثيراً من عرض هرتزل .

انتظر السلطان وصول هرتزل إلى فيينا، وفي المساء أرسل معاونه إلى رئيس الحاخامات، فأخبر المعاون موشيه ليفي Levi MoŞe بأن السلطان ينتظره في القصر. ذهب موشيه ليفي إلى القصر ملبياً الدعوة في الساعة الثانية عشرة بالتوقيت التركي، يعني حوالي الساعة التاسعة صباحاً، وكما جرت العادة أخذ قسطاً من الراحة في غرفة الحجي علي باشا. أخبر الباشا السلطان بقدوم موشيه، ورد السلطان قائلاً: "فلينتظر قليلاً". وفي الظهر تماماً عاد المعاون يذكر السلطان بوجود موشيه، مرة أخرى تلقى جواب السلطان نفسه. وانقضى اليوم، وعاد العرض على المابين، وجاء جواب السلطان: "فليذهب اليوم وليعد غداً". وغادر موشيه ليفي القصر معتقداً أن السلطان لم يستقبله بسبب انشغاله، وتوجه في اليوم التالي إلى القصر في نفس الساعة، وحدث ما حدث في اليوم السابق. وبينما كان هذه المرة على وشك مغادرة القصر، كان الشك في موقف السلطان بدأ يسري فيه. وفي اليوم الثالث جرت الأحداث حتى انقضاء اليوم بصورة مطابقة لليومين السابقين [143] . وقبله عبد الحميد في آخر الأمر ووبخه قائلاً: "رئيس الحاخامات (ولم يخاطبه أفندي)، أراك قد انحرفت عن ولائك منذ قدوم هرتزل ...".

(...)

وباختصار قال السلطان ما يلي :

أعلم ما يعانيه الشعب اليهودي في البلدان المختلفة، وأعلم أنهم وفدوا للجوء إلى بلدي بأعدادٍ هائلةٍ. وأنا أقبل بكل سرورٍ يهود الروس والبلدان الأخرى الذين يريدون المجيء إلى تركيا. ما أقبله هو استيطان هؤلاء المهاجرين في قسم من الأناضول الشرقية. يمكن لهؤلاء مع يهود المنطقة الأصليين أن يشكلوا قوةً تابعة للجيش الرابع مؤلفة من مئة ألف شخصٍ. إذا كانت مسألة الطعام الحلال koŞer والطعام الحرام turfa سأعفي العساكر الملتزمين بالدين اليهودي من خدمة العسكر؛ فإني سأبني المطابخ الحلال لهذا الهدف. فماذا تقول حاخام باشي أفندي؟! (ص 287).

شكر رئيس الحاخام السلطان لإعطائه الشرف للجماعة اليهودية بطلبهم للخدمة العسكرية، وأخبره بأنه سيعرض هذا الوضع للمجلس الديني لرئاسة الحاخامات في اجتماع موسّع. وتقبل المجلس الديني رغبة السلطان، ووقع سبعة عشر حاخاماً على وثيقةٍ، اعتبروا فيها أن الالتزام بالخدمة العسكرية مكرمة جديدة من عبد الحميد لثقته بهم، عبَّروا فيها عن امتنانهم له. وقدم هذه الوثيقة بنفسه للسلطان، وسعد بذلك السلطان، وقال له ما

يلي: "أبواب القصر مفتوحةٌ لكم، ولجميع اليهود في كل حين ".

أرسل عبد الحميد الوثيقة الرسمية هذه إلى مجلس الوزراء. وكان مجلس الوزراء سعيداً باتصال اليهود بتركية، في حين خشيت الفئة الأخرى غير المسلمة، واعتبرت أن الوقت غير مناسب لتنفيذ هذه الملاحظة السياسة .

وعندما لم يحصل قائم المقام على الجواب؛ سأل رئيس المابين علي باشا في خلال الزيارة التي قام بها ليقدم التهنئة بمناسبة الاحتفالات بالذكرى السنوية لجلوس السلطان عن نتيجة الوثيقة التي أعطاه. فأخبره [علي باشا] بقرار مجلس الوزراء. أما عبد الحميد فإنه لم يفتح الموضوع مرةً أخرى .

السلطان عبد الحميد يمد يد العون إلى أميركةبعد كارثة السيول الذي تعرضت له

أيام جميلة تنتظر تركية، وستتسارع وتيرة التطورات بعد اليوم.

فكما كان السلطان عبد الحميد يعمل في الماضي في سبيل التطور والتقدم؛ فهو ما زال يشجع على ذلك. ولا بد للجميع إلاّ أن يأملوا بذلك طيلة حكمه الزاهر.

كانت هذه الجمل المؤيدة للسلطان تأخذ مكانها في صحيفة النيويورك تايمز الصادرة في 14 تشرين الأول 1900، وهي تضع أمامنا صورة محيرة للسلطان عبد الحميد، ترى ما هو سبب المحبة الأمريكية على نقيض العداء السائد في أوروبة لهذا السلطان المعظم؟!

سنرى السبب بعد قليل، ولكن لنقرأ بعض الجمل الأخرى من نفس المقالة:

السلطان عبد الحميد باعتباره إنساناً حاذقاً صاحب قدرة عالية، وماهراً هو السياسي المعتد بنفسه القادر على اقتلاع الصخور فلا يستطيع أي سياسي كبير إلا أن يعترف بعظمته، سياسي عاقل في تدبير شؤون دولته وصاحب عقلية فذة، وذو أدب جم، لم يجالسه أحد إلا وتأثر به. أسس لعلاقات طيبة مع ألمانية وروسية وكذلك دول البلقان، ومن ناحية أخرى؛ إن النفوذ العظيم الذي كان لإنجلترة على الدولة العثمانية انحدر الآن في عهده إلى لا شيء.



صورة تظهر ما حل بمدينة جونستون بعد كارثة السيول

يمتدح الكاتب: F. Thompson Diodati التطور في مجال التعليم والتكنولوجيا والعلوم في عهد السلطان عبد الحميد، ويضيف أن دول البلقان قد تطهرت في عهده من العصابات التي كانت تنشر الرعب في البلاد. وانخفضت في شرق البلاد بشكل ملحوظ، وتطورت النساء في عهده تطوراً اجتماعياً ملحوظاً، ويتحدث على أشياء كثيرة أخرى، لكن أهمها هو التالي:

لدينا نحن الأمريكيين فرصة كبيرة في تطوير علاقتنا التجارية مع الدولة العثمانية، ولو حلت قضية التعويضات لعاشت تركيا مع الولايات المتحدة صداقة طويلة في رفاهية.

ولكم الحق في أن تسألوا:

ترى لم كل هذا المديح للسلطان عبد الحميد وتركيا في عام 1900 وفي صحيفة مرموقة جدا؟! فالدولة التي تستعد كل من إنجلترة وفرنسة وحتى الجون ترك للقضاء عليها بحجة أنها على حافة الانهيار، فكيف تتحدث نيويورك عن تطور وتقدم تركيا؟

فلنستمع إلى السبب من أوسكار ستراوس سفير الولايات المتحدة الأمريكية في إسطنبول:

كنت في سفارة إسطنبول في أثناء كارثة جونستون، ولما كانت الدولة

العثمانية تمر بأزمة مالية؛ لم أفكر في الذهاب إلى السلطان لعرض وضعنا وطلب المساعدة، ولم أجد ذلك مناسباً، وعلى الرغم من ذلك فقد تمت دعوتي إلى القصر بعد الكارثة بيوم أو يومين، وأبدى السلطان العثماني أسفه على الكارثة، وبين رغبته بمساعدة المتضررين، وسألني إن كان باستطاعتي إيصال المساعدات أم لا، ومن ثم أعطاني 200 ليرة، وقمت بدوري بإرسال هذا المبلغ إلى وزارة الخارجية. وكان السلطان عبد الحميد حسب ما أذكر هو الحاكم الوحيد الذي قدم المساعدة، وبمبلغ كبير، ومن دون أن يطلب منه أحد، ولذلك فإن الشعب الأمريكي يشعر تجاهه بمشاعر ودية.

كارثة جونستون التي تحدث عنها السفير وقعت عام 1889، وهي تعتبر (كارثة العصر في أمريكة) بسبب السيل الجارف، الذي تكون بعد هطول الأمطار الغزيرة، وانتهى بموت 2000 وترك الآلاف من الناس بلا مسكن أو مأوى. ووجه الشبه بين تلك الكارثة وآفة السيل التي داهمت إسطنبول أنها حدثت فيهما سرقات، وهذا من دواعي الخجل، لكنه في الوقت الذي اكتفى السارقون عندنا بسرقة الأشياء فقط؛ كانوا في أمريكة يمزقون جيوب الموتى ليأخذوا أموالهم وينهبوا خواتمهم وغيرها من الأشياء الثمينة.

بعد هذا السيل أرسلت 18 دولة مواد غذائية وأدوية وألبسة، ولكن الطريف في المسألة أن الدولة العثمانية كانت أول دولة قدمت المساعدات وأوصلتها، والأهم من ذلك على حد قول ستراوس أن الدولة العثمانية قدمت المساعدة قبل أن يطلب منها.

من المعلوم أن السلطان عبد الحميد كان يتابع الأخبار والتطورات في العالم الخارجي يوميا، وفور علمه بأمر السيل بواسطة الصحف، استدعى سفير أمريكة أوسكار ستراوس إلى القصر، وأعرب عن أسفه وتأثره بالحادثة، وطلب إليه أن يوصل بالإضافة إلى مساعدات الأغذية التي قدمها مساعدة مالية للمتضررين قدرها 200 ليرة عثمانية (1000 دولار، وقيمتها اليوم 40 ألف دولار).

والآن كارثة الحريق

بعد السيل بخمس سنوات تعيش أمريكا هذه المرة كارثة الحريق في غابات مينوسيتا وويسكونسين، ويمد السلطان عبد الحميد يده إلى جيبه ثانية، ويرسل مساعدات مادية تبلغ 300 ليرة عثمانية (1500 دولار، وقيمته الحالية تعادل على الأقل 60 ألف دولار)، وبدأت الصحف تمدح السلطان التركي على هذه المبادرة الودية. ((Chicago Daily Tribu ne , 12 Eylül

. 1894

ونستطيع هنا أن نفهم مقدار تأثير تلك المساعدات، فبعد الزلزال الذي تعرضت له إسطنبول شعر الأمريكيون بدءاً من السفير والشعب وانتهاء بالجرائد بوجوب رد المساعدة إلى الدولة العثمانية، وبدأوا بتنظيم حملات جمع الأموال لمد يد العون، على الرغم من أن الأمريكيين أنفسهم لم يبدوا أي اهتمام بالزلزال الذي ضرب اليونان قبل إسطنبول بمدة قصيرة عام 1894 ولم تستطع الحملات جمع قرش واحد. علاوة على أن العلاقات الأمريكية - التركية كانت تشهد توترا حادا بسبب فعاليات التبشير ومحاولاتها افتتاح مدارس أمريكية وقنصلية في هربوت Harput وأرضروم. وكانت مشكلة التعويضات التي سبق ذكرها تشكل مشكلة جدية إلى حد كبير.

ولكن السبب في هذه الأجواء الودية الإيجابية المنعكسة على صفحات نيويورك تايمز هو سياسة المساعدة اللطيفة التي قدمت في الوقت والمكان المناسب، ولعبت دوراً كبيراً، وقد قام السفير الأمريكي السابق Alexander Terrell في عام 1900 يطمئن زملاءه الدبلوماسيين الموجودين في واشنطن، الذين تمسكوا بقضية التعويضات. وقال ممتدحاً السلطان العثماني:

"أنا أراه رجلاً صادقاً. أنا أعرفه جيداً وأعتقد أنه حين كان عبد الحميد في أوروبة كان أكثر إنسان مثقف قابلته " . (26 نيسان 1900).

ملاحظة: استفدت ما ورد في هذا المقطع (ما عدا المقتطفات من جريدة نيويورك تايمز) من العنوان البريدي التالي:

http: // query.nytimes.com ، وقد استعمل ذلك في كتاب فاطمة Ürekli بعنوان " المساعدات الأمريكية - العثمانية". (المكتبة الشرقية 2007).

أول مبشر للإسلام في أمريكا

ما بين سياسة عبد الحميد الثاني الحذرة والمتأنية والواقعية وبين حماس الدين الجديد الذي اعتنقه "ويب" ومهمته العظيمة التي يهدف إليها، وبعبارة أخرى ما بين النظرة السياسية للدولة العثمانية والنظرة الدينية لويب؛ فرق كبير.

إلهان أكينجي

لا يمكنكم أن تتخيلوا إلى أين سيصل بكم الأمر عندما تبدأون بتقليب صفحات التاريخ، فلكل موضوع تفرعاته الهائلة، وتألفون وجوهاً كنتم تعتبرونها غريبة عنكم، وتكتشفون قارات وزوايا في هذا الكون كنتم تجهلونها.

وهذا ما حدث لي هذه المرة، لقد ذكرت لكم في المجلد الأول من هذا الكتاب كيف أن السلطان عبد الحميد الثاني قد جهز مفاجأة مذهلة للمشاهدين الأمريكيين المتحمسين لمشاهدة مشهد عثماني شرقي في المعرض العالمي في شيكاغو عام 1893. لم تتوقف تلك الحادثة هناك بل كبرت، وتفرعت، وأحاطت بواحد من الأصول الإسلامية الموجودة في أمريكا كفروع اللبلاب، ونحن هنا في هذا القسم إذ نقوم بتسليط الضوء ثانية على العلاقات بين عبد الحميد وأمريكا.. يجب أن نكشف اللثام عن واحدة من الشخصيات التي بقيت في ظلام ذلك الوقت من التاريخ..

في عام 1893 لم تكن المعروضات في المعرض الدولي في شكاغو [144] تقتصر على التي تعرضها الدول المشاركة للتعريف بنفسها، بل كانت تشمل الأنشطة الثقافية والفنية المتعددة، حتى قال بعضهم: إن شيكاغو قد تحولت في ذلك الوقت إلى " مركز الكائنات" بما تعرضه من أنشطة جديدة كل يوم. وها هي إحدى الفعاليات التي شاركت في المعرض ستصبح مألوفة عندنا في تركيا اعتبارا من أواسط 1990 أي بعد قرن تقريباً، ألا وهو " الحوار بين الأديان" [145] .

فمؤتمر الأديان الأول في العالم الذي عقد في تاريخ 10-27 أيلول عام 1893 في نفس المدينة يعتبر من أهم الأحداث التاريخية والثقافية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت برقية المستشرق الألماني الشهير "ماكس مولر" بين البرقيات التي أرسلت للمؤتمر والتي يعتبره فيها: " واحداً من أهم الأحداث في التاريخ الإنساني" [146] . وكان من اللافت المثير أن الأمريكي "ألكسندر روسال ويب" بعد إضافة اسم محمد على بداية اسمه

هو الذي يمثل الإسلام في المؤتمر.

قصة إسلام

وكأني بكم تسألون: ومن هو هذا الشخص المحترم؟ وبأي حق مثل الإسلام في أمريكا؟ وأنا شخصيا لم أعلم بأمره إلا بعد قراءتي مقالة عمر فاروق عبد الله التي ترجمها صديقي العزيز إبراهيم أوزدمير، عندها علمت أن لمحمد ألكسندر روسال ويب مساهمات كبيرة في انتشار الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية وبين السكان البيض على وجه الخصوص.

ألكسندر روسال ويب المولود في عام 1846 في عائلة تنتسب لمذهب presbiteryen [ال كنيسة المشيخية]، عمل كوالده سنواتٍ طوال في الصحافة (35 عاماً)، بدأها محرراً في صحيفة *St. Joseph Gazette* ، وصحيفة *Missouri Republican* ، وامتلك صحيفة *Hudson Daily Star* ، وتولى تحريرها، وبعد عمله في صحف أخرى أيضاً نراه هذه المرة يعمل في السياسة على الساحة الدبلوماسية.

كان جمهورياً في البداية، ثم غير انتماءه لينتسب إلى الحزب الديمقراطي، ولعب تأييده لمرشح الرئاسة غريفور كليفلاند Clevland دوراً هاماً، فقد كان كليفلاند الذي وعد بإصلاحات أخلاقية في الانتخابات والسياسة يهدف إلى تغيير روحي ومعنوي في أمريكا، وكان ويب أيضاً يهدف لنفس التغيير في المجتمع، وكلاهما كانا مناهضين للإمبريالية، على عكس الرئيس السابق جورج بوش كانت جهود كلاً من كليفلاند وويب منصبَّة على بناء علاقات أمريكا مع الأمم الأخرى على أساس مبدأ (الضمير).

لم يكن ألكسندر روسال ويب يدرك حين عينه الرئيس المنتخب كليفلاند قنصلاً عاماً في الفلبين؛ يعلم ما يخبّئ له القدر. لملم ويب أغراضه، وتوجه نحو الفلبين، كانت الشكوك تتعاوره في المسيحية، وبدأ ينشد مبتغاه في التيارات الباطنية، والأديان الشرقية البوذية والروحية.. وغيرها. وأمِل في أن وظيفته الجديدة في مانيلا ستسرّع أبحاثه في الشرق. فتعالوا وانظروا كيف أن الإسلام كان يلاحقه كظله وخياله في هذه البلاد وليس في أمريكا.

تعرف هناك على رجال أعمال هنود مسلمين، كما تعرف على مسلم من جدَّة اسمه الحاج عبد الله. ومن خلال هؤلاء المسلمين والحاج عبد الله على وجه الخصوص وصلت إلى يده كتب ووثائق لم يشهد لها مثيلاً في حياته، فأصيب بالحيرة في أول الأمر، ومن ثم أصيب بالذهول حين قرأ كتاب " روح الإسلام" (The Spirit of Islam) لسيد أمير علي (1849-1928). (الكتاب هو أول كتاب باللغات الأوروبية يدافع عن سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم). أثارت قراءة الكتاب لديه فضولاً كبيراً للتعرف على الإسلام وللتعرف على حياة نبـي العرب. ومن ثم نذر نفسه لدراسة الإسلام تاركاً أعماله في القنصلية جانباً، ثم نراه لاحقاً وفي السنة نفسها يصدر كتيباً يعلن فيه إسلامه [147] . وهكذا أصبح القنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية في الفلبين مسلماً أمريكياً أبيضاً، وليس معروفاً على وجه التأكيد إن كان أول مسلم أمريكي أم لا. ولكن المؤكد أن ألكسندر روسال ويب هو " أول مبشر مسلم" يعمل بكل جهده لنشر الإسلام في أمريكا، لأن هذه الروح الوهّاجة لم يعد يمكن لشيء أن يقيدها بعد ما نالت شرف الإسلام. وكان أن استقال ويب من منصبه المعتبر، وعاد إلى أمريكا في 1892، وشمر عن ساعديه وبدأ العمل، نعم إنه العمل على نشر الإسلام، ويصبح اسمه بعد الآن محمداً.

ها هي السنة التي افتتح فيها معرض شيكاغو، وها هو يقف ليبين مهمته الجديدة قائلاً:

" لقد اهترأت الكنيسة، وهناك الكثير من الأشخاص الأذكياء ومن التقدميين في المدن الأمريكية في حالة بحث عن الحقيقة بسبب وضع الكنيسة الحالي، والإسلام هو الدين الوحيد الذي سيكون دواء لهذا الداء. إذاً هيا معاً إلى العمل..

مركز ثقافي إسلامي في برودواي Broadway

بدأ ألكسندر روسال ويب بالعمل في المكتب الذي افتتحه في جادة برودواي الرقم 1122 أول عمل له بإصدار صحيفة لإيمانه بأنه بهذه الطريقة سيسمع صوت الإسلام. وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من إصدار سوى 7 أو 8 أعداد من الصحيفة الشهرية "العالم الإسلامي" (The World Moslem) في عام 1893؛ فقد كانت مصدر الإلهام للمجلة التي ما زالت تصدر إلى الآن باسم " World Moslem ". وتُعتبر هذه المجلة أول مجلة تدعو إلى الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية. ثم يقوم ألكسندر روسال ويب هذه المرة بإصدار صحيفة صوت الإسلام في العام 1894. كما تذكر المصادر أنه طبع أعداداً كثيرة من الكتب والكتيبات ووزعها. وإن نظرنا إلى الأرشيف العثماني؛ فسنرى أن السلطان عبد الحميد الثاني كانت له اليد الطولى في أعمال ويب في الدعوة، وهكذا نجده يقدم طلباً إلى السلطان باسمه الجديد ويب أفندي، يبين فيه أن كل جهوده مسخَّرة لنشر الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه لا يملك الإمكانيات المادية التي تمكنه من الاستمرار، ويطلب يد المعونة العثمانية. واضطر ويب

إلى وقف أعماله في الدعوة بسبب نقص الإمكانات المادية، وقام بزيارة سفير الدولة العثمانية في واشنطن Mavroyeni بك، وأخبره بالضغوط التي يعاني منها، وما إن يعلم عبد الحميد بالأمر حتى يصدر " إرادة سنية" أي مرسوماً سلطانياً بتاريخ 15 كانون الثاني 1894؛ يأمر فيه أن يدفع لويب أفندي مبلغا شهريا قدره 25 ألف قرش من " مخصصات البقشيش". كما توجد وثيقة أخرى تبين أن استمرار صحيفة صوت الإسلام The Voice of Islam بالصدور تم بفضل المساعدات المالية من الباب العالي [148] . لقد اهتمت الدولة العثمانية بويب ووجدته أهلا للمساعدة، لكن السلطان يريد أن يكون مطمئنا، ويضيف إلى مرسومه شرط الاستمرار على الطريق الصحيح، ويقطع المال عنه إن صدرت منه أعمال ومنشورات ضارة [149] .

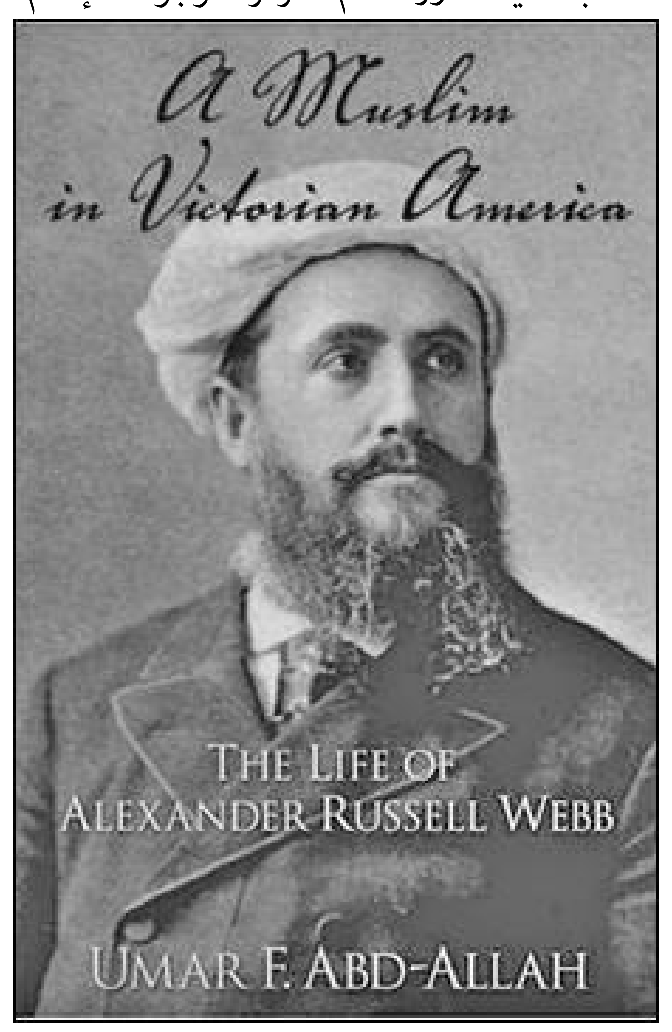
حصل ويب في النهاية على المساعدة المادية من إسطنبول، لكن هذا المال لم يكن كافيا للأعمال التي يريد القيام بها، فتوقفت صحيفة صوت الإسلام عن الصدور في العام 1896 !

استقر في روذرفورد في نيوجرسي فترة من الزمن وعاد فيها إلى مهنة الصحافة، وعاد إلى النشاط السياسي، وكان مرشحا ليكون عضواً في مجلس الشيوخ، لكنه قرر في آخر لحظة أن ينسحب لصالح مرشح آخر. وفيما كانت آماله آيلة إلى الانهيار إذ وصله خبر سار.. إنه السلطان عبد الحميد الذي لم ينسه؛ يدعوه لزيارة إسطنبول بشكل خاص. في عام 1901 كان ويب يشق طريقه إلى إسطنبول، ومثل أمام السلطان، وقام السلطان بتعيينه قنصلاً عاماً فخرياً للدولة في نيويورك (Honoray Ottoman Consul General to New York)، وقبله السلطان مواطناً "عثمانياً" ومنحه لقب "بك " " Sir " . ودخل ويب التاريخ بوصفه أول أمريكي يحوز على هذا اللقب [150] .

ردٌّ من ويب على مزاعم التطهير العرقي الأرمني

وعاد محمد ويب أفندي إلى بلده بمعنويات عالية، وعقد العديد من المؤتمرات في الولايات المتحدة الأمريكية، وكتب كتابات إلى الصحف والمجلات، وافتتح المكتبات وصالات القراءة، وكون مجموعات عمل، وعمل بجهد غير عادي لنشر الإسلام، وأسس مركزاً باسم "الأخوة الإسلامية الأمريكية " يهدف إلى دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأهدافه وتعاليمه، وكلما وجد أن التفاسير الموجودة غير كافية خطط لترجمة القرآن الكريم إلى الإنجليزية بنحو أدق. وافتتح رسمياً أول مسجد في أكثر الشوارع شهرة، وهو شارع برودواي المشهور في الأفلام الأمريكية.

ولكنه لسوء الحظ أغلق هذا المسجد قبل وفاته بسنة في عام 1915 بسبب قلة الموارد المادية. (فمن الراجح أن الاتحاديين الذين اشتركوا في تلك الأثناء بالحرب العالمية الأولى قطعوا تلك المساعدات)، ولو أنه بقي قائماً إلى يومنا هذا؛ لكان له بالتأكيد دور هام كرمز لوجود الإسلام في أمريكا.



في كتاب عمر فاروق عبد الله " America Victorian in Muslim " معلومات مفصلة حول ويب Webb أفندي

في معرض شيكاغو كان هناك شخص مميز بين الحضور في الصالات التي امتلأت تماما يستمع إلى أخينا محمد ويب الذي عقد مؤتمرين متعاقبين في غاية الأهمية حول الإسلام، إنه مارك توين أحد عمالقة الأدب الأمريكي. وأكتفي بالذكر هنا أن الشخص الذي ورد ذكره في روايته الشهيرة توم سوير عند حديثه عن المسلمين هو ألكسندر رسل ويب. وأترك الحديث عن باقي شخصيات الرواية المسلمين لمؤرخي الأدب.

وفي الختام علينا أن نبين أن ويب أفندي قام بالرد على مزاعم التطهير العرقي للأرمن، وكذلك رد على حملات الإساءة إلى عبد الحميد وتلقيبه (السلطان الأحمر)، أي أنه قام بجهود لكسب التأييد لصالحنا، وعمل

جاهدا على إنشاء مسجد ومقبرة إسلامية في أمريكا، وطلب المساعدة من عبد الحميد في سبيل لك، لكنه مع الأسف وعلى الرغم من حصوله على الدعم المادي لبناء المسجد، وبسبب العقبات الرسمية التي لم يتمكن من تخطيها لم يتمكن من إتمام المشروع، كما لم يتمكن عبد الحميد عام 1895 من بناء مسجد كبير في باريس بسبب عقبات مماثلة [151] .

لقد قام ويب بالرد على مزاعم التطهير العرقي للأرمن من وجهة نظر إسلامية تجدونها في أمثال الكتيبات التالية:

= "المشاكل الأرمنية والمسؤولية على من تقع؟ "

Lies ponsibility Res the Where and Troubles Armenian The

= بعض الحقائق عن تركيا تحت حكم عبد الحميد الثاني

Abdul of Rule the Under Turkey About Facts Few A II Hamid

كما قام بكل جرأة يدافع عن الألوية الحميدية التي كانت مستهدفة من قبل الأرمن، وقال: إنها عبارة عن إجراء اتخذته الدولة العثمانية لحماية نفسها [152] .

إنها ردود جريئة على هذه الافتراءات في تلك السنوات يمكن أن تقيَّم على أنها "فضيلة ويب " .

THE MOSLEM WORLD,

. . . AND . . .

VOICE OF ISLAM.

ULSTER PARK.

ULSTER COUNTY,
NEW YORK,
UNITED STATES OF AMERICA.

July 22/96.

Your Excellency:

I have the honor to forward to Your Excellency the enclosed letter written by Rev. Adams, a prominent and influential citizen of Salem, Oregon, U.S.A. and the writer of the communication published in our American journal which I forwarded to Your Excellency recently. My purpose is to acquaint Your Excellency with the sentiment of justice and fairness toward Turkey which is rapidly spreading among prominent Americans as one of the results of my efforts in the circulation of Islamic literature here.

I have quite a number of similar letters which I have intended to publish in our journal, the Moslem World, but owing to the irregular receipt of money, I have been unable to issue the paper on time and it has, therefore, been excluded from the second-class privilege of the American Postal Service. It seems expedient not to attempt to resume the publication until I can do so with a reasonable certainty of issuing it regularly and, hence, I am directing my efforts in the channels of personal work and the circulation of pamphlets, trusting that this course will meet with Your Excellency's approval. I beg to remain

Your Excellency's most obedient servant
Mhd. Alexander Russell Webb

To His Excellency
Tewfik Pasha
Minister of Foreign Affairs
Constantinople Turkey.

النص الإنجليزي الأصلي للرسالة التي كتبها ويب لعبد الحميد

"شيخ إسلام إنجلترة " من قبل عبد الحميد

من المناسب ونحن نتحدث عن ويب أن نتحدث باختصار عن من أطلق عليه عبد الحميد لقب شيخ الإسلام في إنجلترة، وهو وليام هنري كويليام Qwilliam.

وليام إنجليزي من ليفربول درس الحقوق، واتجه في عام 1887 إلى الجزائر والمغرب لقضاء العطلة، وهناك تعرف إلى المسلمين، وتغيرت نظرته

إلى العالم فجأة. وفي عمر 31 عاماً اعتنق الإسلام، واتخذ اسمه الجديد "شيخ عبد الله " ، وتعلم اللغة العربية " ليتعرف إلى الإسلام بشكل أفضل، واعتنقت أمه البالغة 63 عاماً الإسلام، وافتتح مسجداً ومعهداً متجاورين في ليفربول ويعتبر المسجد أول مسجد أنشئ في إنجلترة. وأصدر صحيفة أسبوعية اسمها "هلال " *The Crescent* (1893-1908) وافتتح دورات تعليمية مخصصة للمسلمين وغير المسلمين ضمن فعاليات المعهد، ونظم برامج مناظرات أسبوعية [153] .

قام بزيارة إسطنبول في عام 1894 عندما علم من أحد أصدقائه أن بمقدوره الحصول على مساعدة من السلطان العثماني لنشر الإسلام في إنجلترة، وتم استقبال السلطان له [154] .

تم استقبال كويليام كما يستقبل رجل من رجالات الدولة، وتجول في إسطنبول أسبوعا، وقام بجولة في البوسفور بالقارب السلطاني، وقبل المغادرة وجه السلطان إليه إرادة أي مرسوماً يقضي فيها بتعيينه شيخ الإسلام في إنجلترة، وقلده الميداليات والشارات. وأصبح كويليم الشيخ عبد الله، وبقي وفيا لهذه المهمة المشرفة ولم ينـزع الطربوش الذي اعتمره لأول مرة في إسطنبول حتى وفاته، وتجول في إنجلترة بملابس الموظفين العثمانيين. وأود هنا أن أضيف عن التوسط لدى عبد الحميد لبناء مسجد في نيجيرية، وتم له ذلك فبنى هذا المسجد في لوغوس [155] .

أما عن مصيره، فقد اختفى فجأة عن الأنظار، وما زال سر اختفائه مجهولا حتى يومنا هذا. وتتردد الأقاويل عن ذهابه إلى تركيا مع عدد من المسلمين الإنجليز، وأن أحد أولاده انخرط مع الجيش العثماني. من يدري؟! ربما كان أحفاده يعيشون بيننا.

فما النتيجة إذاً؟

كان وليام هنري قد خلَّف وراءه بعد وفاته في عام 1932 أكثر من 600 مسلم إنجليزي كان سبباً في اعتناقهم الإسلام، وفي أيامنا هذه يقوم المسلمون الإنجليز بإحياء ليلة لذكرى عبد الله كويليام الذي يدينون له في إسلامهم، ويتم توزيع طربوش عثماني للرجال المشاركين في ليلة إحياء ذكراه . **[156]**

يجب ألا يدهشنا بعد الآن أن السلطان عبد الحميد الذي قضى حياته وهو يخطط لإحباط ألاعيب الإنجليز قد انتبه لهذا المسلم الإنجليزي الذي وقف ضد الإمبريالية الإنجليزية ودافع عن الدولة العثمانية، ودعمه. بل الأمر المذهل فعلاً هو أن يذهب شخص ربما من العلماء اسمه ميرزا

عبد الرحيم أفندي إلى نيويورك وفي عهد عبد الحميد أيضاً، ويتعرف إلى محمد ويب أفندي، ويستمع إليه بالذات لمعرفة قصة إسلامه، ثم نشر هذه المقابلات بالتفصيل في الكتيبات التي طبعت في عهد عبد الحميد أيضا تحت اسم الإسلام في أمريكا [157] .

لقد خرج هذان الداعيان من دعاة المسلمين - النيويوركي والليفربولي - في سفر نحو مركز التاريخ حين تقاطعت طرقهما كغيرهما عند السلطان عبد الحميد، وبذلك نرى يد عبد الحميد طويلة إلى هذا الحد [158] ...

ولهذا السبب أقول: إن "رقص عبد الحميد مع الذئاب" سيكون بمثابة الدواء لمجتمع جفت فيه عروق الدهشة والعجب.

"إمام" عبد الحميد يدفن "خال برتراند رسل"

لا أملك أن أمنع نفسي عن مشاركتكم بهذا الموضوع ولو كان ذلك استطرادا مني .

ينحدر الفيلسوف الشهير برتراند رسل من عائلة عريقة، وهو لورد، وأحد أخواله اعتنق الإسلام عام 1860 ، وأعلن إسلامه لمن حوله، وغير هذا الإنجليزي العريق نمط حياته ليعيش حياة المسلمين، يصلي الصلوات الخمس، ولا يفوت على نفسه صلاة التهجد، يكتفي بالقليل من الطعام، ويعيش في غرفة متواضعة من غرف القصر الذي ورثه عن أجداده حياة الزاهدين .

كتب خال برتراند رسل هذا وهو اللورد ستانلي Lord Stanley of Alderley في وصيته أن يدفن كمسلم، وطلب أن يصلي عليه إمام السفارة العثمانية في لندن .

عبد الحق حميد (تارخان) الملقب بالشاعر الأعظم وكان يعمل مستشاراً في السفارة في لندن تلقى مضمون الوصية. وهكذا طلب الإجازة له في إجراء مراسم دفن خال الفيلسوف الملحد من السفارة العثمانية في عهد عبد الحميد. ودعا عبد الحميد عبد الحق حميد بك إلى قصره في عام 1886 ، ليتعرف إليه **[159]** .

تحدث "الشاعر الأعظم" عن خال برتراند رسل بهذه الأسطر المثيرة في رسالة أرسلها إلى صديقه أحمد إحسان Tokg ö z بتاريخ 8 كانون الأول عام 1904 :

لقد اعتنق الإسلام اللورد ستانلي المولود في عائلة إنجليزية مسيحية متعصبة في وقت لم نكن قد ولدنا فيه بعد، وتحول إلى مدافع عن ديننا المبين والحقوق والقوانين والأحكام الإسلامية في دولة نصرانية .

هناك فرق كبير بين من يولد مسلما وبين من يتشرف بالإسلام بعد

أن يعرف قيمة الإسلام ويدرك أخلاقه العالية، وخاصة إنه حاز هذا الشرف في دولة مسيحية، وبذلك نعلم كم هو عظيم إسلام اللورد ستانلي .

قبره الذي يرقد في مكان بعيد كل البعد عن قبر أجداده وأفراد عائلته في منطقة شجرية صغيرة هو ذكرى ذات معنى لحياته الهادئة. والمرحوم الذي أوصى أن يدفن على هذه الطريقة في بيئة مسيحية كان مسلماً غريباً وحيداً في بلده، وضيفاً في بيته، وكان قدوة الرجال والنساء في الزهد رغم غناه، كثيرة هي العوائل التي تعيش من فضله، لكنه يعيش حياة الفقراء .

كان الرهبان يحترمون هذا المسلم العظيم بسبب وفرة هداياه على الأغلب، فهؤلاء الذين كانوا يتخمون على موائده الغنية لم يحضر جنازته منهم أحد. يقال: إن ذلك كان بموجب وصيته. وهناك من يقول: إنه بسبب إسلامه، ويبدو أن كلا القولين صحيح .

هذا الإنسان الرشيد الذي يملك مساحات شاسعة من الغابات والمراعي والعديد من المزارع والقرى والمنازل القديمة والكبيرة في أماكن مختلفة، ورجل العلم والمعرفة هذا، وبوضوح أكثر ذلك المسلم العظيم، أمضى أيامه في غرفة في الطابق العلوي، ليس فيها سوى سجادة صلاة .

وقبره الآن كما كانت غرفته ربما كانت عبارة عن سجادة صلاة معنوية، ولأن المرحوم كان يطبق أوامر الإسلام في الطعام والشراب الحرام؛ فقد عاش وهو يراقب طعامه وشرابه ويمتنع عن الأكل والشرب الحرام، ونحن لا نملك الآن أي صورة له لأنه بعد اعتناقه للإسلام لم يسمح بتصويره أبداً .

أخوكم عبد الحق حميد [160]

صراع عبد الحميد حول البورون

نرجو من السلطان المعظم بموجب إحساس العدالة الموجود في ذاته العالية أن يتعطف ويتنعم علينا بأن يأمر ويصدر فرمانا بمنح الامتياز المطلوب.

ألفرد سانديسون [161]

في يومنا هذا أبحاث كثيرة عن معدن البورون، ويتردد على ألسنة العلماء المتخصصين في الإعلام أن مستقبل تركية، بل مستقبل العالم مرتبط بالطاقة التي ستستخرج من معدن البورون، فلهذا المعدن استعمالات في انتاج الكثير من المنتجات التقنية الحديثة، من صناعة هياكل الطائرات حتى وقود الصواريخ.

لا أعلم إن كنتم تذكرون الرواية الأمريكية الخيالية التي لقيت رواجاً كبيراً في أمريكا عام 2007 تتحدث على دخول الولايات المتحدة الأمريكية حروبا مع تركيا بسبب امتلاكها المخزون الاحتياطي العالمي الأكبر لمعدن البورون.

ولست أدري لماذا يسكت الإعلام عن تلك الجهود الجبارة التي قام بها عبد الحميد الثاني ليمنع الأجانب من الاستيلاء على مناجم ذلك المعدن الثمين؟!

سأعرض هنا بعض المقتطفات التي تبين جهود عبد الحميد التي استمرت قرابة عشر سنوات في سبيل الحفاظ على البورون استنادا إلى الوثائق الموجودة في الأرشيف، وسأكتفي هنا بأن أذكر أن هناك الكثير الكثير من المعلومات في أرشيف الدولة العثمانية تنتظر من يخرجها إلى النور، ويجمعها في كتاب.

لقد اكتشف معدن البورون في تركيا في وقت مبكر جدا، وأول إذن للتنقيب عنه كان في عام 1865، أي في عهد السلطان عبد العزيز الذي منحه لرجل أعمال فرنسي اسمه (دو مازور) مدة عشرين سنة.

وها هي أكثر المناطق غنى بمناجم البورون في العالم في منطقة سلطان جايري Çayırı من مدينة سوسورلوك في ولاية بالكسير؛ تثير شهية هانسون الإنجليزي وجيوفا الإيطالي، ويعملان جهدهما لنيل امتياز منجم آخر بجوار ذلك المنجم. لكن الفرنسي دو مازور الذي أخذ الامتياز الأول رفض أن يتنازل عنه، ويتابع الموضوع ويعترض، وفي عام 1880 يحرك السفارة الفرنسية في إسطنبول، ويحتج على هذه المنافسة أمام الباب العالي، وثم

تنفجر نـزاعات أخرى، حتى يصل الأمر إلى وزارة الزراعة والتجارة. وكان من الطبيعي أن كل أمر يصل إلى الباب العالي في ذلك العهد؛ لا بد أن يصل إلى السلطان عبد الحميد، فيكون على علم تام به. ومع ازدياد التنافس على التنقيب عن هذا المعدن يبدأ بفرض رسوم بمقدار 5%، ومع مرور الوقت ترتفع هذه النسبة لتصل إلى أربعة أضعاف أي إلى 20%، يريد بذلك تعقيد أعمال الشركات الأجنبية رغبة منه في أن يتنازلوا من عن امتيازاتهم من تلقاء أنفسهم.

الصراع في سبيل البورون

بالعودة إلى الوثائق نجد أنه في عام 1884 ومع ازدياد التنافس بين الشركات لنيل امتياز التنقيب عن البورون يتحول هذا التنافس إلى تسابق على افتراس الغنيمة لا غير.

فصدرَ إعلان أوقف كل أعمال التنقيب في المناجم، لكن ذلك لم يكن كافيا لتهدئة الأوضاع، لأنه وعلى الرغم من قرار المنع أصبح البورون يهرب إلى الخارج بشكل غير قانوني عن طريق وضعه بين الشعير والقمح.. الخ، ولا ننسى هنا أن عدم استخراج المعادن وبقاءها في مناجمها يشكل سببا آخر لضياع الموارد.

ثم إن شركة هانسون - جوفا لم تكن تنوي ترك هذا الأمر، وما زالت تقاتل من أجل نيل الامتيازات الجديدة للبورون، وتقدم في ذلك عروضاً عالية، وتحاول الاستفادة من الوضع المالي الحرج الذي مرت فيه الدولة العثمانية في العام 1887، ولهذا السبب قبلت العروض المغرية من قبل مجلس الشورى في الدولة، وتمت الموافقة عليها من قبل مجلس الوزراء، وبدا أن الأمر يتوقف على إقناع شخص واحد، أظنكم تعلمون من هو! إنه السلطان عبد الحميد الثاني فكل شيء بيده، ويبقى تمام الأمر متوقفاً على فرمان منه.

كانت الرسالة الخطية التي أرسلت إلى قصر يلدز من الصدارة أي من مجلس الوزراء مرفقاً بها خريطتان تبين أن هذا الأمر مرتبط بالإرادة السنية للسلطان وبأوامره وفرماناته، ولن يُعمل إلا بما يأمر به حضرته. كان تاريخها يدل على 9 شباط 1887.

وثيقة أخرى تفصل عن هذا التاريخ بثلاثة شهور (20 نيسان 1887) تبين أن السراي لم يصدر أي أمر بهذا الخصوص، لأن السلطان عبد الحميد يصر على عدم منح امتياز التنقيب عن البورون لتلك الشركات [162] .

يقولون: يركد الماء وعين العدو لا ترقد. وجاء دور السفير الإنجليزي

ألفريد سانديسون الذي انهال بالمديح على عبد الحميد ملتمسا منه إظهار التفهم في موضوع الامتياز. لكن السلطان لن يصدر قرارا يراه ضد المصالح العثمانية، وعبد الحميد حاكم ذكي يقظ يرى كل الألاعيب التي تدور حول مناجم البورون.

يقظة عبد الحميد

وأخيرا يصدر ذلك القرار الذي طال انتظاره من قصر يلدز في عام 1889 مانحا امتياز التنقيب عن البورون في منجم آخر من نفس المنطقة. هل تستطيعون تخمين من حاز الامتياز؟ لم يكن رجال الأعمال الإنجليز والإيطاليين بالتأكيد، فالوثيقة الأصلية التالية تبين أن عبد الحميد قد منح امتياز معدن البورون للمنتجين المحليين، والمقربين منه من رجال الأعمال والباشاوات.

كان الهدف الذي يتوخاه هنا هو بكل تأكيد أن يكون هذا المعدن الثمين بين يدَي من يستطيع التحكم بهم. فهو لا يريد لدولته أن تدخل في مشكلة جديدة من خلال إعطائها المزيد من التنازلات.

وهذه هي الوثيقة الموجودة في أرشيف مجلس الوزراء (Yıldız Perakende, Başkitabet Dosya 16/ G ö mlek 53) وبأسلوب مبسط:

أصدرت الإرادة السنية قرار منح امتياز التنقيب عن البورون في المنطقة المحتمل وجود البورون فيها، في إطار الأصول والنظام؛ لحضرة فؤاد باشا وهو واحد من معاوني السلطان ومارشالاته بناء على الطلب الذي قدمه، في أراض تبلغ مساحتها قرابة 1500 دونم في ناحية فارت، سنجق قارسي Karesi ، ولاية هداونديغار Hudavendigâr ، بجوار قريتي إيلدز وعزيزية، تحدُّها طريق إيليجا في Kapalıdere ومقبرة صولوجك شرقاً، وثنية أرناؤوط Arnavut Ağılı وصخرة جرمة Kaya Gfrme على طول الطريق الضيق إلى صولوجك شمالاً، وجسر وادي كوبلو Küplü deresi ومن هناك إلى مفترق الطريق القادم من مرج السلطان Sultançayırı حيث يفترق إلى طريقين أحدهما إلى إيلدز والآخر إلى شركة هانسون - جوفا غرباً، ومن النقطة موضوع البحث وعلى طول حدود الشركة السابق ذكرها حتى قبلي درة Kapalıdere جنوباً.

23 آب 1889

يمكنكم الآن بعد مرور 120 عاماً أن تلمسوا معدن البورون المستخدم في صنع هياكل الطائرات وقد استخرج في عهد عبد الحميد!

عبد الحميد يرفض منح امتياز البورون للأجانب [163]

Yıldız Sarây-ı Hümayunu

BaŞ kitabet dairesi

Sadârete yazılan tezker-i hususiye suretidir

Hüdavendigâr vilâyetinde Karesi sancaĞında Fart nâhiyesinde Ildiz ve Aziziye karyeleri civârında, Şarkan Ilıca yolundaki Kapalıdere içinde Sulucek mezarlıĞı ve Şimâlen Sulucek ince yolu boyunca Arnavud AĞılı ve Germe Kaya ve garben Küplü deresindeki köprüye ve oradan da Sultançayırı'ndan gelen caddede biri Ildiz'a ve diĞeri Hanson-Cuove Şirketine giden tarikdan kat eyledikleri noktaya kadar ve cenuben mezkur noktadan Şirket-i mekume hdudu boyunca Kapalıdere'ye müntehi bulunan hdud dâhilinde takdiren binbeŞyüz dönüm arâzide zuhur etmesi memul olan borasit madeni imtiyâzının usul ve nizâmı dâiresinde olarak Yâverân-ı Kirâm-ı Hzret-i Şehriyâriden ve MüŞirân-ı Izâmdan Fuâd PaŞa hazretlerine itâsı müŞâünileyhin istid'a-yı vâkii üzerinne Şerefsâdır olan irâde-i seniyye-i cenab-ı PâdiŞehi iktizâ-yı âlisinden bulunmakla ol bâbda ...

26 ذو الحجة 1306

23 أغسطس 1889

Mukabele olunmuŞtur

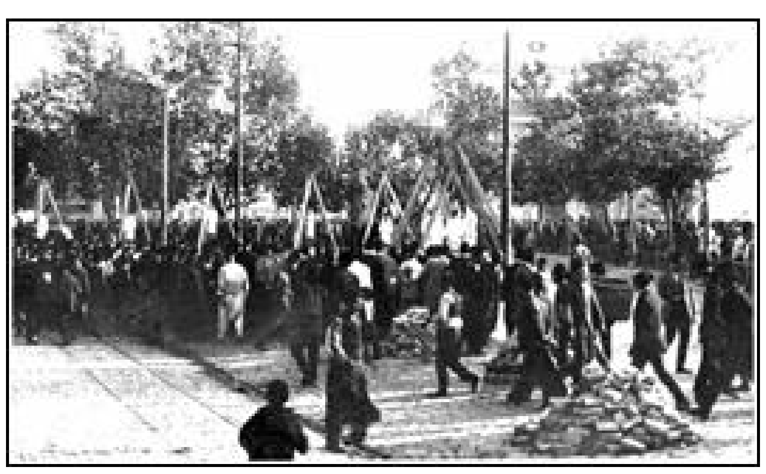
Kulları — Kulları

Muhammed suad — Mustafa



وثيقة "البور" الأصلية الموجودة في الأرشيف العثماني لمجلس رئاسة الوزراء

الباب الرابع : بحث تفصيلي للانقلاب على السلطان عبد الحميد



أعواد المشانق التي نصبت في الشوارع بعد 31 مارت وجموع المتفرجين في ذهول

عبد الحميد أول من حاكم الانقلابيين

كان نظام عبد الحميد من أكثر الأنظمة مدنية.

جميل كوجاك (جامعة صبانجي)

راديكال *9* تشرين الثاني *2009*

هل يمكن محاكمة الانقلابيين القدامى أم لا؟!... هذا النقاش ذكرني بالانقلاب الذي تم في تاريخنا قبل 128 عاماً، ومحاكمات الانقلاب الأخير التي لا تزال جارية. صحيح أنه تم استجواب المتهمين بحادثة "قللي" (kuleli) عام 1859 ومحاكمتهم قبل ذلك، لكنهم كانوا كمجموعة الأرغنكون [164] اليوم قاموا بمحاولة انقلابٍ فاشلةٍ. استمرت المحاكمات من 27 حزيران إلى 28 تموز من عام 1881 في محكمة يلدز.

والجانب المثير في الأمر؛ أن تحريك الدعوى كان بعد خمس سنوات من الانقلاب، فلماذا كان كل هذا التأخير؟!... نعم بينما كان يحاول أن يلملم الجراح التي أصابت الدولة إثْر حرب 93 من جهةٍ؛ كان يحاول أن يبعد الانقلابيين عن الحكم، ويحاول إعادة بناء المركزية الخاصة به، والامساك بخيوط القوة بهدوء من جهة أخرى، حتى أصبح قادراً على محاسبتهم أمام القانون.

علاوة على أن المحكمة لم تكن تحاكم فقط الباشاوات من الانقلابيين أمثال السرعسكر حسين عوني باشا، والصدر الأعظم مترجم رشدي باشا، ووزير الدولة مدحت باشا، بل كان يحاكم أيضاً شيخ الإسلام خير الله أفندي، حتى أنه على الرغم من أن السلطان مراد الخامس وأمه (شوق أفضى) Şekefza لم يتم استدعاؤهما للمحكمة؛ فإنهما أيضاً كانا من بين المتهمين.

ففي الانقلاب العسكري في 30 أيار 1876 تم خلع السلطان عبد العزيز من عرش السلطنة، وعين مكانه ابن أخيه مراد الخامس. وكان هذا الانقلاب في الوقت نفسه انقلاباً على مراد الثاني وعلى النظام الذي حوله إلى نوع من "المُلْكِيَّة" من خلال فريق من العسكر والعلماء، أي على التنظيمات ومبدأ مدنية النظام. وهكذا كان هذا التدمير لخمسين عاماً من التوازن بين (المدنيين والعسكر) [165] .

ففي البداية تم تغيير الصدر الأعظم من خلال تحريض نحو ألف تلميذ مدرسةٍ بالنـزول إلى الشوارع بإغرائهم بالمال (أعطي كل تلميذ مجيدية واحدة) وللمطالبة بتغييره، فأقال السلطان عبد العزيز الصدر الأعظم

محمود نديم باشا، وعين مكانه الصدر الأعظم مترجم رشدي باشا. تمت الخطوة الأولى بسلاسةٍ، ومن دون مقاومة من القصر تذكر!. فإذا كان الأمر هيناً إلى هذا الحد؛ فيمكن أن تتم الخطوة الثانية. هذه المرة يقوم رشدي باشا بتعيين حسين عوني باشا في مقام السرعسكر، ومدحت باشا وزيرا للدولة، وحسن خير الله أفندي شيخ إسلامٍ، وقائد المدارس العسكرية سليمان باشا (الذي اشتهر في التاريخ ببطل مصيدة الطوربيدات!)؛ سيكون له الدور الرئيس في عملية الانقلاب! [166] .

لم يكن السلطان عبد العزيز يدري أنه يحفر نهايته بيديه بتغييره الصدر الأعظم، ولم يكن يدري أنه سمح لموقع الصدارة أن يبدأ بنسجِ خيوط الانقلاب. وهكذا تمت محاصرة القصر بطوابير من طلاب المدرسة الحربية بحجّة حماية القصر من انقلاب وشيك، (وكانت هذه الطوابير منتقاة من الطلاب السوريين ممن لا يعرفون التركية). وأسقط في يدي السلطان عندما أحكم الأسطول الذي كان يعتني به عنايته بابنه بالقصر من جهة دولمة بهجة. لكن السلطان - كما يقول جودت باشا - لو تجرأ على الدفاع؛ لاستطاع تفريق الانقلابيين المحاصرين.

وبعد عدة أيام ظهرت أنباء الفاجعة من قصر فَرِيَة Feriye : فقد وجد السلطان عبد العزيز غارقاً بدمائه، وقد قطعت شرايينه من الرسغ، ولم يلبث أن توفي، ولا يزال الجدل يدور حتى اليوم حول موته: فهل قتل أم انتحر؟؟!

لكن مراد الخامس الذي ارتقى العرش بآمال كبيرة سرعان ما أصابته جِنَّةٌ بتأثير الفاجعة بعد ثلاثة أشهر فقط من ارتقائه العرش. كان يضحك باستمرار، ويأتي بحركات غريبة، وعندما تبين أنه لن يستطيع الاستمرار في السلطنة بهذه الحال؛ تم إنـزاله عن العرش من قبل الانقلابيين أنفسهم وبناء على تقرير من الطبيب بعد 93 يوماً، وتم إعلان الشاهزادة عبد الحميد سلطاناً، ولما تتبين ملامحه الشخصية بعد. وهكذا ارتقى عبد الحميد الثاني العرش على أن يعلن المشروطية، ويضع ختمه على القانون الأساسي، شريطة أن يحتفظ لنفسه صلاحية نفي المدراء ممن لا يريدهم. (ünlü madde .134).

هذا هو عبد الحميد الذي يستعمل هذه الصلاحية التي احتفظ بها لنفسه، وسيبعد الانقلابيين سريعاً من مركز الحكم ليتفرغ إلى محاسبتهم، كما سنتناول ذلك بالتفصيل في الفصل القادم.

ففي البداية أبعد سليمان باشا ونفاه إلى بغداد (توفي هناك عام

1892). وكان حسين عوني باشا قد نال جزاءه قبل ذلك من حسن جركس، وفقد رشدي باشا منصبه في الصدارة وعزل خير الله أفندي عن المشيخة. وبعدما تنقل مدحت باشا عامين في أوروبة؛ تم تعينه والياً في سورية ثم في آيدن من دون إثارة مخاوفه، وعندما علم ذات يوم بأمر إلقاء القبض عليه لجأ إلى السفارة الفرنسية. (في الواقع كان يفضّل اللجوء إلى السفارة الإنجليزية لكنها كانت بعيدة)، وبعد مفاوضات عسيرة وتقديم ضمانات تم تسليمه ونقله بالسفينة إلى إسطنبول [167] .

وهكذا ظهرت المحاكمات التي دخلت التاريخ باسم " محكمة يلدز " . وكان رافع الدعوى عبد الحميد باعتباره " ولياً " للمقتول عبد العزيز. كان يبدو في الظاهر أنها دعوى جنائية، لكنها كانت في الحقيقة محاكمة لانقلاب دموي [168] .

في البداية تم استجواب المتهمين [169] ، ثم اعتقالهم، وبذلك بدأت المحكمة. كانت المحاكمات تجري في غاية الشفافية في خيمة كبيرة مفتوحة للناس قرب مخفر مالطة في قصر يلدز، وكان الرئيس الثاني للمحكمة من الروم Forides Hirista ، ووجود الأرمني Takavor أفندي بين أعضاء المحكمة يعكس رسالة للعالم الخارجي بعدالة المحكمة، فقد كانت إنجلترة تتابع بدقة سير المحكمة لوجود أدلة قوية على اشتراكها في انقلاب عام 1876.

وفي النهاية صدر قرار الإعدام بحق عشرة أشخاص منهم مدحت باشا. غير أن عبد الحميد لم يكتف بقرار المحكمة وتصرف بحذر، وشكل هيئة استشارية عليا مؤلفة من 25 شخصاً في القصر لاستشارتهم في الأمر. فأيَّد 15 شخصاً من الهيئة الاستشارية قرار الإعدام، بينهم: الغزي عثمان باشا بطل plevne [170] ومؤلف المجلة جودت باشا، في حين مال العشرة الآخرون إلى تخفيف حكم الإعدام [171] .

لكن عبد الحميد كما فعل دائماً وسيفعل؛ حول حكم الإعدام إلى النفي إلى الطائف. فالمهم في نظر عبد الحميد؛ هو أن يدرك الناس إمكانية محاكمة الانقلابيين، وأن يعتبر بها الناس.

فهل اعتبروا؟!

نعم حتى عام 1909، وماذا بعدها؟!... إنها قصة مئة عام من دون عبد الحميد!...

عبد الحميد ودعاة المشروطية

إنه دستور، ثم ماذا؟ ما أعلمه أن الدستور البولوني لم ينقذ بلدكم البابوي من التمزيق **[172]** .

السلطان عبد الحميد

لقد تم إعلان المشروطية في الدولة العثمانية مرتين؛ الأولى في عام 1876، والثانية في عام 1908. ومن الأفضل الحديث عن مشروطية واحدة تبدو كأنها مشروطيتان من حيث الإعلان؛ إحداهما متمّمةٌ للأخرى. والغريب في الأمر أن إعلانهما كان من نصيب السلطان عبد الحميد الثاني وهو الذي أَطْلَقَ عليهِ أعداؤُه " عدو المشروطية " .

عندما أَعْلَنَ الدستور المعروف باسم " قانون 93 الأساسي " مع المشروطية؛ تم الحديث عنها على أنها كفرمانات الإصلاحات أو التنظيمات من أجل تطمين الدول العظمى، والإسراع بوضعها موضع التطبيق كان على الأقل من أجل إظهار نيتنا الحسنة للمندوبين المجتمعين في مؤتمر ترسانة في إسطنبول [173] .

وعلى الرغم من أننا كنا " نحن " من وضعنا الدستور كما يبدو؛ لكنه في الواقع كان هناك مستشارون أجانب، وكان محتواه مُسْتَلْهَماً من دساتير بلجيكة وروسية والبلدان الأخرى. وفي النهاية ستنتهي صياغة " القانون الأساسي " في 1 كانون الأول 1876، وسيتم إعلانه في 7 ذي الحجة عام 1293 للهجرة، ويصادف 23 كانون الأول 1876 ميلادي.

يغضب الكثيرون من تعليق عبد الحميد للقانون الأساسي أي للدستور، وتعطيله المجلس. بيد أنه سنقر مضطرين بأن النواب أعضاء مجلس المبعوثان كان عملهم لا يتجاوز رياضة الجمباز الذهني؛ عندما نرى الصلاحيات التي تفوق الخيال، والتي منحها الدستور للسلطان، ونرى أن مجلس المبعوثان لم يَعْدُ كونَهُ يحمل هوية مجلسٍ استشاريٍّ. حتى أن الجدل يدور حول ما إذا كان دستوراً أم لا!

فعلى النائب أن يأخذ الإذن من السلطان لتقديم مسودة قانون!، وهكذا فالمادة 53 من القانون الأساسي يقول:

طلب تنظيم قانون جديد أو تعديل قانون موجود، مع كونه يعود إلى هيئة الوكلاء [مجلس الوزراء] ويعود أيضاً إلى هيئة الأعيان، وهيئة المبعوثان [النواب] في إطار المواد التي تبين صلاحياتهم؛ فإنه يستأذن فيه السلطان عن طريق الصدارة العظمى [رئاسة الوزراء] ، وبالإرادة السنية

يتم تحويل الطلب إلى الدوائر المختصة لطلب الإيضاحات والتفاصيل في تنظيم لائحة القانون، وتحويلها إلى شورى الدولة **[174]** .

وفي مثل هذا الوضع، يكون إصدار القوانين متروكاً لتقدير السلطان بمقدار تحقيق حقوق الفرد وحريته. وكما قال البروفيسور أورخان Aldıkaçtı فقد جمع دستور العام 1876 كل قوة الدولة في يد السلطان. فالسلطان الذي يجلس على رأس الجهاز التنفيذي؛ يدقق في القوة التشريعية، ويؤمن إصدار القوانين بما يناسبه، فالدستور يجعل السلطان فوق ممثلي القوة التشريعية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن النضال من أجل الحرية كان موجها ضد رأس الدولة الذي يمسك بالسلطة كلها في يده؛ يظهر أنه لم يحث على أي تغيير، وأن السلطان قد استمر في الحفاظ على سلطته بشكل دستوري.

علاوة على أن دستور عام 1876 يعتبر خطوة رجعية (!) عند النظر إليه من الزاوية العلمانية، لأن الدولة أصبح لها دين بنص الدستور، وأخذ السلطان على عاتقه دور حماية الدولة الدينية وإدارتها، والأهم من ذلك كله أصبح لشيخ الإسلام صلاحيات تقارب صلاحيات الصدر الأعظم [175] .

وهكذا يكون الظن بإمكانية تغيير النظام بمجرد تغيير الدستور، والخوض في الأحلام الوردية للحرية؛ مضللا إلى حد بعيد من وجهة النظر التاريخية.

بنية المجلس:

في 19 آذار عام 1877 كانت الهيئة متعددة الألوان الوافدة من كل أنحاء الدولة تجتمع في العاصمة العثمانية، فإلى جانب الوافدين من مختلف ولايات عربستان [البلاد العربية] والممثلين لكل المذاهب والأديان؛ كان الممثلون للترك والروم والبلغار والأرناؤوط في الأناضول وروم إلي [بلاد الروم] يشكلون البرلمان العثماني الأول **[176]** .

بهذه الجمل يرسم إلبر أورتايلي مشهد التنوّع الذي شكّل أول برلمان في تاريخنا والمؤلف من 96 عضواً؛ 56 مسلماً و40 غير مسلم [177] . لقد كان بكل ما في الكلمة من معنىً؛ حساباً برلمانياً متعدد الشعوب ومتعدد الأديان، في تعددية تكاد تدهش الأوروبيين الذين يزعمون بأنهم طلائع الديموقراطية، لأنه لم يكن ممكناً وجود مجلس آخر في دولة في التاريخ تتمثل فيها الأقليات أو الشعوب بهذا الثقل، ربما كانت الإمبراطورية النمساوية المجرية لكنها كانت تعطي الألمان تفوقاً، فعلى أعضاء البرلمان البالغ عددهم 516 عضواً أن يكون نصفهم على الأقل من الألمان حسب

الدستور [178] . وكذلك كانت هناك أحزاب سياسية متعددة في إمبراطوريات هابسبورغ، إلا أنها كانت إثنية ومغلقة بما فيها الأحزاب الإشتراكية، وبالتالي لم يكن لها خيار سوى البقاء في إدارةٍ تحكم بالفرمانات أو القرارات، في حالةٍ تشبه تماماً ما حدث في تجربة البرلمان الأولى التي استمرت لفترة قصيرة في بداية حكم عبد الحميد كما سنرى بعد قليل [179] .

وهذا يعني أن قضية الانفصال المستند إلى الإثنيات عند انحلال الإمبراطوريات ليست أمراً بسيطا كما يبدو للوهلة الأولى.

كان الهدف من افتتاح البرلمان هو الحيلولة دون تمزق "الممالك العثمانية"، ومنح وحدة شعوب الإمبراطورية مزيداً من القوة. فلم يكن الحل يمر عبر تقسيم البلد إلى الشعوب التي يتكون منها، بل عبر جمع ممثليها على طاولة مشتركة يعرضون فيها مشاكلهم يناقشونها معاً ويحلونها معاً، فكانت المشروطية حسب ما هو مخطط لها ستكون "معجزةً" لتكامل الوطن، و"ترياقاً" لخلود الدولة.

لكن المشهد العام الذي بدا عقب الاجتماع اليومي الأول في 19 آذار 1877؛ كان يتجه بعكس هذا الهدف، فقد حاول كل ممثل أن يعمل على إنقاذ أرض بلاده واستقلالها. وهكذا تحول مجلس المبعوثان إلى بارود ينتظر التفجير للتمزيق، بدلاً من كونه رابطة للتماسك والتوحيد!

في تلك الفترة كان رئيس مجلس المبعوثان أحمد وفيق باشا يذكر جميع الأعضاء بوجوب استخدام لغة مشتركة: على الجميع أن يتعلموا اللغة التركية في خلال 4 سنوات، ويتكلموا بها. حسناً ولكن هل كان عمر المجلس سيمتد حتى ذلك الوقت؟!... لم يكن أحد يدري!

"اسكت يا حمار!"... كان أحمد وفيق باشا يخاطب بها أعضاء المجلس عندما يعلو اللغط في المجلس، ويعجز عن استعادة هدوئه!

في فترة عشرة الأشهر و25 يوماً والتي امتدت من آذار 1877 حتى شباط 1878 من عمر مجلسنا "مجلس المبعوثان" الأول؛ بقي مكشوفاً، حتى إنه لم يتمكن في خلال مدته القصيرة هذه من إصدار قانون انتخاب، فالمشاورات حول مطالبة الجبل الأسود أراضي من الدولة العثمانية بتأثير الحرب الروسية العثمانية في العامين 1877-1878؛ استغرقت معظم الوقت. وفي النهاية قام عبد الحميد بتعليق المجلس في إجازة مفتوحة بالاتفاق مع أحمد وفيق باشا. واتفاق وجهة نظر أحمد وفيق باشا وهو من طليعة مثقفي التنظيمات في "تقصير فترة الاجتماع" مع وجهة نظر عبد الحميد؛ يدل على أن الأخير لم ينفرد في هذا القرار، ونضطر للقبول بأن رجال

الدولة الذين يرون الخطر يتهدد مستقبل الدولة؛ كانوا يشاركونه القرار بنفس القلق.

لم يحل السلطان عبد الحميد مجلس المبعوثان أبداً، بل استعمل صلاحيته المنصوص عليها في (المادة 44)، فبكر في موعد إجازة عطلة المجلس (المؤقتة)، ولم يدعه إلى الاجتماع مرةً أخرى، بل دعاه إلى الانعقاد، ولكن بعد ثلاثين عاماً... لأن نص الدستور لم يكن يوجب على السلطان دعوة الانعقاد مرة أخرى [180] .

المجلس في إجازة العطلة

قبل توقيع معاهدة أياستيفانوس بيننا وبين الروس في 3 آذار 1878 بتسعة أيام؛ دعا السلطان أعضاء مجلسي الأعيان والمبعوثان إلى وليمة في قصر دولمة بهجة، وبلغهم "غرادته" أي قراره بخطاب موجز.

بالتأكيد لم يستعمل السلطان في خطابه عبارة "أحل المجلس"، لكنه أكد بدبلوماسية يفهمها من يفهم على أن الدستور والمشروطية التي جاء بهما الدستور أثران من آثاره . نعم، كان الدستور والمشروطية نتاج جهوده ونياته الحسنة، لكن نياته الحسنة لم تكن مفهومة من قبل بعضهم. كان يحاول إثبات أن مفاهيم الناس للسياسة لم تكن مهيأة بعد للعمل بنظام برلماني. كانت السلطنة في مواجهة أخطار مخيفة محدقة، وكان جمع القوة المادية والمعنوية بيد السلطان من جديد قضية مصيرية للدولة، وكان لا بد من القيام بما تتطلبها هذه الحقيقة الواضحة [181] .

فهل كانت الأسباب التي بينها عبد الحميد في إلغاء نظام المشروطية خاوية من الحقيقة؟!، وهل كان السلطان يبحث عن مبرر لإلغائه، أم كان الوضع خطيراً حقاً كما بين؟!

فلنترك أستاذ الملكية [182] القديم أحمد شكري أسمر يلخص لنا ذلك:

... كانت معاهدة أياستيفانوس تمزق أراضي الإمبراطورية العثمانية في أوروبة، على الرغم من أنه قبل عشرين عاما كانت إنجلترة وفرنسة توقعان معاهدة تحول دون ذلك. فبلغاريا في هذه المعاهدة كانت في الظاهر مستقلة ذاتياً، لكنها كانت في الحقيقة دولةً مستقلةً، ولم تكتف بذلك بل رسمت لها حدوداً واسعةً تستند في جانبٍ منها إلى نهر طونا والبحر الأسود، وتنحدر في جانب آخر إلى بحر جزر إيجة، وتمتد حتى بلاد الأرناؤوط. صحيح أن إسطنبول تركت للعثمانيين، لكن العاصمة كانت تنفصل عن بقية روم إلي [بلاد الروم] . ثم توسعت - في المعاهدة - حدود الصرب والجبل الأسود، وتم الاعتراف باستقلالهما التام، وكانت روسية تبني

نفوذها في البلقان. وفي المعاهدة أيضاً تدفع تعويضات بمقدار 1 . 4000 . 000 [مليار وأربعمئة مليون [183]] روبل، وتعطى باطوم Batum وقارص وأردخان لروسية كجزء من هذه التعويضات [184] .

فهل أدركنا الآن الوضع الخطير الذي كنا فيه عند تعليق مجلس المبعوثان؟!

صحيح أنه في المعاهدة التي يتم التوقيع عليها في 13 تموز من نفس العام في مؤتمر برلين، يتم فيها فسخ معاهدة أياستيفانوس، وتصحيح بعض البنود لصالحنا، وإضافة بنود؛ لكنها كانت ستكبلنا من جهة أخرى، كتأسيسها للمسألة الأرمنية على سبيل المثال.

وفي النهاية كان المشهد خطيراً حقاً، فخروج ثلث الأراضي العثمانية من سلطتها، والتعويضاتُ الكبيرة أحكمت الأغلال على المالية، علاوة على فقدان أخصب الأراضي وشعبها النشيط المنتج من أراضي روم إلي، هذا المشهد الخطير فتح الطريق لتوجه عبد الحميد الثاني نحو سياسة "الاتحاد الإسلامي"، كما ولَّد تغييرات مذهلة في البنية الاقتصادية والديموغرافية، وستغدو مدن إسطنبول وبورصة وسيواس والمدن الكبيرة الأخرى ملجأً للمهاجرين من البلقان والقفقاس شهوراً بل سنوات، وسيأخذ توطينهم في أماكن مناسبة للدولة جهداً كبيراً وزمناً طويلاً، وسيشغل الإدارة سنواتٍ طويلة.

وبموجات هجرة المسلمين من البلقان والقفقاس نحو إسطنبول والأناضول؛ بدأ تركيز المسلمين في بنية الدولة العثمانية يزداد بسرعة كبيرة، وبدأت عودتها للظهور من جديدٍ إلى مسرح الأحداث كدولةٍ يزداد تجانسها، وتقوم على أساس مفهوم الوطن المشترك، أي على أساس مفهوم الأمة، وكانت مرحلة بدايةٍ جديدة للتحوّل الديموغرافي الإسلامي الكبير في الأناضول.

فترة طويلة

فهل فترة الثلاثين عاماً ونيفاً التي فصلت بين عطلة مجلس المبعوثان في آذار عام 1878 وافتتاحها من جديد عام آب 1908 كانت فترة ضائعة أم كانت فترة عمل من أجل تهيئة الأرضية المناسبة التي تنضج عليها الشروط العصرية للديموقراطية واختمارها وفترة اختبار إن صح القول؟!

ومهما يقال فإن المجتمع في عام 1908 لم يكن متخلفاً عن العام 1878، بل كان متقدماً عليه بالتأكيد، وكذلك المواصلات والاتصالات...

من جانب آخر لم تكن هذه السنوات الثلاثون فصلاً قصيراً من الزمن. كما لا يمكن إنكار الخطوات العملاقة التي قطعتها الدولة العثمانية

في مجالات شتى تصب في إخراج أمة عثمانية إسلامية، بدءاً من التعليم إلى التكنولوجية، ومن إعادة تنظيم الجيش إلى الاستثمارات في البنية الاجتماعية والمؤسسات الخيرية [185] ، والأهم من ذلك كله الجهود التي بذلت في سبيل مفهوم وطن في إطار إقليمي. ولم تبق هذه كلها إرثاً كبيراً لجماعة الاتحاد والترقي فقط، بل للجمهورية التي جاءت بعدها أيضاً.

فالشرخ بين المسلمين وغير المسلمين من أعضاء مجلس المبعوثان في التعليم والثقافة والعلوم عام 1877 كان قد ردم إلى حد بعيد عام 1908، وعندما يذكر "الوطن" [186] لم يعد نوعاً من "جلد غزالٍ" يحاول كل واحد أن يجره لصالحه، بل نوع من المعرفة - ولو كانت في الحد الأدنى - بأن فائدة العيش المشترك ستكون أكبر من الانفصال. ولقد كان لمفهوم الوطن هذا دور في بقاء النواب العرب والأكراد على وجه الخصوص على ولائهم للدولة العثمانية حتى آخر لحظة، وفي اشتراك العشائر الكردية الكبير في حرب الاستقلال...

وهكذا دعا عبد الحميد مجلس المبعوثان إلى الاجتماع من جديد، ولكنه كان يؤكد هذه المرة في خطابه على نضج الشروط، وارتفاع مستوى التعليم، وعلى أنه آن أوان افتتاح المجلس، ويذكر بالاستثمارات والخدمات التي بذلت في خلال ثلاثين عاماً وقد آتت ثمارها. ونص الكلمة التي ألقاها باسم عبد الحميد باش كاتب مابين الهمايون [187] جودت بك يقدم لنا نظرة كافية في هذا الموضوع:

أيها الأعيان والنواب! وضعت القانون الأساسي في موضع التطبيق في بداية جلوسي على عرش السلطنة، وفي الفترة التي أوقفت فيها العمل به مؤقتاً بناءً على ما عرضه علينا رجال الدولة في ذلك العهد بسبب مشكلات تزامنت معه، وبينما كانت هناك توصية بإجراء تأخير القانون المذكور حتى بلوغ قبول الأهالي إلى المستوى المطلوب بتقدم المعارف في الممالك الشاهانية، وحتى اجتماع مجلس المبعوثان من جديد؛ تم الاهتمام بالمعارف من خلال افتتاح المدارس في المدارس الشاهانية.

أشكر الله على حصول المقصود بارتفاع مستوى الاستعداد في صفوف الأهالي بفضل انتشار المعارف، وبناء على الرغبة الظاهرة، وكوني مطمئناً بأن هذه الرغبة موجبة للسعادة في المملكة حالاً ومستقبلاً، وعلى الرغم من الآراء المخالفة عند المطالعة (الاستشارة)؛ فقد أعلنت القانون الأساسي بلا تردد، وأصدرت إرادتي بانتخابات جديدة ودعوة لمجلس المبعوثان بالانعقاد من جديد **[188]** .

ثم نقرأ في بحث متميز كتبه الباحث في تاريخ القوانين البروفيسور جوشكون Üçok CoŞkun أن بعض القوانين والقرارات الصادرة في عهد الحميد كانت تستند في الحقيقة إلى الدستور الذي صدر في ما بعد، وأن القانون الأساسي كان يتصدر الحوليات التي تصدرها الدولة كلَّ عامٍ. فعبد الحميد حسب رأي البروفيسور جوشكون؛ لم يعمد إلى تعليق الدستور كما حصل في انقلابي عام 1960 أو عام 1980 وإلغائه، بل طبقه بنفسه . [189]

من جهة أخرى استمرت التعيينات في الأماكن الشاغرة في مجلس المبعوثان بعد تعطيلها حتى عام 1880، بل إنه كان من المثير أن ثلاثة من أعضائه كانوا في أعيان المجلس عام 1908، بعد ثلاثين عاماً، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن الزمان قد تجمد في خلالها [190] .

فكم عشنا من الصعوبات والأحداث المؤلمة منذ التلغراف المرسل مساء 32 تموز 1908 والذي حمل عبد الحميد على إعلان المشروطية؟ هل ننسى الانتخابات التي جرت بعده على مرحلتين، واجتماع مجلسي الأعيان والمبعوثان؟ وحتى الآن نحن في طريق الديموقراطية والحياة البرلمانية.

فكم انقلاب عسكري وقع في خلال هذه الفترة، وقد ألغي في اثنين منهما على وجه الخصوص (27 أيار، و12 أيلول) الدستور الموجود وأغلق المجلس إلى أجل غير مسمى. لكن ذلك كان "انقلاباً تقدمياً"، ففي "منقل" الديموقراطية لا يتركون (وعلى الأخص زعماء انقلاب 27 أيار) رماداً. وفي منظور هؤلاء الانقلابيين أنفسهم؛ كان عبد الحميد رجل قمع، يخنق الحريات، وكان السلطان الأحمر.

لكن الناس كانوا للأسف قد أغفلوا النظر في المرآة، ففي الوقت الذي قاموا فيه بالانقلاب المسلح وأغلقوا المجلس، وعلقوا العمل بالدستور، ونفذوا أحكام الاعدام برئيس الوزراء والوزراء؛ ثم أعلنوا سلطاناً أحمر حاكماً لم يقم بانقلاب، بل عطل المجلس قبل ميعاده، ولكن لم يوقف العمل بالدستور، ولم يقتل أحدا بسبب سياسي... ثم ينتظرون منا أن نصدق رواياتهم كالأطفال.

فأين أنتم من عبد الحميد، وشتان ما بينكم وبينه!، وإن كنتم لا تنظرون إلى مرآتكم؛ فانظروا على الأقل في مرآة التاريخ!

توقعوا كم سيكون عدد الباكين خلفكم وأنتم ترحلون عن هذه الحياة؟... أما السلطان عبد الحميد، فقد ظهرت قيمته عند أعضاء مجلس المبعوثان الذي خلعه عن العرش في الحرب العالمية الأولى، وهكذا كان

أعضاء المجلس يقفون إجلالاً وهم ينصتون إلى نبأ وفاته [191] ، فضلاً أنه لم يكن في السلطة حينها، كان في المنفى، وخارج الأحداث لعشر سنين خلت. وكذلك جنازته، كان جمع المشيعين غفيراً كما لو كان سلطاناً!

فهل وقف أعضاء المجلس على أقدامهم عند تلاوة نبأ الوفاة احتراما له فقط؟!. لا أظن ذلك، فربما لم يكن الجميع يكن له الاحترام، لكنهم كانوا خجلين من أنفسهم، ربما كانت ملايين الكيلومترات المربعة من الرقعة الواسعة التي تركها لهم كانت كافية للخجل.

ثم بعد ذلك...

لقد واجهت السلطنة المشروطة قبل أن تتم عامها الأول انقلاباً عسكرياً من القمة، ففي 31 مارت 1325 حسب التقويم الرومي، 13 نيسان 1909 حسب التقويم الميلادي؛ بدأ التمرد؛ تحرك بعدها جيش الحركة مع طوابير المتطوعين واستولى على السلطة، واستطاعوا هذه المرة ان يتغلبوا على السلطان عبد الحميد الثاني الذي فشلوا في إنـزاله عن العرش قبل عام، واصبح يشكل مصدر إزعاج وقلق لهم.

لقد قُضي على عائق كبير كان أمامهم، فمن يستطيع أن يكبح جماح قادة الاتحاد والترقي بعد اليوم؟!

ولم يكف هذا، بل كان الذين يصعدون إلى الجبل الأسود بالأمس، ويصعدون إلى السلطة اليوم بحجةِ أنهم سيفتحون صفحة بيضاء، ويغيرون الطالع المشؤوم للبلد، ويعيدون سيرة الفتوحات الأولى من جديد؛ لن يتمكنوا من الحفاظ على تراب البلقان التي ترعرعت فيها أحلامهم بالحرية أكثر من ثلاثة أعوام ونصف، وستداس أدرنة وهي من العواصم العثمانية الأولى بأقدام البلغار بسبب الصراعات الداخلية، وستدخل السياسة في الجيش، والتحزبات، والطيش، وغير ذلك من الأسباب.... ولم يكن من أنور باشا الذي حاول ترحيل ضريبة هذه الهزائم المنكرة إلى غيره؛ إلا أن قام باحتلال الباب العالي وأجبر الصدر الأعظم كامل باشا على توقيع بيان الاستقالة بقوة السلاح في 23 كانون الثاني 1913.

ورمى العسكري للاتحاد والترقي بكل ثقله على السياسة، وبالتالي استمر الصراع بين أنور باشا وطلعت باشا، وهما مسؤولا الجناح العسكري والجناح المدني في المركز العمومي حتى ركوبهما سفينة ألمانية في ميناء "بلطة" في الليلة التي تجمع بين الأول والثاني من شهر تشرين الثاني من عام 1918 وسفرهما في البحر الأسود مغادرين البلاد. وبعدها سيبدأ الفصل الأوروبـي في البلاد.

نعم سيترك هؤلاء الذين تسلموا السلطة خلفهم أدبيات تتحدث عن الاستقامة والفقر ترثها تركيا الحديثة، وربما نتناول هذه النقطة مرة أخرى في ما بعد، .. فيزعم الزاعمون أن طلعت باشا كان متواضعاً جداً، وكان من عامة الناس، ولم يبدد أي قرش من أموال الناس، وكان طعامه المفضل الجبن والعنب. أما حسين جاهد يالجين الذي يعتبر الناس سذَّجاً،... فيذكر أن قادة الاتحاد والترقي لم يحملوا معهم جميعاً عند رحيلهم من إسطنبول سوى 2500 ليرة [192] .



كاريكاتير يمثل محمود شوكت باشا، على قاعدة التمثال كُتبت هذه العبارة:
"ذكرى عرفان من إيطالية لفاتح طرابلس الغرب الحقيقي"

لكنه وفق رواية نعمان طاهر سَيْمان سفير تركيا في برلين في ذلك العصر؛ فإن طلعت باشا وأصدقاءهما حملوا معهم عند هروبهم كل ما وجدوه مما خف حمله وغلا ثمنه، ولم يذق أحد منهم في الغربة حالة الفقر والعوز والحاجة، ويتحدث السفير التركي في برلين عن ردة الفعل التي أبداها العمال والطلاب الأتراك للحياة الفاخرة التي كان يتسربل فيها هؤلاء. كان لسان حالهم يقول: لقد أغرقتم البلد، ثم هربتم، وها أنتم اليوم

تعيشون هنا حياتكم الفاخرة. ثم يسجل سيمان في لفتة مهمة للغاية؛ استخدام هؤلاء الاتحاديين في الخارج من قبل أصدقائهم الاتحاديين الذين حلوا محلهم في حكم البلاد:

شبهة في حساباتهم المصرفية:

دعيت ذات صباح باكر بالهاتف إلى السفارة، فاستقبلني الباشا بلباس النوم، وقال لي: "أبلغني مدير البنك عن تحويل مبلغ مليون وثلاثمئة مارك من إسطنبول"، وطلب إليّ أن أتجه إلى البنك فوراً، وأدخل هذا المبلغ في حساب السفارة الجاري، وأعود إليه بكتاب التسجيل. فاتجهت إلى البنك، وشرحت لمدير الشؤون التركية سبب زيارتي، فأجاب بقوله: "نعم كنت قد أبلغت البارحة لصاحب السعادة بذلك، ثم تبين في الصباح بناء على كتاب التعليمات أن المبلغ الذي تم تحويله للنظراء (الوزراء) القدامى هنا، وليس للسفارة، أعتذر منكم للخطأ الذي وقعت فيه بسبب السرعة". وعلمت من البنك بعد مدة قصيرة عن تحويل مبلغ آخر يزيد عن ثلاثمئة ألف مارك.

فلماذا أرسل هذا المبلغ الذي يتجاوز مليونا وستمئة ألف مارك إلى حساب هؤلاء الاتحاديين في نهايات عام 1918 وبدايات عام 1919؟ وأين أنفق هذا المال؟ وكم يساوي هذا المبلغ في الرائج اليوم؟ ربما يصعب تقدير قيمة المبلغ عام 1918 بسبب التضخم، لكنه كان بتقدير عام 1917 يساوي وسطياً 300.000 دولار، وهو يفوق اليوم 4 ملايين دولار بناء على حسابات القوة الشرائية [193] .

وهنا يضغط السفير التركي في برلين على وتر (البم) وهو يقول:

يحاول أنصار الاتحاد والترقي أن يوهموا الناس بأن طلعت باشا كان يعيش ضائقة مالية في ألمانية، فحسين جاهد يالجين في كتابه المنشور وهو يحاول أن يرفع طلعت باشا إلى العلياء بذكر مزاياه الحميدة؛ يذكر اضطراره لبيع نياشينه في ألمانية من أجل لقمة العيش، في زعم كاذب ومخطئ بآنٍ واحدٍ. والحقيقة أن طلعت باشا كان يعيش حياته برفاهية. فكان يقيم في مبنى مؤلف من سبع غرف يقع على زاوية في شارلوتنبيرغ. بابه مفتوح دائما، ولا ينقطع زواره (...)، بقي محتفظاً بمكانته طيلة حياته. فالعيون المفتحة اليقظة تكتب وهي تبالغ في احترامه، فلعله إن عاد إلى الحكم يتذكر وقوفهم إلى جانبه في أيامه الأليمة **[194]** .

لقد كان هؤلاء الذين ورثوا إمبراطورية واسعة عامرة وهم يزعمون أنها الأنقاض؛ كانوا يفرون الآن من البلاد وهم يتركونها لأقدارها. صحيح أنهم كانوا يتعللون بأنهم سيعملون على دعم تركيا من الخارج، وإنهم

سيعملون على إنقاذ بلدهم، فلماذا غادروا إذاً؟ أم هو انسحاب مؤقت يتحينون فيه شروطاً أفضل للعمل؟ ألم يكن يتوجب عليهم أن يفوا بما عاهدوا عليه عند تولّيهم حكم البلاد التي يزعمون حبها إلى درجة البقاء فيها حتى لو حكم عليهم بالإعدام؟! [195] .

في رسالة كتبها للصدر الأعظم أحمد عزت باشا أجمل طلعت باشا سبب مغادرته البلاد كما يلي:

حضرة عزت باشا المبارك الذي أكن له الاحترام: أدركت أن البلاد ستبقى تحت نفوذ الأجنبي وتأثيره مدةً من الزمن. وعلى الرغم من ذلك كنت أفكر بالبقاء في البلاد ومحاكمتي أمام الشعب، لكن الأصدقاء جميعا أصروا على تأجيل ذلك للمستقبل، ولم أتمكن من استشارة ذاتكم الحكيمة، وقد صرفت النظر عن ذلك [عن استشارتكم] حتى لا أترككم في موقفٍ حرجٍ. لقد كان هدفي في كل حياتي السياسية أن أخدم بلدي بكل شرف وتضحية، وقد وفقت في ذلك شخصياً **[196]** . وكل ثروتي هي حصيلة ما تراكم مما وفرته من الإحسان [الراتب] الذي خصصه لي الذات الشاهانية [السلطان] بمعدل 20 ليرة كل شهر والبالغ 1600 ليرة، ومن ثمن الأتوموبيل من إحسانه، ومن عائدات إيجار المزرعة التي استأجرتها مع أربعة من أصدقائي، وقد تركت قسما منها [من ثروتي] لعائلتي، واصطحبت الباقي معي، ولا أملك شيئاً سوى ذلك. وأجد من جرأة القلم ما أبدي به عن استعدادي للمحاسبة أمام الشعب والمحاكمة وامتثالي لما تحكم به المحكمة من جزاء. وها أنا ذا أتعهد لذاتكم الحكيمة أنني في اليوم الأول بعد استقلال البلاد من النفوذ الأجنبي سأخضع لتلغرافكم إلي، بكامل الاحترام أقبل أيديكم حضرات الباشا المحترم.

2 تشرين الثاني *334* [*1334*] (*2* تشرين الثاني *1918*)

محمد طلعت

ومن المعروف أيضاً قوله: "إما أن جمعية الاتحاد والترقي ستنقذ البلاد، أو أن البلاد ستفنى في يد الجمعية" [197] ، وقد تحقق الأمر الثاني لكنه كان قد غادر البلاد.

الحقد وحجمه!

كانوا يحملون أبطالاً على الأكتاف وهم يهتفون: "أيها الوطن! نحن الآن ننقذك من يد الظالم"، كان الواحد منهم نجماً وبطلاً من "أبطال الحرية". فلمن تركوا البلاد وخرجوا هاربين؟! لم يكن هؤلاء الأبطال ليستطيعوا استعادة أدرنة المسكينة لولا الخلاف اليوناني البلغاري، كاد بعضهم

يدوس على بعضهم الآخر وهم يدخلون المدينة سعياً وراء الشهرة، ويتورطون في الألاعيب سعياً من شهرة إلى شهرة.

وهكذا أعرض هنا تفصيلين كافيين متعلقين "بالحرب المقدسة التي فتحت الطريق لضياع البلاد" للتشهير بالاتحاد والترقي في فترة حكمهم، وأظن ذلك كافياً لاختصار موضوعٍ طويلٍ في هذا المجال.

كانت القنبلة التي انفجرت أمام جامع يلدز عام 1905 هي الحادثة الأولى. كان السلطان عبد الحميد الثاني قد نجا من الانفجار الذي دبرته منظمة أرمنية بتأخره في الخروج دقيقتين، وكان الشارع يمتلئ غيظاً من فشل منظمة إرهابية أرمنية من اغتيال رئيس دولته.

أصل رسالة طلعت باشا التي أرسلها إلى الصدر الأعظم أحمد عزت باشا من برلين

لكن الحادثة الأخرى كانت أعظم خطراً، كان الخطر إلى الحد الذي يوجب محاسبتهم على مزاعمهم حب الوطن. دخلت الدولة العثمانية حرباً ضد اليونان عام 1897، وانتصرت فيها، فهل تعلمون ما فعلته "تركيا الفتاة" [جون ترك]؟! أجد الجواب على هذا السؤال على لسان البروفيسور عثمان طوران:

كان حب الحرية في تركيا عظيما إلى الحد الكافي لتقديم قوافل الشهداء في سبيل بلوغها، مما حمل كثير من الفارين إلى أوروبة من (الجون ترك) يتعاونون مع جمعيات الروم والأرمن والبلغار ضد استبداد السلطان عبد الحميد؛ لان عشق الحرية عند هؤلاء كان ينمو مع المبدأ الإنساني الذي يتضمن استقلال الشعوب، ولهذا السبب عمل هؤلاء على هزيمة الإمبراطورية العثمانية أمام دولة اليونان الصغيرة في حرب تسلايا؛ لتشرق شمس الحرية **[198]** .

نعم كان ينبغي عليهم أن يؤمنوا هزيمة الدولة العثمانية أمام اليونان الصغيرة حتى يمتلكوا أسباب القوة، ولذلك كان عليهم أن ينتصروا لليونان بدلا من الدولة العثمانية!

وهكذا بمقدار نمو الديموقراطية القائمة على هذا المعارضة الحاقدة؛ نمت الديموقراطية فينا... والمنطق نفسه ألا يستمر فينا حتى الآن؟ لقد كان خطأ الاتحاديين الأساسي كما يقول الأمير صباح الدين هو في عدائهم لشخص عبد الحميد، ولو أنهم عملوا على مواجهة "عبد الحميد الاجتماعي"، وتعاملوا مع جينات المجتمع؛ لكانوا بالتأكيد قاموا بعمل أكثر خيراً. ودافع صدر أعظم الاتحاديين سعيد حليم باشا أيضاً عن هذه الفكرة، وكتب قائلاً بأنه لو لم يكن عبد الحميد موجوداً لاخترع المجتمع عبد الحميد وجعلوه سلطاناً [199] .

فهل يمكنك أن تزعم بأنه لم يكن محقاً؟

وتنهار أسطورة عبد الحميد: سفسطة روفال

[في روفال] أرادوا إظهار اللقاء كأنه لقاء عمل متعلق بالإصلاحات في مقدونية.

بكر صدقي بايكال [200]

قبل قرن من الزمان كانت البلقان العثمانية تعيش حركة غير عادية، وكانت المباحثات الجارية بين القيصر الروسي نيقولا الثاني والملك الإنجليزي إدوارد السابع (وبينهما في الأصل قرابة) في روفال (مدينة تالين الحالية) عاصمة أستونيا حول تقاسم مقدونية وأراضي الدولة العثمانية؛ ... كانت أنباء ما قيل في هذا اللقاء قد تسرّبت إلى بعض "الصحافة الخارجية"، وبدأ الاتحاديون الذين يسنون أسنانهم للنيل من نظام عبد الحميد بالتحرك.

فالمشروع الخائن هذا يعطي البحر الأسود والمضائق لروسية، ومصر والسودان والأراضي العراقية حتى خليج البصرة لإنجلترة، وكانت سورية ولبنان من حصة فرنسة، وباختصار! تم في روفال تحاصص الدولة العثمانية. وكان الشعب يقول: هيا إلى العمل يا أهل الوطن!... وأهل الوطن هؤلاء معظمهم من العسكر...

معلوم أن شائعات روفال دفعت الاتحاديين في مقدونية إلى حالةٍ من الغليان، وانتشر بسرعة بين العسكرين على وجه الخصوص. كان انتشار الخبر بهذه السرعة في ذلك الزمن أمراً محيراً، وأطار هذا الخبر المشؤوم النوم من عيني "قول أغاسي" [201] نيازي رسنلي ثلاثة أيام.

حسناً فمن هم دلالو هذا الشؤم الذي طير النوم من أعين هؤلاء الشباب؟

سنعلم سبب ذلك بعد قليل، ولكنه ينبغي علينا قبل ذلك أن نبحث في صحة هذا الخبر الخطير الذي شكل نقطة التحوّل في الطريق المؤدي إلى إعلان المشروطية الثانية.

فما الذي حصل في روفال؟

لنقل إن القيصر نيكولا ربما كان يمكنه أن يتصرف من تلقاء نفسه، لكن الملك الإنجليزي في الملكية الدستورية لا يستطيع أن يتصرف في قضية مصيرية كهذه من غير موافقة الحكومة والبرلمان، وإذا أخذ الموافقة على سبيل الافتراض؛ فإنه قدرته على التطبيق هي احتمال ضعيف، كما يقول أورخان قول أوغلو الذي شق الطريق في الاتجاه المعاكس بمقالته الرائدة في هذا الموضوع في صحيفة (التاريخ والمجتمع) [202] . بقي أن الملك إدوارد

كان قد توجه إلى روفال بصحبة مستشاريه وحاشيته ولم يصطحب معه رئيس وزرائه ولا وزير خارجيته. وهذا يعني أن الملك إدوارد حسب قول أورخان لم يكن "بين صحبته من الخبراء من يملك صلاحية اتخاذ قرار سياسي". فكان أورخان يحاول أن يبين أن غياب البيروقراط ممن لهم صلاحية اتخاذ القرار في الهيئة المرافقة للملك يكفي ليدل على أن لقاءات روفال لم يتجاوز التقييم العام.

كانت اللقاءات الثنائية في روفال الحلقة الأخيرة للتحالف الذي مهدت له فرنسة. فقد كانت فرنسة التي منيت بهزيمة منكرة في حربها أمام بروسية (ألمانية) في سيدان في أيلول عام 1870 ووقع فيها نابليون الثالث أسيراً في أيدي وحدةٍ ألمانيةٍ صغيرةٍ manga [203] ؛ تشعر بحقدها المتزايد ضد الألمان، لطالما تمنّت إقصاء الألمان من هذا الحلف، وتمكنت من تطويقها بجدار ناري' فإنها تشعر بالراحة والاطمئنان [204] . كان كل هم فرنسة التي تحطمت عزتها؛ متركزا على هدف تطويق ألمانية وشل قوتها.

وبالتالي كان الهدف من هذا المخطط في لقاءات روفال من وجهة نظر إنجلترة وروسية؛ هو إسقاط بروسية وليست الدولة العثمانية [205] .

وسبب آخر للقاءات روفال في حزيران 1908 يكمن في قطع الطريق على محاولات التقارب الروسية والنمساوية والتي قام بها عبد الحميد بدهاء. فعبد الحميد الذي أعطى امتياز مد سكة الحديد إلى السنجق الذي ينتظر على أعتابه أطماعهم منذ زمن بعيد للنمساويين في خطوة جريئة بقرار آني في سبيل تحييدهم؛ خلط أوراق روسية، وسدد ضربة قوية إلى محاولات الإنجليز والفرنسيين لعزل ألمانية وإقناع الإمبراطورية النمساوية المجرية للوقوف إلى جانبهم. والنظرة إلى الأنباء المتسربة من روفال تبين أن الفرنسيين والإنجليز نجحوا في ضرب محاولات تقرب الألمان من الروس.

ويمكن إيجاز الموقف بهذه الكلمات:

في العام 1903 ، أي عندما كانت مقدونية تحت الاحتلال؛ كانت حرب ترانسفال قد انتهت، ووجدت إنجلترة الفرصة سانحة للتقدم بجملة من الإصلاحات للباب العالي. لكنها لم تكن تريد الاخلال بالتوازن الروسي النمساوي، في إحدى قرى جبال الألب في النمسة اتفقوا على ان يتقدموا إلى الباب العالي بطلب بعض الإصلاحات غير الهامة: كتشكيل قوة جندرمة تدار من قبل الأوروبيين.

لكن البلغار والصرب والروم لم يكفوا عن الصراع في ما بينهم، ولذلك طرح المسألة النمساوية المقدونية من جديد: فتمكن أرنتال [وزير خارجية

النمسة Aehrental] من انتزاع امتياز شمندوفير (خط) البوسنة - مقدونية. لم يكن إزفولسكي İzvolski (وزير الخارجية الروسي) سعيداً بهذا الامتياز، فتقرب من إنجلترة وانضم إلى الاتفاقية القائمة أصلا بين إنجلترة وفرنسة في سبيل زيادة التحكم الأوروبي في مقدونية.

وهكذا فإن هذا المشروع هو الذي أنتج انقلاب العام 1908 **[206]** .

كان من الواضح أنه لم تكن هناك اتفاقية، كل ما في الأمر أنها نظرة لأحوال العالم، ومدارسة للتطورات الجارية.

مع ذلك، انعكس اجتماع روفال في الصحافة النمساوية والألمانية على أن جدول الأعمال السري كان يدور حول تقاسم مقدونية والدولة العثمانية، والتقييم البريء لمزاعم توقيع اتفاقية تقاسم الدولة العثمانية على وجه الخصوص؛ يحتاج إلى سذاجة كسذاجة الاتحاديين. لقد كنا في حلبة صراع استخباراتي صريح، وكان الكل منهمكين.. كل طرف يحاول إفساد الرأي العام التركي لمصلحته.

أراد أورخان قول أوغلو من خلال المقتطفات التي اقتبسها من صحافة فيينا وألمانية أن الصحف كانت تؤكد الجرح الذي تلقته ألمانية في مصالحها الاقتصادية ومكانتها واعتبارها في روفال وتشكل جبهة معادية لها. فما ينبغي أن نفهمه هنا أن ندرك أن ألمانية التي أصيبت بالذعر حاولت أن تفسد هذا التحالف المضاد وحاولت تحريكنا من أجل ذلك.

هل هي عملية ماسونية؟

على الرغم من أن سجلات روفال أظهرت أن لقاء (الملك - القيصر) لم يتناول التفاصيل، بل كانت تحمل رسائل صداقة متبادلة، والعلاقات الألمانية، ومشكلات شمال بحر البلطيق، وأن مناقشة التفاصيل جرت على مستوى المستشارين، فنرى في سجل ضبط الجلسة الذي كتبه السير هاردنغ أنه تم تداول مسألة مقدونية، وتم إعداد صيغة، إلا أنها لم تبلغ مستوى القرار. ثم تناولت اللقاءات قضايا امتيازات السكك الحديدية في إيران وأفغانستان وكريت التي أعطيت للنمسة وغيرها.

أي أنه لم تكن في ضبط الجلسات أصلا أية "اتفاقية" على تقاسم الأراضي المقدونية والعثمانية. وعلى الرغم من محاولات روسية جرها إلى مخططها؛ فإن إنجلترة اكتفت بالسماع، ولم تقدم أية وعود، وهذا كل ما في الأمر.

أهذا هو كل ما في الأمر؟!.. لا ليس بعد؛ لأن الجانب المذهل يأتي بعد هذا.

حسناً إذا كان هذا هو كل ما في الأمر؛ فلماذا غضب الاتحاديون وشمروا عن سيقانهم للصعود إلى الجبل؟!.. يجيبنا على ذلك قول أوغلو في المقطع المثير الذي اقتبسه من كتاب ستيد Steed مراسل التايمز في فيينا، فلنقرأ معاً:

رجحت صحف اليهود الألمان في المانية وفي الإمبراطورية النمساوية المجرية توصيف لقاء القيصر والملك إدوارد على أنه مؤامرة التوازن الدولي القائم، وأن ينظروا إليه على شكل شن حرب على أراضي السلطان وعلى البلاد التي يحكمها، وانتشرت في كل المحافل الماسونية الخاصة في مقدونية وسلانيك والتي وفرت لمدبري مؤامرة اغتيال عبد الحميد من "جون تورك"؛ النسخة الألمانية النمساوية لاجتماع روفال، وتمت نصيحتهم بتسريع العمل لمواجهة الخطر الذي يتهدد الإمبراطورية العثمانية.

فماذا يعني إذاً؟

أظن أن القضية تتضح شيئاً فشيئاً.

أولاً: تم غسل أدمغة اتحاديينا جيداً في المحافل الماسونية كونها محل "ثقة".

ثانياً: كان الاتحاديون يتلقون معلوماتهم عن لقاءات روفال من الصحف الأجنبية والسفارات المقدونية.

ثالثاً: إذا أضفتم تسلل الجواسيس إلى صفوفهم "الطابور الخامس"؛ تكون الصورة قد اكتملت على وجه التقريب.

لقد كان الذي أطار النوم من عيني نيازي رسنلي بك الذي كسر قفل خزينة الطابور واستولى على الأموال فيها "كدين" وفر إلى الجبل متمرداً في 3 تموز 1908؛ هو أثر من هذا "التضليل الإعلامي". وعندما كان المندوب الفرنسي في اللجنة المالية لمقدونية M. Steeg يتحدث عن تنسيقه مع الاتحاديين لإسقاط نظام عبد الحميد بدلاً من الإصلاحات المالية في مقدونية؛ كان في الحقيقة يعطينا طرف خيط مهماً:

كان الدافع الذي يحرض الاتحاديين موجوداً في الداخل بقدر ما هو موجود في الخارج.

فاستخبارات عبد الحميد كانت قد تمكنت من فك شيفرة الاتحاد والترقي تماماً في الوقت الذي كانت تجري فيه لقاءات روفال، وكانوا يتقدمون بسرعة نحو المركز، وربما كانت الجمعية سيتم اكتشافها بالكامل، وكانت حملة الاعتقالات في صفوف أعضائها ستبدأ سريعاً، وكان رئيس الاستخبارات إسماعيل ماهر باشا قد بدا فعلاً باعتقال الضباط الذين

اختلطت أسماؤهم مع الاتحاديين مثاني وفرادى [207] . (فلم يكن عبثاً حديث نيازي بك في مذكراته عن هؤلاء الوافدين إلى سلانيك بالمفسدين)، فقد استدعي عدد من الضباط بينهم أنور بك للاشتباه بهم إلى إسطنبول [208] ، فكانوا أمام خيارين: إما إلقاء القبض عليهم، أو الصعود إلى الجبل والمطالبة "بالحرية". كانوا يطالبون بالحرية، لأنه إن حلت الحرية انتهت الاستخبارات وتخلصوا من التعقب والملاحقة الشديدة.

وكانت لقاءات روفال مجرد تبرير...

لم يمض وقت طويل ليظهر أن ذلك كان مجرد تبرير، نفهم ذلك من جهل الاتحاديين بالاجتماع السري بعد ثلاثة أشهر في Buchlau التي انضم إليها وزيرا خارجية روسية والنمسة . (سنطلع على التفاصيل من مذكرات شادية عثمان أوغلو في ما بعد).

لم يكن من فراغ عندما قال عبد الحميد للدكتور بهاء الدين شاكر الذي دخل عليه بلائحة أعضاء الأعيان: " يا ولدي، هذه الأعمال ليست سهلة أبدا " .

لقد حللت ابنة عبد الحميد " روفال " بأفضل مما حلّ ل ها علماء السياسة

سجلت شادية عثمان أوغلو بنت السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراتها ملاحظات مثيرة للغاية عن الوجه الداخلي للقاءات روفال. فترى بأن والدها عبد الحميد أدرك السياسة الإنجليزية في الهند ومطامعها في البحر الأبيض والمحيط الهندي، ولذلك تقرب من الألمان مما أدى إلى إزعاج الإنجليز والروس ، وأصبح إيقاف انتشار ألمانية الذي يتضمن أيضاً الدولة العثمانية قضية جدية، وكان من أجلها اجتماع روفال .

ولكن على الرغم من أن روفال تناولت كيفية إيقاف انتشار ألمانية، فإن ألمانية التي خشيت من ابتعاد عبد الحميد عنها إذا انتشر الخبر؛ قامت بالدعاية بأن جدول أعمال روفال تضمّن تقسيم الدولة العثمانية وليس ألمانية، وعملت على نشر هذا الخبر في الأراضي العثمانية .

تقول شادية سلطان: "هذا التلقين مع الأسف كان مؤثراً جداً، فتحرك الرأي العام التركي، وانحاز مع الهيئة العامة للدخول تحت النفوذ الألماني ".

وإذا قرأنا هذه العبارات أدناه ستقتنعون مثلي بالقدرة التحليلية العميقة التي تمتلكها :

لو تمت قراءة زيارة ويلهلم الثاني قبيل الحرب العالمية الأولى كلا من لندن وفيينا وروما والفاتيكان وأثينا وإسطنبول وفلسطين وطنجة مبشراً

بأيديولوجية توحيد الألمان pangermanizm ولو قرأنا خطابه التهديدي " مستقبل ألمانية في البحار " ؛ مع لقاء روفال، لرأينا أن غاية الحكام في مؤتمر روفال تستند إلى أساس تصفية حساباتهم مع ألمانية، واتضح لنا أنه ينبغي أن نقرأ الموضوع على أنه مسألة ألمانية. ولم يتمكن والدي من فرض رؤيته على جمعية الاتحاد والترقي التي كانت مسلمة بالكامل للدعاية الألمانية. فلربما لو وفق في ذلك؛ لعقد المجتمعون في روفال مؤتمراً ثلاثيا في إسطنبول لبحث المسألة بشكل مباشر. وألمانية التي تعمل على استغلال الإمبراطورية العثمانية كوسيلة في مخططات اعتداءاتها، ستجدها هذه المرة في مواجهتها إلى جانب إنجلترة وروسية .

شادية عثمان أوغلو، أيام حياتي السعيدة والأليمة Hayatımın Acı ve Tatlı Günleri ، إسطنبول 1966 ، منشورات بدر، ص 102 - 104 .

الشيفرة الدموية لـ7 تموز

يخشى أن يعيدنا الفشل الذي مُنينا به عندما اعتمدنا الإدارة المشروطية لإدارة شعبنا الذي يتنقل من تطرف إلى تطرف؛ إلى ذلك الماضي المخيف مرة أخرى.

سعيد حليم باشا (*1918*)

في 7 تموز انطلقت حركة انقلاب 27 نيسان ضد حزب العدالة والتنمية وفق الوثيقة التي عثر عليها في خلال تفتيش منـزل الجنرال المتقاعد شنر أرأويغور في إطار عمليات الأرغانكون. ونعرف البقية من الصحافة: كانت تركية ستُدفع إلى الفوضى بالاغتيالات والاحتجاجات والتجمعات وغير ذلك، ومن ثم ابتدأت أيام الانقلاب وأعمال التجسس والمشانق والإعدامات...

لفت انتباهي عند النظر إلى الموضوع اختيار تاريخ 7 تموز، فلماذا 7 تموز؟ وبعبارة أخرى: أين تختبئ شيفرة 7 تموز؟

لا بد لي هنا أن أقول: إنه من غير الممكن أن ندرك اختيار الانقلابيين في عصرنا هذا التاريخ بداية لتحركاتهم ما لم نعرف أن 7 تموز كان "الميلاد الدموي" للانقلابيين في تاريخنا.

فدائيو الفاتيكان

في ظل الصراع العالمي القادم مع الماسونيين الذين يدركون بأنهم لن يستطيعوا أن يفرضوا نفوذهم على السلطة قبل إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني؛ كانت الحيل التي لجأت إليها الاستخبارات الألمانية النمساوية لكسب الدولة العثمانية إلى جانبها من خلال الدعاية التي أظهرت لقاء القيصر الروسي مع الملك إنجليزي على أنه من أجل تقاسم أراضي الدولة العثمانية قد بلغت أهدافها، واستطاعت سريعاً تحريض جماعة الاتحاد والترقي الذين يشعرون بأن أنفاس "الخفية" (استخبارات السلطان) تلاحق المتمردين. ومن جهة أخرى، كان إسماعيل ماهر باشا الذي أرسله السلطان عبد الحميد لحل روابط تنظيم الاتحاد والترقي يقوم بوظيفته على أكمل وجه، وكان كلما حُلَّتْ عقدةٌ؛ كانت أجراس الخطر بالنسبة للمتمردين أقرب [209] .

استغل نيازي رسنلي، الذي توجه إلى الجبل بعد الإذن الذي حصل عليه بالمراسلة من مركز جمعية الاتحاد والترقي، وجود بقية الضباط في صلاة الجمعة في 3 تموز لينهب صندوق الطابور، ويفر إلى الجبل وبصحبته

مئتا عسكري متطوع ومثلهم من "فدائيي الوطن" المدنيين، فكلف السلطان عبد الحميد الذي أدرك الحدث بعد تلقى الخبر بالتلغراف الوارد من إسماعيل دبرلي (debreli) باشا [210] ؛ ضابطا من أوثق ضباطه وهو المشير الأرناؤوطي شمسي باشا، لاعتقال نيازي بك وأصدقائه.

وشمسي باشا الذي المشهور باسمه المختصر "شمو" كان معروفا لدى الناس بصلابته ونظامه وإخلاصه للسلطان، وكان عسكرياً صاحب تجربة صارع سنوات طوال مع الجمعيات المتعاظمة في البلقان وخاصة في البلغار، حتى أن فوزي چاقماق تعلم منه حرب العصابات، وذات مرة عندما كانت طلقات الرصاص تمر من فوق رؤوسهم وقف فوزي باشا والتفت إلى مصدر الصوت وقد أزعجه أزيزه؛ كان شمسي باشا هو الذي قال له ممازحاً: "لا تقلق أيها الشاب! فالرصاص الذي تسمعه لا يصيبك!".

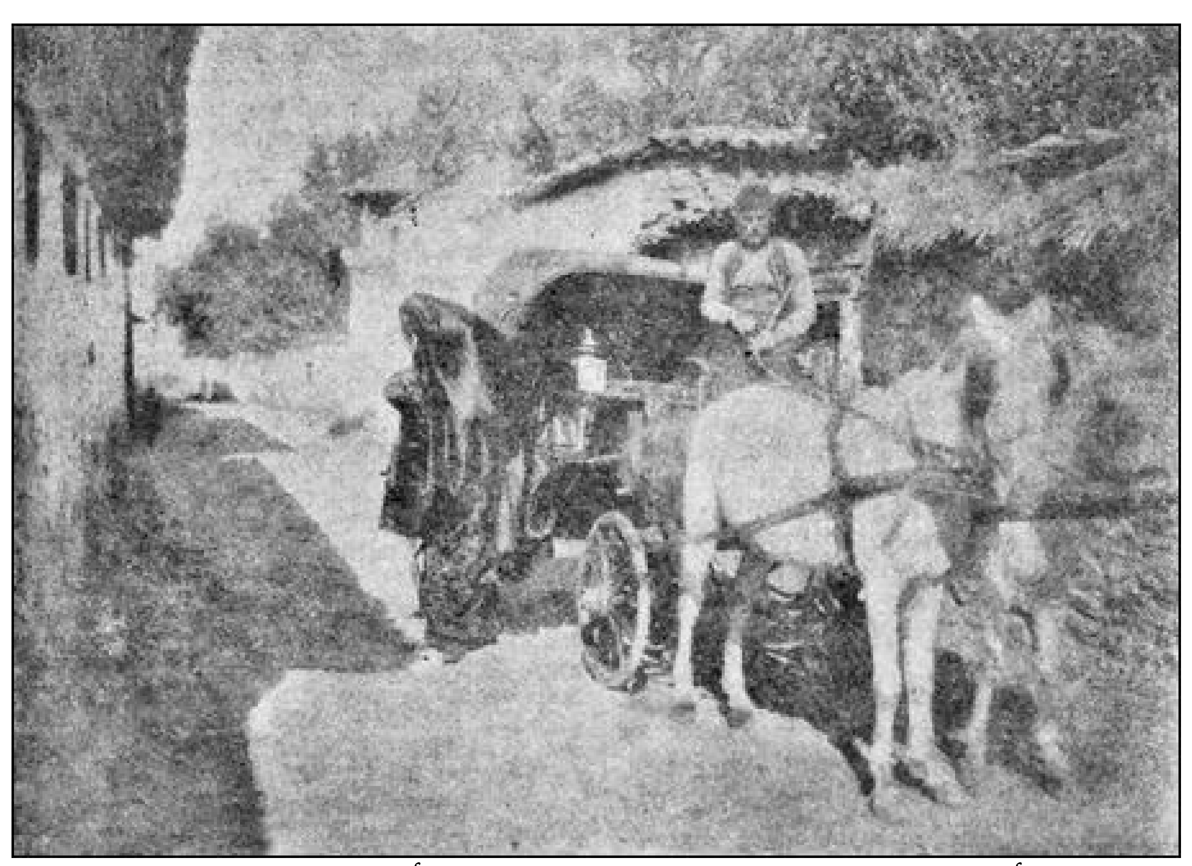
لم يتأخر شمسي باشا بعد تلقيه الأمر، وتحرك على الفور حتى وصل مناستر، وأرسل إلى سراي السلطان تلغرافاً يطمئن القصر بأن كل شيء سيكون على ما يرام حتى 7 تموز.

وصوله إلى مناستر أثار الرعب بين الاتحاديين، فاعتقال نيازي وعصابته لم يكن يرقى إلى مستوى مهمة ذات شأن بالنسبة لقائد كشمسي باشا تجول في الجبال يصطاد أعضاء الجمعيات كما يصطاد الحجل، فنجاحه في مهمته يعني تلقي الاتحاديين ضربة قاتلة، وربما كانت ستأتي بعدها حملة الاعتقالات التي لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

إصابة شمسي باشا!

لم يكن الفريق أول شمسي باشا مشيرا (مارشالا) كما كتبت سونر يالجين في "الأفندي"، [حيث كانت رتبة الفريق أول تعني رتبة بين اللواء والمشير، وكان المشير الذي أرسل إلى الجبال هو التتار عثمان باشا الذي تم اغتياله أيضاً من قبل الاتحاديين]. كان يجر قدمه جرّاء إصابة ناجمة عن ترجل خاطئ وهو يتحرك ببطء أمام بريد مناستر نحو عربته الرسمية، امتدت يد من بين جموع المتفرجين، وأطلقت طلقتين شكلتا منعطفاً لحركة الانقلاب لا يمكن الرجوع عنه! [211] .

على الرغم من أن بعضهم يقول: إنه أصيب في صدره وقتل على الفور؛ فإن ولده مفيد شمسي في كتابه الذي يتحدث فيه عن والده يقول: إن والده أصيب في كتفيه، فعاد إلى مبنى البريد لكنه توفي متأثرا بالنـزيف الداخلي، وهذه الرواية هي الأرجح في رأيي [212] .



صورة مأخوذة لتهريب عاطف بك في لباس امرأة بعد قتل شمسي باشا

على الرغم من أن إصابته من قبل ضابط آخر بعد إطلاقه النار على شمسي باشا؛ فإن عاطف بك تمكن من الفرار مستفيداً من الفوضى الناجمة عقب الحدث، فلجأ في البداية إلى إحدى الدكاكين وحمل صاحبها على إغلاقه، ثم جرى نقله في لباس امرأة إلى منـزل أحد أصدقائه بمعونة من المنظمة، وبذلك اختفت آثاره، وأصبح بطل الحرية، والفدائي المجيد، ولن تنسى هذه البطولة في عهد الجمهورية فأصبح نائباً في البرلمان عن جناق قلعة لفترتين من دون أن تكون له أية خبرة أخرى، فكروا جيداً: إنه نائب قاتل في مجلس برلمان الجمهورية... فهل يمكن أن يكون القاتل بطلا؟! نعم يمكن أن يكون إذا انتصر الاتحاد والترقي، وإلا فالجواب بسيط: سيقيس طول مشنقة الإعدام مثل طلعت أي دمير.

القتل ينتج البطولة

هل ينبغي علينا أن نجري المحاكمات بناء على نتيجة الانقلاب نجاحا وفشلا؟، وإذا كان الأمر كذلك، فهل السرقات وجرائم القتل وأعمال النهب وكل شيء يتم في خلال الانقلاب مباحاً ينبغي تبييضه؟ وإلى متى يستمر هذا؟ فما نعارضه ونقف في وجهه اليوم؛ ألا ينبغي أن نُدينه في زمن وقوعه "انقضى أم لم ينقض"؟

ما دام "بطل الحرية" نيازي رسنلي منتهب خزينة طابوره وجابـي

الضرائب من القرويين عنوةً، و"فدائي الوطن" عاطف بك الذي قتل قائده، وأنور بك [213] الذي لم يتردد في قتل صهره ناظم بك.. ما دام هؤلاء يعتبرون "وطنيين"، أي ما دامت مجموعة من الناس تشكل عصابات خارجة على القانون، وتفوض نفسها بنفسها، وتشق طريقها نحو الحكم، ويتم تقديسها بعد ذلك؛ فإن هذه الدوامة لن تعرف النهاية. فماذا تقولون غداً عندما تأتي فئة أخرى، وتسلك نفس السبيل، وتقوم بنفس الأعمال الخارجة على القانون؟!

ثم ماذا فعل هؤلاء الذين حاكموا السلطان عبد الحميد لانتهاكه الدستور على الرغم من أنه أصبح سلطاناً بطريق قانوني، ولم يستعمل إلا صلاحياته التي يعطيها الدستور؛ ألم يدوسوا على هذا الدستور بدفاعهم عن أشد نظام عسكري أقاموه؟! لقد قامت جماعة 27 أيار بمحاكمة المرحوم عدنان مندريس بتهمة انتهاكه دستور 1924، لكنه من الغريب أنهم قاموا بإلغاء الدستور كله من أساسه، ومن دون أن تتغير ألوان وجوههم، حاكموا رئيس الوزراء بنفس الدستور وأعدموه!

كان انقلاب المشروطية الثاني عام 1908 قد أطلقت مسيرة الديموقراطية في تركيا. حسناً، لكن هذه المشروطية التي أعلنها الاتحاديون عبر انقلاب دموي.

وهؤلاء الاتحاديون الذين أعلنوا المشروطية عبر الانقلاب الدموي ألم يخنقوه بالدماء في فترة ليست طويلة، فقط في خلال عامين؟ ألم تشترك عوامل أخرى في الفترة الديموقراطية كان من طبيعتها تتابع أحداث الإعدامات والاغتيالات والإعدامات الميدانية من دون محاكمات والتهديدات والاستيلاء على الباب العالي؟!

وهكذا يكون الانقلابيون [الأرغناكون] باختيارهم 7 تموز موعداً لحركة الانقلاب قد أظهروا مرة أخرى أن الدماء التي لطخوا بها وجه المجتمع في ذلك اليوم لم يتم تطهيرها حتى يومنا هذا.

الخط الماسوني بين المشروطية والأرغناكون !

ليس لدينا تاريخ لمؤسسة قانونية، وسيظهر يوما ما الخطوات الهامة الكبيرة التي قطعت في عهد عبد الحميد نحو تنظيم قانوني عصري متساوٍ.

أرغين د. أقارلي

أنا الآن مشغول باكتشاف السر الذي يختبئ خلف العنوان الظاهر في موقع "مِلِّيَّتْ" على النت، نعم يا صديقي أقصد مانشيت "بطل مناستر" هذا، سمعتم عنه بالتأكيد، عمن أبحث؟ إنه رئيس هيئة الأركان السادس والعشرون أور جنرال إلكَر Başbuğ .

حسناً فهل كان موقع "مليت" يريد أن يقول: إن الطلقات الأولى التي انطلقت في سبيل المشروطية كانت في مناستر؟. وإذا كان الأمر كذلك؛ فهل يعني أن تلك الطلقات كانت مبعث ارتياح من حشر في الزاوية؟ ربما...

انظروا كيف شئتم، فستجدون أمامكم عنواناً ذا مغزى كبير.

كانت الرسالة التي كتبها حسين Gülerce واحدة من أكثر الرسائل الواضحة التي قرأتها في السنوات الأخيرة. فقد كتب في 30 تموز 2008 في جريدة "زمان" تحت عنوان "أين الماسونية من الأرغانكون؟"، فذكر فيها أسئلة مذهلة تدفع نحو كسر الشيفرة الماسونية في "الأرغناكون".

والمحافل الماسونية في الحقيقة تحتل دائماً دورا ما في هذا النوع من التنظيمات السرية. فالمعلومات الكثيرة المتعلقة بالتنظيم بدءاً من العلاقة بين محفل (P -2) الماسوني والتنظيم، والتي أظهرتها للعلن تحقيقات النائب العام فيليسة كاسون Casson Felice ، الذي قضى على غلاديو في إيطالية، هذه المعلومات تستند إلى اعترافات إلهان سلجوق في ملفات الأرغنكون والتي تثبت بأن التنظيم ظهر من مخططات الانقلاب التي تم إعدادها في محفل Masonlar Edilmiş Kabul ve Hür الكبير [محفل الماسونيين المقبولين (النخبة) الأحرار].. نعم هذه المعلومات تظهر الروابط بين الماسونية وتنظيم الأرغنكون وتبين أن هذه الحقيقة تتجاوز كثيراً نظرية المؤامرات.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، ففي وقت متزامن على وجه التقريب يعقد محفل المشرق الأعظم الماسوني اجتماعا في باريس، ويقدم الأستاذ الأعظم جان ميشيل كيلارديه بياناً خارج عن عمله معتبراً أن تشريع القانون المتعلق بحرية الحجاب "ثغرة خطيرة تفتح في بنية العلمانية التركية".

وتختلط الأفكار في أذهاننا... وينشأ هذا السؤال في عقولنا: "ما هذا الحقد؟ أم أن هناك ضمانات أعطيت للماسونيين في موضوع العلمانية ولا ندري؟!".

ثم يسأل حسين gülerce في إصرار:

هل كان الماسونيون موجودين في بنية القوات المسلحة على الرغم من أن القانون يمنع ذلك؟! وهل هناك مطرودون من الجيش بسبب انتمائهم إلى الماسونية؟ وهؤلاء الذين يستولون هنا، ويتسللون هناك، ويقيمون الدنيا ولم يقعدوها باسم الشعب؛ لماذا يخرسون في موضوع الماسونية؟

الماسونية والاتحاديون

لكننا إن عدنا إلى ما قبل 100 عام؛ فإننا نرى عددا لا بأس به من الماسونيين بين القيادات المدنية والعسكرية للمتمردين، تظهر بوضوح علاقات "جمعية الحرية العثمانية" التي أنشأتها جماعة جون ترك (تركيا الفتاة) والتي أصبحت في ما بعد جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك؛ بمحفل " Risorta Macedonia " الماسوني ومركزه سلانيك.

وكان على من يريد الانتساب إلى الجمعية أن يكون ماسونيا أولاً، أي أن يتم "تكريسه" أولاً، كما يقول بول دومون Dumont Paul . وهكذا تم انتساب 188 من الاتحاد والترقي إلى الماسونية في خلال الأعوام 1901 و1908، 23 منهم موظفون من ضباط الرتب العليا في الجيش الثاني والثالث المتمركز في روم إلي [214] .

ووفق أحمد بدوي كوران وهو اتحادي؛ فإن الماسونية أصبحت بين الاتحاديين في مستوىً لا يمكن تجاوزها، حيث أصبح في الجمعية صنفان من الاتحاديين، الأول: هم الاتحاديون المنتسبون إلى المحافل الماسونية ويدعون بالعربية "بالإخوة لأبوين". بينما الاتحاديون الذين لا ينتمون للمحافل الماسونية فيدعون "بالأخوة لأب" [215] . ويمكن أن يقال أيضا: الأخ الشقيق، والأخ بالتبني. وهكذا نعلم أيضاً أن قائد الجمعية الأول طلعت باشا وعمانويل قرة صو الذي أصبح في ما بعد نائباً في مجلس المبعوثان كانا من أوائل أعضاء المحفل المقدوني ريستورا، وبلغا الدرجة 33، وأصبح كل منهما أستاذا أعظم. حتى أن الاتحاديين قبلوا عرض قرة صو بحفظ "الوثائق السرية في معبد ماسوني"، وكانوا بذلك كمن يؤمن الذئب على الغنم [216] .

على الرغم من أن مثل هذا الموقف كان طبيعيا في تلك الأيام، لكن الاتحاديين حاولوا ان يتخلصوا من سيل الاتهامات التي جاءت في ما بعد

بقولهم: "لم يستخدمنا الماسونيون، بل نحن الذين استخدمناهم". ماذا سيكشف التاريخ بعد سنوات قليلة فقط 10 سنين،.. "من استخدم من!".

حسناً، فهل ما أوردته هنا لا يعدو سوى تكهنات أو نظريات مؤامرة؟!... كي أعبر عن هدفي بوضوح أكبر ساعتمد على الوثائق المنشورة التي أصبحت في متناول الرأي العام، بدلا من الوثائق السرية هنا وهناك.

الاعتراف الذي يدينهم من أفواههم

الأول: هو التصريح الذي صرح به رفيق منياسي زادة بك من أعضاء المحفل المقدوني الماسوني ريسورا والذي جيء به إلى وزارة العدل عقب إعلان المشروطية؛ لجريدة "ذا مورنيك بوست" الإنجليزية. فمنياسي زادة رفيق بك الذي أكد في تصريحه هذا تلقي الاتحاديين "الدعم المعنوي" من الماسونيين الإيطاليين؛ تحدّث بدماء باردة عن الخدمات الكبيرة التي قدمها لهم محفلا مقدونيا ريستورا و Lux et Labor ، واحتضانهما لاجتماعاتهم، وتابع يقول:

كنا نجتمع هناك كماسونيين، وكنا بمعظمنا ماسونيون، لكننا في الحقيقة كنا نجتمع لتأسيس التنظيم، إلى جانب أن قسماً كبيراً من رفاقنا اخترناهم من هذه المحافل لأن الماسونيين يغربلون أعضاء تنظيمهم بمنخل دقيق وينسجون بنيتهم بدقة؛ فالماسونية هي المنخل الدقيق في جمعيتنا... لكن هذه المحافل التي تلقت ضمانات بدعم السفارة الإيطالية عند الحاجة؛ كانت مرتبطة بمحفل المشرق الأعظم الإيطالي [217] .

هكذا إذاً:

1- كان الاتحاديون يجتمعون في المحافل الماسونية باعتبارهم ماسونيين.

2- تم انتخاب قسم كبير من رفاقه من الماسونيين.

3- لأن الماسونيين خبراء في اختيار الأعضاء للجمعية.

4- علاوة على أنهم تلقوا ضمانات من السفارة الإيطالية إذا ما حاول عبد الحميد أن يتدخل في الأحداث بأي شكل من الأشكال.

فمن الذي يتحدث بهذا؟ إنه حضرة الشخص الأكثر اعتباراً عند الاتحاديين، ولذلك جعلوه في قافلة المشروطية وزيراً.

a cédé tout de suite.

» Cette organisation pour la lutte était terminée à la fin du mois de juin. Vers le milieu de juillet, le gouvernement envoyait le général Chemsi pacha, pour poursuivre la bande Niazi. Vous savez comment il a été presque tout de suite tué. On expédiait en outre, de Smyrne, trente bataillons de rédifs que nous avons d'autant mieux accueillis que nous les savions des nôtres et qu'ils ont ainsi grossi les forces dont nous disposions en Macédoine. Nous étions tellement décidés à agir que les 21, 22 et 23, des télégrammes sont partis, tous les jours, de Salonique, de Monastir, d'Uskub et de Serrès, avertissant le grand-vizirat que nous marcherions sur la capitale si la Constitution n'était pas immédiatement accordée. Cette Constitution fut octroyée, par iradé impérial, le 24 au matin. Sans cela, nous aurions mis à exécution notre menace, nous étions prêts et nous avions arrêté notre plan d'opérations. »

Quand il a eu terminé ce rapide historique, j'ai posé à Refik bey une question sur le rôle que, selon certains, la franc-maçonnerie aurait joué dans ces événements. Voici ce qu'il m'a répondu:

« Il est vrai que nous avons eu l'appui moral de la franc-maçonnerie, surtout de la franc-maçonnerie italienne. Il existe, à Salonique, plusieurs loges: la *Macedonia risorta* (la Macédoine ressuscitée), et la *Labor et Lux* qui dépendent du Grand Orient d'Italie; la *Veritas*, du Grand Orient de France, la *Perseverenza*, du Grand Orient d'Espagne, et la *Philippos*, du Grand Orient de Grèce, celle-ci ayant un but exclusivement nationaliste. A vrai dire, les deux premières, seules, nous ont vraiment servi. Elles ont été pour nous des refuges. Nous nous y réunissions comme maçons, car beaucoup d'entre nous font partie de la maçonnerie, mais en réalité pour nous organiser. De plus, nous avons pris une grande partie de nos adhérents dans ces loges qui, par le soin avec lequel elles faisaient leurs enquêtes, servaient ainsi de crible à notre comité. On a eu, à Constantinople, de vagues soupçons sur le travail secret qui se fai-

نسخة صحيفة Le Temps 20 آب 1908 وفيها: التصريح الذي يعترف فيه مناياسي زادة رفيق بك بروابط الاتحاديين بالماسونيين

ومرة أخرى يصرح منياسي زادة رفيق بك في ظل حماس الانقلاب تصريحه الثاني، وهذه المرة لصحيفة Le Temps التي تصدر في باريس، فيقول:

لقد قدمت لنا الماسونية والماسونية الإيطالية دعمها المعنوي.... وفي الحقيقة ساعدت المحافل الماسونية الإيطالية جمعية الاتحاد والترقي فقدموا لنا الحماية، وأصبحوا ملاجئ لنا. وكنا باعتبار معظمنا ماسونيون نجتمع لتشكيل التنظيم في المحافل، ونحاول اختيار أعضائنا من المحافل؛ لأنه كان يجري اختبار دقيق عند الانتساب لعضوية الماسونية.

وهكذا وجدنا عند إعلان المشروطية في المحافل الماسونية في سلانيك ومقدونيا ملجأً للاتحاديين، توجيهات تصل إلى اختيار الأعضاء، وتلقي تلك الخبرة من المعلم الأول. وعلى الرغم من تدخل المركز العام للاتحاد والترقي واستدراكه على أقواله وأنه فهم بشكل خاطئ، ولم يقصد ما يقول، لكنها خرجت من فمه مرةً!

الحكومة الماسونية؟

لا بد لي من التذكير هنا قبل إنهاء هذه الفقرة، بأنه كان هناك من يتحدث كميرألاي صادق بك الذي أصبح رئيساً لحزب الحرية والائتلاف التي انشق في ما بعد عن الاتحاد والترقي؛ عن ميل الفرقة إلى تطلعات الماسونيين، غير أن الاتحاديين باختيارهم رجل متدين كحجي عادل بك في مقام (الكاتب العمومي)؛ حاولوا إبعاد تهمة "الحكومة الماسونية" عنهم، ويبقى رجل كالدكتور ناظم من طليعة قيادات الاتحاديين يدافع حتى الآن وبسذاجة بالغة عن خدمة الماسونيين للتطلعات الإنسانية [218] .

على كل حال، وبينما تفكرون في هذه الأسطر أنتقل إلى إحدى صحف عام 2008 لأضع على الطاولة هذا الخبر المذهل:

قام محفل Hür ve Kabul Edilmiş Masonlar الكبير [محفل الماسونيين المقبولين (النخبة) الأحرار] بإصدار تعليماته إلى كافة المؤسسات التابعة له للقيام بنشاطات مختلفة من "عروض أزياء المشروطية" وتعريف الكتب، والمؤتمرات وغيرها احتفالا بالذكرى المئوية للمشروطية طيلة عام 2008 .

وليته كان مجرد عروض أزياء، فقد كان يختفي وراءها مخطط الانقلاب أيضاً!

كاد الشباب أن يعلنوا المشروطية

هل فكرتم؟ لو كنتم تعيشون في العام 1908؛ فكيف كان يمكن أن يكون لون وجوهكم؟ أنا على ثقة بأنها ستكون أشد احمراراً، ولكن ليس من الخجل، بل من كثرة النـزول إلى الشوارع وإطلاق الشعارات والخطابات على مدار الساعة!

خاصة إن كنتم ممن تغلي في عروقهم دماء الشباب، وفي أيديكم علم، وتنـزلون إلى الشوارع بالرايات، وياقاتكم تحمل صورة الصدر الأعظم كامل باشا، وتذرعون الشوارع وقد أضفتم في راياتكم الصليب إلى النجمة والهلال، وتصبون اللعنات على السلطان عبد الحميد بملء أفواهكم، (وتأملون بخلعه عن العرش)، وشعارات (الحرية، العدالة، المساواة) تصب في آذانكم وتطن كأنها طلقات الرصاص.

وباختصار، كانت الأرض تتحرك بشدة قبل مئة عام، وبينما تغرق أقدام كثير من أنصار عبد م الحميد؛ كانت أقدام عشرات الألوف في الشوارع تكاد تنفصل عن الأرض وتتعلق في الهواء!

وفي رأيي لا زالت أقدامنا لم تلامس الأرض بعدُ حتى هذا اليوم، لأن النيران التي أشعلها ذلك الحماس لمّا ينطفئ بعدُ، فالكاتب الذي يكتب عن نهب نيازي رسنلي خزينة الطابور لا يتلقى سوى التهديد بالموت، وعندما كتبت عن عاطف بك الذي قتل ضابطا كبيرا (أورجنرال) ووصفته مباشرة بالقاتل، وأنه على الرغم من عدم امتلاكه أية مؤهلات؛ كوفئ بمنصب نائب في البرلمان فترتين متعاقبتين في عهد الجمهورية... نعم عندما كتبت هذا لم أتلق سوى سيل الشتائم والإهانات.

لا أريدكم أن تفهموا خطأً، فلا أقول هذا تذمرا وشكوى، فمن يدخل الحمام يعرق، ما أردت قوله هو أن تاريخنا القريب لا يزال دخانه يخفينا، ونحن لا زلنا نتعامل مع هذا التاريخ بحياد تام!

والجهل فينا يبلغ أقصى مداه، هل تريدون من يزعم بأنه ينير لكم هذا التاريخ بخطوطه السطحية العريضة من دون الخوض في التفاصيل، فيغرقه في مزيد من الظلام؟ أم تريدون من يقلب أشجار الدلب على أشجار الدلب من دون أن تحمر وجوههم خجلاً؟!

وهكذا يزعم من يزعم بأن عبد الحميد حكم 33 عاما من غير برلمان.

الإنصاف من الإيمان!... فإن كل حكمه في الأصل يا قوم 32 عاماً و7

شهور و7 أيام، وإن أخرجنا منها 11 شهراً وهو المشروطية الأولى التي أعلنها بعد 3 شهور و23 يوم من اعتلائه العرش، وعهد المشروطية الثانية الذي دام 10 شهور؛ فيبقى من حكمه 30 عاماً 5 شهور و6 أيام. (وكم كنت أود لو حكم 43 عاما بدون مجلس؛ ولم نعلن أدرنة مدينة حدودية، وليتنا "لم نحج"، وحج الناس!) [219] .

وكذلك الزعم بأن عبد الحميد علق الدستور وفرق المجلس؛ يستند على أسس واهية.

فأولاً: على الرغم من تعليق القانون الأساسي، فإنه بقي ساري المفعول على الورق بشكل دائم.

وثانياً: كان البرلمان العثماني في دستور عام 1876 يسمى "المجلس العمومي"، وكان يتألف من مجلسين.

الأول مجلس المبعوثان، والثاني مجلس الأعيان. والإجازة التي أعطاها عبد الحميد لمجلس المبعوثان (وليس حَلّهُ) لم تكن تعني تفريق كلا المجلسين، بل بالعكس هو الصحيح، فقد استمرت هيئة الأعيان التي هي جزء من المجلس العمومي في عملها، وهم وإن كانوا لم يدعوا إلى الاجتماع مرة أخرى فقد استمرت معاشاتهم، وبقيت أسماؤهم وصورهم تحتل مكانها في السنويات (Salname) الرسمية التي تصدرها الدولة.

خطأ آخر، هو تقييم المشروطية على أنها عمل خاص قام به الجيش الثالث في مقدونية، وهو خطأ ناجم عن محاولة من مركز الاتحاد والترقي في سلانيك لحرف القضية نحوها بعد وصولها إلى الحكم. فكم عدد الذين يعرفون منا بتمرد أرضروم؟ وهل قيام مجموعة من النساء بالسيطرة على مركز الولاية في أرضروم لتخليص أزواجهن من السجون حادثة سهلة لا تستحق الذكر؟، فلماذا لا تذكرها وأمثالها كتبُنا؟!

وعلى الرغم من أن تمرد أرضروم تم القضاء عليه من قبل الدولة؛ إلا أنه تم بتحريض من الاتحاديين، وربما كان هناك أبطال آخرون للمشروطية يتم التصفيق لهم لو نجح هذا التمرد! والغريب في الأمر، أن هذا الكلام ليس كلامي، بل هو ما يقوله رؤوس الاتحاديين، وهذه هي الأقوال المذهلة لحسام الدين أرتورك الموظف في التشكيلات المخصصة لأرضروم:

لو لم يعلن عبد الوهاب باشا والي أرضروم الأحكام العرفية ويسوق الوطنيين إلى قلعة سينوب في الأيام التي سبقت المشروطية؛ لتمكنت أرضروم من سحب شرف إعلان الحرية من أيدي سلانيك ومناستر [220] .

ونجد الهم نفسه في مذكرات رسنلي نيازي بك، فنفهم من ذلك أن جمعية سلانيك قد ركبها هم ضياع الفرصة من يديها لصالح الأناضول. فاستمعوا لصوت آخر لشخص وافد من أوساط الجون تورك، إنه أحمد بدوي كوران كيف يسلط الأضواء بذكاء على هذه النقطة:

ربما لو وجد معدو تمرد أرضروم إمكانية الدعم والتنسيق والمشاركة في الحركة؛ لفتح الطريق إلى إعلان المشروطية عام 1906 ، وانعدمت فرصة حركة سلانيك التي ظهرت في ما بعد لإخضاع باقي السياسات لسياساتها.

أي أن أبطال الحرية كانوا سيقيمون من بلاد الداداش وليس من سلانيك، ويتساءل كوران وهو محق في ذلك، "لست أدري إن كان هناك من يتذكر تلك البطولات؟".

أقول دائماً: إننا نكتب تاريخنا بعيون أوروبية! لماذا؟ لأن الفرع الذي سيطر على الحكم من الاتحاديين كان من أوروبة، فليبحث جيداً أولئك الذين ينسبون تاريخ المشروطية إلى البلقان عن تمرد أرضروم، وليقرأوا جيداً الدفاع العجيب لمولود Mezararkalı آغا في المحكمة.

أتريدون المرجع؟ تعلمون أني لن أقول لكم ابحثوا واكتشفوا بأنفسكم. فإن لم تعثروا على كتاب "هادي نديم Ulusalkul " عام 1937 [221] ؛ فابحثوا عن كتاب أيقوت قانصو "ثورة 1908" [222] .

ثم ألا يقولون: إن الرأي العام في الدولة العثمانية كان يتمثّل بإسطنبول وسلانيك؟ للأسف لا يدركون أنهم عالقون في شباك سلانيك.

رسالة حب من ثوري

كانت المشروطية أملاً بدا فجأة كالشمس في سماء ملبَّدة بالغيوم ثم اختفى، ثم سيطرت بعدها مملكة الحشرات، لقد كان المستبد واحداً أصبح ألفاً، تم سوق الناس الخشنين أصحاب الجزمات اللامعة إلى القرى الأخيرة للأناضول، إلى خطوط النار وتم حصدهم بالملايين، وسالت الدماء التي تم حقنها وحفظها في شرايين الناس وفي أوردتهم إلى ما يزيد على الثلاثين أو الأربعين عاماً؛ .. نعم سالت ينابيع وأنهاراً، وامتلأت البلاد بطولها وعرضها بأنات الناس، ولم يبق هناك مكان لحق ولا عدالة ولا أحزان، وتم تحويل أبناء الأمة البطلة بالقمع والضرب إلى حالة من العجز والخوف من الأعداء. هذا هو مشهد عام 1918 .

تحسين دميراي، Taşları İşaret üçük K

"حجارة الإشارة الصغرى" ، إسطنبول *1955* ، ص *46* .

الجمعة 3 تموز 1908؛ كانت مقدونية في حالة غليان، وكانت الفرصة السانحة عند صلاة الجمعة، فالضباط والجنود في صلاة الجمعة! ... رجح نيازي بك الثورة على صلاة الجمعة، وأصدر الأمر المنتظر، وانطلق بصمت إلى "البلقان"، أي إلى الجبل، وكان هؤلاء الثوريون بحركتهم هذه يشكلون طليعة ثورة المشروطية أو "إعلان الحرية" بتعبير ذلك الزمن، والتي ستشكل واحدة من أهم الانكسارات الجذرية في تاريخنا القريب.

كتبت آرائي حول نيازي رسنلي في أماكن أخرى، ولن أسعى هنا لتقييم شخصيته أو أعماله، بل سأتناول رسالة كتبها بنفسه تنشر لأول مرة هنا في هذا الكتاب، وبذلك نقف معا على نفسيته في منعطف شديد الاضطراب عام 1908.

ملف أزرق

قبل فترة قريبة؛ اشتريت من أحد الصحفيين ملفاً أزرق، وفوجئت فيه برسالة وصور عائلية تعود لعائلة نيازي بك، وذهلت، وأكون كاذباً إن قلت غير ذلك؛ لأني وجدت فرصة الكشف عن بعض الأمور غير المعروفة المتعلقة بالحياة الشخصية لواحد من بطلي "الحرية" (ولا داعٍ لأذكر بأن الآخر هو أنور بك، أليس كذلك؟).



صورة نيازي رستلي التقطت أيام ظهوره "كبطل للحرية"

بحثت في الملف بفضول بالغ، وكلما بالغت في البحث؛ ازداد توغّلي في الحياة الخاصة لهذا الرجل الذي مات منذ زمن بعيد!. وبينما كنت أقلب في محتويات الملف وفي قصاصات الصحف الصفراء القديمة، ونسخة الروبورتاج مع عائلة نيازي بك عام 1950 مكتوبة على آلة كاتبة، .. إلى أن وقعت عيناي على ظرف فيه صور بينها صورة نيازي بك أيام اشتهاره "بطل الحرية"، بشاربيه المفتولين الذين يحطمان الرقم القياسي.

والصورتان الأخريتان، لزوجته (رفيقته) فريدة هانم، ولأبنائه مدحت وصائم، وحفيده نيازي رسنلي أوغلو [223] . وفي الصورة الأخرى معطف نيازي المدني الرمادي الذي كان يرتديه عند إصابته في ميناء أفلونيا، وعليه ثلاث فتحات أحدثتها الطلقات النارية.. وتقول الرواية بأنه على إثر هذه الإصابة سقط على أرض صريعاً، وكانت آخر ألفاظه: "لماذا يا هذا؟" [224] .



زوجة نيازي رسنلي فريدة هانم، وولداه وحفيده ابنه الكبير مدحت إلى يمين فريدة هانم، وإلى يسارها صائم رسنلي أوغلو

ولم يُجب التاريخ على سؤاله "لماذا؟" حتى الآن. لكنه لا زال وقوع الصيد في شباك التاريخ الذكي مستمرا!، ومن هذا الصيد؛ الرسالة العاطفية التي كتبها نيازي رسنلي قبل صعوده إلى الجبل!

تتذكر زوجته فريدة هانم أيام الفراق في مقابلة معها بعد سنوات فتقول:

أتذكر خروجه إلى الجبل في زمن "إعلان الحرية"، كان قد تقلد سلاحه والشريط الحامل للرصاص، وعلق بارودته، واعتمر قبعته التي كتب عليها "فدائي الوطن". وعندما سألته باستغراب: "ما هذا اللباس؟"، أراد أن لا يثير قلقي، وأخفى عني نيته التمرد على السلطان وهو يقول: أبداً، فكل ما أردته هو التذكُّر!".



المعطف الذي كان يرتديه نيازي رسنلي وعليه أثار ثلاث طلقات

وهذه الرسالة هي رسالة الوداع التي ربما كتبها بعد خروجه، وأرسلها عبر أحد أصدقائه، والتي تنشر لأول مرة.

عيناي!

اقرأي رسالة الوداع هذه، والذكرى القيمة التي أرسلها لك ببرود بالغ (اطمئنان) وسرور وفرح! وأعلني فرحتك كلما قرأتها!

إياك والبكاء! ولا تكتئبي! واستودعيني عند الله! بل وافتخري! فأنا محظوظ بك! وستكونين من أكثر نساء العالمين احتراماً! فلذلك كوني مطمئنة!

الصفحة الأولى للنسخة الأصلية الموجودة في أرشيفي لرسالة نيازي بك التي عثرت عليها

روحي! إياك أن تكوني متأثرة في وجدانك [حزينة مكتئبة] ، ولتظهري للعالم بأنك زوجتي! وليسامحك الله وأنت ترغبين بتقديم تضحيات تفوق

الخيال! [أكون راضيا عنك ما دمت مستعدة للتضحيات] .

إياك وأن يخطر في بالك أمر آخر [سوء ظن] ، فإني أحبك أكثر مما تظنين! وتجرأت على هذه التضحية معتمداً على عصمتك وعفتك!

فتراب الوطن مجبول بدماء الأجداد، تنتفض كالأسد الجريح اليوم بفعل خيانة السفلة (...) الذين انعدم عندهم الحس الوطني، وسنفقده إن لم تضمد جراحه، ولئن فقدناه فإن (..) وهم كما حصل في كريت (..) كلما عملوا في سبيل استقلالهم الذاتي كلما تعرضت أعراضنا للنيل منها والظلم، وقد رأيت أن عيشي كسائر الناس في هذه الدنيا الفانية حقيراً في وقت يتعرض فيه الناس للموت في ظل المصائب التي تتوالى على وطننا.

لقد ربانا هذا الوطن! وترعرعنا في كنفه، فلو لم يكن موجوداً؛ لما كنا. وقد قيل: "حب الوطن من الإيمان!".

في الواقع أحبك كثيراً (لكني) أحب وطني في هذه الدنيا أكثر من أي شيء!. ما الفائدة [بدون الوطن] ؟! فكل شيء يقوم في وجوده عليه، وتحريك الوجدان المخدر وتحميسه هو من قبح الإدارة الاستبدادية لهؤلاء، ولهذا السبب الجميل تقلدت سلاحي وخرجت إلى الجبل برفقة مئتين من الفدائيين لإنقاذ وطننا الذي يقدم ضحية لهجمات الأعداء (فلا تقلقي!).

وهذا الأمر هو ما كنت رأيته من الاضطراب منذ ذلك الزمن. فاحذري من اليأس، ولن أقول لك حتى كلمة الوداع؛ لأني خرجت فدائيا من أجل الوطن معتمداً على مدد من الله وعلى روحانية رسول الله، فلا تقلقي، فسأحتضنك قريبا في إسطنبول إن شاء الله.

أرسل لك 30 ليرة أخرى مؤقتاً.

أنا مطمئن دائماً على عصمتك وعفتك، وضميري مرتاح، فلا تحزنيني، أستودعك في أمان الله يا عيني.

الباقي: الموت أو خلاص الوطن.

زوجك قول أغاسي فدائي الوطن

20 حزيران *324* (*3* تموز *1908*)

أقبل يدي السيدة والدتي المحترمة، وأقدم تحياتي لكل الأقرباء. فلا يلعنّي أحد. فنيازي يذهب إلى الوطن، ثم لا شيء (...).

وهنا تنتهي رسالة وداع نيازي رسنلي.

"تلك البلاد المنحوسة"

عاش نيازي رسنلي ولم يمت، فرأى الأيام التي حمل فيها على الأكتاف، والأيام التي ضحك له فيها القدر، والأيام التي أقصي فيها ليذوق مرارة

الوحدة من عهد المشروطية، ونعلم أيضا كيف فتل شاربيه المشهورين أمام السلطان عبد الحميد الثاني والسلطان رشاد. ونعرف كيف ذهب إلى بورصة كقائد مظفر، وعندما منعه الاتحاديون من الكلام عاد منكس الرأس من هناك! [225] .

وأخيراً انطلقت ثلاث طلقات من سلاح يدوي في 17 نيسان 1912 سقط على إثرها صريعا فدائي الوطن بلباسه المدني في ميناء أفلونيا من بلاد الأرناؤوط. ويزعم ابنه أنه وجدت في جيبه وصيته التي كتب فيها: "لا تتركوني في هذه البلاد المنحوسة".

"المنحوس يعني نحس الحظ أليس كذلك؟".

حسناً، ولكن ألست أنت الذي خرجت قبل 4 أعوام وأنت تملأ الآفاق دعوة للإصلاحات، وترفع شعار "إننا نفقد الوطن" عند صعودك الجبال؟

فتل الشاربين أمام السلطان رشاد

[8 حزيران 1911]

في اليوم التالي، وكما حصل في الولايات الأخرى؛ تم قبول الهيئات المماثلة في مناستر للمثول أمام السلطان، وقام السلطان بمنح 2000 ليرة للمدارس والمؤسسات الخيرية .

وفي البرنامج قام نيازي بك وأيوب صبري بك وأصدقاؤهما المجاهدون بتمثيل عودتهم إلى مناستر بنفس الزي الذي كانوا يرتدونه قبل عامين عند صعودهم إلى الجبل، وكان السلطان يتابع المشهد من نافذة دائرة المراسم، وعندما مر نيازي بك أمام نافذة السلطان؛ بشاربيه الطويلين حتى يخفي قصر رقبته عن العيون؛ كان ينظر بغرور وهو يمتطي ظهر حصان عالٍ اختاره بعنايةٍ، بينما أيوب صبري بك بطبيعته الخجولة المتواضعة؛ مر بسرعة كبيرةٍ وحمرةُ الخجل تكسو وجهه وغاب عن الأنظار في تصرفٍ يعبر عن ندمه على ما فعل، وربما كان السلطان - مثلنا - يراقب هذا الاستعراض المصطنع والممل في حيرةٍ وضيقٍ .

لطفي سيماوي، الأيام الأخيرة في القصر العثماني ، إسطنبول 2006 ، منشورات Pegasus ، ص 141 .

منذ متى أصبحت "منحوسةً" تلك البلاد التي عاشها "أولاد الفاتحين" مئات السنين؟ بربكم قولوا منذ متى؟!

فاعترف يا نيازي بك: لقد حذفتم من عقولكم هذه القطعة من "أوطانكم"، هذه القطعة لم تكن منحوسة يوم تمردتم من أجلها وتصنعتم البطولات لمواجهة مزاعم تقاسم مقدونية في روفال، وكانت مقدسة لا يمكن

التنازل عنها أليس كذلك؟ فكيف حصل وغابت عنها القدسية هذه في خلال عدة سنوات؟ ألم تكونوا في صراع من أجل ذلك التراب المقدس يوم كنتم تغتالون شمسي باشا وتحذفون من الوجود عثمان تتار باشا في الجبل؟ صدقوني سيحاسبهم التاريخ على أعمالهم هذه ذات يوم. ورسائل العشق تصفر مع الأيام، لكن رسائل الوطن تبقى في خلايا الذاكرة ولا تغيب عنها، وحمدا لله أنها كذلك....

توفيق فكرت وغضبه الذي لا يعرف الهدوء !

انفجار مذهل يعم الحديقة والمحيط والآفاق.

م. شاكر ÜlkütaŞır

إني لأعجب كيف لا زال يلقب "شاعر الوطن" من ضحى بقيم شعب عشق الأرض التي تناول طعامها ونهل من مائها العذب، ... نعم ضحى "شاعر الوطن" بقيم شعبه من أجل حفنة من الماسونيين؟!. وأنا حائر تماما مثل "حقي سهى كزكين" وهو يرسم هذه الصورة المعبرة عن حيرته بهذه الكلمات المشبعة عام 1939:

كان فكرت رجلاً يعتبر العالم كله وطناً، والناس جميعاً شعباً واحداً!، فهل نجد الوطنية في من ليس له وطن؟! عندما نظم "آمنت" كانت قنابل البلغار تنفجر في Çatalca ، وروملي الكبرى تغرق في الدماء والنيران... ومأساة البلقان تركته في صمته، ومشهد الجرحى وقوافل المهاجرين الذين يملأون الشوارع لم يحمله على صرف نقطة من حبر، ولم يجعله يكتب شطراً واحداً!...

لم يكتب! لأنه كان غاضباً، فهل يمكن أن يغضب المرء من شعبه؟ لا تقولوا ذلك، فقد فعل! [226] .

نعم! "لقد فعل ذلك"، لكنه لا زال في هذه الأمة التي غضب منها أفراد يطلون قصة "شاعر الوطن"، وذكراه بعد مئة عامٍ بطلاءٍ زيتيٍ، وبحماسة الشباب...

ولو أن الأمر توقف عند هذا الحد!... فقد دعم شاعرنا الأرستقراطي الإرهاب دعما مباشراً.

كان توفيق فكرت يقيم في قصر آشيان على سفوح روملي حصار، عندما كان يدخل ويخرج من الباب الخلفي لروبرت كولج التي يدرس فيها؛ انتبه ذات يوم ثلجي أن آثار أقدامه كانت وحيدة على الثلج!، أي أنه لم يسر خلفه مخلوق، وسجل ذلك في شعره. فلماذا يأسف غاضب من أمته إن لم يسر خلفه أحد منها؟!.

الانفجار الرهيب

كان الناس ينتظرون خروج السلطان عبد الحميد الثاني من صلاة الجمعة في 21 تموز 1905 أمام جامع يلدز لتحيته والسلام عليه. توقف عند الباب للسلام على شيخ الإسلام جمال الدين أفندي الذي استقبله، ولفت نظره أشخاص آخرون، كان يريد أن يسلم عليهم سلاماً عابراً ويمضي.

سمع صوت شيخ الإسلام يخبره بأنهم ضيوف من الحجاز، إنهم أمير مكة وأقرباؤه، ويتوقف عبد الحميد خان للترحيب بأمير مكة، ويمتد الحديث بعض الوقت [227] .

وهكذا حصل كل ما حصل في هذا الوقت القصير!

ينطلق فجأة دوي هائل ترتج لها الأرض من تحت الأقدام، ويترافق معها تناثر أشلاء البشر وأعضاء الحيوانات في الهواء مختلطة بروائح الدماء والدخان والبارود. وتحولت باحة الجامع لبازار للأرواح، وأرض للمحشر، واختلط الفارون والباكون والآنّون، والأعضاء المنفصلة عن مواضعها من الأجساد، وأقدام الحيوانات التي تتطاير من فوق الرؤوس... ومرور إحدى الشظايا على بعد شبرين من رأس عبد الحميد الواقف داخل الجامع، ودخول شظايا أخرى في جيبه كما يقول في مذكراته [228] .

لكنه على الرغم من اختلاط الحابل بالنابل؛ كان هناك رجل واحد، وواحد فقط لم يتحرك من مكانه، ولم يفقد رباطة جأشه، إنه السلطان عبد الحميد [229] ، ويلتفت إلى المؤذن ويأمره برفع الأذان، وعندما يبدأ المؤذن بالأذان المحمدي؛ يبادر الصدر الأعظم إلى إصدار الأوامر والتعليمات اللازمة واتخاذ الاحتياطات والتدابير الضرورية، ويركب عربته ليلتقط أنفاسه في (مابين) القصر.

والأمر الأغرب المذهل أنه على الرغم من هذا الاضطراب والدماء والأشلاء؛ فإن السلطان لم يُلغ المواعيد التي أعطاها قبيل الانفجار بعد صلاة الجمعة، وكأن شيئا لم يحدث، فاستقبل السفراء الأجانب كالمعتاد، وتابع لقاءاته الروتينية معهم، ثم جمع المسؤولين وأصدر لهم أوامره بتحقيقات واسعة في الحادثة [230] .

الإرهاب الأرمني وشاعر

هذه الدقائق المعدودة التي أخرت شخصية في غاية الأهمية كالسلطان عبد الحميد هي الدقائق التي استغرقها ترحيبه بأمير مكة؛ هذه الدقائق لم تنقذه فقط بل أنقذت البلد من الوقوع في مخاض عصر المصائب الذي سيستمر ثلاثة أعوام أخرى.

فاستئجار قاتل محترف من الأنارشيست يدعى إدوارد يوريس Eduard Jorris من قبل الأرمن، ووضعه قنبلة تحت مقعد سائق عربة الحصان التي صنعت خصيصاً في فيينان والتمكن من التقدم بالعربة حتى مدخل جامع يلدز؛ يذكر بمؤامرة دولية تحيّر العقول، والأمر الأشد إثارة، هو أن الدقائق التي أنقذت عبد الحميد والإمبراطورية كلها من الاندثار في الهواء

مع القنبلة أثارت حفيظة "شاعر الوطن" توفيق فكرت.

أرجوكم لا تقولوا: "وما الغرابة في الأمر؟"، لأن ما أثار حفيظته ليس إرهاب منظمة أرمنية قامت بمحاولة اغتيال رأس دولته، بل كل غضبه لأن المحاولة فشلت ولم تصل إلى هدفها المطلوب!

وهكذا يكتب "شاعر الوطن" الذي لم يتجنب سطر واحد من ما كتبه عشرات المآسي التي واجهها جنودنا المنسحبين من البلقان؛ وهذه فقرةٌ مقتبسةٌ من الأبيات الخمسة عشر:

أيها الصَّيَّادُ المَجيدُ!، ما نَصَبْتَ الفَخَّ بلا جدوى!...

رَمَيْتَ.. ولكِنْ أَسَفاً فما رميت!...

عَمَلٌ يشبه الجريمة بالدماء!...

كان خيراً لو مضى، لم يكن في الدهور مثله!.. [231] .

"جريمة" و"ليست جريمة". ألم يكن ينبغي على رجل مثقف فضلاً عن حمله هم وطنه وأمته ويزعم حبه للإنسانية كتوفيق فكرت.. ألم يكن ينبغي عليه أن يتحمل مسؤوليته ويقول في تلك الأبيات للإرهاب "قف" هذا الطريق الذي تسلكه مسدود؟! ألم تكن الاستقامة على الأقل تقتضي منه الوقوف في وجه الإرهاب؟!

لكن هذا مع الأسف لم يحصل، ويدخل توفيق فكرت التاريخ كشاعر منحط إلى درجة الأسى عليه بتهليله للسلاح الإرهابـي الموجه إلى رأس دولته، وبعث فيه الغضب على الزمن الذي عطل هذا السلاح في الوصول إلى غايته والذي حمله أيضاً على كتابة تلك الأبيات [232] .

خيانة "الرجل الذي يثير حب التاريخ فينا"

" أحمد رفيق ألتن" أي الذي اشتهر بأنه "الرجل الذي يجعلنا نحب التاريخ" وهو يتناول التحقيقات التي أعقبت حادثة القنبلة في المجلد الثالث من كتابه "عبد الحميد وعصر سلطنته" يذكر هذه الأسطر التي لا تصدق :

" وأخيراً ظهرت التحقيقات كاملة، وتبين أن هذه الحركة البطولية كانت بتدبير من المواطنين الأرمن لتخليص الملة العثمانية من مظالم عبد الحميد " **[233]** .

الكاتب الذي صفق للإرهاب الأرمني زمن المشروطية؛ تحول في عهد الجمهورية إلى قومي تركي .

علاوة على أن أحمد رفيق استمر يقول؛ إن أعظم تكريم له هو ما كتبه عن الجنازة والتكفين والدفن تحت عنوان "أمام نعش عبد الحميد". (حقاً إنه مقال نفيس).

إنه من أشد سخريات التاريخ إيلاماً !

الوجه الخفي لـ 31 مارت

لم يكن ينبغي استرداد الحرية من السلطان عبد الحميد، بل تطبيق القليل واليسير من استبداده، والتخفيف من شدته وكثرته.

بديع الزمان سعيد نورسي [*234*]

قبل أن أبدأ في المقال أقتبس هذه الفقرة من "قاطع طريق":

أيها الحاكم، غفر الله لنا، فذنبنا عظيم، فعند استعدادنا لثورة 31 مارت المزيفة؛ قلت لطلعت بك: إنه ينبغي تجنب هذا، وأخبرته بعظيم جرم إراقة دماء الإخوة بلا جدوى. فكان الجواب الذي تلقيته: فما الذي نفعله يا رضى بك، فجمعية الاتحاد والترقي تحتاج للمال، وهذه الحاجة لا تسدها إلا ثروة قصر يلدز والمال الموجود في خزينته [235] .

نعم لم يكتف الفيلسوف رضى توفيق (بولوك باشي) [قائد كتيبة] الذي رأى نفسه دائما في الصف الأول سواء في إعلان المشروطية الثانية (تموز 1908) أو في تمرد 31 مارت [236] (نيسان 1909)؛ بالاعتذار من روح السلطان عبد الحميد الذي كان قد ووري التراب منذ زمنٍ بعيدٍ في شعره "الخطير" الذي كتبه في ما بعد (واسمه الأصلي مستمد من معنويات السلطان عبد الحميد)، بل يعتذر أيضاً مراتٍ متعددة من أقربائه بنفس الأسلوب المذكور أعلاه.

نعتبر أنفسنا محظوظين بحصولنا على تأييد صريح لأقوال الفيلسوف رضا توفيق السابقة. فقد قام المحامي عبد الرحمن شرف لاج بزيارته في مشفى حيدر باشا النموذجي للبحث في قضيةٍ حقوقيةٍ، وفي صحبته وفد فيهم أحد القضاة، فاستأذن المحامي ليطلب من رضا توفيق أن يحدثهم عن الوجه الخفي لحادثة 31 مارت، فكان منه هذا الجواب:

أيها القاضي أيها القاضي! نحن مذنبون، مذنبون، مذنبون، أي رجعية وبماذا أُخذ السلطان عبد الحميد؟ نحن من قام ب 31 مارت، نحن! قامت به جماعة الاتحاد والترقي، فليغفر الله لنا، فليغفر الله لنا!"... لو أراد السلطان عبد الحميد أن يقمعنا لفعل.. لكنه لم يفعل، وحالت رحمته دون ذلك، ولم يرد أن تراق الدماء، لكننا أرقنا الدماء (...) وارتكبنا الجنايات (..) فليغفر الله لنا! نعم نحن الذين فعلنا، ثم خلعنا السلطان عبد الحميد عن العرش، وانتهبت خزينة يلدز، وتم نقل الألماس والذهب وعاءً وعاءً إلى مركز الاتحاد والترقي، لكنها بقيت في أيدي ناهبيها، ولم تنفع أحداً شيئاً.

وكان المحامي لاج يزور في الوقت نفسه أحد أصدقاء رضا المقربين

وهو سليم سري ترجان، وكان من الاتحاديين الملازمين له، ولا يكاد يفارقه حتى في أثناء رياضة الجمباز، فنقل له ما قاله صديقه رضا، وسأله عن صحة ذلك، فوضع شفته السفلى تحت أسنانه العليا برهة ثم قال: "ربما، ربما!"، ثم صمت!

وينقل عبد الرحمن شرف لاج أيضا عام 1956 عن صادق جشملي قصاب آغا الذي كان يعيش في مناستر عند وقوع تمرد 31 مارت ما سمعه من خياط رومي بأنه تمت خياطة ألبسة ضباط للعساكر ضخام الجثة وإرسالها لقمع التمرد [237] .

فاتورة التمرد الدموي في تاريخ 31 مارت 1325 بالرومي ويقابله 13 نيسان 1909 بالميلادي جُيِّرَتْ للسلطان عبد الحميد الذي لم يكن له أي دور فيها، وتم إنـزاله عن العرش، وإرساله إلى المنفى، ومسلسل الأحداث هذه التي أقر بها طلعت باشا، كان سبباً لذيولٍ من الاضطراب المخيف استمرت عشرين عاماً. إنها اضطرابات بنيوية تفتح الطريق "لنظام عالمي جديد" ذي توجّه إنجليزي، وعندما تُبرم اتفاقية لوزان [238] نشهد تلاشي إمبراطورية، وتفرق شعوبها، وانـزواءها لتمضي حياتها في نصف قارة الأناضول.

وهكذا على الرغم من مرور مئة عام؛ لا يزال تأثير حادثة التمرد باعتبار نهاياته سارية فينا حتى اليوم، ونعيش اضطراباً يأتي دويه من الأعماق.

فلنتابع معا رواية مصطفى طوران الضابط الموسيقي الذي كان في أحداث 31 مارت، وعندما نقرأ سنرى معا أن القليل فقط هو ما تغير منذ ذلك التاريخ.

دوامات غريبة في طاش قشلة

عند عودة الجنود من مراسم تحية السلطان بعد صلاة الجمعة في 12 مارت 1909 إلى مهاجعهم في طاش قشلة؛ وجدوا بعض أصحاب العمائم واللحى يعطون المواعظ للجنود الموجودين هناك، وعندما سألوهم عن سبب وجودهم قالوا: إنهم هناك بأمر من قيادة جيش الخاصة، لكن القادة المسؤولين لم يكن لديهم أي علم بذلك [239] .

حتى كان يوم 31 مارت (13 نيسان) [240] ، عندما أعلن أحد الباشاوات للمتمردين فرمان السلطان القاضي باعتمار القبعة، على زعمه، ويتلو عليهم الفرمان المختوم بالطغراء الذهبية، ولم يكن الباشا والضباط المرافقون له سوى قادة الاتحاد والترقي في لباسهم المزيف، وهم: بهاء الدين شاكر ومدحت شكري (بلدا) وعمر ناجي. كان السيناريو مكشوفاً

قبيحا، وتحريض الشيوخ المزيفين وأمر اعتمار القبعة كان كافياً لإثارة التمرد في صفوف العسكر، علاوة على اندساس بعض الجواسيس بلباس "الباش جاويش" بين صفوف العسكر، وإطلاق الشعارات النارية، ولم يعد الجنود يطيقون صبراً.

أخذ مصطفى طوران موقعه بينهم يعزف المارش في باندو الطابور السابع "أيها الغزاة، بان الطريق مرة أخرى للسير الغريب" خلال السير نحو مقر "المجلس" أمام أياصوفيا قادما من دولمة بهجة، تضخمت "الألاي" بانضمام آخرين في الطريق. وهنا يبدأ المحرضون المندسون في الصفوف بإطلاق النار من مسدساتهم في الهواء، ويصيحون في الجنود: ما لكم هيا أطلقوا النار أيضاً"، وتوجهت فوهات البنادق نحو الهواء، وتنطلق طلقاتها في الهواء، ويزداد الحماس في الجموع، ويشتعل فتيل الثورة.

كان السيل البشري يغطي جسر غلطة، ويعترض طريق العساكر أصحاب العمائم البيضاء من طلاب المدارس، وهم يصيحون: "لا يمكن أن يزول الإسلام، سمعنا أنهم يأمرونكم باعتمار القبعات! نريد تطبيق الشريعة"، وتسمع أصوات الطلقات النارية على أطراف مجلس المبعوثان، وقتل على الفور أمين أرسلان نائب اللاذقية وهم يظنون بأنه حسين جاهد (يالجين) [241] . وقتل ناظر العدلية ناظم باشا عندما فتح النافذة لينصحهم بالعدول عن الحركة، ومرة أخرى أخطأوا في قتله لأنهم كانوا يظنونه رئيس المجلس أحمد رضا بك!

كان الجاويش حمدي يقود الجموع، وبعد احتدام الموقف جمع الجنود وأمرهم بالعودة. ثم بدأ تخريب الصحف ونهبها في الباب العالي، لقد خرّب الانتهازيون مطبعتي "شورى الأمة" و"طنين". وفي هذه الأثناء تدخلت لقمع الشغب قوات البحرية، وألقي القبض على علي قبولي بك من فرسان "أعصار توفيق" المدرعين بزعم أنه حاول قصف قصر يلدز بالقنابل وأُحضر موجوداً للمثول أمام السلطان. والسلطان بدوره ينظر من نافذة المابين إلى الجموع، ويأمر بسوق علي قبولي بك إلى نظارة البحرية للتحقيق معه هناك تهدئةً للجموع، لكن أمره هذا ومحاولة التهدئة لم ينفع شيئاً، ويتم إعدام علي قبولي من قبل المتمردين بلا محاكمة.

وهكذا وضع سيناريو 31 مارت موضوع التطبيق بنجاح.

إن التوازن أمرٌ معقدٌ، فقد قتل في اليوم الأول وزير ونائب وبنباشي، وتخريب مطبعتين، ودخلت إسطنبول في فوضى عارمة!

بداية النهاية!

وبداية النهاية هي بداية تاريخ جديد، لم يكن السلطان عبد الحميد يدرك أن 23 نيسان 1909 ستكون آخر جمعة يقف بها لتحية الجمعة. يدعى الضباط للمثول أمام السلطان قبل صلاة الجمعة، ويكون ذلك أخر خطاب يخاطبهم به السلطان، فجيش الحركة كان على وشك دخول إسطنبول، ويصدر السلطان أوامره بعدم مواجهتهم، ثم يتابع قائلاً:

الفرمان الذي تلي عليكم في 31 مارت لم يكن صادراً مني، بل تم إعداده من قبل بعض الأعداء، فخدعوكم به، وحرضوكم إرضاءً لآمالهم السيئة، فعلى أولادي العساكر أن لا يصدقوهم أبداً، ويلزموا الهدوء في معسكراتهم، ولا يستخدموا أسلحتهم...

وبعد هذه التهدئة يخرج السلطان لأكثر صلوات الجمعة صمتاً طيلة 33 عاماً. ثم يسير عبر الممر الرسمي، فلا تعزف الباندو للمرة الأولى، ويدخل الجامع في صمت، ويخرج في صمت، ويعود إلى القصر.

لكن ضباط طابور الصيادين القادم إلى إسطنبول في سبيل إنقاذ المشروطية كانوا غائبين عن المشهد، وواضح أن مدبري التمرد كانوا يريدون ترك الجنود بلا قيادة، فلم يكن بين الجنود سوى الألباي (العقيد) إسماعيل حقي بك، وكان يشدد التنبيه على الجنود بعدم اللجوء إلى السلاح. وفي تلك الليلة (ليلة 23 نيسان) قام الصيادون بكسر أقفال مستودعات السلاح ونقلوه إلى مستودعاتهم، استعدادا للقيامة التي ستندلع في اليوم التالي، وتواجه طابور الصيادين الذين يحملون السلاح وجيش الحركة القادم، وبدأت المدفعية بقصف طاش قشلة، وتهدمت بعض المباني [242] .

ويظهر أنور باشا (بك حتى ذلك الوقت) أمام الباب وإلى جانبه قاطع الطريق البلغاري المشهور ساندينسكي، ويُضرب الألباي إسماعيل حقي بك من قبل أنور أمام قطاع الطرق البلغار، ويبصق الألباي في وجه أنور، "ألا تخجل" من ضرب عسكري تركي أمام الأعداء؟! بالطبع تكون نهاية هذا العسكري الشريف الإعدام رمياً بالرصاص، ثم يلتفت إلى البلغاري ويقول له: لقد استحق القتل أليس كذلك؟!، ثم يأمر بقتل العساكر المتمردين طعنا بالرماح!

لقد تم حمل مصطفى طوران وأصدقائه بقوة السلاح على حفر الحفرة في مقبرة Agop Surp الأرمنية التي كانت في موقع فندق الديوان الذي تهدم الآن، ويدفنون فيها [243] . (فلينتبه القارئ جيداً إلى من سيعلن أنور باشا بطلا!).

ثم تبدأ أعمال نهب قصر يلدز، وفي المشهد مرة أخرى ساندينسكي

وأنور باشا وقطاع طرق بلغاريا ينتهبون القصر، لكنهم وعلى الرغم من كل المحاولات لم يعثروا على الخزنة التي تريح الاتحاديين، ولم يتكلم آغا الحرم الزنجي جوهر آغا، ولم يرشدهم على مكان الخزنة، وقال: لن أخون ولي نعمتي، وظل صامتا رغم صنوف العذاب، ثم شنقوه. ولم يتحمل آغا الحرم الثاني نادر آغا التعذيب، فأرشدهم إلى مكان الخزنة.

ثم تعرفون ماذا حدث بعد ذلك، إنه قرن مضى بلا عبد الحميد...

لكنه تبقى قصص من هنا وهناك تعلق في شباك الذاكرة.

كان قسم مما قيل: إنه "خزنة السلطان عبد الحميد السرية" التي عثروا عليها؛ لم يمس منذ ثلاثين عاماً، فالصدأ الذي يعلو وجه الأكياس الملامسة للرفوف الحديدية يدل على ذلك. فالسلطان الذي عانى من قلة المال في خلال حرب 93، ورأى كيف يشل الدولة؛ اغتنم الفرصة الأولى لبناء هذه الخزينة تحت الأرض، وبدأ يحشد الأموال لحروب قادمة محتملة، فلم يسمح باستعمالها حتى في الأيام الصعبة، وبقيت حتى تعرض القصر للنهب...

هناك جامع في عمرانية، يعلوه طغراء السلطان عبد الحميد.. أدعوكم لزيارته، فما اسم هذا الجامع الذي لا يزال يرفع فيه الأذان كل يوم خمس مرات؟ إنه جوهر آغا. لكن الاتحاديين بدءاً من أنور إلى طلعت لم يكن لهم سوى بانتيون [244] "آبدة الحرية" [245] المصممة على قمة تلة "الحرية الأبدية" في شيشلي، التي تصفر فيها الرياح عدا أيام الآحاد والعطل حيث ينتشر حولها المتنـزهون. ثم هل نبحث عن دلالة لقيام مبنى قصر العدل العظيم إلى جانب التلة؟ أم أنها المحاكمة تستأنف من جديد؟

حسناً فمن الذي أطلق 31 مارت؟

على الرغم من مرور ما يزيد على قرن من الزمان على حادثة 31 مارت؛ فإن الجواب على سؤال من الذي أشعل فتيل الحادثة مع الأسف لم يلق الجواب الصحيح، ولم ينكشف الغطاء الذي يغطيها حتى اليوم.

في 23 تموز 1908 أعلن السلطان عبد الحميد الثاني المشروطية قبل وصول طابور الصيادين إسطنبول "حقناً للدماء بين الإخوة"، وتمكن بذلك من تفكيك الانقلاب والبقاء على العرش. فكما أنه كان هناك من لم يهضم بقاءه على عرشه؛ كان هناك أيضاً البرنس صباح الدين وحزب الأحرار الذين لم يحصلوا على ما يأملونه من التغيير في النظام، والذين كانوا يندبون حظوظهم وهم يرون الاتحاديين ينتزعون "المال" (المكاسب) كلها. وفي العسكر، كان عساكر الألوية يتذمرون من تمييز عساكر المدارس عنهم؛ لم

يكن عساكر المدارس مرتاحين لإعفائهم من الجيش وعدم قبولهم فيه حتى ذلك الوقت. علاوة على بقاء قتلة الصحفيين والعساكر في الطرقات - لحكمة ما - طي الكتمان.

كانت "المشروطية المرغوبة في ذلك العصر" زعما بأنها ستجلب الأخوة والسعادة لكنها حركت الأحجار، واستقرارها من جديد سيحتاج إلى زمن طويل محمل بآلام كبيرة شتى.

لقد أقبلت المشروطية بالطبل والزمر لكن الربيع المنتظر لم يقبل، ولم يشترك الاتحاديون في الحكم مباشرة وحاولوا التحكم عن بعد. (وتستمر هذه الفترة حتى الاستيلاء على الباب العالي عام 1913، وعندها تقمع الاتحاد والترقي مخالفيها، بالنفي أو بدفعهم إلى الهروب، ومن ثم تستولي على السلطة بكل ما في الكلمة من معنى) [246] ، لكن بلغاريا والبوسنة والهرسك وكريت تخرج من اليد واحدة بعد أخرى، ويختتم العام الأول من المشروطية التي كانت في سبيل إنقاذ العثمانية بالخسران المبين.

ولذلك كان البرنس صباح الدين يحاول جاهدا الوصول إلى السلطة بدعم من الإنجليز، وهذه لعبة من ألاعيبه وقد كشفت من قبل السلطان مراد الخامس:

دخل البرنس وفق ما ذكره غالب باسينر Pasiner الذي أصبح جنرالا في ما بعد [247] ؛ على ولي العهد رشاد أفندي وهو ينبهه على أن الانقلاب مسألة وقت، وأنه سيبذل قصارى جهده للحيلولة دون وقوعه، أو على الأقل في سبيل إنقاذه وتأمين حياته، لكن الأمر يحتاج إلى مال. ويسأله ولي العهد: ما هو المبلغ المطلوب؟، ويأتي الجواب: 100 ألف ليرة، ويبدأ البازار عندما بين له ولي العهد بأنه لن يتمكن من تأمين هذا المبلغ، فولي العهد يفاوض على 30 ألف ليرة، وينـزل صباح الدين إلى 50 ألف ليرة، وما تبقى سيدفع على أية حال عند ارتقائه على العرش.

يدرك رشاد أفندي أن صباح الدين يريد أن يأكل عليه المال، ويسخره في الانقلاب بتأمين التمويل اللازم، لكنه يتغابى. فيتظاهر بأنه قبل العرض، فهو لا يملك هذا المبلغ لكن سيقترضه من مكان ما.

في اليوم التالي عاد صباح الدين مع أحد المصرفيين، وقبيل توقيع السند؛ انتحى به رشاد أفندي جانباً، وبين له بأنه لا يملك مالاً يسدد به هذا السند، والدولة عاجزة عن سداده، لكن صباح الدين كان يبدو عليه الارتياح واللامبالاة، فقال وهو يبتسم: "ولماذا أتيت بصراف إنجليزي إذاً؟! هؤلاء يستطيعون بالإمساك بخناق الدولة ويحصلون كل حقوقهم بالقوة".

فيجيبه ولي العهد رشاد بك بأدبه الرفيع: "وهل تريد استغلالي في خيانة دولتي وملتي؟!" وبذلك تنتهي المساومات.

هذه الحادثة مهمة في الدلالة على أن البرنس صباح الدين كان ضالعاً في تمرد 31 مارت، فكان البرنس في عداوته التي تتجاوز عداوة الاتحاديين يهدف إلى السيطرة على قيادة الدولة وحيازتها في يده، وكان مصمماً لا يبالي في سبيل ذلك، باستغلال جميع الناس حتى أقرباءه من دون ترددا!، ثم! أليس الإنجليز هم الذين يقفون وراءه؟!

حسناً، وماذا عن الاتحاديين؟ هلا نفعهم هذا التمرد؟.. نعم، لكن هذا التمرد كان يشكل أرضية 31 مارت.

عبد الحميد وفرية 31 مارت

حسناً، وماذا عن مسؤولية عبد الحميد؟ ألم يكن التحضير والتحريض لهذا التمرد، والإيقاع بين الإخوة؛ واحدة من أسباب عزله؟!.. فلنترك الوقوف على تكذيب هذه الدعوى من قبل شهود كثيرين إلى موضع آخر، ولندع القول في مثل هذه المسألة المعقدة لأقوال أحد المسؤولين، ولنضع لاصقا على هذا الجرح الذي لا يندمل، ولنكتف بذلك إلى حين:

إن إسناد حادثة 31 مارت إلى السلطان ظلم كبير، وبيان الصدر الأعظم حسين حلمي باشا الذي يزعم بأن السلطان هو من رتب لهذا الانقلاب للتعتيم على غفلته وفشله الإداري؛ كذب وافتراء بتمامه. (..). لقد جلبت حادثة 31 مارت للاتحاديين "الفرصة المنتظرة". علاوة على أن إسقاطه من موقعه بوصفه "خليفة الإسلام"، وكيفية إسقاطه، ووجود المبعوثين (النواب) الروم والأرمن والموسويين بالإضافة إلى المسلمين في تبليغه على وجه الخصوص؛.. كل ذلك أيقظ عند جميع الأطراف الامتعاض. ثم إن السبب الذي ذكر في إنزاله عن العرش، والذي يشكل أساس فتوى الحل، كان "تسبب السلطان بالقتال بين طائفتين من المؤمنين". وعندما ظهر كذبه، وان السلطان لم يكن له علاقة بحادثة 31 مارت أبداً، عندها ظهر امتعاض جميع الأطراف بوضوح [248] .

وكذلك يعترف أحمد بدوي كوران أن الدافع الأصلي للتمرد لم تكن الرجعية، أي لم تكن إعادة النظام القديم للحياة من جديد، بل "إزالة تحكم الاتحاد والترقي"، أي إزالة الحكم المتسلط، ولم يستطع أن ينهي كلامه قبل أن يضيف:

والدليل على أن الواقعة لم تكن لصالح الاستبداد هو أنه عند انسحاب الحكومة التي تمثل جمعية الاتحاد والترقي من السلطة طالبت

بتعيين رجل دولة حيادي نظيف في منصب الصدر الأعظم [249] .

أراد أحمد بدوي كوران أن يبين أن جمعية الاتحاد والترقي بنفسها قبلت أيضاً بأن الحكومة الاتحادية التي كانت في السلطة مذنبة ومتورطة بانقلاب 31 مارت. إنه اعتراف، وكان قد ألقي القبض عليهم متلبسين بالجريمة. ثم إن عبد الحميد كان واثقاً من نفسه، حتى أرسل إلى الحكومة وإلى المجلس يطلب منهم استعداده للمحاكمة، وبين لهم أن لديه ما يقوله أمام المحكمة أو أمام أي وفد من المجلس. لكنهم تجنبوا ذلك وتهربوا من المحاكمة، لأنه إن تكلم؛ فإن أبطال الحرية سينـزعجون! (وفي رأيي أن عبد الحميد يستعد لمحاكمة تتضمن ما يفيد بلاده لمئة عام تالية. وذلك بالطبع لمن يفهم!).

أما الشعب (باستثناء الجواسيس) فقد كان على النقيض من جمعية الاتحاد والترقي، وعلى النقيض من المؤرخين الذين حرفوا الحادثة بشكل كبير حتى طمست معالمها ولم تعد تعرف؛ فالشعب يعارض الحكم الكيفي والفوضى الناجمة عنه، ويطالب بالعودة إلى تطبيق الشريعة، ولا يطالب بإلغاء المشروطية، بل بتطبيق المشروطية الحقيقية، وإزالة العوائق من طريق المبادئ الديموقراطية [250] . إن القتل والإبادة وأعمال النهب المصاحب بالغليان لا يمكن قبوله بالتأكيد، لكن البداية كانت في سبيل بناء "المشروطية الشوروية" بتعبير بديع الزمان سعيد النورسي، أي مشروطية قائمة على أسس دينية مشروعة.

كيف يكذب عضو من جمعية "جون تورك"؟

نحن من أمر بقتل قائد مركز سلانيك [251] .

Batzaria .N

من هو نيقولا بسريا Besarya أفندي، أو المستر نيقولا بتزريا Batzaria ؟. إنه واحد من المقاتلين الشجعان المشهورين في سبيل المشروطية، ولأمر ما كان شخصية مهملة، ولم يكن ظاهراً في الصف الأول، فإذا ما قيل الاتحاديون يتبادر إلى أذهاننا ترويكا أنور وطلعت وجمال، ونظن بأن هؤلاء الثلاثة هم الذين فعلوا كل شيء، ولا نقف على الأشخاص الذي يختفون في الظلام، مع أننا لو بحثنا قليلاً لتمكنا من التعرف بكثافة إلى هؤلاء الأشخاص الواقفين في ظلال الستارة كبتزريا أفندي، ونحن الآن نستمع إلى ما يقوله بنفسه؛ وبذلك نكون بالاتجاه الصحيح في التعرف من خلاله على الوجه الخفي للحركة.



بتزريا أفندي

من خلال الوثائق الأصلية التي لن تجدوها في مكان آخر، سأعرض صورة عضو من أعضاء الحركات السرية وأكاذيبه وأحابيل خداعه. وسأتخذ على وجه الخصوص مقابلتيه في مجلة وصحيفة تركية بعد عودته إلى تركية بعد سنوات طويلة في نيسان عام 1938.

دعونا نرى كيف سيكون المشهد الذي سيرسمه للخطط السرية قبل المشروطية وما بعدها؟

من هو بتزريا أفندي؟

بتزريا أفندي من Ulahra من شعوب البلقان، (والأولاهرى هذا شعب قريب من الرومان، وكانوا من رعايا الدولة العثمانية في ذلك التاريخ). أي أن الرجل الذي يدعى بسريا أو بتزريا ولد في كوروشوفا تحت المظلة العثمانية، وأتم الثانوية (الإعدادي) في مناستر، ثم في جامعة بخارست، فانظروا إلى تسامح الدولة العثمانية إذ كانت كتب الأولاهرى تطبع في رومانية وتدخل الدولة العثمانية لتدريسهم بها.

ومن المفيد بيانه هنا: أن هذه الحادثة المهمة في بيان نموذج للتعددية الثقافية في عهد السلطان عبد الحميد الذي يزعم من يزعم بأنه "ظالم" و"غدار".

عمل بتزريا بعد عودته من بوخارست مدرساً في (الإعدادي) الذي افتتحه عبد الحميد في مناستر، ثم عين مفتشاً لمدارس الأولاهرى في سلانيك، وقد بدأت عضويته في جمعية جون ترك هناك، فانتسب لأول حركة من حركاتها السرية، وبدأ بالطبع نضاله ضد السلطان عبد الحميد.

واستمرت حياته في التنظيم بعد ذلك، فقام قبل إعلان المشروطية بتهريب من أطلق النار على صهر أنور باشا ناظم باشا، وعين سيناتوراً في مجلس الأعيان بعد المشروطية عام 1908. فكان بذلك في مقام مرموق كنائب عن الأمة...

حسناً.. فلا نعجب إن علمنا أن لنيقولا بتزريا أو بتزريا حياة مظلمة مليئة بالأكاذيب!. وستقفون عليها بلسانه بعد قليل، وعندها سيتبين أن كل الأكاذيب والأعمال غير المشروعة مباحة في الحركات السرية.

أعضاء الحركات السرية يبكون

قلت سابقاً، وأقول الآن:

إن التناقض الكبير الذي عاشه الاتحاديون في رأيي، هو في الشرخ الذي لا يمكن ردمه بين أقوالهم وأعمالهم. نعم أتكلم عن خروجهم في سبيل المشروطية والحرية؛ وتشييدهم أشد أنواع الاستبداد، ومناداتهم بتخليص الصحافة والنشر من الرقابة؛ وقتلهم الصحفيين، واختلاقهم أكذوبة أن عبد الحميد كان يعلق الصخور في أعناق الطلاب ويغرقهم في البحار، وقيامهم بنصب أعواد المشانق في الطرقات في أول فرصة سنحت لهم...

لقد كان وصول هؤلاء إلى السلطة بدعاوى وطنطنات إنقاذ الوطن، ثم سفكهم الدماء من بعد وصولهم أنهاراً، وترتيبهم لحملات القمع الدموية في سبيل تفردهم بالسلطة، وتضحيتهم بالوطن ومئات الألوف من شبانه من

دون أن يرف لهم جفن، ثم هروبهم من البلاد وهم يذرفون الدموع قائلين: "ماذا نفعل؟ لم نتمكن من إنقاذ الوطن!".. نعم إن هؤلاء سيحاكمهم التاريخ المطلق على كل ما فعلوا!

وهذه هي إحدى المشاهد التراجيدية التي عاشها هؤلاء القادة الباكون:

كانت الهزائم تتلاحق، وأخبار انهيار خطوط الدفاع على الحدود الواحد تلو الآخر، فسيطر القلق على الاتحاديين، فماذا كان يمكنهم أن يفعلوا؟

في تلك الأيام ينقل لنا "نهاد منتش" الذي كان يافعاً في تلك الأيام هذا المشهد المثير للقاء جرى بين والده خليل منتش رئيس المجلس وطلعت بك في قصرهم:

"لقد نقشت هذا اللقاء المثير بين اثنين من كبار رجال الدولة في مخيلتي باعتباره مشهداً من التاريخ الحزين. وبعد أن عانق والدي رئيس مجلس المبعوثان خليل بك تأوه قائلاً: "آه يا خليل.. خليلي! لقد خسرنا الوطن". لقد كان الصدر الأعظم ورئيس مجلس المبعوثان في الإمبراطورية العثمانية يبكيان. (...) نعم، كانت نشيج البكاء المخنوق والمنبعث من الأعماق، أعظم وأوضح وأبلغ مرثية لهذا الوطن البائس المفقود" [252] .

وبينما يبكي أولئك؛ كان الجون ترك الماجور بسريا أفندي قد تركهم وفر إلى بلاده منذ زمن بعيد كما سنرى بعد قليل.

عضو الجون ترك الذي لم يكن تركيا

يصف بتزريا أفندي الموقف السياسي في تلك الأيام عام 1938 كما يلي:

"كانوا قد قسموا فرنسة وأسترالية وإنجلترة وروسية وإيطالية مقدونية إلى مناطق، وخصصوا لكل منطقة عددا من الضباط. فالإدارة المقدونية اتخذت صفة الإدارة الأجنبية، وعندها بالطبع قويت آمال غير الأتراك فيها. (..) كنا نقول للدول الأجنبية: ليست مقدونيا وحدها، بل [نعمل] على تغيير الدولة العثمانية بتمامها للسير في طريق المشروطية. ولذلك لن تستطيعوا التوصل إلى ذلك بتدخل جزئي. فدعونا نكمل عملنا براحة تامة.. وكنا بذلك ننوي خداع الدول الأجنبية..".

فإن قلتم: فماذا فعل هذا "الوطني الجسور" الذي يتحدث عن خداعه للدول الأجنبية في سبيل إنقاذ مقدونية، والذي اختلط اسمه في اغتيالات ضباط عبد الحميد بعد ذلك؟ فلنستمع إلى الجواب منه شخصياً:

يسأله المراسل:

في أعقاب وقف إطلاق النار في البلقان بتدخل من الدول الأجنبية

كان قد أرسل وفد من المبعوثين لمباحثات السلام في لندن، فهل كنتم في الوفد، وهل بإمكانكم أن تحدثونا شيئا عن الوجه الخفي لمباحثات الصلح هذه؟

فأجاب:

الوجه الخفي هو أن عملنا لم يكن دقيقاً ولا صعباً، لأنهم قدموا لنا اتفاقية صلح جاهزة، فلم تكن معاهدة صلح معدة من قبلنا، بل كانت معاهدة صلح أعدتها نظارة الخارجية الإنجليزية، ولم نتمكن من تغيير حرف منها. ووقعنا عليها كما هي.

أهو أمر بسيط إلى هذا الحد؟ قم بالمعارضة، وشكل تنظيما، واعمل انقلابا دمويا، ومهد للجنايات، ثم افتتح المجلس، وكن رقيبا، وانتقل إلى السلطة...

ثم ماذا؟

ثم لتخترك الدولة مبعوثا لمباحثات الصلح في أول الحرب مع البلقان للدفاع عن حقوق الدولة، ولترسلك إلى لندن، ثم لتقف موقف المتفرج على ضياع البلقان من أيدينا، البلقان التي أقمتم الدنيا ولم تقعدوها بدعوى تمزق الدولة، وتكتفي بتوقيع المعاهدة التي أعدتها وزارة الخارجية البريطانية من دون أن تغير فيها حرفاً، ثم تعود!

حسناً فإن كانت عديمة الأهمية إلى هذا الحد بحيث يتوقف تسليمها على توقيع بسيط؛ فلماذا أعلنتم التمرد والعصيان من أجلها إذا يا بتزريا بك؟ أه لأنكم سمعتم عن تمزيق مقدونية في روفال أليس كذلك؟ والآن ألم تختلج ضمائركم بأدنى ألم وأنتم توقعون على معاهدة أسوأ بكثير من سفسطة روفال؟

وإن عدنا إلى كلام بتزريا فإنه يختم كلامه بهذه الجمل بدم بارد:

انتهت حرب البلقان، فانطلقت الحرب العمومية [الحرب العالمية الأولى] ، وعندها سافرت إلى رومانية [253] .

إلى هذا الحد.. نعم إلى هذا الحد!...

يقوم بتسليم البلقان، وعندما تندلع الحرب يغادر البلاد إلى رومانية،... إنه السيد بتزريا!

ونسأل شئنا أم أبينا: أهذه هي الوطنية؟ أهذه هي الحرية؟ أمن أجل ذلك سفكت كل هذه الدماء؟

في حين كان بتزريا أفندي يتصرف كعضو في لجنة تصفية البلقان من دون أن ندري!

بالطبع لم يكن عضوا في لجنة تصفية البلقان فحسب، بل كان أيضا عضوا في تنظيم لإنتاج الفتنة والفساد تمهيداً لإسقاط نظام عبد الحميد!. فهيا معا نقرأ قصته من مصدر آخر.

أكذوبة "هروب السلطان عبد الحميد خارج البلاد"

كان الخبر الكاذب الذي اختلقه في مجلس المبعوثان أعظم "خدمة" قدمها بتزريا في سبيل سقوط عبد الحميد (أو على الأقل تسريع مسيرة سقوطه). وهذه هي القصة:

كانت الأخبار المقلقة تتوالى إلى مجلس المبعوثان الذي فر إلى يشيل كوي من إسطنبول بعد تمرد 31 مارت، ولم يكن هناك إمكانية البحث عن حقيقة أية أخبار، وهكذا استفاد بتزريا من هذه الأجواء ليختلق كذبته الكبرى، كانت كذبة تحدث بها لمجس المبعوثان نقلا عن أحد العاملين في إحدى السفارات الأجنبية لا يستطيع كشف اسمه. ويزعم في الخبر أن السلطان عبد الحميد اتصل عن طريق السفارة النمساوية بالإمبراطور النمساوي فرانسوا جوزيف، وسمح له بالاستيلاء على الأراضي العثمانية حتى سلانيك مقابل دعمه وحمايته. [أبو الضياء توفيق، السيرة الذاتية للخبر الأعور الحاقد haberi-nefretaver].

نـزل الخبر على المجلس نـزول الصاعقة كما هو متوقع، واستدعي على الفور بالتلغراف إلى يشيل كوي وزير الخارجية رفيق باشا. وبين الوزير الذي وصل إلى يشيل كوي في وقت متأخر وبين للمجلس بأنه قرأ الخبر في الصحيفة اليومية (ثروة الفنون) التي كانت تصدر في تلك الأيام، إلا أن المحافل الدبلوماسية تخلو تماماً من مثل هذا الخبر.

كان المجلس الملي المشكَّل من مجلس الأعيان ومجلس المبعوثان يغلي عقب هذا الخبر، وكان على قناعة بضرورة إسقاط عبد الحميد، وقدمت عريضة لرئيس المجلس وقَّع عليها 13 عضوا لدعوة المجلس إلى الاجتماع لبحث هذا الموضوع.. ويتضح شيئا فشيئا أن كل ذلك كان مؤامرة قد دبرت بليل...

تقول المعروضة الموقعة من قبل طلعت باشا (نائب أدرنة) وماهر (نائب أنقرة) وأبو الضياء توفيق (نائب أنطالية) ونواب آخرون والمؤرخة بتاريخ 12 نيسان 1325 (1909):

نزولاً عند رغبة الشعب؛ نرجو درس موضوع الإسقاط عن العرش، وإصدار القرار بذلك مصحوبا بالفتوى الشرعية، وتبليغها لقيادة جيش الحركة المختص بالتنفيذ.

وهكذا نكون أمام كذبة أخرى لعضو آخر من أعضاء الاتحاد والترقي.

وتمكنت الاتحاد والترقي التي تستبيح كل شيء في سبيل الوصول إلى غاياتها من الحصول على ورقة رابحة بإنتاج هذا الخبر الكاذب عن طريق بتزريا أفندي،.. إنه هدف إسقاط عبد الحميد!

في حين كان السلطان المحبوس في قصر يلدز، يتهرب بهدوء وسكينة من استعمال الشدة منذ بداية الفتنة حتى يقي شعبه من حرب داخلية، بل بالعكس كان يرفض كل العروض التي تدعوه للجوء خارج البلاد بلا تردد.

فهل سيكتب التاريخ ذات يوم عن الأكاذيب التي تدور الآن!.. كل ما أفعله أني أسجل هنا ملاحظاتي...

بقيت خطوتان في طريقنا فلنتابع معاً!

ما كان يجري في قصر يلدز كان على خلاف ما ورد في الكذبة التي ألقاها بتزريا:

كان أحد السفراء يدخل إلى قصر يلدز حاملا رسالة حاكم بلاده إلى السلطان عبد الحميد وعرضا مهما له بأن أسطول بلاده مستعد لحمله إلى الساحل الذي يريد، وانه سيكون آمنا على حياته.

وقال السلطان المطوق يومها بحصار الاتحاديين في قصره في رده الحاد على عرض السفير قولا يستحق تسجيله في التاريخ:

لا الخروج بإرادتي فحسب، بل لو أن القوى القادمة قطعتني تسعين شلواً فلا أرضى بأن يدفن أي شلو منها خارج البلاد [254] .

فالتاريخ الذي لا يزال يعلن من يغادر البلاد بعد الفراغ من مهمة تسليم البلقان بطلا، ومن يرفض عروض الهروب في وضع يعتبر الهروب فيه أفضل مكسب له، ويصرخ بأعلى صوته رافضاً أن تدفن أصغر قطعة من جسده خارج البلاد يعلن ظالماً وعدواً للوطن؛ تاريخ لم يتخلص بعد من أغلاله.

ملاحظات للمهتمين

للاطلاع على حديث آخر لنيقولا بتزريا انظر: Akşam ، 8 نيسان 1938. (يزعم في حديثه هذا بأنه كان في الهيئة التي ذهبت لتبليغ السلطان بقرار خلعه، وهذا محض كذب من أكاذيبه، إذ لم يكن بين الأشخاص التي دخلت المابين عند تبليغ قرار الحل).

ما أوسع المعلومات التي تصفه فهو في مقالة كمال ه. قرباط:

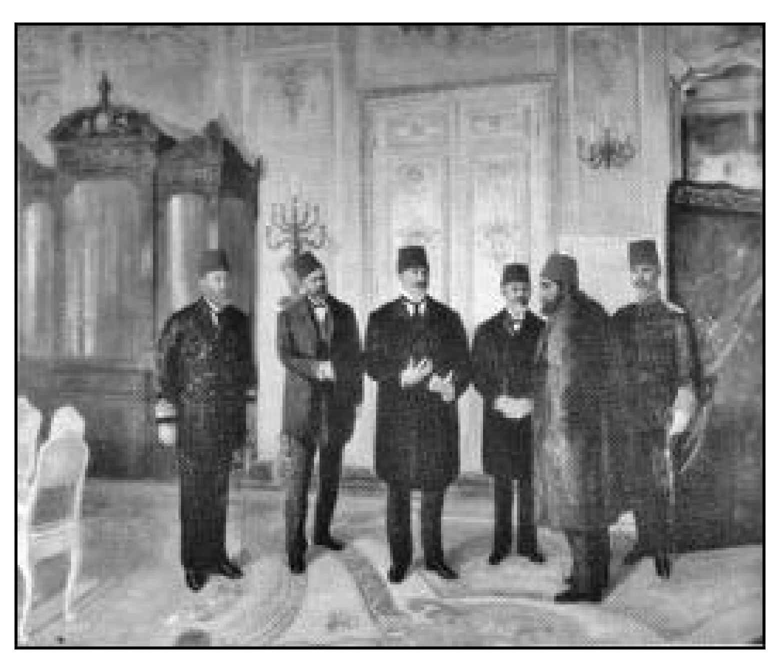
The Memoirs of N. Batzaria: The Young Turks and (

:History Politikal and Social Ottoman on Studies ,nationalizm
.(585-556 .p ,Brill .E.J ,2002 Leiden ,Essays and Articles Selekted

ويمكنكم الاستفادة من فهرس (Besarya Efendi) في هذا البحث المهم عن مجلس الأعيان:

,Meclisi yan Â meŞrutiyet'te İkinci ,Demirci Aliyar .H
. Yayınları Üniversitesi Bilgi İstanbul ,2006 İstanbul ,1912-1908

الباب الخامس : عبد الحميد في شبكة الأسئلة



خلال تبليغ عبد الحميد بقرار العزل (27 نيسان 1909)
الرسام: الخليفة عبد المجيد

ماذا تعني "رقابة عبد الحميد"؟

في عهد الحكم العثماني المطلق لم تكن الصحافة تستطيع كتابة ما لا تريده الحكومة، لكنه في عهد الحزب الجمهوري الواحد كانت تكتب ما تريده الحكومة [255] .

Mete Tunçay

للأسف لن نستطيع أن نذهب في الحوار أبعد من دق الماء في الهاون ما دام علم التاريخ عندنا في تركيا تسوده النظرة المحدودة كتلك المفروضة على أعين الخيول. فلو نظروا إلى المحيط قليلا، ولو تغلغلوا إلى أعماق أوروبة التي جعلوا منها صنما، ولو نظروا بعين الفهم بدلاً من المحاكمة؛ لتمكنوا من الفوز، وأصابوا الرأي السديد، ووجدوا في التاريخ جديدا يقدمونه للناس. لكنه للأسف ومع بعض الاستثناءات؛ أصبح الحوار عندنا على شكل خنادق وصفوف متحيزة.

"علي بيرنجي" رئيس هيئة التاريخ التركي الحالي من هذا النادر المستثنى مما ذكرته من حوار الاتهامات المتبادلة وحوار الطرشان، ففي وسط يسود فيه مصطلح "رقابة عبد الحميد" كحقيقة مسلمة يخرج علي بيرنجي على الملأ ليقول: قفوا أيها السادة، لا تفرضوا رقابة على الرقابة، واجلسوا لنتحاور بعقلانية حول حقيقة هذه الرقابة.

فلنتحاور إذاً!..

فلنبدأ أولاً بكلمة "الرقابة"!..

يحول الأستاذ علي برنجي مفهوم "الرقابة" إلى كيس، ويطلب إلينا أن نتجنب جمع كل شكاوي الصحافة في هذا الكيس. لأن هذا يعقد المعنى في موضع نريد فيه البيان. وبالتالي يكون التعريف الذي يذكره مجمع اللغة التركية محدداً يبين المعنى بوضوح: "هو عمل الرقابة المسبقة من الحكومة على كل أشكال النشر (...)، وهو ربط الصحافة ونشرها بإذن مسبق، وهو التدقيق والمراجعة الدقيقة". فهذا التعريف لا يحمل ممنوعات، والمنع بالتالي نتيجة للرقابة وليس سبباً لها.

ويدخل استهداف المطبوعات، أي منع النشر؛ في إطار ذلك التعريف، ولا يعتبر ذلك رقابة، فكل مجتمع يضع حدودا لحرية التعبير، ضاقت هذه الحدود أم اتسعت، وليست هناك حرية مطلقة.

لكنه من الخطأ المساواة بين الرقابة والمنع:

"من الخطأ الحديث عن منع دخول كتاب أو منشور بعد طباعته إلى

البلاد، أو إصدار قرار بجمع كتاب أو منشور بعد طباعته؛ كدلائل ونماذج على الرقابة" [256] .

إذا كان الأمر كذلك، فإن من المفيد الاطلاع على تطبيقات الرقابة في العالم، وينبغي علينا أن نسأل السؤال التالي على سبيل المثال: إن لم تكن رقابة المطبوعات عائقاً لتطور فرنسة حتى في زمن الاحتلال الروسي القيصري لها فكيف يمكن لها أن تكون عائقاً لتطور العثمانية وسبباً لانهيارها؟!. وللإجابة عليه!. لننظر إذا كنا نعرف أنه في عام 1922 تمت محاكمة أستاذ شاب هو J.T. Scops بسبب تدريسه نظرية التطور، والحكم عليه وطرده من التدريس!

إن جمع الكتب من الأسواق وإتلافها ليس له علاقة بالرقابة على المطبوعات، لأنها أصبحت مطبوعة وقضية يمكن محاكمتها وتدخل الحكومة فيها، وموضوع الرقابة محدود بحدود ما قبل الطباعة وما قبل التوزيع.

هل الرقابة خاصة بعبد الحميد؟!

وإن عدنا إلى "رقابة عبد الحميد" فإنه ينبغي أن لا نلقي بالا للتشويه الذي تعرض له عبد الحميد وعهده لسنوات طويلة. ولقد أشار علي برنجي في مجلة Dergâh في عامها العاشر في كانون الأول عام 1990؛ إلى الكذب الشائع المتكرر في كتبنا، ويبين أن كذب معلومة متوارثة من غير تحقيق منذ أن كتبها عثمان نوري أرغين في كتابه "تاريخ المعارف التركية"، وهي عارية تماما عن الصحة.

فالرقابة في عهد عبد الحميد في هذا الزعم قد بلغت حداً منع فيه كتاب "ميزان الحق" المشهور لكاتب جلبي. في حين أنه لم يكن بين الكتاب الممنوع وكتاب جلبي مشترك سوى تشابه الأسماء، والكتاب الممنوع كتاب مختلف تماماً، وهو "كتاب مأذون الحق" المطبوع في لندن عام 1861.

وبذلك يتأكد لنا الإسراف في استثمار المعلومات التي تقع بين أيدي مؤرخينا المأجورين من دون ترو ولا تمحيص في سبيل تشويه سمعة عهد عبد الحميد. وانهماك باحثينا في تصيّد مزاعم بول فيش الحاقدة في كتابه "إسطنبول في أيام عبد الحميد الأخيرة" على وجه الخصوص؛ أمر مدهش عجيب!

ثم إنه من المهم أيضا أن نعرف سبب المنع في كل حالة، فلئن حدث منع كتاب أو بضاعة؛ فلماذا؟!

لقد منع في عام 1872 على سبيل المثال طبق يوناني، وستكون الحادثة مثاراً للسخرية والتندر إن جهلتم سبب المنع!. نعم كان الصحن

يحمل صورة لمحتل يوناني وكتابات تعلن تبعية تسليا Teselya لليونان، وكأنكم تتحدثون اليوم عن تبيعة قبرص لليونان. فإن لم تمنع الدولة بضاعة تحمل دعاية تخدم تقسيمها في ذلك التاريخ؛ فماذا تمنع؟!

وهل تعلمون أننا لا زلنا نطبق حتى اليوم قانون حظر وضعه السلطان عبد الحميد منذ 1890؟!. تلك هي إرادة السلطان عبد الحميد (11 أيلول 1890) التي تقضي بمنع دخول الخرائط والكتب التي تشير إلى شرق تركية كمنطقة أرمنية. وتكرار هذا الحظر في مواجهة خطر تقسيم البلاد في التعميم الصادر من PTT عام 1937 يشكل نموذجاً مثيراً يدفعنا إلى إعادة النظر إلى موضوع "الرقابة" والمحظورات.

والنتائج التي يمكن أن نستخرجها من أقوال علي برنجي:

1. استعمال مفهوم " الرقابة " في كل أنواع الحظر نوع من العبث واللغو.

2. إن تماهي " الرقابة " بعهد عبد الحميد إن لم يكن نتيجة تعطيل الذاكرة عندنا؛ فإنه عمل متعمد مقصود.

3. الاتحاديون الذين رفعوا كل أنواع الحظر شكلوا حكماً أسوأ من القديم، وفضلاً عن إغلاق الصحف؛ فإن (صحيفة Şehrah أغلقت 13 مرة، واضطرت إلى تغيير اسمها 14 مرة لمواصلة صدورها) [257] ، حتى أصبحت عقوبات أصحاب الصحف المعارضة على شكل إعدامات في الشوارع.

4. وكذلك في عهد الجمهورية، وعلى الرغم من إغلاق 6 صحف دفعة واحدة في يوم واحد وإلى أجل غير مسمى في زمن الأحكام العرفية (تقرير سكون) على وجه الخصوص؛ فإننا نتعامل مع عهد عبد الحميد كأنه استثناء في قضية الرقابة، أليس هذا غريبا عن المنطق؟

5. وأخيراً، يأتي الاحتفال بعيد " النشر " عام 1948، أي عندما كانت " الرقابة " في ذروتها وهو يحمل دلالة كافية.

هل كانت الرقابة متماثلة في كل مكان؟

يجري في عروق مثقفينا أيضاً أن الرقابة في عهد عبد الحميد كانت بنفس الشدة في كل مكان وفي كل زمان من عهد سلطنته. مع أنها أيضا كانت لها فروقاتها واستثناءاتها في التطبيق.

ولنقدم هنا بعضاً من نماذج هذه الفروق.

فلنبدأ بفروق "الرقابة" المتزامنة!

يتفق الجميع في هذه النقطة: كانت السنوات العشر الأولى من عهد عبد الحميد من أفضل السنوات التي عرفتها الصحافة في التسامح. ولذلك

كان مراسل لوفيغارو يقول: "الحرية الشخصية في تركيا أكبر ما تكون بين الدول، ولا يتدخل أحد بشؤون أحد" [258] . لكن الموقف الحرج الأليم الذي تولد في نهاية الحرب، وللأسباب التي تم بيانها بشكل كبير؛ اتجه جهاز الرقابة نحو التشدد.

كان من الواضح أن النشر يبدو في دولٍ كفرنسة وإيطالية وألمانية ونمسا - المجر مستقلاً، لكن حكوماتها كانت تحمله على كتابة ما تريدها، وتضطره إلى أخذ موافقتها. وعلى الرغم من ذلك؛ فإن من الغريب أن تطلب حرية النشر من الدولة العثمانية دول لا ترى غضاضة في الرقابة الصارمة في بلدانها.

لاحظ عبد الحميد ازدواجية المعايير التي تمارسها تلك الدول، وبدأ يتشدد تدريجياً في الرقابة على النشر.

لكنه مهما بلغ التشدد في نظامه فقد بقيت الرقابة بعيداً عن التطبيق الجاد ولوحظت التسربات من هنا وهناك. لم يكن عملاً منهجياً، فكان الحظر يتفاوت ويختلف مع الزمان والمكان، فالكتاب الذي كان يباع علناً في بـي أوغلو كان يمكن أن يمنع في الجمارك ولا يسمح له بدخول البلاد، حتى أن كتاباً يمدح السلطان ككتاب "كتاب الشرق الذهبـي" لمؤلفه ن. نيكوليد Nicolaides كان يمكن أن يكون بين الممنوعات أيضاً.

فهل كان الحظر واحداً في كل مكان؟

بين أيدينا مقالة هامة في هذا الموضوع تبيّن أن الرقابة في البلاد العربية المرتبطة بالدولة العثمانية كانت رقابةً متساهلة إلى أبعد الحدود، ولم تكن شديدة كرقابتنا. مقالة الباحث دونالد Cioeta كافية للدلالة على رياح "رقابة عبد الحميد" التي تهب على سورية ولبنان [259] .

ينقل لنا أورخان قول أوغلو ملخص مقالة سيوتا هذه النقط المثيرة:

مزاعم أدوين بيرز Pears Edwin حول الحظر المفروض على أخبار الأحداث في مصر؛ عارية عن الصحة تماماً.

نصادف بكثرة في "المنار" الحديث عن حظر كلمات "الإصلاح، الوطن، الترك، الاجتهاد، الجنون" وما شابه ذلك.

الحظر المفروض على الآداب الشعبية كما يزعمه جرجي زيدان عار تماماً عن الصحة.

ومنع النساء من الكتابة كذلك ليس له أصل.

كلمات الملك والسلطان والملكة والسلطانة لم تكن محظورة وكانت تستعمل بكثرة.

وبين أيدينا من الأدلة ما يكفي للدلالة على كثرة استعمال كلمات البرلمان والانتخابات ونواب الشعب على خلاف مزاعم الحظر [260] .

ليس هناك شك بأن لا أحد يريد الرقابة، لكنه أيضاً لا ينبغي أن ننسى بأنه من الطبيعي أن تكون هناك رقابة في المجتمع عندما يفقد توازنه ويتعرض للمخاطر، ولا ننسى وسط الرقابة الشديدة التي يعمل النشر في ظلها في ظل الصراع مع حزب العمال الكردستاني.

هل كانت إدارة الديون العامة مجدية؟ !

تنهال عليّ أسئلة كثيرة من قرائي. من الأسئلة الملحة على سبيل المثال:

كانت هناك إدارة الديون العمومية لسداد الديون الخارجية في الدولة العثمانية، والسؤال: ترى ألم تكن المجوهرات التي تحتفظ بها خزينة قصر طوب قابـي كافية لسداد تلك الديون، أو قسم كبير منها على الأقل؟!

لأوضّح بداية هذا الأمر:

القصور مساكن إقامة لعائلات السلاطين وليست خزائن أموالهم، ومحتوياتها من الأشياء متاع مخصص لاستعمالهم، وبالتالي محتويات قصر طوب قابـي أو غيره من القصور (وهي أشياء ثمينة بالتأكيد كالألماس وعرش الشاه إسماعيل النادر المرصع بالجواهر النادرة وغيرها..) ليست ملكا لهذا السلطان أو ذاك، بل ملكا عاما للشعب ورأسمال للأمة. أي أن السلاطين وإن استعملوا هذه التجهيزات فإنها في النهاية من الأملاك العامة. وليس لأحد بمن فيهم السلاطين؛ حق في تملك أو شراء وبيع وتجارة ورهن هذه الأشياء.

ومن المعلوم أن السلاطين في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانوا يتصرفون ببعض الأواني الفضية الذهبية فيذيبونها ويسكونها نقودا لتمويل جزئي للحروب، وربما يقترضون بعض القروض الخارجية التي سرعان ما يبادرون لتسديدها في أول فرصة.

السند المأخوذ من السلطان

ثم إن الأشياء الموجودة في الخزينة كانت في ذمة أحدهم بالتأكيد، والسلطان بنفسه إن أراد أن يستعير كتابا من طوب قابـي؛ فإنه يحتاج لتوقيع على شرط إعادته. و"حافظ الكتب" أو مدير المكتبة في قصر يلدز صبري بك لم يسلم السلطان كتاباً إلا بعد أن يوقع على تسلمه وعلى الرغم من هذا كانوا يزعمون أنه يأخذ كتباً من مكتبة قصر يلدز! [261] .

وفي ذات يوم، ووفق ما كتبه نائب مدير قصر طوب قابـي لطفي طوران بك؛ طلب عبد الحميد عرف محمود الثالث ليكون نموذجا للتاج الذي يريد استصناعه لابنته عائشة، فبين له حسين شوقي بك كاخيا الخزينة بأنه يمكنه فقط بوصل يوقع عليه، وكان عبد الحميد سعيدا بذلك. وهكذا أعاد السلطان العرف بعد الفراغ منه واسترد السند الذي وقع عليه. ونضيف هنا بأن السلطان كافأ الكاخيا على سلوكه الأمين هذا [262] .

حتى المنياتورات [الرسوم المظللة وذات الأحجام الصغيرة] النادرة

للسلاطين العثمانيين، عندما دفع السلطان وحيد الدين فضوله لرؤية كتاب عثمان نقاش الذي لا يقدر بثمن " Hünernâme " أن يطلبه من قصر طوب قابـي، وبقي عنده حتى مغادرته البلاد. ولم يعثر على هذا الكتاب النادر في إحصاء موجودات قصر يلدز بتاريخ 17 تشرين الثاني 1922، في اليوم التالي من مغادرته، مما اعتبر دليلا جديدا على (خيانته!)، ومن ثمّ عادت الراحة لتعم الجميع عندما عثر على الكتاب في إحدى الخزائن الموجودة [263] .

وإن أردنا الاختصار: لا يمكن لأحد أن ينقل أي شيء من محتويات الخزينة لذمته حتى السلطان نفسه.

ربما تتعرض خزينة الدولة في بعض الأحيان لضائقة مالية، فالقضية عندها قضية الحكومة التي تكون على رأس العمل، وليست قضية الدولة.

بقي أن هناك ديون داخلية وخارجية ترهق كاهل الدولة، فلماذا لا يفكر أحد ببيع الأشياء المكدسة التي لا تقدر بثمن في القصور لسداد الديون بسرعة؟

وأرجوكم فكروا مرة أخرى: هل كان يمكن لحاكم عثماني نشأ على مفهوم "حرمة المساس بأموال الدولة" ورثه من آبائه؛ أن يمد يديه إلى هذه الخزائن بما لا تتجرأ عليه حكومات هذا اليوم؟ وهل كان بإمكانه أن يتحمل مسؤولية المساس بها؟ [264] .

ولنأت الآن إلى الجزء الثاني من السؤال:

فوائد الديون العمومية

ليس هناك مكان للزعم بأن الإجراءات المتخذة في مواجهة الديون العمومية، أو الديون العامة بمصطلح اليوم، كانت ضدنا بالمطلق. فظهور كتابات المؤرخين الاقتصاديين حول مساهمة إدارة الديون العمومية في الضبط الصارم لميزانيتنا وتحديثها على سبيل المثال أصبح من الحقائق التي لا يمكن إغفالها اليوم.

فما يقوله الخبراء بإيجاز هو ما يلي:

لقد عمِل بيروقراط المالية وفق النظام المالي الحديث في إدارة الديون العمومية. فإدارة الديون العمومية كانت بالنسبة للمالية تؤدي دور المدرسة.

فالأبحاث الموضوعية البعيدة عن الأيديولوجية كانت تقدم هذه الحقيقة ولو بشكل ضبابـي. فما كتبه Donald C. Blaisdell المدرس القديم في روبرت كولج تسلط الأضواء على جانب من هذه الحقيقة:

كانت إدارة الديون العمومية مفيدة بالنسبة للحكومة العثمانية

والشعب. لقد تركت إدارة مجلس الديون العمومية أثرها في مالية الإمبراطورية العثمانية. فاستطاعت الحكومة أن تجد قروضاً أفضل من السوق الأوروبية مقارنة بقروض ما قبل 1888 .

فقد حاز مجلس الديون العمومية باستقامتها ونظامها وصف أفضل نموذج للإدارة المالية الأوروبية عند الحكومة وعند الشعب. فالعشر (الضريبة) يتم حسابه في وقته، ويتم تسديد المدفوعات في وقتها، وتؤدى حصص الديون الموحدة في وقتها. لم تكن الإدارة تسمح أبدا لموظفين مهملين في إدارتها، وكانت مستمرة في تأثيرها وفي ازدياد علاقاتها. رواتبهم كافية، ونظام الدفع المنتظم في وقته أزال الرشوة والاختلاس، مع أن مواجهة هاتين القضيتين شغلتا الحكومة العثمانية طويلاً في إصلاحاتها المالية.

علاوة على أن التعاون الذي أنجزه مجلس الديون العمومية مع الشركات الأجنبية في موضوع السكك الحديدية استفاد منه القرويون إلى حد بعيد.. **[265]** .

أما الأمر الذي لفت نظرنا إليه المتخصص بتاريخ الاقتصاد العثماني شوكت باموك فقد كان أمراً مثيراً مدهشاً. فقد انخفضت القروض الخارجية وفق البروفيسور باموك عقب تأسيس مجلس الديون العمومية، أي أنه بفضل هذه الإدارة تم تسديد الديون القديمة وبقيت معدلات الديون الجديدة تحت سقف معدلات التسديد. وبفضل هذه الإدارة أصبحت البنوك الأجنبية أكثر ثقة بالدولة العثمانية، وبالتالي أكثر سخاء في تقديم القروض [266] .

لماذا وُجِدَت الحاجة للديون العمومية؟

ثم هناك حقيقة غير صحيحة تصوّر الدولة العثمانية وكأنها أوجدت الديون العمومية لرغبةٍ منها بذلك فحسب، مع أنه عندما نستعرض الظروف الموضوعية نجد أنفسنا في مواجهة مشهد أكثر تعقيداً.

فالدولة العثمانية وضعت في ظروف غير ملائمة منذ العام 1854 وحتى العام 1876، أي حتى ارتقاء السلطان عبد الحميد على العرش، وركبتها ديون كثيرة، قسم منها من أجل النفقات الجارية، وبناء القصور، وبناء أسطول ضخم، ورواتب للموظفين. ولو أن تلك القروض كانت قد صرفت في استثمارات اقتصادية لبعثت الروح في الاقتصاد وزادت من الواردات؛ وتوجهت نحو الساحات المثمرة.

وهذا السبب دفع السلطان عبد العزيز إلى القيام بتخفيض مدفوعات الديون اعتبارا من عام 1875 ليتوقف عن السداد تماماً في العام الذي

يليه، وكان ذلك سيعني إعلان إفلاس الدولة العثمانية. ثم انفجرت الحرب الروسية حاملة معها تعويضات باهظة، ليأتي شهر كانون الأول من عام 1881 وقرار المحرم الشهير لإعادة النظر في جدولة الديون، شريطة وجود منظمة تضم ممثلين عن الدائنين، وهكذا وجدت إدارة الديون العمومية حلاً لمثل هذا الوضع الحرج، وبذلك يتم تجاوز الأزمة النقدية، وتميل الديون الخارجية نحو الانخفاض، (وينبغي أن ننقل الجهود الجبارة التي بذلها عبد الحميد في مفاوضاته مع الدائنين، وحرصه على تخفيض الديون؛ ليكون عبرة للأجيال القادمة)، وتمت جدولة الديون من جديد مع شروط الأداء والآجال، وغيرها.

إلا أن لهذا المنعطف التاريخي بعد خارجي أيضاً، حيث كانت القوى الرأسمالية أيضاً تعاني من أزمة هي الأخرى، وكانت الأسواق المالية التي تعتبر مؤشراً للاقتصادات الرأسمالية تنهار واحدة تلو أخرى، وأصبح الاستقراض من الأسواق الخارجية بحد ذاته وضعاً حرجاً، والقروض الشحيحة من الخارج في مثل هذا الوضع لا يكاد يبلغ حجم مدفوعات الديون. (في عام 1875 كانت ديوننا حوالي 200 مليون إسترليني، تبلغ فوائدها السنوية وحدها 11 مليون إسترليني)، بينما كانت الواردات المالية لا تتجاوز 18 مليون إسترليني، وحتى تتمكن الدولة من الاستمرار في سداد الديون كان عليها أن تخصص 60% من واردات الدولة.

وفي هذه الأثناء كانت سبعينات القرن التاسع عشر أعواماً عجاف لنا ولكثير من الدول، توقفت ما يزيد على 20 دولة في الشرق الأوسط وأمريكة اللاتينية علاوة علينا عن سداد الديون [267] .

هذا يعني أنه لم يطلب أحد الديون العمومية لسواد عين أحد، بل قامت الدولة التي لم تعد قادرة على تأمين غطاء ميزانيتها المكشوفة بالديون الخارجية؛ بربط هذه الناحية بمؤسسة داخلية قائمة على قرار داخلي، أي ربطها بإدارة الديون العمومية، وبفضلها تمكنت من السيطرة على الديون ونجحت في سدادها.

وينبغي أن نبين أيضاً، أن السلطان عبد الحميد قام ببناء إدارة يتمتع فيها بصلاحية التدقيق في موارد الديون العمومية، وتمحيص الديون المسددة والمتبقية، والتدقيق الذي يحتاجه تأمين الاحتياجات المالية، وترأسها بنفسه. وهذا يعني أن إدارة الديون العملية لن تكون مستقلة في عملها، بل تبقى تحت إشرافه وتوجيهاته [268] .

وإن أردنا الاختصار؛ لقد كان مضطراً لإدارة ديون الدولة العثمانية

بشكل من الأشكال، وكان ذلك ضرورة لا بد منها لتأمين الاستمرارية لمالية الدولة، كانت الميزانية مكشوفة بشكل دائم، ولم يكن أمامكم سوى إحدى هذه الخيارات: إما قروض جديدة بفوائد عالية من البنوك، أو إعطاء امتيازات لدول، أو القروض الخارجية، ولأننا لم نعد قادرين على سداد الديون الخارجية كانت فرص الاقتراض تضيق، ولذلك كان لا بد من جدولة جديدة للديون، وبذلك كانت الديون العمومية نتيجة وليست سبباً.

هل كان عبد الحميد يشرب الخمر؟

تزداد أمواج التاريخ على شواطئ الذاكرة الاجتماعية باطراد كلما اشتدت أزمات الهوية عندنا، حيث نأمل بردم الشروخ الكبيرة التي تحدث في بطاقات هوياتنا من خلال العودة إلى التاريخ، ولذلك نقرأ التاريخ، ونصغي إليه، ونتابع مشاهده! لكن برامج القنوات التلفزيونية تتحول إلى أجهزة خطرة سامة على أيدي الباحثين عن فرصة لخلط الأوراق وتشويش العقول.

في قناة Hbertürk ، مساء 4 كانون الثاني 2009، كان ضيف الحلقة مراد برداقجي يحطم ما لا يحصى من أشجار الصنوبر [في إشارة للترهات التي يتكلم بها. م.]، وهو يستغبـي الناس كلهم، وهو في الأصل الوحيد الذي يتقن الحروف العثمانية في هذا البلد(!)، ولا بد للمرء أن يكون أعمى حتى يتمكن من تجاوز أخطاء القراءة الكثيرة في بحثه "شاه بابا". وهذا البحث في الأصل ليس سوى ترتيب الوثائق التي أخذها من عائلة وحيد الدين! أبسط هذه الأخطاء أنه قرأ في الوثيقة التي أوردها في الصفحة 57 الموقعة من ناظر الحربية شاكر بك تحت رقم 2 "لدى التذكير" بدلاً من "لدى التذكر"، ومن لديه معرفة متوسطة بالعثمانية يدرك أن "التذكير" يحتاج إلى حرف "الياء" بعد "الكاف".

وإن تابعنا البحث نجد أن مؤرخنا أخطأ في الصفحة 475 من كتابه 5 مرات فقط، فعبارة وحيد الدين: "جناب أرحم الراحمين" أصبحت فاسدة القواعد والمعنى في صيغة "جناب الرحمن الرحيم". والأمر لا يستدعي معرفة المرء للغة العربية، فمن يرتاد المساجد قليلا يعتاد على سماع هذه العبارة الدينية التقليدية.

[ويستمر الكاتب ببيان الأخطاء التي وقع فيها برداقجي، وفصل فيها بما يخص القارئ التركي الذي لا يعرف الحروف العربية. م.] [269] .

وهذه الأخطاء يمكن أن نغض الطرف عنها أمام الخطأ الفاحش الذي وقع فيه عندما كتب في صحيفة "حريت" اليومية بتاريخ 25 آذار 2001 عندما تحدث على إعلان التنظيمات بتاريخ 1826. وهذا الخطأ الذي جعل فيه تاريخ إعلان التنظيمات قبل 13 عاماً من تاريخه الحقيقي للأسف يبقى ألعوبة أمام الزعم الذي أتى به عن عبد الحميد.

أكذوبة "خمرة بورتو"

هل يمكنكم أن تخمنوا ما الذي أتى به برداقجي الذي لا يفتأ يملي

علينا بأن التاريخ لا يكتب من غير توثيق؛ دليلاً على ادعائه هذا؟! إنه ذكرى طفولة رئيس العائلة العثمانية عثمان أرطغرل أفندي، فيزعم أنه قال له: " جدي كان يشرب خمرة Porto ، ولم يكتف بذلك، بل كان يقدمه لنا قائلا: فيه شفاء " . ويعتبره دليلاً، فأين هو التوثيق؟ إنه لا يوجد...

فعثمان أرطغرل كما رأينا بتاريخ 18 آب 1912، وكان عبد الحميد حينئذٍ سجيناً في قصر بيلر بيي، ولم يكن يستطيع أن يلتقي به أحد سوى بناته في الأعياد وبإذن خاص جداً (ويصطحبون معهنّ بعض أحفاده أحياناً). كما نجد في ملاحظات طبيبه الخاص عاطف حسين بك أن اللقاء الأخير مع بناته قبل وفاته كان في اليوم الثالث من عيد الفطر ويصادف تاريخ 22 تموز 1917 [270] . فلئن كان عثمان أرطغرل في هذه الزيارة لجده (وليس هناك ما يؤكد هذا) فإنه لم يكن سوى طفل صغير لم يبلغ شهره الحادي عشر في عامه الرابع، وبذلك نكون أمام معجزة ذاكرة طفل يستطيع أن يميز نوع زجاجة الخمر ويحفظه وينقله لنا. (وتذكر هذه الحادثة بعد تسعين عاماً معجزة أخرى أيضاً أليس كذلك؟). علاوة أننا رأينا أنه كان قد رد شخصياً مثل هذه الفرية من قبل.

هل يمكن أن يكون برداقجي "ثقة"؟

ولندع غرابة استقبال سلطان رهن الاعتقال في قصر بيل ربيي حفيده في عيد رمضان المبارك وبيده قدح من الخمر، ولنسأل: كيف يمكننا تأويل غياب أي طرف خيط يدل على معاقرته الخمر في ملاحظات طبيبه الخاص عاطف حسين بك التي كتبها يوما بيوم؟! ألا يكفي جواباً أن لا نجد أية ملاحظة بين سيل اليوميات التي كتبها طيلة تسع سنوات من أيام حبسه في سلانيك وفي قصر بيلر بيي تشير إلى ذلك؟ علاوة على الملاحظات الكثيرة التي تبين حرصه على دعوة الذين يتناولونها إلى التخلي عنها!

ستقرأون بعد قليل عن تجنب عبد الحميد الخمر عن لسان أقرب شخص موثوق منه، ولكن علينا أن نبين هنا أنها مع الأسف مقاربة سياسية وليست علمية. فعبد الحميد تبرير والقضية مسألة أخرى. وكل ما ينبغي أن نعرفه هنا أن هناك من لا يستطيع أن يقبل التفاف الشعب حول عبد الحميد إلى هذا الحد. ولهذا السبب، كان كل همهم استصغار القيم التي يحملها الشعب، ويحاولون التأثير على حساسيته تجاهها، وحمله على قبول تأويلاتهم المريضة.

وإذا كنت أقدر لبرداقجي محاولته كسر المقاومة التي تحاول النيل من وحيد الدين في كتابه "شاه بابا"؛ فإني لا أثق بدقته في هذا الدفاع

ولا إخلاصه. فإنه ينتهب التاريخ بقلم مسروق ويغيره. ولو لم يكن كذلك لما حرف القرار الصادر بمنع "التعري والسفور في الطرقات" وحاول أن يلقننا بدلا من ذلك أن عبد الحميد منع لباس "الشراشف" (لباس الإزار الخاص بالنساء). وستجدون الرد على ذلك في الصفحات القادمة في (Şubat habertürk 2008).

لقد استمر في تركيا مع الأسف هذا النوع من أولئك الذين يحرصون على التسلط على القيم التي أنتجتها هذه البلاد والاستيلاء على قسم منها دهاءً بدل البحث عن أخطائهم والاشتغال بإصلاحها.

هذا هو شأن الاتحاديين، اضرب الطين بالجدار فلعله يترك أثراً، وابلغ هدفك وكفى، ولا تلق بعد ذلك بالاً للتشويش الذي تتركه في أذهان الناس. لقد لقنهم أحمد رضا بك في زمانه أفضل درس عندما صفع طلعت باشا وأنور باشا بهذه الأقوال الأليمة في المركز العام للاتحاد والترقي:

"عيب عليكم، فهذا الرجل كان خاقاناً وخليفة طيلة 32 عاماً، فكيف تتحملون كل هذه الأقوال والكتابات في حقه وأنتم تعلمون بأن معظمها كذب وافتراء، وكيف تسمحون بها؟ فسنكون نحن أيضاً موضوع هذا السيل من الأكاذيب".

وقد حدث ما توقعه أليس كذلك؟

والعبرة من التاريخ لها أهميتها، وهو هام لوفرة عبره.

وهؤلاء هم الشهود

شادية عثمان أوغلو (ابنته)

والدي لا يشرب الخمر، ولا يرتاح للذين يعاقرونه، وقد منع دخوله القصر. كان متديناً، مرتبطاً بالله، مسلماً حقاً، لا يطأ أرضاً بغير وضوء . **[271]**

عائشة عثمان أوغلو (ابنته)

لم يكن والدي سوى رجلٍ مسلم على اعتقادٍ دينيٍّ تامّ صحيحٍ، يصلي الخمس، ويلازم تلاوة القرآن، .. وكان يحث الجميع ويطلب إليهم أداء الصلوات وارتياد المساجد. وكان الأذان المحمدي يرفع في حديقة القصر خمس مرات كل يوم **[272]** .

جلال الدين Velora باشا (ابن فريد باشا الأ ڤ لوني)

يأكل قليلاً، ولا يشرب الخمر، ولا يلعب القمار، ولا يقصر في عبادة، وكثيراً ما يردد: "ينبغي أن نملأ هذه الحياة الفارغة بالعبادة شكراً لله " . **[273]**

سميح ممتاز (ابن رشيد ممتاز باشا)

كان في وقت إمارته (عندما كان شهزادة) يرجح تناول الطعام، ويعتني بالترفيه الخالي من الخمور [274] .

ابن الأمين محمود كمال إنال (عالم)

لم يكن يرغب بمعاقرة الخمر ولا حياة الفاحشة الرذيلة، وكان مسلماً صلب التدين، ولم يكن يبدي أبداً تكاسلاً في أداء الفرائض الدينية [275] .

حسين ناظم باشا (ناظر الضبطية [الشرطة])

لم يكن عبد الحميد عياشاً، ولا سفيهاً، بالعكس كان يغضب من ذلك [276] .

علي سعيد بك

لم يكن يحب من يتناول المسكرات كما كان يكرهها بطبيعته [277] .

خلوق ي. شخصور أوغلو (مؤرخ)

أمضى حياة سليمة منذ كان شهزادة، لا يشرب الخمر، ينأى عن كل سفاهة، وينشغل في أوقات فراغه بالرياضة والصيد [278] .

أحمد بدوي كوران (اتحادي)

كان حريصاً بطبعه، لم يكن يتناول المسكرات أبداً [279] .

ضيا شاكر [280] (كاتب)

أما السلطان الذي ظهرت بحقه كثير من الشائعات بعد إسكاته من موقع السلطنة [إسقاطه عن العرش]؛ فقد فر من الخمر والنساء ونأى بنفسه عن معاقبة والده .

هل التقى السلطان عبد الحميد ببديع الزمان سعيد النورسي؟

لا يحتاج الأمر في رأيي أن نذكّر السذج الذين يقولون: " وماذا بقي من العثمانية للجمهورية؟ " على السليمية والسلطان أحمد والسليمانية. ويكفي أن نقول: إن هذه اللغة التركية الإسطنبولية التي نتكلمها الآن هي أثر، بل من أعظم آثار العثمانية.

في حقبة العثمانيين انتشرت اللغة التركية، وتحسنت، وأزهرت بالطعوم الجديدة التي زرعت في بنيتها، وصارت لغةً تليق بالإمبراطورية، وأصبحت غنية بمساهمات الشعوب التي انضوت في ظلها ونضجت، وبعد التنظيمات وبتأثير اللغة الفرنسية هذه المرة استمرت بالتحديث، ونجحت تلك اللغة بمواصلة غناها حتى الربع الأول من القرن العشرين، حتى سمعنا ذات يوم أغنية اللغة التركية العثمانية وهي تتصارع وجهاً لوجهٍ مع اللغة الإنجليزية في لغة Redhous التي كتبها جيمس عضو Encümen-i Danİş .

من الناحية اللغوية، يبدو أن هناك أثرين أساسيين بقيا حيين من العثمانية حتى وقتنا الحاضر. أحدهما الخطاب الذي ألقاه غازي مصطفى كمال والذي استمر إلقاؤه 36.5 ساعة في مجلس CHP [حزب الشعب الجمهوري] عام 1927. أما الثاني: فهو كليات رسائل النور *Risale-i Nur Külliyatı* التي ألّفها بديع الزمان سعيد النورسي في الأعوام الممتدة بين 1926-1946. بالطبع آثارنا الأساسية الأخرى مثل المولد *Mevlid* وديوان يونس أمره *Divanı Emre Yunus* موجودة، لكنها ليست للفهم، وإنما هي موجودة كعنصر تراثي من عناصر التراث القديم جداً، مثلها مثل السجادات المعلقة على الجدران. إنهما مجرد كتابين اثنين كما ذكرنا أعلاه، أحدهما نثر منمق للتنظيمات، والآخر ينقل باللغة التركية تراكم " المدرسة " إلى يومنا هذا. هذان الأثران لا يزالان حيين يتنفسان، يزودان قراءهما الحماس والمعرفة وكأنهما مكتوبان في الوقت الحاضر، ولا يزالان مرجعين بالمعنى الحقيقي للكلمة.

والخطاب على الرغم من كونه إحدى آثار التركية العثمانية البرّاقة؛ فإنه لم يطرأ عليه أي تغيير، لأنه مصابٌ بجرحٍ شديدٍ نتيجة " الثورة اللغوية " التي تحمل إمضاء كاتبها. لكن " رسائل النور " تحافظ اليوم على ثرائها وقوتها كما كانت عليه من الثراء والقوة في وقت كتابتها، حتى أنها

تستعيد شبابها وتنتشر مع مرور الوقت.

أما الخطاب فيمكننا أن نكتفي هنا بالقول حول مصيره آخذين بعين الاعتبار بعض ردات الفعل؛ أنه لم يبق في الوقت الحاضر جيل أتاتوركي يستطيع أن يقرأ ويفهم نصه الأصلي من دون تبسيط، نعم لا يمكن لأحد ما عدا الأخصائيين وبعض الجماعات الإسلامية كطلاب النور وطلاب سليمان حلمي طونا خان!. وهنا لا بد لنا من ذكر مسألةٌ أخرى على طريقة " .. واسمعي يا جارة " ، وهي أن الحصن الوحيد الذي لم تدمره " الثورة اللغوية " هو هذا " الصدر " الذي عملوا على إسكاته سنوات. إنها الحقيقة المجردة مع الأسف ولو كانت ستترك " البعض " منـزعجين!

لماذا ألقي في مشفى الأمراض العقلية؟

أيامٌ قلائل تفصلنا عن الذكرى السنوية الخمسين لوفاة بديع الزمان سعيد النورسي (1877-1960)، ويبقى عمره المبارك الطويل الذي يمتد ثلاثة وثمانين عاماً المليء بالإنجازات وحياته المليئة بالأسرار.. يبقى مركز اهتمام المؤرخين المهتمين بالموضوع. وهذه القضية لا يمكن الكشف عن حقيقتها للعلن من خلال سيرته الذاتية المكتوبة عن حياته. فعلاقته المعقدة مع عبد الحميد الثاني الذي قضى في ظله اثنين وثلاثين عاماً من عمره على سبيل المثال، لا يمكن اعتبارها قد خرجت للنور بصورةٍ تامة 1 . عليّ أن أوضح أولاً قبل كل شيء أن بديع الزمان سعيد النورسي لم يلتق وجها لوجه مع عبد الحميد ولم يتعارفا.

عاد سعيد النورسي إلى دائرة المابين في قصر يلدز في شهر أيار أو حزيران من عام 1908 متمنياً افتتاح جامعةٍ في الشرق يمزج فيها بين العلوم التقليدية والعلوم المعاصرة؛ فلماذا أرسل فجأةً إلى مستشفى المجانين في طوب طاش Toptaş ، ومن بعده إلى السجن؟! لم يتم التركيز على هذا السؤال، ولم ينل حظه من البحث.



صورة بديع الزمان سعيد النورسي المنشورة لأول مرة بهذا الشكل في 22 كانون الأول عام 1952، وفي أثناء خروجه بصحبة طلابه من الجلسة الأولى للدعوى المفتوحة عقب طباعة " دليل الشباب " (Rehberi Gençlik)

ثمّة تصور بأن بديع الزمان عومل معاملة "المجنون" من قبل القصر بسبب ملابسه الغريبة أو خطابه... لطلاب رسالة النور. حسناً، ما مدى صحة هذا التصور؟!

بعض الوثائق في الأرشيف العثماني لرئاسة الوزراء تسلط ضوءاً آخر على هذه النقطة الغامضة. فلنقرأ معاً إحدى هذه الوثائق. وهي عبارة عن رسالة كتبها طاهر باشا والي " وان " إلى القصر. (نذكر من لا يعلم أن سعيد النورسي بقي بالتحديد اثني عشر عاماً في مسكن طاهر باشا الذي يضم مكتبةً غنيةً، وبتأثير الوسط الثقافي هناك، تسقط البذور المباركة لحقبة " سعيد الجديد " في تراب بديع الزمان الفكري).

يقول طاهر باشا في رسالته التي أرسلها إلى القصر ما يلي (النص

بعد تبسيطه):

ملاّ سعيد أفندي المشهور بذكائه الخارق بين علماء الأكراد؛ لأنه يحتاج إلى التداوي جاء إلى قصركم ملتجئاً إلى رحمة الخليفة وشفقته. هذا الشخص لم يبدّل لباس الطالب، لكنه استطاع أن يحل المسائل التي لم يستطع أن يحلها أحد في المنطقة التي عاش فيها.

وهو إلى جانب كونه وفيًّا للسلطان وداعياً لكم الدعاء الخالص؛ مهذب بالفطرة وقنوع، ويستحق من بين علماء الأكراد الذين حققوا مرادهم بالذهاب إلى إسطنبول حتى الآن؛ أفضل الحسنات بسبب أخلاقه الكريمة وولائه وإخلاصه للسلطان. يرجى تقديم التسهيلات في معالجته والعناية به لكونه شخصا اتخذ الدين مبدأً.. **[281]** .

وفقاً لما فهم من الجواب إلى والي " وان " (ومن وثيقة أخرى تؤيدها) أنه بعد يومين اثنين من تسلُّم المكتوب الذي يحمل تاريخ 16 تشرين الثاني عام 1907، ربما كان " ملاّ سعيد أفندي " كما كان معروفاً به في ذلك الوقت كان يعاني في تلك الأيام من مرض ذهني يشبه انهيار الأعصاب [282] (لكن الجواب كان يتحدث عن " hiffet eser-i " أثر خفيف في الحس ") وهو في وضع يحتاج إلى التداوي. ولذلك لم يعامله القصر معاملة " المجنون " ، بل على العكس اتخذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ ما ورد في الكتاب الذي أرسله طاهر باشا حاميه وأقرب أصدقائه. فوضعوه في مشفى الأمراض العقلية لتلقي العلاج.

وماذا عن سجنه؟

ربما تسألون: فهمنا مسألة مشفى الأمراض العقلية هذه، فما هي قصة سجنه في ذاك الوقت؟! يبدو أن الجواب للأسف لن يكون بنفس الوضوح!:

نظراً لقدوم بديع الزمان سعيد النورسي إلى إسطنبول في أواخر تشرين الثاني عام 1907؛ فإنه بقي على الأرجح حتى شهر كانون الأول من نفس العام بسبب التدخلات العلاجية من قبل قصر يلدز. وإن علمنا أن تاريخ قدومه إلى قصر يلدز وتقدمه بطلب لافتتاح جامعة في الشرق [283] يصادف نفس تاريخ وضعه في مشفى الأمراض العقلية في طوب طاش، ومن بعده في السجن في أواخر شهر أيار أو شهر حزيران من عام 1908 [284] . ربما وجد كتاب المابين في قصر يلدز في معاملته القاسية ونذر العاصفة تطل برأسها في الأصل؛ ما يثير شكوك القصر، ورأوا في النهاية وضعه في مشفى الأمراض العقلية بقصد التداوي اعتماداً على كتاب طاهر

باشا الذي يتحدث عن مرضه.

أما جمال قوطاي فينقل عن كاظم نامي بك معاون المشير إبراهيم باشا والد نور الدين صقللي باشا الذي تقلّد مسؤوليات مهمة في حرب الاستقلال أن السبب الرئيس في احتجازه كان إخبارية صادرة بحقه في سلانيك، وقد أطلق سراح بديع الزمان سعيد النورسي بعد مدة قصيرة بوساطة إبراهيم باشا وكفالته [285] . ويروي جمال قوطاي أنه رأى بأم عينه إبراهيم باشا مع بديع الزمان يتلاقيان في ما بعد.

إذا كانت هذه التصريحات صحيحة فإن الإدعاء باحتجاز سعيد النورسي الذي ألقي في السجن حتى إعلان المشروطية (23 تموز 1908) يفقد مصداقيته. في الواقع تمّ إصدار العفو بعد ثلاثة أيام من إعلان الحرية، لكنه حسب معلوماتنا؛ فقد تم إطلاق سراح المحكومين بعد خمسة أيام، أي في 25 تموز، إن إطلاق سراح بديع الزمان مستفيداً من العفو العام غير صحيحة أبدا [286] ، لأننا نرى بديع الزمان في 26 تموز 1908 في أثناء خطابه المشهور " خطاب الحرية " في سلانيك، ولم يكن قد تم بعد إعلان العفو!، وإذا كان الأمر كذلك فإن إطلاق السراح قد تم في وقت أسبق.

عرض المعاش

إنه من المفيد أن نتطرق إلى الزيارة التي قام بها شفيق باشا مدير الأمن العام (ناظر الضابطة) لسعيد النورسي المسجون في سجنه بسبب الإخبارية الصادرة بحقه قبيل إعلان المشروطية. ونعلم بمضمون هذه المقابلة المحيرة من ملاحظات أخيه عبد المجيد النورسي، حيث نجد أن بديع الزمان لم يعامل معاملة المحكومين العاديين من طرف الحكومة، بل تلقى معاملةً خاصة مختلفة. وقد أخبره شفيق باشا مدير الأمن العام بتحيات السلطان وقدم له مبلغاً من المال كهديةٍ، وعرض عليه معاشاً بثلاثين ليرةً ذهبيةٌ فكان منه هذا الجواب:

"أنا لست متسول معاشٍ، ولا أستطيع أن أقبله، حتى ولو كان ألف ليرةٍ. لم آت من أجلي، بل أتيت في سبيل شعبي، وما أردتم أن تعطوني إياه إنما هو رشوةٌ وإسكاتٌ للحق" **[287]** .

لكن جواب شفيق باشا لسعيد النورسي كان مثيراً للغاية أيضاً: "يتم النظر في طلبك المقدم لنشر التعليم في كردستان في مجلس الوزراء". يعني أن الجامعة التي ترغب في بنائها يتم النظر فيها، وستفتح مستقبلاً.

لكن هذا الجواب هل كان تكتيكاً موجّهاً لتمرير المسألة وإغلاقه، أم

أن طلبه المكتوب كان فعلاً قد أخذ محمل الجد بالنسبة للحكومة؟ ليست لدينا فكرة عن الجواب.

الرغبة في تخصيص معاش له، يمكن أن يحسب على أنه إشارة لأخذ طلبه محمل الجد. لكن يجب ألا ننسى أيضاً أن "تخصيص معاش" كونه من مثقفي عبد الحميد هو من سياسته الدقيقة أيضاً [288] .

في الحقيقة كان سعيد النورسي يقدّر أيضاً المدارس الجديدة التي افتتحها السلطان عبد الحميد [289] ، علاوةً على ذلك كان يعطي أهميةً كبيرةً لتزويد أطفال الأكراد في الشرق بهذه التربية التي تمزج على وجه الخصوص بين العلوم الدينية والعلوم المثبتة (الدنيوية). لكن الظروف لم تكن تسمح لهما بذلك في حزيران 1908.

نعم حقاً إنه من المؤسف أن يحول دون التقاء هاتين الشخصيتين البارزتين في تاريخنا القريب هذا في تلك الأيام، من دون وجود ما يدعو لاختلافهما. وسيبقى أمر التقاء آفاقهما وصيةً لجيل قادم. فهل سيكون التقاء هذين الأفقين قليلاً؟!

مكتوب طاهر باشا والي بيتليس (Bitlis)

بخصوص بديع الزمان

Ma'ruz-u çâkerânemdir ,

Kürdistân ulemâsı beyninde hârika-i zekâ ile müŞtehir Molla Said Efendi muhtac-ı tedâvi olduĞundan Şefkat ve merhamet-i hazret-i hilâfet-penâhiye ilticâ ederek bu kerre ol cânib-i âliye azimet eylemiŞtir. Mumaileyh bu havalide ilimce umûmun merci'-i hall-i müŞkilâtı olduĞu halde yine kendisini talebeden sayarak kıyafetini deĞiŞtirmeye Şimdiye kadar muvâfakat etmemiŞtir. Kendisi velinimet-i a'zam efendimiz hazretlerine hakikaten sâdık ve hâlis bir duâcı olmakla beraber fıtraten edib ve kanâatkâr ve fikr-i çâkerânemce Şimdiye kadar Dersaadet'e gitmek bahtiyârlıĞına nâil olan Kürd ulemâsı içinde gerek ahlâk-ı hasenece, gerek Zât-ı Hazret-i Hilafet-penâhiye sadâkat ve ubûdiyetce en ziyâde Şayân-ı âtıfet bir zât-ı diyânet-Şiâr olmasına nazaran, mumaileyhin emr-i tedavi hususunda mazhar-ı teshilât ve nâil-i iltifât-ı mahsûsa olması umum Kürdistan talebesi hakkında ilelebed unutulmaz bir inayet-i âlü'l-âl-i hazret-i padiŞahi telakki olunacaĞının arzına cür'et kılındı.

Bu babda ve her halde emr ü ferman hazret-i men lehü'l-emrindir .

3 TeŞrinisani 1323

Bitlis Valisi Tahir

BOA., Y.PRK.UM., nr.80/74, 10 Şevval 1325/16 Kasım 190



النسخة الأصلية للمكتوب الذي أرسله طاهر باشا إلى القصر وهي في الأرشيف العثماني في رئاسة الوزراء

هل منع عبد الحميد ارتداء "الشرشف" [290] للنساء؟

يسأل قرائي كثيراً لماذا لا أكتب عن التاريخ العثماني؟. وأُجيب في نفسي: "لكثرة مطاردتي للشيطان لا أجد وقتا للأذكار". لكني سأقول كفى، فالذين يظهرون سواء في الجرائد أو في الإنترنت ويقدمون أنفسهم كتّاب تاريخ، إما أنهم يعتمدون المعلومات الواهية المريضة أو يلفّقون الأحداث بما ينسجم مع اعتقادهم ونظراتهم وتجاربهم الشخصية.

وإليكم النموذج الأخير على هذا. مع تفاقم الجدل حول "الخمار" في الآونة الأخيرة من جديد؛ يطل السلطان عبد الحميد الثاني من بعض الزوايا، ويتردد على الألسنة "أنه منع النساء من ارتداء الشراشف". فلنتحر الحقيقة معاً.

1. زعم مراد برداقجي في تقريرٍ له ظهر في haberturk.com (8 شباط عام 2008) أن عبد الحميد المشهور بالتزامه بالدين منع نساء إسطنبول من ارتداء الشراشف خوفاً من الإرهاب، وأضاف بأن ارتداء "الشراشف" لا يوافق التعاليم الإسلامية، وتابع قائلاً:

في الثاني من نيسان عام 1892 بعد صلاة الظهر، زار عبد الحميد بناء الترسانة (Silâhhane) في تشويقية (Te Ş vikiye)، وصادف في طريق عودته إلى قصر يلدز مجموعة من النساء وهن منقبات ويرتدين "الشراشف". أثار الغطاء الكامل لوجوه النساء "وساوس" الحكمدار التي أصبحت ملحمةً تتردد على الألسن. فكّر قائلاً: "وماذا سيؤول إليه أمري لو قام من يحاول اغتيالي من الرجال بالهجوم عليّ متخفياً في ثياب النساء؟، وأصدر في ذاك اليوم على الفور أمراً يمنع النساء من ارتداء ذلك اللباس.

حسناً! إذا كان السلطان من ذعره من الوجوه المختفية خلف النقاب منع ارتداء الشراشف والنقاب!، فماذا ارتدين نساء إسطنبول إذا؟ ربما لم يكن التَّيّور، أليس كذلك؟!

2. عوني zgürel Ö في ″راديكال″ (10 شباط 2008) يجعل عبد الحميد يصلي الجمعة أيضا في جامع التشويقية، (وبقدرة الله لم يجعله يؤدي "صلاة الظهر" كالبرداقجي). يقدم عوني الحدث على الصورة التالية:

يروى أن السلطان الذي رأى في طريق عودته نساء في هيئةٍ قبيحةٍ، محزومة الخصر، وملتحفة بملايا سوداء، غطت وجوههن البراقع، فقال

لمسؤولي المابين: "ما حال هؤلاء؟ يشبهن النساء المسيحيات المسنّات... كأنهن سرب من الحشرات"... الفرمان الصادر في صيف 1892 ...

لنتوقف هنا.

"سرب من حشرات"، يا للتفاهة! ثم إن الفصل ليس صيفا، بل هو فصل الربيع، إنه الأول من نيسان (ولم يكن الثاني من نيسان كما ظن برداقجي). ولا أعتقد أن البرداقجي نفسه لم يكن يجرؤ على كتابة الجملة الأخيرة. عندما قرأت أقواله: "ومعلوم أنه بعد منع ارتداء الشرشف، وقف رجال الشرطة على مفارق الطرق والنقط الحساسة من إسطنبول أمثال Kalpakçılarbaşı ، و Şehzadebaşı ، والكوبري، وبأيديهم المقصات يقصون شراشف النساء الملتفحات بها"،.. صرخت في أعماقي "الإنصاف الإنصاف"!

3. يشير عثمان أوز صوي إلى نفس الوثيقة، ويقول في موقع haber7.com بتاريخ 27 شباط أنها فتوى شيخ الإسلام. وكما سترون في نص الوثيقة بعد قليل، لا توجد أدنى علاقة للوثيقة مع الفتوى.

ولنأت الآن إلى المادة الخام للقضية.

سأتعبكم قليلاً طالبا منكم أن تصبروا قليلاً حتى نتمكن من رؤية كيفية تحول الوثائق من شكل إلى شكل آخر على أيدي المحللين. وأنشر هنا النص كاملاً من غير اختزالٍ لأول مرة (وقد قمت بتبسيط عباراته لتكون أقرب للفهم) [291] . تقول الوثيقة التي كتبها الباش كاتب ثريا بك إملاءً من فم السلطان (قمت بتسطير النص في الوثيقة. م. أ.):

لمح السلطان في طريق عودته إلى القصر بعض النساء في هيئةٍ عجيبةٍ، محزومات الخصور، ملحفات ملايا سوداء ، وقد غطين وجوههن بنقابٍ أسود رقيقٍ جداً، وذلك بعد الانتهاء من زيارة السلطان السامية إلى ترسانة الدولة في التشويقية عقب مراسم تحيات الجمعة الرفيعة، ونظراً لأنهن بَدَيْنَ كالنساء المسيحيات الكاسيات العاريات وهن في لباس المآتم تشبهن بالنساء المسيحيات المرتديات ملابس سوداء؛ تردد للوهلة الأولى في كونهن مسلمات أم لا. ومما لا يحتاج إلى دليل وبيان أن صلابة الدولة الإسلامية الرفيعة (أدامها الله إلى يوم القيامة) وبقاؤها وتقدمها وارتفاع نهضتها مرتبط بالامتثال الكامل من جميع الرجال والنساء المسلمين المكونين أفراد مؤسسة الدولة بالأحكام الشرعية المفيدة والمنجية المنقذة في أحوالهم وأوضاعهم وحركاتهم، وإذا حدث العكس، لا سمح الله، فستصيب أفراد الأمة وأساس الدولة أضرار مادية ومعنوية غير محدودةٍ. لهذا السبب، لا يحتاج إظهار الحرص والاهتمام بالآداب الجميلة للتستر والحجاب وهما جزء

من أوامر الله من قبل النساء المسلمات لبيان أو دليل. أما تلك الملايا بالنسبة للنساء المسلمات فهي علاوة على كونها لا تنسجم والأمر بالتستر [292] ؛ فإنها تستعمل من قبل بعض رجال السوء لأغراض خبيثة كدخولهم إلى أماكن لا يدخلها الرجال كأداة لارتكاب الفسق والملعنة. فمنذ فترة ليست بعيدة دخل رجلٌ مسلح على هيئة امرأة ملتحفة بالشرشف إلى بيت، وهاجم المرأة التي كانت فيه، ثم تسلل منه رامياً الأشياء التي سرقها إلى صديقه من النافذة. بموجب الدين ولمصلحة المجتمع واستنادا للمحاذير والأضرار الواضحة؛ يقضي أمر وفرمان السلطان بتهيئة الأسباب بخصوص منع ارتداء الملايا للنساء [أو إعاقته] ، مؤكداً على الرفق واللين في تقديم النصيحة اللازمة بالأسلوب المناسب، والأمر والفرمان في ذلك لصاحب الأمر [293] 1 .

نترك جانباً نفاسة النص وسلاسة الأسلوب، ونسأل: ألا نلاحظ تناقضاً لافتاً؟! فمن جهة يأمر عبد الحميد بمنع ارتداء الملايا (على حد زعمه)، ومن جهة أخرى يقول: إن ارتداء الملايا لا يليق بتستر النساء المسلمات، أي أنه يرى الملايا مكشوفة وكأنها عارية!، فما الذي قصده المتحدث في هذا النص عن أهمية وضرورة الامتثال للشريعة من جهة، واعتبار الملايا غير منسجمة مع التستر الديني من جهة أخرى؟

وهكذا فمشكلة هذه الحقيقة المجردة تختفي خلف تلفيقها وتحريفها على يد هذا المؤرخ الشعبي الذي لم يفهمها أو على الأصح لم يملك القدرة على فهمها، وستخرج من بين طبقات التاريخ، وسترفع نقابها وتكشف عن وجهها في رحلةٍ شاقةٍ.

كانت الملايا التي منع الفرمان ارتداءها شكلاً من أشكال لباس " çarŞaf tango " انتشر على نطاقٍ واسعٍ في زمن المشروطية والسنوات الأولى من عهد الجمهورية. كان نوعاً من اللباس الغربي، تنانير قصيرة ضيقة، وقمصانٌ بأنصاف أكمام، من النوع الذي تلبسه النساء المسيحيات في مراسيم الجنازة علاوة على نقابٍ شفافٍ أسودٍ، ولم تكن كالملايا التي نعرفها. لأنّه في تلك الحقبة لم يكن هناك أصلاً نموذج واحد من الملايا السوداء. حيث كانت مختلفة في ألوانها، فالفرمان يمنع ارتداء تلك الملابس الضيقة التي تشف عن الجسم، ويتحدث النص أن منع ارتداء هذه الملابس التي تعارض الشريعة والدين أمرٌ طبيعيٌ لا يحتاج إلى دليل [استدلال]، ويكشف عن هذا المعنى قوله كاسيات عاريات " Açık seçik " . وفي النص أخيراً ذكر " ملايا سوداء محزومة الخصر " . ومن لديه أبسط معرفة بالملايا يعلم

أنها تتكون من قطعتين ولا تحزم من الخصر.

فالرجاء الرجاء، قليلاً من الفهم والتفهم، وقليلاً من الإنصاف!

النسخة الأصلية للوثيقة موضوع البحث في أرشيف رئاسة الوزراء.

بدلاً من الخاتمة: أين هي الأيدي والقفازات البيضاء؟

بعض الناس يفضحون أنفسهم بسهولة، ولا يتعبونكم، وبعضهم الآخر، يكون انطباعكم الأول عنهم مضللاً، فهم مثل المعدن، تنبثق من بنيانه أجناسٌ جديدة من الفلزات كلما تآكلت تحت الطرق، وتودون أن لا تفيقوا من حيرتكم وإعجابكم كلما طالت صداقتكم بهم، ومن ثم تدمنون على المفاجآت.

أما أنا فإني أعتبر السلطان عبد الحميد الثاني كهف المفاجآت، فعشت معه مرارات كثيرة جرّاء خيبات الأمل، بعد كل مرةٍ كنت أقول بعدها: " لن يثير دهشتي بعد الآن " .

وها هي السطور التي كتبها الباحث الياباني كوري كوماتسو Kaori Komatsu والتي تعتبر عبد الحميد مؤسس صناعة الصلب عندنا، إذ خطط لبناء مصنعٍ للصلب في أعوام 1886-1889. وأوصى على أفرانٍ ذات قدرةٍ عالية من إنجلترة. ووضعت الأفران في المصنع بعد وصولها من إنجلترة ما بين 1890-1894 لتصنيع المدافع الكبيرة [294] .

ومن ناحية أخرى، تبدأ عقولنا بالتخلص من صدئها عند مشاهدتنا المستوى التي بلغتها الحوارات والمراسلات والهدايا بين عبد الحميد والباباوات المتربعين على رأس العالم الكاثوليكي.

في عام 1887 على سبيل المثال أهدى عبد الحميد ليو البابا الثالث عشر خاتما يحمل حجر ألماسٍ تقدر قيمته 250 ليرة. فنـزع البابا الخاتم الذي كان يحمله آنذاك، ولبس الخاتم الذي أرسله عبد الحميد، ثم أعلن بأنه سيختم بهذا الخاتم الثمين في إصبعه، واستصنع صندوقاً خاصاً له، وعرض الخاتم في الفاتيكان. وفي عام 1903 تم استقبال وزير خارجيتنا الذي يحمل هدايا السلطان الأخرى إلى البابا نفسه في روما كما يستقبل الملوك. وكان جمهور يبلغ عشرة آلاف من الكاثوليك كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم والبابا بينهم " عاش البابا " ، حتى إذا التقى نظره بوزير خارجيتنا أظهر احتراماً لا مثيل له وهو ينادي: " عاش السلطان عبد الحميد خان " [295] .

وفي الوقت الراهن تمثل مرةً أخرى في أذهاننا مأساة البنائين الذين شيدوا في منطقة معدن (Ergani) في ديار بكر، وهي الآن تابعة لألازيغ

(Elazığ)، بأمرٍ من عبد الحميد.. بيت الحكومة الذي بني في العام 1895، وبرج الساعة الذي تم تشييده في العام 1899 ويظهر عليه وبوضوح أثر عبد الحميد في الكتابة التي كتبت على بابه.

على الرغم من هذا تم تسجيل البرج في سجل وزارة الثقافة في عام 1994 البناء على أنه " الكنيسة الأرمنية " و " البرج " على أنه " برج الجرس " . وبمشيئة الله، تمّ تصحيح الخطأ الفادح في عام 2002 بتدخل من الباحث لطفي أرغنه Ergene Lütfi ، وتم تسجيل المباني التي بنيت في فترة عبد الحميد من دون ذكر اسمه (لأنه يحرق أفواههم!) [296] .

من أين، وإلى أين؟ أليس كذلك؟

كم كانت داكنةً تلك الوديان التي مررنا بها! وأي نوعٍ من الحرائق التي خرجنا منها! وأية زنـزاناتٍ عشنا فيها!.. وتغلبنا عليها، ومضينا، حتى بلغنا هذه الأيام!

إذا كنّا الآن نتحدث عن هذه القضايا في راحة تامة؛ فإن ذلك بسبب زوال الألعاب التي لعبوها على أجسادنا عصوراً من دون جدوى. وكان عليها أن تذهب سدىً، لأنهم كانوا يعملون جاهدين على طلاء الحقائق بحجاب الكتمان، وهذا هو السبب في رؤية التصدع في الحجب الملقاة على فكر عبد الحميد مع مرور الأيام. وقريباً سيأتي الدور على الآخرين...

كنا قد بدأنا الكتاب بقفازات عبد الحميد البيضاء، وها أنا ذا أختم كتابـي بأيديه البيضاء. ولندع وزير الخارجية الفرنسي لفترة قصيرة M. Hanotaux والذي جرد من منصبه عندما رفض مزاعم الأرمن بقوله: "إن الأتراك لم يقوموا بالمجازر".. نعم لندعه يتكلم، ولنستمع إليه:

كان رجلاً ذا نظرةٍ قلقةٍ، ووجهٍ شاحبٍ أسود جاف، أما يداه فهما ناعمتان كيدي امرأة. يمسك بهما جميع الخيوط الرابطة بين بلدان العالم الإسلامي من أواسط إفريقية وآسية حتى بلاد البلقان، كما يملك مفتاح ضريح سيدنا عيسى في القدس، ومفتاح مضيق جنق قلعة، والقرآن، وليس القرآن فقط، بل والكتاب المقدس أيضاً، والسيف والرمح دائماً يمسكها جميعاً بيديه الناعمتين. علاوة على معظم الخيوط المتشابكة لسياسة أوروبة تمسكها أيضاً تلك اليدان الناعمتان الحساستان والمنغمستان في أعمال تفوق طاقتها . **[297]**

والسؤال يستمر في البحث: أين تلك اليدان الآن؟ هل هناك من رأى ومن علم؟. والسؤال يستمر في تجواله: أين تلك اليدان الآن؟ هل هناك

من رآهما أو علم بهما؟

انتهى

---

[1] "السلطان المعظم، وليس السلطان الأحمر". المترجم: جمال أيدن، الآداب التركية، تشرين الأول 1991، ص 40.

[2] علي فؤاد جبه صوي، المذكرات السياسية، القسم الثاني، إسطنبول 1960، ص 67-68. في يوميات كاظم قره بكير يبين أن تجربة استحضار الروح طبقت يوم الخميس 21 شباط. وانظر: اليوميات (1906-1948)، المجلد الثاني، إسطنبول، 2005، YKY ، ص 907.

[3] أوغوز أتاي، الخاسرون Tutunamayanlar ، إسطنبول 1984، دار İletişim، ص 65-67.

[4] كوبرولو زاده محمد فؤاد، التاريخ الوطني (Tarih Milli)، إسطنبول (1340-1924)، (وعلى الغلاف خطأ مطبعي 2924)، مكتبة قناعة (Kanaat)، ص 6-7.

[5] للتوسع؛ أنظر: Ronen Raz, "The Sultan Abd Al-Hamid in Arab historiography, 1914-1991 "، الاقتصاد والمجتمع في الماضي والحاضر، العدد: 5، أيلول 1993 (إسطنبول)، ص 69-87. ومن أجل بحث يكشف الانحراف في النظرة إلى عهد عبد الحميد عند كتابة التاريخ، ويسلط الأضواء عليه بشكل عام أنظر: أرجومنت كوران، "عبد الحميد الثاني في الكتابة التاريخية"، إهداء إلى الأستاذ الدكتور بكر كوتوك أوغلو، إسطنبول 1991، جامعة إسطنبول، كلية الآداب، مركز أبحاث التاريخ، ص 165-170.

[6] شريف ماردين، الفكر العثماني الجديد " Yeni Osmanlı düşüncesi "، الفكر السياسي في تركية الحديثة Modern Türkiye'de Siyasi Düşünce ، المجلد الأول، إسطنبول 2002، دار İletişim، ص 51.

[7] سقط العدد هنا، ولم تتيسر مراجعة المؤلف، لكن السياق يشير إلى عدد قليل. م.

[8] Mehmet Ö. Alkan, "Modernization from Empire to educatin in the prosses of nationalism", Editör: Kemal H. Karpat, Ottoman Past and Today's Turkey, Brill 2000, s. 124 vd.

وانظر لنفس الكاتب: "Osmanlı İmparatorluğu'nda modernleşme ve eğitim", Türkiye Araştırmaları Literatür Dergisi, Cilt: 6, Sayı: 12, 2008, s. 9-84.

[9] Seven Nişanian, Yanlış Cumhuriyet: Atatürk ve Kamalizm Üzerine 51 Soru, İstanbul 2008, Kırmızı Yayınları, s. 197-202.

[10] مارك سايكس، دار الإسلام، المترجم إلى التركية: يلماز Tezkan ، أنقرة 2000، منشورات القرن الواحد والعشرين، ص 202.

[11] ألقان، "التعليم والتحديث في الإمبراطورية العثمانية"، ص 49.

[12] طه طوروس، "هيئة النصيحة في طريقها إلى الصين"، تاريخنا القريب، ملحق صحيفة مِلِّيَّتْ للثقافة والتاريخ، بدون تاريخ، ص 295-291، و307-310.

[13] التاريخ: 19/ N /1299 (هـ) الملف رقم: 5 المجلد: 63، رمز الصندوق: Y.PRK.AZJ .

[14] Ernesto Gomez Abascal, Havana'da Türk Tutkusu 1898، المترجمون غلى التركية: محمد نجاتي، وكوتلو جَرَن قرة جة، إسطنبول 2009، دار إفرست. (أحمد باشا في الرواية هو أنور باشا الذي مر ذكره).

[15] عثمان سليم قوجة خان أوغلو، "قضية الأرمن الثانية في التاريخ التركي"، مجموعة التاريخ والآداب، عدد: 8، آب 1981، ص 9.

[16] Gökhan Çetinsaya, "Din, reform ve statüko: II. Abdülhamid dönemine bir bakış", Osmanlı Medeniyeti, İstanbul 2005, Klasik Yayınları, s. 125-148.

[17] Çetinsaya, agy, s. 132.

[18] Ali Akyıldız, Osmanlı Bürokrasisi ve Modernleşme, İstanbul 2006, İletişim Yayınları, s. 165-189.

[19] Vehbi Vakkasoğlu, "Abdülhamid Han'ı Şikago'da bulmak", Yeni Dünya, Şubat 2008.

[20] http://www.facebook.com/notes.php?id=53413305040

[21] بل أكاد أجزم أنه قد وقع هنا التباس، وأظن أنه ترجمة تفسير البيضاوي، وليس القرآن مكتوباً بالحروف الملاوية، لأنه لم يكن يتجرأ على كتابة نص القرآن الكريم بالحروف غير العربية حتى سقوط الخلافة العثمانية. وعليه يكون إطلاق اسم القرآن على التفسير من باب المجاز.

المترجم.

[22] Aktaran: Cemal Kutay, "Bir himmetin düşündürdükleri", Müfid Ekdal, Tıbhâne'den Nümûne'ye, İstanbul 1982, s. 6.

[23] من مجموعة قصصية كتبها لافونتين (1621-1695) على ألسنة الحيوانات مستلهماً إياها من كليلة ودمنة لابن المقفع وغيرها.

[24] خلوق شخصوارأوغلو (Halûk Y. Şehsuvaroğlu)، "السلطان عبد الحميد الثاني - IV "، مجموعة التاريخ المصورة، عدد 64، نيسان 1955، ص 3800.

[25] راد ميزانجي، Milliye Mücahede-i: الغربة وزمن العودة، إعداد: صباح الدين Çağın ، فاروق Gezgin ، إسطنبول 1994، دار النهر Nehir ، ص 53-54.

[26] إسماعيل أرن Eren ، "الأثر المجهول للمعمار سنان في صوفيا" مجلة تاريخ الأتراك الوثائقية، عدد 8، حزيران 1968، ص 69، (ص 66-90).

[27] وردت في بعض الروايات "حل" بدلاً من "عزل"، أنظر: مدحت Sertoğlu ، "الجوانب التي بقيت غامضة في عزل عبد الحميد الثاني عن العرش"، مجلة تاريخ دنيا الأتراك، عدد: 2، 15 شباط 1987، ص 21.

[28] وانظروا من ينتصر للكتب الشرعية التي تمنع أو تحرق، تاجر الحرب اليهودي الإيطالي عمانويل قرة صو، وآرام أفندي الأرمني!. م.

[29] لم يكن Elmal ı l ı حمدي يازر الصغير صاحب "تفسير ألملة لي" صاحب فتوى عزل السلطان عبد الحميد الثاني كما يظنون، ولم يكن في منصب أمين الفتوى أو شيخ الإسلام حتى يعطي هذه الفتوى، وكل ما فعله هو أنه أعد مسودة فتوى الحل.

[30] مدحت سرت أوغلو. المرجع السابق.

[31] الملة تطلق في الأصل على أهل العقيدة الواحدة، وفي الدولة العثمانية كانت تطلق على الملة العثمانية باعتبار الشعوب المختلفة التي تستظل بظلها، وقد تطلق مضافة فتكون بحسب إضافتها، الملة المحمدية، الملة العثمانية، الملة الإسلامية... لكنها تطلق في المصطلح السياسي السائد اليوم ويراد منها الوطنية. م.

[32] هـ. عليار دميرجي، مجلس الأعيان، إسطنبول 2006، منشورات جامعة إسطنبول للمعلومات، ص 171.

[33] ضياء شاكر، أيام السلطان عبد الحميد الأخيرة. إسطنبول 1943، معلم فؤاد Gücüyener ، مستودع الأناضول للكتب التركية، ص 5-6، سرت

أوغلو، المرجع السابق، ص 19. Çınar ، المرجع السابق، ص 172.

[34] عائشة عثمان أوغلو، والدي عبد الحميد، إسطنبول 1960، دار Güven ، ص 135. يجري هذا الكتاب الذي تم تغيير اسمه في الطبعة الأخيرة للكتاب إلى "والدي السلطان عبد الحميد"؛ وكأنه كتاب تتحدث فيه فتاة ما عن السلطان. وإذا ما قورن بكتاب آخر هو كتاب Alexiad تتحدث فيه أنّا كومنينا Anna Komnena عن والدها الإمبراطور الذي تعشقه؛ يمكن أن تظهر معطياتٌ مثيرةٌ من وجهة نظر امرأة.

[35] انظر: إسماعيل حليم دنشمند، حادثة 31 مارت، إسطنبول 1961، دار إسطنبول، ص 154. عائشة عثمان أوغلو، المرجع السابق، ص 136.

[36] تحدث إيمانويل قرة صو، إلى مراسل الصحيفة الألمانية Frankfurter Zeitung في إسطنبول بتاريخ 27 نيسان عن هذا اللقاء بالتفصيل، من وجهة نظره طبعاً. من أجل الترجمة التأويلية لهذا النص، ومقارنته بشواهد أخرى انظر: نجم الدين ألقان، بالإضافة إلى بيوغرافية إيمانويل قرة صو II : "إنزال عبد الحميد عن العرش"، التاريخ الاجتماعي، عدد: 172، نيسان 2008، ص 22-28.

[37] حسام الدين Ertürk ، İki Devirin Perde Arkası ، إسطنبول 1964، منشورات بنار، ص 39، (نقلتها بإيجاز. م. أ.)

[38] كان يستعيد نشاطه ويروح عن نفسه بصناعة أدواته الخشبية. م.

[39] خالد ضيا Uşaklıgil، القصر وما بعده: الذكريات الأخيرة، إسطنبول 1965، دار انقلاب وأقا، ص 91-92. (قمت بتسطير العبارات التي نقلتها. م. أ.). وانظر أيضاً: خلوق شخصورأوغلو الناقل لكلام Uşaklıgil بفروقات بسيطة من دون تحديد المرجع: "دائرة عبد الحميد الخاصة في قصر يلدز ونمط الحياة فيه"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 22، تشرين الأول، 1951، ص 1009. في مكانٍ آخر من مذكراته فضل خالد ضيا أن ينقل نفس المشاهد بأسلوبٍ باردٍ قليلاً:

الشيء الذي يشد الانتباه أكثر هو الديوان الموجود في الدائرة الخاصة في مكان قريبٍ من المدخل. وفي تفضيل عبد الحميد المبيت هنا حكايات تروى، كان يبقى في هذا المكان حتى يسيطر عليه النعاس ويبقى إلى جانبه شخص، وكان على الأغلب أثوابجي باشي [المسؤول عن لباس السلطان] عصمت بك، يقرأ له قصص المغامرات المترجمة، وبالأخص الكتب المترجمة بمعرفة مكتبة الباب العالي، وكانت هذه الأشياء تعجب السلطان،

وينام بدندناتها مدة، ثم يغير مكانه متنقلا هنا وهناك في القصر".
انظر: Uşaklıgil، Saray ve Ötesi ، ص 310-311.

[40] في الواقع اتخذ منير صالح باشا بعد القانون المنظم للألقاب Çorlu لقبا له، وليس "أسنبل" كما ظن أيقوت قانصو (انظر: انقلاب 1908، الترجمة إلى التركية: أيدا أربال، إسطنبول 2001، منشورات الاتصالات، ص 186، وأماكن أخرى). أما أخوه فقد فضل لقب أسنبل. نشر صالح منير باشا كثيراً من كتاباته في مجموعة يني ترك باسم Çorlu ، و"القصص السياسية من أيامنا الماضية"، للاطلاع على نموذج منها. انظر: صالح منير Çorlu ، "كيف خسرنا الجزائر"، يني ترك، عدد: 48، القانون الأول 1936، ص 648-694.

[41] منير Sirer ، "الثروة التي تم ضبطها في يلدز بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 71، تشرين الأول 1955، ص 4182-5. كذلك حسين جاهد يالجين زار قصر يلدز بعد 31 آذار، وكتب بأنه لم يصادف في القصر أية غرفة تشبه غرفة نوم الحكمدار، ووجدوا فراشا مصنوعا من أقمشة [الرخيصة] الخرق، وعدد من الوسائد الكثيرة الملقاة عند موضع القدمين. انظر: "في دائرة عبد الحميد الخصوصية..."، تاريخنا القريب، المجلد الرابع، إسطنبول 1963، ص 379.

[42] خلوق شخصورأوغلو، "غرفة نوم عبد الحميد الثاني"، القرن العشرين المصور، عدد: 67، 19 تشرين الأول 1953، ص 16 و32.

[43] خلوق شخصورأوغلو، "السلطان عبد الحميد الثاني - V "، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 65، أيار 1955، ص 3854.

[44] Regla de Paul ، تركية بلد الخافية [أي الاستخبارات]: سلطنة مراد وعبد الحميد الثاني، الترجمة إلى التركية: Teoman Tunçdoğan ، إسطنبول 2005، دار Bileşim، ص 155.

[45] Bayar Celal ، وأنا كتبت، المجلد الخامس، إسطنبول 1986، مطبعة البهاء، ص 1502-1503. كذلك يبين باش كاتب المابين هذا الجانب من عبد الحميد في مذكراته. (انظر الهامش رقم 3، ص 32).

[46] يلماز أوزتونا، مجالس التاريخ I ، إسطنبول 1998، Ötüken ، ص 206-207.

[47] انظر: زينل باسم صون، "قصة إعدام"، بين الأمس واليوم، عدد: 11، 13 كانون الثاني 1956، ص 9-10، 170.

[48] للاطلاع على مختصر يبين مكانة فن الخط في الدولة العثمانية

انظر: "الأتراك وفن الخط"، " Türkler ve Hattatlık "، مجموعة التاريخ والآداب، عدد: 11، تشرين الثاني 1981، ص 32-35.

[49] ومنها تأتي عبارة "لحس الحبر"، [عن الأتراك. م.].

[50]

-http://www.samanyoluhaber.com/h_196615_1537de-basilan-ilk-kuran-i kerim.html

[51] انظر على سبيل المثال: أحمد أوجار، "احترام العثمانيين للقرآن الكريم - 3: متى وكيف ظهرت الطبعة الأولى للقرآن الكريم في الدولة العثمانية"، Yedikıta ، عدد 3، تشرين الأول 2008، ص 24-27.

[52] في هذا القسم؛ تمت الاستفادة من مقالة ندرت كوران بورجو أوغلو أحد أحفاد الحافظ عثمان ذكي بعنوان: "الخطاط عثمان بك المطبعجي أول حائز على ترخيص طباعة القرآن الكريم من القصر"، مجلة "المجتمع والتاريخ"، أيار 2001 عدد 209، ص 33-41.

[53] انظر: رضوان أوزتورك، "حماة القرآن الكريم"، أكسيون، عدد: 616، 25 أيلول 2006.

http://www.aksiyon.com.tr/detaylar.do?load=detay&link=20225

[54] " Osmanbey", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, cilt 6, İstanbul 1994, s. 165 .

[55] اتصال هاتفي في 8 تشرين الأول عام 2009.

[56] Alberi Luis Sabuncuzade ، لسان حال السلطان عبد الحميد الثاني، إعداد: ماهر أيدن، إسطنبول 1997، دار الكتاب، ص 88.

[57] Nadir Özbek, Osmanlı İmparatorluğu'nda Sosyal Devlet: Siyaset, İktidar ve Meş-rutiyet, 1876-1914, İstanbul 2004, İletişim Yayınları;

ومقالة له باللغة الإنجليزية في الموضوع نفسه في المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 37 (2005) ص 59-81، بعنوان:

" Philanthropic Activity, Ottoman patriotism and the Hamidian regime, 1876-1909 ".

[58] أوقة: يعادل 1282 غ. م.

[59] Ayşe Osmanoğlu, age, p. 54 .

[60] هذا التردد من المترجم، لأن (يكن) يحتمل ابن الأخ وابن الأخت. م.

[61] أدهم أدهم، تاريخ البنك العثماني، الترجمة إلى التركية: عائشة بركتاي، إسطنبول 1999، منشورات مركز أبحاث تاريخ البنك العثماني، ص 247-248.

[62] شكله المبسط هكذا: "13.700 ليرة عثمانية ونيف الذي أودعه السلطان الأسبق عبد الحميد في البنك العثماني اشتروا بها قصر ألاتيني وقاموا بعمليات ترميمه والقسم المتبقي من المبلغ أنفق في تجهيز الجيش الثاني والثالث بشرط أن يقال أنه هدية مقدمة من السلطان الأسبق..." kz. İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "II. Abdülhamid'in hal'i ve ölümüne dair bazı vesikalar", Belleten, 10 (1946), 40, s. 713.

[63] Ayşe Osmanoğlu, Babam Abdülhamid, İstanbul 1960, Güven Yayınevi, s. 159. Bu kitaptan yapılacak diğer alıntılar ise sayfa 159-164'tendir.

[64] ملاحظة: للاطلاع على سيرورة الاستيلاء على ثروة عبد الحميد بالوثائق؛ انظر: مدحت سرت أوغلو "أحدث المعلومات الجديدة حول خطاب عبد الحميد الثاني الأخير للشعب، والمبعوثين، والعساكر، وثروته"، مجلة التاريخ التركي بالوثائق، العدد: 79-81، 1974، ص 26-37.

[65] عائشة عثمان أوغلو، والدي السلطان عبد الحميد: مذكراتي، إسطنبول 1986، منشورات سلجوق، ص 269.

[66] وعرض عليه أيضاً أن يكون ملكا على الشام حسب عثمان أرطغرل. انظر: تركية، 24 أيلول 2009.

[67] لم ينس عثمان أرطغرل أفندي أبداً هذا الحادث الأليم، وعبّر عن مشاعره في إحدى الوثائق. انظر: كريمة سنيوجل، قصة نفي العائلة: عند موضع رأسي حفنة من تراب الوطن، إسطنبول 2009، دار تيماش، ص 45. يقال: إن جنازته لم تنقل إلى تركيا في عام 1949 بل نقلت إليها بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ أي 1952 من قبل زوجته الأولى علية هانم. وهذا غير صحيح، ففي هذا التاريخ يكون قد مرّ على طلاقها من زوجها ثلاثون عاماً على الأقل، ولا يبدو ذلك مقنعاً، وعلية هانم أفندي وهي أرملةٌ طيلة ربع قرنٍ لا يمكنها أن تعمل على جلب جنازة زوجها السابق من أمريكة بواسطة السفينة. للاطلاع على هذا الخبر الموهوم انظر: مراد برداقجي، أواخر العثمانيين: قصة نفي العائلة العثمانية وميراثها، إسطنبول 2006، الحرية للصحافة والطباعة، ص 112.

[68] قادر مصر أوغلو، دراما بني عثمان، إسطنبول 1974، منشورات

سبيل، ص 265-270.

[69] "كانوا فقط 6 أشخاص". انظر: مراد برداقجي، أواخر العثمانيين، ص 32. غير أنهم 4 في صورة الجنازة التي تظهر في آخر الكتاب، وهم طلاب تونسيون كانوا في باريس، ويظهر إلى جوارهم منتظرو الجنازة من دون المشاركة في الصلاة كما هو معتاد وللأسف - وبينهم بعض أفراد العائلة. (ص 172).

[70] تركيا، 24 أيلول 2009.

[71] Aslı AydıntaŞbaŞ ، "السلطان الأحمر لقب ظالم"، صباح، 23 تموز 2004.

[72] Aslı AydıntaŞbaŞ ، "آخر العثمانيين في عامه 92 يغدو نجم تركيا"، صباح، 22 تموز 2004.

[73] صباح 22 تموز 2004.

[74] يلماز أوز تونا، "زوجات السلطان وأولاده"، مجموعة حياة التاريخية، عدد 12، كانون الأول 1975، ص 11.

[75] خط التعليق. م.

[76] شخصورأوغلو، مرجع سابق، مجموعة التاريخ المصورة، أيار 1955، ص 3853.

[77] الحياة، عدد 2، 5 كانون الثاني 1961، ص 8-9.

[78] قادن: أي امرأة، وسيدة. م.

[79] ترجمان، 17 كانون الثاني 1975.

[80] نوع من السفن الحربية المدرّعة كانت في مطالع القرن العشرين. م.

[81] Morris Jastrow, The War and the Bagdad Railway, Philadelphia ve London 1917, J. B. Lippincott Company, p. 7.

[82] في الأصل كانت نظارة البحرية (وزارة البحرية) قد أغلقت في عهد فوزي جاقماق (الذي نشأ في عهد عبد الحميد) عندما تولى رئاسة الأركان الحربية، معتمداً على مفهوم "الأصل هي المشاة". انظر: مصطفى بيقلي Bıyıklı ، "تأثير الأسطول البحري وثقافته في تصفية الدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط" (القرن التاسع عشر والعشرين) Civilacademi ، (جامعة الفاتح) 2006، ص 57.

[83] Donald Quataert ، "توسع الاقتصاد الأوروبي في الدولة العثمانية والمقاومة"، 1881-1908، المترجم: صبري تكاي، أنقرة، 1987،

منشورات يورت.

[84] Quataert Donald ، "الصناعة العثمانية في عهد الثورة الصناعية"، ترجمة: تانسل غوناي، إسطنبول 1999، منشورات الاتصالات. كما الفت الانتباه غلى دراسة نقدية اشترك معه فيها Zürcher Jan Erik بعنوان "العمال الأتراك من العهد العثماني إلى العهد الجمهوري، 1839-1950". الترجمة: جاهدة أكيز، إسطنبول 1998، منشورات الاتصالات.

[85] Quataert Donald ، الإصلاح العثماني والزراعة في الأناضول، ترجمة: نيلاي أوزتورك كوندوغان وآزاد زانا كوندوغان، إسطنبول 2008، منشورات بنك العمال.

[86] الموقد في التركية كناية عن العائلة، أو العشيرة والقبيلة. م.

[87] عالية أونال، "قيام مؤسسة الهاتف في تركيا"، العثمانية التي تلحق بركب العصرنة!، إعداد: أكمل الدين إحسان أوغلو ومصطفى كجار، إسطنبول 1995، منشورات مركز İRCİCA ، ص 121-122. وانظر: نيازي تزار، "الهاتف"، أنسيكلوبيديا شهرية، المجلد 2، رقم 14، حزيران 1945، ص 444-445.

[88] انظر: أورخان قول أوغلو، "تأثير الاتصالات الجديدة وتقنيات المواصلات بالمجتمع العثماني"، العثمانية التي تلحق بركب العصرنة، ص 603 وما بعدها.

[89] أونال، المصدر السابق، ص 124، الهامش السفلي 5.

[90] انظر: المعدون: أكمل الدين إحسان أوغلو ومصطفى كجار، العثمانية التي تلحق بركب العصرنة!، ص 640-649.

[91] عزيز أوغان، "كيف تأسس متحف الآثار؟"، مجموعة التاريخ والآداب، عدد: 5، أيار 1980، ص 71-73.

[92] يعقوب Kalgay ، "خطوطنا الحديدية"، موسوعة المعارف (أنسكلوبيديا) الشهرية، عدد: 19 تشرين الثاني 1945، ص 583.

[93] William Engdahl, A Century of War: Anglo-American Oil Politics and the New World Order ، طبعة محققة. Pluto Press, 2004, pp. 23-24

[94] لم يكن خط الحجاز الحديدي أمراً سياسياً فقط، بل جبهة تحمل حساسية أيديولوجية وإسلامية أيضاً، يمكنكم الاطلاع على: مقالات متفرقة كتبها مقتصد موسى في صحيفة "ترجمان حقيقت" بعنوان: "المنافع المادية والمعنوية للخط العالي الحجازي". بين 2 نيسان و11 آب 1904. وقد

تم تتبع خط سير النبي صلى الله عليه وسلم في مد هذا الخط الحديدي إلى المدينة المنورة.

[95] مدين في هذا التأويل للبحث القيم لبالميرة بروميت Palmira Brummett ، انظر:

Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, SUNY Press 1994 .

القوة البحرية العثمانية، القوة البحرية العثمانية في عصر الكشوفات والدبلوماسية في شرق البحر الأبيض، Brummett Palmira ، منشورات تيماش 2009.

[96] بل دول، ليفتح الطريق لخريطة جديدة للعالم، ولنظام دولي جديد. م.

[97] للاطلاع على ملخص عن التقرير انظر: حكمت Uluğbey ، السياسة البترولية من الإمبراطورية إلى الجمهورية، إسطنبول 2007، ki De Yayım Basım ، ص 418 وما بعدها. Ediger ، مرجع سابق، ص 202-207.

[98] أرشيف الرئاسة العثماني، الناقل من أوراق يلدز الأساسية، 9.2638.72.4: السلطان عبد الحميد خان الثاني، نظراتي حول الدولة والمملكة [البلد]. إعداد: علاء الدين جتين ورمضان يلدز، إسطنبول 1976، منشورات Çığır ، ص 302. علاوة على: أورخان قول أوغلو، عبد الحميد بين فكي كماشة عبد الحميد. ط2، إسطنبول 2005، منشورات الاتصالات، ص 63-64. ولنفس الكاتب أيضا "غلادستون في مواجهة عبد الحميد"، التاريخ والمجتمع، عدد: 180، نيسان 1995، عدد: 51.

[99] نظراتي حول الدولة والمملكة، ص 51.

[100] " At one stage he raised a copy of the Holy Qur'an in his hand and said that so lon as this book remained with the Muslims in that country and they respected and followed it, the British would never be able to dominate them. He added that the only solution was to try and separete the Holy Qur'an from the Muslims of Egypt".

http://www.batkhela.com/islam/story3.shtml

[101] جلال تكير ورمضان بالجي، السيرة الذاتية الجديدة: حياة بديع الزمان سعيد النورسي ودعوته وآثاره، إسطنبول 2003، Gelenek Yayıncılık ، ص 80-81. وفي مصادر أخرى أيضا مع بعض الاختلافات، انظر على سبيل

المثال: نجم الدين شاهينار، بديع الزمان سعيد النورسي بجوانبه غير المعروفة: حياته، إسطنبول 1994، منشورات يني آسية، ص 85.

[102] الناقل: أويا أوقان، "تركية والمحاولات الأمريكية نحو الدولة العالمية"، أمريكة في عامه الـ 500، إسطنبول 1994، منشورات Bağlam ، ص 155.

[103] تنص المادة 17 من اتفاقية لوزان على تنازل تركية عن كل حقوقها وصفاتها الموجودة في مصر والسودان، بأثر رجعي يعود إلى 5 نوفمبر 1914، وهي المادة نفسها التي رفض توقيعها السلطان وحيد الدين على الرغم من كل الضغوط المفروضة عليه، وهي المادة 101 من معاهدة Sevr . انظر: معاهدة Sevr : النص الكامل، إعداد: إبراهيم سعيد أوزترك، أنقرة 2007، منشورات فرق، ص 81.

[104] ليست هناك ضرورة لتكون عالماً حتى ترى ما يفعلونه بالشخص الذي يخدمهم بعد أن تنتهي مصالحهم معه، مثل الجاسوس لورنس الذي صرفوه كعملة بخسة رغم كل نجاحاته ومواهبه.

[105]

http://hansard.millbanksystems.com/commons/1918/nov/18/consolidated-fund-appropriationbill#S5CV0110P0_19181118_HOC_306

[106]

http://hansard.millbanksystems.com/commons/1911/dec/14/adjourneddebate#-S5CV0032P0_19111214_HOC_325

[107] صالح منير ÇorluK ، "ثورات كريت: الصفحة الثانية (1878-1898)" مجموعة يني ترك، عدد: 43 تموز 1936، ص 364-365. وقد بين ذلك بشكل اكثر تفصيلا في ذكريات صالح منير باشا التي نشرها في صحيفة الجمهورية في الفترة من 9 حزيران 1934 إلى 26 حزيران 1934. ومن أجل حياة منير باشا انظر: علي برنجي، موسوعة العثمانيين بحياتهم وكتاباتهم، المجلد الثاني إسطنبول 2008، ص 330-332. وعن وفاته انظر ما كتبه كتب عنه دبلوماسي آخر: غالب كمال Söylemezoğlu ، "صالح منير باشا"، Yedigün ، عدد: 309، 7 شباط 1939، ص 12-13.

[108] سليم Deringil ، النضال ضد التشيع في العراق: نموذج للدعاية العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني، القومية والدولة من السلطان عبد الحميد إلى مصطفى كمال أتاتورك، إسطنبول 2007، منشورات الاتصالات ص 159، والحاشية السفلية رقم 35.

[109] أسوار القسطنطينية 1909، الناقلة من "Efkâr Tasvir-i Yeni" 28 تشرين الأول 1909: زينب جليك. إسطنبول المتغيرة، الترجمة: سليم درينغيل، إسطنبول 1996، منشورات سكن وقف التاريخ، ص 59-97.

[110] ربما المقصود بالاجتهاد هنا الرتبة الدينية، وليس التفوق. م.

[111] أخذت هذه المعلومات باختصار من مقالة Meir Litvak بعنوان:

" The Shi'ite 'ulama of Najaf and Karbala and the Tanzimat" (Harvard Middle Eastern and Islamic Review, 2, 1995, pp. 81-83).

[112] Gökhan Çetinsaya: "Ottoman policy towards the Shiite community of Iraq in the late ninteenth century", Middle Eastern Studies, Vol. 41, No. 4, July 2005, pp. 561-574.

[113] Gökhan Çetinsaya ، "العلاقات الإيرانية العثمانية من التنظيمات إلى الحرب العالمية الأولى"، Kök Araştırmalar ، أنقرة 2000، العثمانية عدد خاص، ص 16.

[114] أورخان Koloğlu ، حقيقة عبد الحميد، إسطنبول 1987، منشورات Gür ، ص 206-210.

[115] Sinan Kuneralp, "The Ottoman Drang Nach Osten : خلاف الحدود بين الدولة التركية والفارسية في أذربيجان 1905-1912" Editör: Sinan Kuneralp ،، دراسات على التاريخ الدبلوماسي للعثمانيين IV, İstanbul 1990, The Isis Press, s. 71-76 .

[116] والانتهاكات الصغيرة هنا وهناك، وبعض التعديلات؛ كانت تجري في كل حين.

[117] ضيا شاكر، حياة أتاتورك، إسطنبول 1938، Tan Evi ، سلسلة كتب الجيب I ، ص 12.

[118] H.G. Armstrong ، بوزقورت [الذئب الأغبر = شعار القوميين الأتراك]، الترجمة إلى التركية: Gül Çağalı Güven ، إسطنبول 1996، منشورات أربا، ص 10-12.

[119] لم تكن المداهمة على البيت كما يظنّ أرمسترونغ.

[120] شرف الدين طوران، مصطفى كمال أتاتورك: شخصيته ونمط حياته، أنقرة 2004، Bilgi للنشر، ص 59-60.

[121] علي فؤاد Cebesoylar ، صديقي في الدراسة أتاتورك، إسطنبول 1981، دار انقلاب ودار أقا، ص 72 وما بعدها.

[122] شوكت ثريا أي دمير، الرجل الفرد: مصطفى كمال، الجزء الأول (1881-1919)، ط4، إسطنبول 1969، دار رمزي، ص 83.

[123] صالح Omurtak وحسن علي يوجل وإحسان Sungu وأنور ضيا Karal وفائق رشيد Unat وأنور Sökmen و Uluğ İğdemir وأتاتورك، إسطنبول 1970، مطبعة التعليم الوطني، ص 7-8، يوسف حكمت بايور، أتاتورك: حياته وكتبه I : من ولادته حتى خروجه إلى صمصون، أنقرة 1963، مطبعة Güven ، ص 13.

[124] "لكن الإدارة الوسواسة والمستبدة التي لا تخلو من التجسس وتعقب الشخصيات المنتقدة مهما كان مستواهم؛ لم تترك مصطفى كمال أيضاً بعيداً عن الأنظار، وأتت به إلى قصر يلدز بعد توقيفه في اليوم الذي نال فيه شهادته من الأركان الحربية برتبة يوزباشي (29 كانون الأول عام 1904). وتم استجوابه لأيامٍ في قصر يلدز بحيث يتمكن عبد الحميد من التنصت عليه. ثم نفي إلى الشام بعد توقيفه عدة شهور". التاريخ VI : الجمهورية التركية، إسطنبول 1931، وكالة المعارف، ص 17-18.

[125] م. طوران طان، أتاتورك، إسطنبول (بدون تاريخ)، دار القناعة، مكتبة أنقرة، XV ، ص 18-20.

[126] Kinross Lord ، أتاتورك: ولادة أمة من جديد،، الترجمة إلى التركية: نجدت سندر، ط: 12، إسطنبول 1994، دار ألتون، ص 36-37.

[127] Mikush Von Dagobert ، الغازي مصطفى كمال: رجل بين أوروبة وآسية، الترجمة إلى التركية: Erendo Nermi Esat ، هدية صحيفة الجمهورية، إسطنبول 2000، ص 42-58.

[128] طوران، المرجع السابق، ص 60. أرمسترونغ، بوزقورت [الذئب الاغبر = شعار القوميين الأتراك]، ص 12.

[129] إعداد: عثمان سليم Kocahanoğlu ، الوثائق العسكرية والسياسية من أرشيف علي فؤاد جبة صوي، إسطنبول 2005، منشورات Temel ، ص 350-351. (تاريخنا القريب، المجلد الرابع، عدد: 50، شباط 1963).

[130] William Engdahl, A Century of War, s. 47 .

[131] Niall Ferguson, Empire, Basic Books, 2002, s. 291 vd .

[132] Vakit, 11 Nisan 2006.

[133] الناقل: مم كمال أوكة Mim Kemal Öke ، القضية الفلسطينية، إسطنبول 2002، دار أفق، ص 35. ميزان القوة يغلب دائماً ميزان الحق. م.

[134] م. كمال، المرجع السابق، ص 36.

[135] الترجمة الحرفية لكلمة foot في النص الإنجليزي، هي "قدم أرض" وهي غير مناسبة في التركية. [أرى أن foot وحدة طول كما هو معلوم، ولا ما نع من استخدامه، بمعناه الحرفي، أو معناه المجازي (موطئ قدم). م.].

[136] معركة بلاونة الشهيرة قريبة من سواحل البحر الأسود. يريد أن يبين أننا أمة واحدة، فجنود فلسطين وسورية قاتلوا في سواحل البحر الأسود. م.

[137] The Diaries of Theodor Herzl ، الترجمة من الألمانية إلى الإنجليزية: Marvin Lowenthal ، نيويورك 1962، مكتبة الجامعة، ص 152. للاطلاع على النص الإنجليزي انظر: الملحق I .

[138] Marvin Lowenthal, "Introduction", The Diaries of Theodar Herzl, s. XXVI .

[139] Avram Galante, "Une page d'histoire inedite: Abdul Hamid II et le Sionisme", Histoire des Juifs de Turquie, IX, Isis Editions, İstanbul, s. 183.

(أشكر صديقي العزيز جمال أيدن على المساعدة التي قدمها في ترجمة المقالة). ستجدون ما قاله عبد الحميد لرئيس الحاخامات في الصفحة 187. [حسب الأصل وينبغي إعادة الترقيم حسب النص العربي]

[140] الجملة الأخيرة تعني: "نحن حصن أوروبة ضد آسية، سنصبح قاعدةً أماميةً للحضارة ضد البربرية".

[141] The Diaries of Theodor Herzl, Almancadan İngilizceye çeviren: Marvin Lowenthal, New York, 1962, The Universal Library, p. 152.

[142] وإليكم النص الإنجليزي المتعلق بهذا المقطع في مقدمة المترجم إلى الإنجليزية Marvin Lowenthal :

The spiritual generosity of a knight led to his instinctive appreciation of Nevlinski, a knave perhaps and yet a grandseigneur dechu, his admiration for Abdul Hamid's superb rejection of the Zionist proposals, and for the august simplicity of a peasent Pope. (The Diaries of Theodor Herzl, s. xxvi).

[143] كان من عادة السلطان عندما يريد معاقبة الشخصيات الكبيرة؛

أن يأتي به إلى القصر وإعادته من دون أن يقابله. وكان ذلك يعني نوعاً من الاحتجاز. هذا يعني أن موشيه ليفي قد احتجز لثلاثة أيام.

[144] للاطلاع على معلومات كاملة حول اشتراك الدولة العثمانية في معرض شيكاغو الدولي، والفعاليات التي شاركت بها؛ انظر:

Gültekin Yıldız, "Ottoman participation in World's Columbian Exposition (Chicago-1983)".

مجلة الأبحاث التركية، عدد: 9 آذار 2001، ص 131-167، أورخان Koloğlu ، "الذكرى المئوية الثانية للتعارف بين الأتراك والعثمانيين"، التاريخ والمجتمع، عدد: 164 آب 1997، ص 42-49.

[145] في الحقيقة هذا عنوان عريض يندرج تحته الحوار الذي عرفه الإسلام في كل سنوات مده وانتشاره في الأرض، وحوار آخر همه تفكيك أدوات التميز الذي يعرف به الإسلام، وتندرج تحته كثير من الشعارات كالتقارب بين الأديان. الأول ينطلق من صحة الانتماء إلى الإسلام كالذي كان عليه عبد الحميد، والآخر ينطلق من الأيديولوجية الغربية التي تقوم على فكرة فصل الدين عن الحياة، وتتوسل في سبيلها الدعايات التي تشوه مفاهيم الحضارة الإسلامية الإنسانية الأصيلة. م.

[146] تتم دعوته في ما بعد مع زوجته لزيارة إسطنبول ولقاء السلطان عبد الحميد. وقد قامت زوجته بكتابة انطباعاتها عن السراي، انظر: جورجينا ماكس مولر، رسائل من إسطنبول، الترجمة إلى التركية: عفيف بورا، إسطنبول، 1987، Tercüman 1001 Temel Eser ، ص 73-79.

[147] في العنوان التالي:
http://library.duke.edu/digitalcollections/rbmscl/webb/inv/pdf/ موجز ليوميات ويب المؤرخة بتاريخ 1892، وأصول هذه اليوميات في مكتبة جامعة دوكة Duke .

[148] نوردان شفق، العلاقات العثمانية الأمريكية، إسطنبول 2003، OSAV ، ص 171-172.

[149] جزمي أرسلان، "دعاية أ. ر. ويب الإسلامية في أمريكا وعلاقاتها بالدولة العثمانية"، الأبحاث العلمية، عدد: 2، 1996، منشورات جمعية نشر العلوم، ص 89.

[150] Umar Faruk Abd-Allah, A Muslim in Victorian America: The Life of Alexander Russell Webb, Oxford University Press, 2006, p. 6 .

[151] فاروق بيليجي، "الإسلام في فرنسة" İslamiyet Fransa-Ülkede، موسوعة المعارف الإسلامية لشؤون الديانة التركي، المجلد 13، إسطنبول 1996، ص 189.

[152] إبراهيم إكنجي، "مثقف بين الشرق والغرب: محمد ألكسندر روسل ويب أفندي"، OTAM، عدد: 253، حاشية سفلية 106.

[153] علي كوسا، لماذا يختارون الإسلام؟، إسطنبول 2009، منشورات İz، ص 46.

[154] تلقى دعوة من إسطنبول عام 1890 وفق موسوعة المعارف الإسلامية لشؤون الديانة، انظر: شكري سليم خاص، " Ülkede .İngiltere-V İslâmiyet"، المجلد 22، إسطنبول 2000، ص 308.

[155] أحمد أجار، "وسام من السلطان عبد الحميد إلى نيجيرية.."، الفكر والتاريخ، عدد: 64، آذار 2006، ص 26-29.

[156] صفوت سنيح، "شيخ الإسلام عبد الله كويليام"، Sızıntı، عدد 339، نيسان 2007، عنوان البريد الإلكتروني:

http://www.sizinti.com.tr/konular.php?KONUID=3203

[157] ميرزا عبد الرحيم أفندي، الإسلام في أمريكا، المترجم الدكتور عصمت زاده، محمد عارف إسطنبول 1311، المطبعة الأميرية، 40 صفحة. وقد ذكر هذا الكتاب في مطبوع سابق، إلا أن المعلومات التي ذكرت هناك كانت مختلطة عن عمد أو غير عمد. انظر: "وعبد الحميد من جديد"، سبيل، عدد: 1542، تشرين الثاني 1976، ص 8-9، والعنوان الفرعي هكذا: "لقد ظهر للضوء أن السلطان عبد الحميد اتصل بقنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الفلبين"، على الرغم من أن الكتاب يذكر أن ويب تعرف إلى الحاج عبد الله، ولا يذكر أن عبد الحميد هو الذي أرسله. والفقرة التي يقال: إنها مأخوذة من الكتاب، والتي تبدأ بـ "ما من شك بأن..."؛ لم أتمكن من العثور عليها في كتاب "الإسلام في أمريكا".

[158] لهذا السبب نمنح بعض العذر في هذا الجانب للغرب الذي يخشى من عودة الخلافة الإسلامية التي تجشموا من أجل هدمها كل الصعاب، واستباحوا كل أنواع الغدر، وأنفقوا من أجل القضاء عليها عدة قرون. ونقدر مخاوف بوش عندما تحدث في خطاب مفتوح عام 2005 فقال: "إن تركنا الإسلاميين يسيطرون على دولة واحدة، فإن هذا سيستقطب جموع المسلمين، مما سيترتب عليه الإطاحة بجميع الأنظمة التابعة لنا في المنطقة، وسيتبع ذلك إقامة إمبراطورية أصولية إسلامية من إسبانيا إلى

أندونيسيا.... إلا أن الناظر في العالم اليوم يدرك أن ما كان مكنوزا تحت الرمال من براكين التغيير بدأت نذره وعلاماته.." م.

[159] The Light & Islamic Review March-April 2000 ;http://www.muslim.org/light/light002-frm.htm [B[ertrand Russell, YaŞantım.

إعداد: معمر سنجر، إسطنبول 1974، منشورات Erk ، ص 20.

يوسف ماردين، "لندن عبد الحق حميد" Abdülhak Hâmid’in Londrası ، إسطنبول 1976، منشورات بنك العمل التركي، ص 288-291.

[160] ماردين، المرجع السابق، ص 291-290.

[161] مقتبس من الطلب الذي قدمه السفير الإنجليزي Alferd Sandison في إسطنبول إلى عبد الحميد يطلب فيه منح التجار الإنجليز امتياز التنقيب عن معدن البورون. وقد تمت صياغة الاقتباس بلغة مبسطة. انظر الحاشية السفلية رقم 2 من أجل المصدر.

[162] خيري Mutluçağ ، "البور أسيد والشركات الأجنبية في الأناضول"، مجلة التاريخ التركي في وثائق، عدد: 1 تشرين الأول 1967، ص 24-35.

[163] ورد ترجمة هذا النص العثماني، بعد تبسيطه في متن الكتاب. م.

[164] هم مجموعة من نخبة القيادات الممسكة بالحكم في تركيا، لهم أدواتهم المختلفة في السيطرة على مفاصل القوة في تركيا، الجيش والاستخبارات، والبوليس، والصحافة والإعلام، والمنظمات، والأحزاب، والمافيات.... كانوا يشكلون دولة داخل دولة، ويقفون وراء كثير من الاغتيالات والانقلابات، كان آخرها محاولة الانقلاب على حكومة أردوغان في عملية فاشلة سميت بباليوز؛ أي المطرقة. وقد اعتقل منهم ضباط كبار وإعلاميون و.. ولا تزال محاكماتهم جارية. م.

[165] يلماز أوزتونا Öztuna وأيواز Gökdemir ، "التدخلات العسكرية في تركية" (Türkiye'de Askeri Müdahaleer)، إسطنبول، 1987، ص 18-19.

[166] أرول Özbilgen ، "انسحاب العثمانيين من البلقان: سليمان حسني باشا وعصره". إسطنبول، 2006، İz Yayıncılık ، ص 51، وما بعدها.

[167] يشار شاهين أنيل Anıl ، محاكمتان في العهد العثماني: محاكمات الشيخ بدر الدين ومدحت باشا، إسطنبول، 1995، منشورات Yapı Kredi ، 137 -138 .

[168] جودت كوجوك، "عبد العزيز"، موسوعة المعارف "أنسكلوبيديا"

الإسلامية لوقف شؤون الديانة التركية، المجلد 1، إسطنبول 1988، ص 184-185.

[169] من أجل محاضر استجواب مدحت باشا ورشدي باشا انظر: إسماعيل حقي UzunçarŞılı ، "الوثائق المتعلقة باعتقال مدحت باشا ورشدي باشا"، أنقرة 1987، منشورات مؤسسة التاريخ التركي.

[170] في حرب 93 العثمانية الروسية.

[171] يلماز أوزتونا، تاريخ العثمانية الكبير، المجلد 5، إسطنبول 1994، منشورات Ötüken ، ص 329.

[172] الناقل من مذكرات تيودور هرتزل؛ يشار قوتلو أي Kutluay ، تركية والصهيونية، إسطنبول 1967، منشورات سلجوق، ص 81. والنص كما ورد في ترجمة Göze Ergün من مذكرات هرتزل بالفرنسية إلى التركية: "كيف هذا؟! أتطلبون مني القبول بدستور، في وقتٍ نرى فيه مثال بولونية التي لم يحل امتلاكها الدستور دون تمزيقها؟!". انظر: مذكرات مؤسس الصهيونية وإسرائيل تيودور هرتزل والسلطان عبد الحميد، إسطنبول 2002، منشورات BoĞaziçi ، ص 81. (هذا الكتاب ليست ترجمة كاملة، بل اقتباسات كبيرة اقتبسها قوطلو أي مع النقد).

[173] في الحقيقة يقال: إن مدحت باشا دافع عن نفسه في رسالة موجهة إلى عبد الحميد بتاريخ 28 كانون الثاني 1877 بقوله: "لم نعلن القانون الأساسي كسبا لرضى أعدائنا الأوروبيين"، بل لأننا "أردنا أن نجلب لتركيا حضارة رائعة". (للاطلاع على نص الرسالة انظر: "الرسائل الأخيرة التي أرسلها مدحت باشا من الطائف"، مجموعة التاريخ والأدبيات، عدد: 6 حزيران 1980، ص 24) والمزامنة بين تاريخ الرسالة وتاريخ إعلان المشروطية تدل على إمكانية صحتها. أما القول بأن إعلان الدستور كان نتيجة ضغط داخلي؛ فإن ضعفه الشديد يظهر من تشتت المعارضة في خلال الثلاثين عاماً اللاحقة.

[174] انظر: أ. شرف Kili Gözübüyük-Suna ، نصوص الدستور التركي (1839-1980)، الطبعة الثانية، أنقرة 1982، منشورات جامعة أنقرة - كلية الوثائق السياسية، ص 33- 34، (والخطوط الموضوعة تحتها من قبلي. م. أ.).

[175] أورخان Aldıkaçtı ، تطور قوانيننا الدستورية ودستور 1961، الطبعة الرابعة، إسطنبول 1982، منشورات كلية الحقوق جامعة إسطنبول، ص 56-57، 60، 63-64. ("دستور 1876 يشكل المرجع القانوني لإدارة مستبدة"). صونا كيلي، "تقييم دستور 1876 من وجهة نظر مشكلات

العصرنة". أرمغان: مئوية القانون الأساسي، أنقرة 1978، منشورات كلية الوثائق السياسية جامعة أنقرة، ص 194. ("فوقية السلطان أهم خصائص الدستور"). عادل شاهين، "القوانين والحريات في سياق النظريات: بحث في دستور 1876"، المحرر: عاصم Öz ، مئوية المشروطية الثانية، إسطنبول 2008، منشورات بينار، ص 199-200. "دستور 1876 لم يكن دستوراً؛ لأنه تفتقد إلى "عوامل الثقة الأساسية" المنتظرة في الدساتير". Ortaylı İlber Kitabı ، ص 364.

[176] إلبر أورتايلي، "البرلمان العثماني الأول وتمثيل الشعوب العثمانية"، أرمغان: مئوية القانون الأساسي، ص 169.

[177] ثروت أرمغان، "انتخابات أول برلمان في تاريخنا"، أرمغان، مئوية القانون الأساسي، ص 167.

[178] في مجلس الأعيان الذي تشكل من جديد عام 1908؛ نجد عقد مقارنات بين برلمانات العالم والمجلس العثماني ببنيته متعدِّدة الشعوب. انظر مثلاً: هـ. عليار دمرجي، مجلس الأعيان في المشروطية الثانية، 1908-1912، إسطنبول 2006، منشورات جامعة إسطنبول للمعلومات Bilgi ، ص 225-226.

[179] Aviel Roshwald, Ethnic Nationalism & The Fall of Empires: Central Europe, Rusia & The Middle East, 1914-1923, Londra ve New York 2001, Routledge, p. 18 .

[180] Üçok, agy, s. 1172-1173 .

[181] جمال قوطاي، "من خلف ستائر 143 عاماً: الصراع حول الدستور". إسطنبول 1982، منشورات Cem Ofest Matbaacılık Sanayi A.Ş. Yayını ، ص 103.

[182] موظفو الدولة البيروقراط، والمؤسسة المدنية في الدولة العثمانية، وهم موظفو الدولة من غير موظفي الشؤون الدينية والعسكر. م.

[183] ورد في الكتاب مليار وأربعمئة ألف، لكن الرقم يدل على مليار وأربعمئة مليون. م.

[184] أحمد شكري أسمر، التاريخ السياسي، إسطنبول 1944، منشورات مدرسة الوثائق السياسية في وكالة المعارف، ص 299.

[185] والنموذج الأشهر في هذا المجال هو دار العجزة إلى جانب "دار الإرضاء" لإيواء أبناء الشوارع والأرامل للأطفال الرضع اللقطاء. انظر:

N. Sarı-I. Savun, Türk tarihinde acizlerin korunmasına kısa

bir bakış II: Kimseziz süt çocuklarının örnek yuvası Darü'l-Irza, Tıp tarihi Araştırmaları-5, 1933, s. 34-51.

[186] في الواقع كانت هذه المرحلة حرجة للغاية، وكانت نقطة افتراق بين النخبة المثقفة [التي كانت مضبوعة بالحضارة الغربية ونمطها في العيش] وبين عامة الناس المنتظمين بشكل عام في الطرق الصوفية [التي كانت تشكل الحاضنة التي تحفظ انتماء الناس إلى الإسلام؛ على الرغم من الانتقادات التي توجه إليها، ولذلك كانت هذه الطرق هي رأس الحربة في مقاومة الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين]. ومفهوم الوطن عند معظم النخب الثقافية التي بدأت تنتظم في جمعيات [الاتحاد والترقي تركية الفتاة، تونس الفتاة، الجمعيات الماسونية على اختلاف تبعياتها وأسمائها (محفل نجم قاسيون الإنجليزي، محفل إيراهيم الخليل الأميركي، المشرق الأعظم الفرنسي، المشرق الأعظم الإيطالي، ... كما ذكر ذلك بدر الدين الشلاح في حديثه عن المحافل الماسونية التي كانت في الشام)]... كان يأخذ شكل الانفصال على أساس قومي في الغالب. لكن هذا المفهوم كان عند عامة المسلمين يتمثل في الخلافة الإسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية، وكل ما عمله السلطان عبد الحميد في هذا المجال هو أنه حاول أن يبث روح الحياة في هذه الرابطة الإسلامية عبر الشيوخ.... وهنا مكمن السر في عداء النخب المثقفة ومحبة عامة الناس للسلطان عبد الحميد في ذلك العصر كما أفرد له المؤلف بحثا خاصا في الجزء الأول من هذا الكتاب. م.

[187] رئيس الديوان في قصر السلطان.

[188] "كلمة عبد الحميد في المشروطية"، دنيا التاريخ والجغرافية، العدد: 4، 31 تموز، 1959، ص 269.

[189] للاطلاع على بحثه الذي يقدم لنا فيه أن دستور 1876 على الرغم من تعطيل المجلس بقي قيد الإجراء والتنفيذ؛ انظر: "موضوع النقاش حول دستور 1876 العثماني وإلغائه أو إبقائه قيد التطبيق بين عامي 1878 و1908" مؤتمر التاريخ التركي التاسع، أنقرة، 21-25 أيلول 1981، الملفات المقدمة للمؤتمر، II ، أنقرة 1988، منشورات مؤسسة التاريخ التركي، ص 1171-1175. فوزي دمير "انتخابات مجلس المبعوثان في عهد المشروطية الثانية في الدولة العثمانية"، 1908-1914، أنقرة 2007، مكتبة إمغة İmge ، ص 32. ديبونت 38. وأيضاً: فوزي أحمد، تركيا في سبيل البحث عن هوية، المترجم إلى التركية: سادات جم قرة دلي، ط2، إسطنبول 2007، منشورات جامعة إسطنبول للمعلومات. ص 52. انظر: Çınar مرجع سابق، ص 19-20.

[190] وهم: Legofet بك، وسعيد باشا، وأبراهام باشا. انظر: Çınar مرجع سابق، ص 457، الجدول الثاني.

[191] نجدت سقا أوغلو، "عبد الحميد الثاني"، موسوعة معارف إسطنبول بين الأمس واليوم، المجلد 1، إسطنبول 1993، ص 42.

[192] حسين جاهد يالجين، طلعت باشا، إسطنبول 1934، منشورات yedigün ، ص 49.

[193] www.measur'gworth.org . ربما كان هناك خطا في التقديرات لأنني غير متخصص في الاقتصاد، لكن ما أريد قوله هنا، هو أنه لابد أن يجيب احد ما على كيفية تحويل مبلغ يفوق مليون دولار برائج اليوم على أسوأ التقديرات خارج البلاد في سنوات الاحتلال؟! وينبغي ان لا يتوقف الأمر عند بيانات السفير، بل العودة إلى بيانات البنوك في ذلك الزمن، لكنني لا أتوقع العثور على بيانات عن تحويلات مغفلة كهذه اليوم.

[194] حلمي كامل بايور، "السفير نعمان طاهر سيمان يتحدث: طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا في برلين بعد فرارهم من إسطنبول". Tahir Mecmuası Edebiyat ve ، عدد 8، آب 1980، ص 13-14.

[195] ينبغي أن تثير فينا الحيرة عقول أولئك الذين يقيسون فرار الاتحاديين بفرار السلطان وحيد الدين: فالاتحاديون كانوا يفرون من البلاد بعدما كانوا قادةً لها وهذا ما دفع بها للوقوع تحت الاحتلال، بينما كان صعود وحيد الدين إلى عرش السلطنة في ظروف الاحتلال، وكانت مغادرته في سعادة بعد أن نالت البلاد نوعاً من الاستقلال. [مفهوم الاستقلال، وحالة وحيد الدين عند مغادرته البلاد، وما حدث عند إعلان الجمهورية،... قضية مستقلة بنفسها تمتد آثارها حتى اليوم...] م.

[196] كانت هذه العبارة المكتوبة في البداية، مشطوبة بالقلم. ربما كان من العبث أن يتحدث طلعت باشا عن النجاح في الرسالة التي كتبت أثناء فراره من البلاد.

[197] الناقل: محمد صلاح الدين بك: ما أعرفه حول نجاة الاتحاد والترقي وسقوط الدولة العثمانية. إعداد: أحمد Varol ، إسطنبول، 1989، منشورات انقلاب، ص 105.

[198] عثمان طوران، مصادر الشيوعية في تركية والاستعمار الثقافي، ط3، إسطنبول 1977، دار NakıŞlar ، ص 107-108.

[199] سعيد حليم باشا، Eserleri Son ve Buranlarımız ، إعداد: م. أرطغرل دوزداغ، إسطنبول 1998، منشورات İz ، ص 31-33.

[200] بكر صدقي بايكال، "لقاء روفال"، موسوعة المعارف الشهرية، رقم: 14، حزيران 1945، ص 437-438.

[201] رتبة عثمانية بين اليوزباشي (النقيب) والبينباشي (الرائد).

[202] أورخان قول أوغلو، "هل تم في روفال تقاسم الدولة العثمانية؟"، التاريخ والمجتمع: 24، كانون الأول، 1985، ص 16-19.

[203] وحدة عسكرية مؤلفة من 10 عساكر.

[204] استطاع الفيلسوف والكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر أن يعكس لنا بنجاح المأساة التي تركتها هذه الهزيمة أمام الألمان من كتب المدارس إلى تفاصيل الحياة اليومية في "الكلمات" التي يتحدث فيها عن ذكريات طفولته. واذكر هنا: من الطريف أنه تم تنصيب أدولف ثيرز Thirers Adolphe (وفاته: 1877) لاستعادة مزاج القوة الذي اضطرب أمام هذه الهزيمة الثقيلة. (جان بول سارتر، الكلمات: سيرتي الذاتية، المترجم إلى التركية: ألب تومرتكين، إسطنبول 1983. منشورات Ada).

[205] للإطلاع:

H.A.I. Fisher, History of Europe, II, p: 1084. & W. Kay Wallace, Therty Years of Modern History, pp. 48-50 .

[206] علي كمالي أق سوت، "حول الاتحاد والترقي"، Tarih Yeni Dünyası ، عدد: 15، نيسان 1954، ص 630.

[207] Ramsaur .E Ernest ، جون تورك وانقلاب 1908، الترجمة إلى التركية: نوران ياوز، إسطنبول 2007، منشورات بوزيتيف، ص 158. فكرت أدانر، المسألة المقدونية، الترجمة إلى التركية: إحسان جاتاي، إسطنبول 2001، منشورات Yurt Vakfı Tarih ، ص 265.

[208] محمد حج صالح أوغلو، جون تورك والمشكلة المقدونية (1890-1918)، الترجمة إلى التركية: إحسان جاتاي، إسطنبول 2008، منشورات Yurt Vakfı Tarih ، ص 174.

[209] من أجل فعاليات إسماعيل ماهر باشا في عمله هذا، ووقوعه ضحية لفاعل مجهول في 2 كانون الأول عام 1908 بعد المشروطية الثانية؛ انظر: جمال قوطاي، "الاغتيالات السياسية من المشروطية الثانية إلى يومنا"، التاريخ يتكلم، عدد: 16، أيار 1955، ص 1316- 1320. "قاتل إسماعيل ماهر باشا"، ثروة الفنون، 3 كانون الأول 1908، (التاريخ الاجتماعي، عدد: 180، كانون الأول 2008، ص 4).

[210] إسماعيل نوري سر، "كيف تلقى السلطان عبد الحميد خبر عزم

الاتحاد والترقي على التحرك؟". Dünyası Tarih Yeni ، عدد: 13، 18 آذار 1954، ص 549-550.

[211] للمزيد من التفاصيل، انظر: علي حمدي، "الفدائي عاطف بك وقاتل شمسي باشا"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 65، أيار 1995، ص 3828-3831.

[212] مفيد شمسي، شمسي باشا، "بلاد الأرناؤوط والاتحاد والترقي: الحق يعلو ولا يعلى عليه". إعداد: أحمد نزيه غالي تكين، إسطانبول 1995، منشورات نهر، ص 85.

[213] مذكرات أنور باشا (1881-1908)، إعداد: خليل أردوغان جنكيز، إسطنبول 2008، المنشورات الثقافية لبنك العمال التركي، ص 39 وما بعدها.

[214] Dumont Paul ، "العثمانية"، في رسالة "التيارات الوطنية والماسونية"، ديفيد ج. كوهين، المؤرخة بتاريخ 12 آب 1908.

[215] أحمد بدوي كوران، الانقلاب في تاريخنا والاتحاد والترقي، إسطنبول 1948، مطبعة طان، ص 243.

[216] Dumont ، المرجع السابق، ص 69.

[217] الناقل: Temps Le ، 20 آب 1908، وأشكر إخوتي سلجوق شاكر من فيينا وأينور Kırıcı لمساعدتي في العثور على الجريدة وترجمة هذا القسم أعلاه.

[218] إحسان وكيل البحرية القديم، "الاتحاد والترقي والفرماسونية"، مجموعة التاريخ المصور، عدد: 18 حزيران 1951، ص 782. من أجل الاطلاع على نص نصيحة ميرألاي صادق بك للاتحاديين في مؤتمرهم الثاني المتعلقة بترك الماسونية، ضارباً لهم مثلاً من عبد الحميد وصراعه مع الصهيونية والماسونية؛ فاروق Ilıkan ، "الائحة [معروضة] ميرألاي صادق بك"، التاريخ والمجتمع، عدد: 225، أيلول 2002، ص 188-194، ص 193.

[219] عندما سئل سزائي قرة قوج عن سبب عدم أدائه فريضة الحج؛ قال: "أنا لا أذهب إلى بلدي بجواز سفر". قول يستحق التفكير أليس كذلك؟؟؟

[220] حسام الدين أرتورك، "ما وراء ستارة عصرين"، Devrin İki Arkası Perde ، ص 61.

[221] نديم Ulusalkul ، "الحركة التركية الوطنية الأولى ضد الاستبداد: تمرد أرضروم"، أنقرة 1937.

[222] أيقوت قانصو، "ثورة 1908"، المترجم: أيدا أربال، إسطنبول

2001، منشورات الاتصالات، ص 78 وما بعدها.

[223] تعرفت إلى الحفيد الذي ترونه في الصورة في الصفحة التالية في معرض كتاب (İzmir Tüyap) ، وذكر لي بأنه لا يعرف عن جده الكثير، لكنه يعرف عنه الاستقامة والنية الحسنة.

[224] على الرغم من أن إحسان إلغار Ilgar يكتفي بقوله "لماذا؟"، فإن زوجته فريدة حسب ما لدي تقول: لماذا يا هذا؟. إحسان إلغر، "موت بطل الحرية نيازي رسنلي"، مجموعة الحياة التاريخية، عدد 7، آب 1973، ص 60-61.

[225] "السياحة الأولى والأخيرة لبطل الحرية نيازي بك إلى الأناضول"، التاريخ يتكلم، عدد: 2، آذار 1964، ص 101-104. (مذكرات إسماعيل ضبا بؤسيس).

[226] حقي سهى [Gezgin]، "صور (البورتريه) الأدبية: توفيق فكرت"، المجموعة الجديدة (يني)، عدد: 9، 30 حزيران 1939، ص 33.

[227] جلال الدين فارولا Varola باشا، خلفية الميدالية " Tersi Madalyonun " إعداد: سميح نافذ قانصو، إسطنبول 1970، مطبعة Gür ، ص 18-19. شاهد آخر يربط سبب هذا اللقاء المنقذ بالثريا التي أمر عبد الحميد بإرسالها لشيخ الإسلام، فهو يرى بأن الانفجار حصل في الوقت الذي استغرقه سؤاله: "كيف رأيت الثريا؟". انظر: م. شاكر Ülkütaşır ، "حادثة الانفجار"، مجموعة التاريخ والآداب، عدد: 2 شباط 1979، ص 65-68. من أجل الشهود الآخرين انظر: كتابي عبد الحميد والرقص مع الذئاب، الجزء الأول، إسطنبول 2009، منشورات تيماش، ص 129-134.

[228] د. عاطف حسين بك، السلطان عبد الحميد الثاني في المنفى، إعداد: متين هولاكو Hülagü ، إسطنبول 2003، بان للنشر، ص 114.

[229] هذه العبارة مفيدة في هذا الموقف كونها من شخص لا يحبه: "إلا أنه كان أمام هذا الخطر المفاجئ صلباً رابط الجأش كما حدث عند الزلزلة الناجمة من إلقاء قنبلة على يلدز في خلال المعايدة...". انظر: سنيحة سامي مورعلي، "ذكريات عهد عبد الحميد"، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 2، شباط 1978، ص 65-66.

[230] تم نشر التقرير الصادر في التحقيقات في نفس العام لبيان النتيجة للرأي العام، للاطلاع على التقرير بالحروف اللاتينية انظر: "تقرير محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني"، إسطنبول 2007، جامليجة للطباعة والنشر.

[231] إعداد: فخري أظن، Şikeste Rübab-ı وجميع الأعمال الأدبية لتوفيق فكرت، إسطنبول 1973، مكتبات إنقلاب وأقا، ص 34.

[232] ولتوفيق فكرت شعر انتقادي آخر بعنوان "نحو 95" يهجو فيه حل مجلس المبعوثان من قبل الاتحاديين عام 1911. ففي ذلك التاريخ أغلق الصدر الأعظم مجلس المبعوثان بإذن من السلطان رشاد. فهذه الحادثة ذكرت توفيق فكرت بتعطيل مجلس المبعوثان عام 1878 ويقابله بالتاريخ الرومي 1295، فسأل "هل نعود إلى ذلك العام؟". فقد عطل السلطان عبد الحميد في ذلك التاريخ مجلس المبعوثان كما مر معنا ولم يجمعه مرة أخرى حتى عام 1908، وحاول توفيق فكرت أن يذكر قراءه بهذه الحادثة، ولفت أنظارهم إلى مرحلة طويلة من الصراع. فهذه المنظومة التي نجد فيها هذين البيتين:

باسم القانون مرغت الجباه بالأرض   باسم القانون ديست القوانين

وقعت في يد نزهة ثابت ونشرها لأهميتها في طبعة ثانية [ربما يريد أن يقول ملحقاً] لجريدة وظيفة. تقول الرواية أنه لما بلغ عبد الحميد خبر إغلاق المجلس وهو في إقامته الجبرية في المنفى في سلانيك؛ علق بسخرية واستهزاء: "وأنا أيضاً كنت قد أغلقته بنفس الموجب"، ولما بلغت سخرية عبد الحميد هذه مسامع توفيق فكرت اضطرب وقال: "أيواه! هل سيظهر عبد الحميد محقاً مرة أخرى؟". للوقوف على هذا التفصيل المثير انظر: ملاحظات فخري أظن في المرجع السابق، ص 452، حاشية سفلية 22، وص 447، حاشية سفلية 5).

[233] [233] الناقل: إسماعيل حامي دانشماند، الحقائق التاريخية، المجلد الأول، إسطنبول 1979، ترجمه إلى التركية منشورات التاريخ والثقافة، ص 205.

[234] بديع الزمان سعيد نورسي، "ديوان الحربية العرفي" (المحكمة العسكرية العرفية)، في "كليات رسائل النور" المفهرسة ذات المصادر، المجلد 2، إسطنبول 1996، منشورات نسل، ص 1927.

[235] مصطفى طوران، "31 مارت في طاش قيشلة"، إسطنبول 1964، منشورات أيقوت، ص 55.

[236] في الأصل شهر مارت هو شهر آذار، لكنه هنا شهر نيسان، ربما كان هذا الاختلاف يعود إلى اختلاف التقويم المستعمل (التقويم الرومي) عن الميلادي، ولذلك حافظت على اسم الشهر "مارت". م.

[237] انظر عبد الرحمن شرف لاج، "وصمة العار التي تدعى 31 مارت"، سبيل، عدد: 15، 9 نيسان 1976، ص 2. وفي بعض المصادر: لبس الضباط لباس الجنود، ولعله أقرب إلى الصواب.

[238] المعاهدة التي تذكر في كتبنا بعنوان "معاهدة السلام في لوزان"؛ لأمر ما تذكر في المصادر الإنجليزية تحت عنوان " Near on Conferance Affairs Eastern " أي "مؤتمر قضية الشرق الأدنى"، وهو الحق.

[239] "تسلل بعض الشيوخ المنتسبين إلى الجمعية المحمدية إلى القشلة، وحرضوا خفية طابور العساكر الصيادين، وقاموا بالدعاية الواسعة لدعوى زوال الدين والشريعة، ووفقوا في ذلك". انظر: خلوق ي. شَخْصُور أوغلو، "حادثة 31 مارت وإسقاط عبد الحميد الثاني عن العرش"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 29 أيار 1952، ص 1457.

[240] تم إصلاح التقويم وإزالة فرق 13 يوماً بين التقويم الرومي والميلادي؛ بأمر من أنور باشا عام 1917، حيث تم تحويل 16 شباط إلى 1 مارت (آذار) في ذلك العام، (بهدف ترتيب المراسلات مع الألمان)، ولذلك ظهر هذا الفرق في مراسلات عام 1909. لمزيد من الاطلاع، انظر: مصطفى أرمغان، الأقنعة في التاريخ العثماني ومئة عام. إسطنبول 2005، منشورات تيماش، ص 183 وما بعدها.

[241] فريدوم فاضل Tülbeniçi ، "حادثة 31 مارت وجيش الحركة"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 20 آب 1951، ص 899 (898-901).

[242] مصطفى طوران، المرجع السابق.

[243] تمت إزالة هذه المقبرة التي كانت تتكامل مع مشفى Surp Agop ، وقام في مكانها بعد سنوات فتدق الديوان. وقد تهدم هذا الفندق أيضا ليقوم مكانه اليوم فندق ضخم.

[244] معبد الآلهة عند اليونان، أو مجمع الآلهة عند أي شعب من الشعوب. م.

[245] للاطلاع على "آبدة الحرية"، نصب الحرية التذكاري، ولو بشكل سطحي؛ انظر: رشاد أكرم koçu ، "أبدة الحرية"، دنيا التاريخ، عدد: 8، 1 آب 1950، ص 323.

[246] انظر: ظفر طوبراك، "الذكرى السبعين لمؤتمر الاتحاد والترقي عام 1916"، التاريخ والمجتمع، عدد: 33، أيلول 1986، ص 5.

[247] استضاف الهيئة التي بلغت قرار العزل للسلطان عبد الحميد باسم الجيشن واحتل بذلك مكانه في مشهد "حل" السلطان عبد الحميد

المشهور، وذكرياته عن هذه الحادثة نقلها ابن أخيه (أو أخته) رسام صالح أريمز إلى أجود غوراسين. (انظر: عصيان 31 مارت، ص 87-93). إلا أن الحادثة المذكورة غير موجودة في الموجز الذي نشرته إحدى المجلات في ذلك الوقت. انظر: "مذكرات غالب باشا"، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 6، تموز 1966، عدد: 9 تشرين الثاني 1966.

[248] علي كمال أق سوت، "حادثة 31 - مارت - الرجعية"، دنيا التاريخ الحديث، عدد: 19-20، 15 حزيران - 1 تموز، 1954، ص 752.

[249] أحمد بدوي كوران، "كيف وقعت حادثة 31 مارت؟"، دنيا التاريخ، عدد: 13، 15 تشرين الأول 1950، ص 557-58.

[250] كوران، المصدر السابق، ص 558. [في ذلك الوقت كانت الفتاوى التي تنشر عن الديموقراطية تملك رصيداً عن عامة المسلمين، بسبب جامع شبه "الشورى"، لكنه في عصرنا هذا يعلو الصوت الذي يعتبر الديموقراطية نظام كفر، ويعتبر من يدعو لها من المسلمين معبرا إلى الإسلام باعتبار أن صناديق الاقتراع ستأتي بالمسلمين إلى الحكم، وباعتبار أن المشكلة في معظم البلدان الإسلامية تكمن في الاستبداد. م].

[251] أصيب قائد مركز سلانيك ناظم بك لكنه لم يمت. هذا العسكري صهر أنور باشا زعم بانهم هم الذين أمروا بإطلاق النار عليه، وأنه كان آنذاك في البيت. وكان ذلك احتياطا وتدبيرا لإعاقة التحرك الذي ينتج عن الاغتيال. ومن المثير أن عيادة أنور باشا الذي خطط للاغتيال شخصيا ليقول له: "الحمد لله على السلامة"؛ يبين قدرته على لعب دور البريء هذا. (انظر: ذكريات أنور باشا، 1881-1908، إعداد: خليل أردوغان جنكيز، إسطنبول 2008، منشورات بنك العمال التركي الثقافية، ص 52 وما بعدها).

[252] ناهد منتش، "طلعت باشا يبكي"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد 20، تموز 1952، ص 1550-1551.

[253] هذا النقل إلى هذا الحد نقلته من حديثه لهذه الصحيفة: Yedigün ، عدد 268، 3 أيار 1938، ص 14-16.

[254] خلوق ي. شخصور أوغلو، "السلطان عبد الحميد الثاني - VIII "، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 68، آب 1955، ص 4023-4024.

[255] Tunçay Mete ، "الصحافة في عهد الحزب الواحد"، التاريخ والمجتمع، عدد: 37، كانون الثاني 1987، ص 48.

[256] "منع المطبوعات والتاريخ من نافذة الممنوعات" حديث مع علي

برنجي، Dergah ، عدد: 20 تشرين الثاني 1991، ص 12-13 و20.

[257] انظر: ظفر طوبراك، "أوراق مضرة: صحيفة شهراه" (Bir gazetesi ve Tarih :'muzırra Evrak-ı')، التاريخ والمجتمع، عدد: 37 كانون الثاني 1987، ص 45-47.

[258] الناقل: أورخان قول أوغلو، "رقابة عبد الحميد الثاني"، التاريخ والمجتمع، عدد: 38 شباط 1987، ص 14.

[259] Donald J. Cioeta, Ottoman censorship in Libanon and Sirya, 1876-1908, International of Middle Eastern Studies, 10 (1979), pp. 167-186.

[260] أورخان قول أوغلو، "حول مقولة نظام عبد الحميد نظام نشر ومطبوعات"، الندوة الدورية والسلطان عبد الحميد الثاني، إسطنبول 199، منشورات كلية الآداب جامعة إسطنبول، ص 36.

[261] للاطلاع على أقوال نور الدين Klkandelen بن صبري بك الذي أصبح مديرا للمكتبة بعد أبيه انظر: أورخان يوكسل، "المتحف داخل مكتبة الجامعة"، مجموعة الحياة التاريخية، عدد: 1 شباط 1966، ص 70. وللتوسع في موضوع مكتبة عبد الحميد تجده في كتاب "الفوضى والتصفية في يلدز"، مراد جان دمير. (إسطنبول 2007، منشورات العلم والثقافة والفن، الجزء الرابع).

[262] لطفي طوران بك، "عبد الحميد وحب الوظيفة"، خزانة التاريخ، عدد: 7، 15-28 شباط 1951، ص 332-333.

[263] وقد بين رفيع جواد أولوناي الحادثة بنص مختلف قليلا في صحيفة ترجمان بتاريخ 18 تشرين الثاني 1969. الناقل: قادر مصر أوغلون الخلافة بماضيها ومستقبلها، إسطنبول 1993، منشورات سبيل، ص 209، هامش سفلي: 224.

[264] ربما كان هذا التحليل غير موفق، ولا يقوم على دراسة شرعية تذهب إلى تحريمها، بل يقوم على الأبعاد الرمزية للقضية، علاوة على ما ورد ذكره من أنه تم في بعض المراحل إذابة الأواني الذهبية والفضية لاستعمالها مسكوكات نقدية لتمويل جزئي للحروب. وربما كانت جدولة الديون وسيلة من الوسائل السياسية التي فضلها السلطان عبد الحميد وهو يسير على سياسة الوقت المستقطع، وسياسة "الإصبع على الزناد بدون إطلاق النار". علاوة على ما سيذكره الكاتب من مساهمة إدارة الديون العمومية في تحديث نظام المالية وضبطها. م.

[265] Blaisdell .C Donald، الرقابة المالية الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية، الترجمة إلى التركية: حازم عاطف قويوجاك، إسطنبول 1940، منشورات الاقتصاد العالي والمكتب [المدرسة] التجاري، رقم: 24، ص 18-19.

[266] شوكت باموك، التاريخ الاقتصادي (العثماني - التركي) في مئة سؤال، 1500-1914، إسطنبول 1997، منشورات gerçek ، ص 189-190.

[267] باموك، 100 سؤال، ص 188-189.

[268] عمر فاروق Bölükbaş ، تزييد الواردات وتنقيح المصارفات: الإدارة المالية في عهد عبد الحميد الثاني، إسطنبول 2005، منشورات البنك العثماني، ص 85.

[269] للاطلاع على المزيد من هذه الأخطاء انظر: وتنتهي أسطورة مراد برداقجي، زمان، 5 نيسان 2009.

[270] السلطان عبد الحميد في أيام النفي، ص 319.

[271] شادية عثمان أوغلو، أيام حياتي الحلوة والمرة، إسطنبول 1966، ص 22.

[272] عائشة عثمان أوغلو، والدي عبد الحميد، 1960، ص 11-12.

[273] جلال الدين Velora باشا، وجه الميدالية الآخر، إسطنبول 1970، ص 16.

[274] سميح ممتاز س. "خصوصيات عبد الحميد"، مجموعة التاريخ المصورة، تموز 1950، ص 244-246.

[275] ابن الأمين محمود كمال إنال (عالم)، والصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد يذكر في مواضع كثيرة أن عبد الحميد كان يجتنب الخمر. الجزء VIII ، 1948، ص 1288-1289، و 1301.

[276] حسين ناظم باشا، ذكرياتي، الوجه الداخلي للحوادث الأرمنية، إعداد: تحسين يلدرم، إسطنبول 2003، Kitapları Selis ، ص 318.

[277] علي سعيد بك، الناقل من ذكريات القصر: ضيا نور اقصون، التاريخ العثماني، المجلد الرابع، إسطنبول 1994، منشورات Ötükan ، ص 210.

[278] خلوق ي. شخصور أوغلو، "زوجات عبد الحميد الثاني وأولاده"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد: 17، أيار 1951، ص 720.

[279] أحمد بدوي كوران، الاتحاد والترقي وتاريخ الانقلاب، إسطنبول 1948، مطبعة طان، ص 49.

[280] ضيا شاكر، "كيف يتزوج السلاطين"، مجموعة التاريخ المصورة، عدد 7، تموز 1950، ص 259.

[281] الأرشيف العثماني في رئاسة الوزراء، من متعلقات يلدز، Um .، رقم: 80/74. سليم سوماز، "الزيارة الأولى لبديع الزمان سعيد النورسي إلى إسطنبول"، كوبري، عدد: 88، ربيع 2004، ص 77-79. للاطلاع على النص الأصلي للوثيقة؛ أنظر: ص 329.

[282] ينجم "مرضه هذا" عن نوع من الإرهاق الذهني الناتج عن فرط النشاط الذهني زمنا طويلا. انظر: Weld ، المرجع السابق، ص 59.

[283] وتتحدث بعض الروايات أن سبب إيداعه مشفى الأمراض العقلية هو دخوله إلى حديقة قصر يلدز بدون إذن. انظر: الناقل من مذكرات الدكتور حميد أوراس غازي عنتابي: نجم الدين شاهينار، بديع الزمان سعيد النورسي بجوانبه المجهولة، إسطنبول 1994، منشورات يني آسية، ص 106-107. علاوة على Weld ، المرجع السابق، ص 60-61.

[284] Mary F. Weld (Şükran Vahide)، بديع الزمان سعيد النورسي: Biyografi Entelektüel ، الترجمة من الإنجليزية إلى التركية: جليل طاشكن، إسطنبول 2006، منشورات Etkileşim، ص 60.

[285] الناقل عن جمال قوطاي: نجم الدين شاهينار، المثقفون يتحدثون حول سعيد النورسي والنورية، إسطنبول 1977، منشورات يني آسية، ص 347.

[286] شكران وحيدة في أحد مؤلفاتها ينسج هذه العلاقة على الشكل التالي: "في أواخر عام 1907 جاء النورسي إلى عاصمة الدولة العثمانية للحصول على دعم رسمي من أجل جامعته وتنمية الولايات الشرقية. قدم طلباً للسلطان عبد الحميد يتضمن عروضه، وأصبح هذا سببا في احتجازه وبقائه في السجن لمدة قصيرة. وبعد مدة قصيرة من وصوله إلى اسطنبول، دعا علماء الدين والعلمانيين للمناظرة ودعاه معهم للامتحان، فاكتسب الشهرة في فترة قصيرة".

Şükran Vahide, "Said Nursî'nin hayatının bir kronolojisi", Editör: İbrahim M. Abu-Rabi, Yolların Ayrılış Noktasında İslâm: Bediüzzaman Said Nursi'nin Hayatı ve Görüşleri Işığında, Çevirenler: İbrahim Kapaklıkaya ve diğerleri, İstanbul 2003, Gelenek Yayıncılık, s. 22.

[287] Weld, age, s. 72 .

[288] لمزيد من الاطلاع؛ انظر: وحيد الدين إنكين، العثمانية على مائدة الذئاب، إسطنبول 2007، دار يدي تبة، ص 171-183.

[289] عندما كان نورسي يؤيد جهود عبد الحميد لنشر التربية في الولايات الشرقية، كان يريد إقناعه بضرورة بناء الأساس الديني لهذا التعليم اعتماداً على العلوم "المعاصرة" إلى جانب "العلوم الدينية". انظر: شكران وحيدة، " Said Nursî'nin entelektüel biyografisine doğru "، ص 37، حاشية سفلية: 16.

[290] وهو الاسم المعروف في لباس النساء في تركية، وهو عبارة عن قطعتين على شكل لباس النساء للصلاة المعروف؛ الأولى إزار نصفي يستر من وسط المرأة حتى القدمين، والثانية عبارة عن غطاء علوي ينسدل من رأس المرأة وعلى كتفيها وجزء من إزارها. لونه في الغالب الأسود. م.

[291] النصوص القديمة تحتاج لترجمة إلى اللغة التركية الحديثة، وهو المقصود من التبسيط. م.

[292] لكونها رقيقة غير ساترة، فهو يتحدث عن نساء معينات كأنها كانت تقليعات جديدة في الأزياء. م.

[293] الأرشيف العثماني في رئاسة الوزراء، سراي يلدز، دائرة الباش كاتب، رقم: 5894.

[294] Komatsu Kaori ، "الأجانب وغير المسلمين في البحرية العثمانية عام 1896"، التاريخ والمجتمع، عدد: 139 تموز 1995، ص 20.

[295] تاج الدين Kayaoğlu ، الدبلوماسية البيضاء: العلاقات العثمانية بالفاتيكان في ضوء أرشيف الوثائق، إسطنبول 2007، منشورات Fid ، ص 191-192، و210-213.

[296] Celepçıkay Olcay ، "عزيز نسيني - نسبة إلى عزيز نسين، الكاتب الملحد المعروف"، " Aziz Nesin'lik hikâye!" ، 5 شباط 2006، ص 52.

[297] الترجمة إلى التركية: جمال أيدن، الناقل:

Urbain Gohier, "Preface", Malcolm Mac Coll, Le Sultan et les grandes puissances, Paris 1899, Felix Alcan, p. XI.